اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد السابع | المجلد الأول | مارس ١٩٩٩

اتحاد المؤرخين
العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السابع – المجلد الأول

مارس ١٩٩٩

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة التسلسل الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٩

فى هذا العدد

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

إنسان الماضى هو إنسان الحاضر ، خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته . والحسن هنا لا يقتصر على تناسق الأعضاء وجمال الصورة ... وإنما يمتد إلى الجوهر ليشمل وظائف هذه الأعضاء ، وتكاملها ، وخطورة مهامها ، وقدرتها على تكييف حياة البشر ، وفق طبيعة الزمان والمكان . فالقلب هو القلب على تعاقب الأزمنة والعصور ، يحب ويكره . والعقل يفكر ويتدبر ، ويحذر ويهدى . والحواس تربط الإنسان بالمحيط الخارجى ، ليتفاعل معه ، يتأثر به ويؤثر فيه ... وهكذا تعاقبت العصور ، وظل الإنسان على ما خلق عليه ، فى صورته وبنيته ، وقدراته ، وأسلوبه فى مواجهة حوادث الدهور .ربما تعرض بسبب انتشاره فى بيئات متباينة ، وما صحب ذلك من تعدد السلالات ، لتباين فى الفروع ، هذه سلالة فى إقليم معين غلبت عليها الشقرة ، وهذه أخرى فى إقليم ثان غلبت عليها السمرة . هذه سلالة تتميز بطول القامة ،وهذه أخرى تتصف بالقصر ... ولكن مثل هذه الفوارق تكون فى الظاهر لا فى الباطن ، أو بمعنى آخر فى القشرة الخارجية وليست فى جوهر البناء . وفيما عدا ذلك يبقى الإنسان على نفس الصورة التى اختارها الله - عز وجل - له ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .

ومهما تباينت نظرة الإنسان إلى الحياة على مر العصور ، وذلك تبعا لاختلاف الأجواء والظروف التى تحيط به فى كل عصر ، مما يؤثر فى سلوكه ، والأسلوب الذى يمارس به حياته ، ويعالج به أوضاعه ... فإن الإنسان يظل هو الإنسان - بفكره ، وطاقاته وإمكاناته ، وقدراته على مواجهة ما يصادفه من

صعاب . ومن هنا تنبع أهمية تجارب الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر . وبعبارة أخرى تنبع أهمية التاريخ كمدرسة عُليا يستمد الإنسان من تجاربها الكثير مما يعينه على تخطى ما يواجهه من أزمات . وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتطابق ، لأن لكل عصر أجواءه ومستوياته الحضارية ؛ فإنها لابد وأن تتشابه ، لأن الإنسان الذى صنع الماضى هو نفس الإنسان الذى يصنع الحاضر . هناك تباين فى المظهر ولكن لا خلاف فى الجوهر .

وهكذا يبدو التاريخ فى صورة مدرسة كبرى ، مليئة بالتجارب التى تصقل فكر الإنسان ، وتأخذ بيده ، وترشده فى مسيرته الكبرى لبناء حاضر أفضل والتخطيط لمستقبل أقوم .

لقد صدق السلطان الظاهر بيبرس عندما قال : « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وصدق معاصره ابن خلدون الملقب « علامة الأمة وإمام الأئمة » عندما سجل فى مقدمته الخالدة إن التاريخ « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم : حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاوور(*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – الجامعة الإسلامية – غزة .

وتاريخ العصر : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصيًا أو كانوا شهود عيان لها(١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقًا أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع «الشفاهية المتطورة» التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر، حيث تُحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيرًا من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية(٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتمامًا ثابتًا ودائمًا بالموضوع(٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادرشفهية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحًا للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءًا على السِّمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهى افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحًا - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضى - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلاً بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهى يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانيًا : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهى كخيار ديموقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضًا دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة(٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدركه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لُبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جدًا من الوعى، قبل أن تظهر الكتابة بزمن طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غني بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، فى صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهى دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسى على الروايات الشفوية التى تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أى نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش.

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوى للإغريق ونظّمه فى ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليونانى هيرودوتس « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخًا عالميًا .

كذلك نحا المؤرخ اليونانى توسيديدس فى كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيرودوتس فكتب تاريخًا للحرب البلبونيزية التى عاصرها معتمدًا على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيرودوتس وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوى .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسى « الفارسى » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائى باللغة الفارسية ، وذلك فى القرن الحادى عشر ، وهى التى عُرفت بالشاهنامة « بطولة الملوك » معتمدًا فى ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوى .

وهكذا كان للتاريخ الشفوى مصداقية واعتبار كمصدر للتأريخ ، وكان دائمًا يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السادس عشر فصاعدًا أن أخذ الإحساس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سيطرة النصيّة على عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً فى حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولما كانت النقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب فى جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئى . فإن تأثيرات الطباعة هنا على استخدام الفراغ المرئى يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تُبرز هذه البؤرة العلاقة بين الطباعة والكتابة فحسب بل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التى لا تزال باقية فى الكتابة ، وفى ثقافة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شفاهية الأصل فوضعتها فى الفراغ المرئى . أما الطباعة فقد رسخت الكلمة فى هذا الفراغ على نحو أكثر حسمًا .

فالطباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم فى نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمال ، وهذا الإحساس يؤثر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلى التاريخى .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية فى التاريخ العربى والإسلامى دورًا مميزًا ، حيث نشأ علم التاريخ على هامش العلوم الشرعية وفى مقدمتها علم الحديث ، واعتمد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهى الإسناد والجرح والتعديل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقول أن منهج التاريخ الشفوى هو منهج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ مشافهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بين القبائل المختلفة التى سُميت بأيام العرب ، والأنساب ، والتفاخر بها ، وقصص الكرم وسيرة الملوك ، وغير ذلك من الأمور ، والتى كانت تتسم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علم التاريخ ، حيث أن كثيرًا من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير فى العصر الأموى (٥) إذ كان معاوية بن أبى سفيان يستمع كل ليلة إلى شئ من أخبار العرب وأيامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبار والسيّر(٦) .

وكان للدين الإسلامى أثر كبير فى الاهتمام بعلم التاريخ عند العرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئًا من أخبار العرب قبل الإسلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتّاب يكتبون ما ينزل به الوحى عليه من القرآن على جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذى خشى أن يضيع شئ من القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة ، فقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقدمه لأبى بكر الذى خلفه لعمر ثم ظل عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائى للقرآن فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقًا بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسول ﷺ وتناقلوه مشافهة ، وأخذه بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب »(٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهًا ، فالتدورين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدوينًا بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء(٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسو الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا ...(٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيدًا لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) ، وسنن أبى داود (ت ٢٥٧هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، والنسائى (ت ٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضًا على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ) بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضًا . والعلمان اشتركا فى المصادر والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، وطبقات الذهبى (٨٤٨هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ) ، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠هـ) . أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤هـ) الذى كان رائدًا لعلم التاريخ الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معارفة وقوة ذاكرته . وكان محبًا لهذا العلم شغوفًا به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شابًا ولا كهلاً ولا عجوزًا ولا كهلة إلاّ سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ، دوّن الحديث والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وكان يقول : (ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى)(١٠) .

كتب الزهرى - معتمدًا على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة . وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشتركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه(١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساسًا اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر ابن راشد اليمانى البصرى (ت ١٥٠هـ) الذى ألف كتابًا فى الحديث والمغازى ناقلاً أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) الذى ألف كتابًا فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى) تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلىما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ فى مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ فى المدينة ومغازيه .

ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام فى سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائى - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف(١٢) .

ومن أعظم الذين خلفوا ابن إسحاق فى الكتابة عن المغازى محمد بن الواقدى (ت ٢٠٧هـ) . ومن تلاميذ الواقدى محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخى فى تراجم النبى ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة فى الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخى السيرة والمغازى والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم فى التاريخ ، ورسموا لهم منهجًا يسيرون عليه فى التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون فى العصر العباسى فى المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفوية . ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) الذى لم يكن مؤرخًا فحسب بل كان عالماً فى النحو واللغة والنقد الأدبى والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) الذى كان مؤرخًا وجغرافيًا صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبى) .

وأبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخًا فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسى المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠هـ) الذى كان محدثًا وفقهيًا ومفسرًا صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبى .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبه على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد علىالكتب التى كانت موجوده فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦هـ) فقد ساح فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألّف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجوهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التنبيه والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أمينًا لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخًا فحسب بل كان فيلسوفًا وطبيبًا وسياسيًا محنكًا . فكان قادرًا على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعيًا لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحيانًا أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه إلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخًا حاذقًا لا يبغى إلاّ الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقته بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصبًا هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيمًا على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوى :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفـاق الرائعـة التـى تتيحهـا الكتابـة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لابد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعى للغـة ، كى تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جهوريًا كان أو فى الخـاطر ، مقطعـا فى القراءة البطيئة ، أو اختزالاً فى القـرآءة السـريعة الشـائعة فـى الثقافـات ، ذات التكنولوجيا العالية(١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشـفوية، وتوثيقها عمل هام جدًا فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسـى أو تتحـول فى أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخـر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصليـة أو الأوليـة يمكننـا مـن فهـم عـالم الكتابـة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواى مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحيوية ، فإنهـا تمـر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بمـا تم استيعابه مـن المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضى . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الـرواى بشـعور الأسـى ، بخصـوص الحرمـان فـى مرحلة الطفولة(١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامـح معينـة للمشـهد أو الحـدث ، وتفسـره فـى ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلـة يميـل الـراوى إلى الـتركيز علـى

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، ويحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبررًا كافيًا لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر فى التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها فى الرواية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائمًا موقفًا نقديًا ومتشككًا سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث(١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشترك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطًا إيجابيًا ومهما بشأن الإندماج فى أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك(١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوى أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية فى النشاط الإنسانى والبناء المجتمعى ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة فى معظم مدن القطاع ، خاصة فى مدينة رفح حيث

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ،وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحًا ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقى فى بيته قتلوه أيضًا على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح.

هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علمًا أنه لم يورد حتى الآن- ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن فقد بعدها بصره ، وأصبح ضريرًا إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حيا يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدرًا لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغانى الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريبًا ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جدًا .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحى النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشارًا فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية[١٧] .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانيًا : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلا عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثًا : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعًا : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامسًا : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفهية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحيانًا مادة وثائقية جديدة فى حيازة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هامًا وملفتًا للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعًا جديدًا من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنبًا إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتمامًا أكثر مما تحصل عليه حاليًا من قبل المؤرخين عمومًا . فهى فوق كل شئ مادة شفهية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهى تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعى التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين(١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه(١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعدد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتمل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ - إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمناهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(جـ) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث - وأن كان هذا مهمًا ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه لملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو على الأقل التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهذه المعرفة تيسر للباحث إمكانية التعامل مع الراوى على الصعيدين الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على الباحث أن يطلع على المصادر المختلفة - خاصة المكتوبة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه من طرح أسئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعًا معينًا ، أو أحد جوانب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التى تستهدف إلى صناعة المصادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنية محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضع إطار عام للبحث ، وصياغة استبيان أو تحديد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتها . وليس من الضرورى أن تصاغ أسئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الراوى ، فمن الأفضل ترك تحديد شكل ومحتوى المقابلة للباحث والراوى ، هذا لا يتعارض مع توفر مجموعة أسئلة أو قائمة موضوعات بأيدى الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتاعب . ولكن المهم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقًا فيكون هدفه المرور عليها واحدًا بعد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكز التى تعمل على توثيق التاريخ الشفوى وتركز على إجراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جانب الاتساع ، حتى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمة تاريخية . والطريقة لهذا هى وضع الإطار التاريخى للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ - انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جدًا إذ بدونها يسهل التشكيك فى استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

ويمكن هنا مقابلة جميع روايات الأحياء المعاصرين لحدث ما ، واعتبارهم عينة تمثيلية - هذا فى الأحداث التى مات معظم معاصريها ، ولكن هذا صعب فى معظم الأحيان .

ويمكن اختيار عينة من الراوة مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشيفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه فى اختيار عينة تمثيلية ، وأيضًا من المختصين ، والباحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلى الباحث ألا يقصر جهده واهتمامه على الأشخاص المتحمسين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التى تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(جـ) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهه المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ - أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ - المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادرًا على إفادة الباحث ، ولذلك ينصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لإختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هى المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعًا من التألف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضًا بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تحرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائمًا أن هدفه يختلف عن هدف الراوى، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الرواى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعدًا لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلاً باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

(أ) حقائق أصلية .

(ب) معلومات مساعدة .

(جـ) أحاسيس ومشاعر .

- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هى أساس التاريخ الشفوى .

٦ - مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتها تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوى فى مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوى .

ثانيًا : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هى أساس التاريخ الشفوى ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون منتبهًا متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل فى حديثه فى نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الـراوى ، ويفضـل أن يكـون مستعدا لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءًا مـن ملحقـات *المقابلة ، وعليـه ، أن يسـأل عـن صور أو وثـائق تخـص موضـوع البحـث* فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركـز اهتمامـه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الـراوى أو التأثـير عليـه ، بمـا فـى ذلـك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحـاء . ويجـب أن يبـذل البـاحث جهـده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعًا لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعيًا فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلـى بالصبر ، ولا يقـاطع الـراوى بأسئلة جديـدة فيقطع أفكاره .

ويجـب عليـه أن يـترك لـلراوى الحريـة فـى ترتيـب ، وعـرض التفـاصيل ، والقضايا، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحـو المواضيع التى يعرفهـا ، ويبتعـد عـن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر علـى أى شئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحـدث فـى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفـردة واضحـة ، وقصيرة ، ولا يقـرأ الأسئلة مـن قائمة أسئلة معدة سلفًا حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلـة ولا أسئلة تحتمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركـز روايتـه علـى مـا رآه فعـلاً ، كمـا أن بإمكانه أن يختبر صـدق الروايـات ودقتهـا بتكـرار الأسئلة بطـرق مختلفـة ومقابلـة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الرواى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وتترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثًا : نسخ المقابلة كتابيًا :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجلة ، والتى تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضًا .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اسـم الـراوى :

عمـر الـراوى :

رقـم الشـريط :

مـدة الشـريط :

مـكان التسـجيل :

تاريـخ التسـجيل :

اسـم البـاحث :

الجهة المشرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الراوى وتعبيراته الحركية مستعيناً بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقول ضاحكًا متهكمًا ، لوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسمعه بالضبط ، وعندما ينتهى من الوجه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى» ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضًا أن الناسخ يجب أن يقوم بترقيم الصفحات وترك حواشى كافية على الجانبين ، واستخدام أوراق وأقلام من نوعية جيدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعًا : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءًا ومفهومًا .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ - البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ - التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ - مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ - الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضًا توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [ ] تمييزًا لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قلتلك » قاصدًا « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامسًا : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايتــه ، إلا أن هـذا الأمر له فوائده والتى منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانيًا : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصـد إليـه الـراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثًا : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هـذه الأهـداف يطلـب مـن الـراوى قـراءة النـص بتمعـن ، والقيام بما يلى :

١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .

٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .

٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسـه قد وقع فيها مثـل تـاريخ أو مكان حدث معين .

٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غـير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .

٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .

وإذا أراد الرواى أن يدخل بعض التعديـلات علـى النـص فهـذا مـن حقـه ، ولايجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضـل إرسـال صورة عن المقابلة .

وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتهاللتأكد من وضوحها وصلاحيتها للنشر .

سادسًا : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوى طرقًا مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ، وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها رقمًا متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدى ، ويحتوى كلاً الكرتين على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما بين ٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل.

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مـؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهـج دقيـق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سـنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سـنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن نفقدهم فتضيع أجـزاء مـن الحقـائق التـى تعـبر عـن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا العربى .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية فى التأريخ الشفوى ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م، ص٥٩ .

(٣) يحيى : ص١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج فى دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحى ، جامعة قار يونس ، بنغازى ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط٢ ، مكتبة الخانكى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص١٣ .

(٦) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ٩ج ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الواحد السيبانى ت - ٦٣٠هـ : أُسد الغابة فى معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج٣ ، ص٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص٢٤ .

(٩) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(١٠) الدورى ، د. عبد العزيز ، وناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تاريخ العرب ، ط٢ ، مطبعة المعارف بغداد ، سنة ١٩٥٩م ، ج١ ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث « فى التاريخ الإسلامى العام، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠م ، ص١٠ .

(١٣) أونج : ص٥٥ .

(١٤) توش : ص٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص٣٩ .

(١٦) توش : ص٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص٢٣ .

(١٨) توش : ص٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص٤٥ وما بعدها .

النقوش والرسوم الصخرية
كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف(*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هى عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كى يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حينا آخر .

وأساس البحث فى العصور التاريخية ، هى الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلفات التى خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث فى عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التى قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بأفرع بعض العلوم الأخرى كالإنتروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التى تنعتها بعض الدراسات بالفن الجدارى . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*)كلية الآداب – جامعة الإسكندرية – فرع دمنهور .

وبادئ ذى بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقوش أو الرسوم الصخرية ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التى قطعها الإنسان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثت قبل وقبيل بداية العصور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعت بها الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سوى أن فهم النقوش أو الرسوم الصخرية تعترضه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثل فى محاولة إيجاد تقويم زمنى لهذه المخلفات وطبقاتها . فهى من جانب الزمان تمتد قرابة العشرة آلاف عام ، ومن جانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتها التى لم يمكن فهم إلا النذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينه التى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمل جداول زمنية لبعض مواضع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منذ عدة سنوات ف . مورى فى مواقع تلك النقوش فى منطقة جبال الأكاكوس من نواحي غات فى جنوب غرب ليبيا . وقد حالف مورى الحظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثرية تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبل التأويل لتاريخ إحدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصية جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار – حسب ترجمة المعاجم العربية – والزنجار طبقة رقيقة تتكون حين يتم خدش أ ونحت الصخر بأداة حادة – أى بفعل فاعل – وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطار . وبتحديد سمك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمر النقش الزمنى تحديداً نسبياً . كذلك حاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيف نوعى للحيوان السائد فى الرسم . ويكاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بين أغلبية الباحثين . واحتسبوا أقدم مراحل النقوش - المرحلة التى تضم المجموعة الأثيوبية وحيواناتها العشبية الضخمة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلة البقريات أو الثور وهى أيضاً مرحلة الرعى ؛ وهى أطول مراحل النقوش ، إذ سادت ما بين الألف السادس ق. م. ونهاية الألف الثانى ق. م. حيث تبدأ مرحلة الحصان . وتأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن(١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عند حد الوسائل السابقة ، وإنما تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجدر الإشارة إلى أشهرها ، وهى طريقة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليها غالباً . ولنا أن نعلم أن عدد الأختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فى عام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبة الثانية ، وتكاد تكون العقبة الكأداء ، ربما نلحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصدد حثيثة ، فالعمل مضنى وشاق ، ويحتاج إلى استعدادات خاصة وشروط عالية المستوى من الثقافة والمعرفة بمعانيها الواسعة .

والباحث لا يدعى لنفسه أنه يمتلك هذه الامكانات ولكن إدراكاً منه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هذه الظاهرة الأثرية العظيمة . ذلك أنه فى تفسير مضامين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخى للأحداث ، وفى حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهمية بالغة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان فى الصحراء ، وهو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض فى إنتاج الطعام ، ولم يتحقق له ذلك إلا عندما بدأ فى الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضارات القديمة قامت فى أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهار ، كالحضارة العراقية القديمة والحضارة المصرية . فالبحث فى نشأة الزراعة ، هو بحث فى أصول الحضارات القديمة . لذا اتجهت مجهودات العلماء حول تحديد الموطن الأصلى لاكتشاف الزراعة ، وتركزت آراؤهم حول موضوعين : إما غرب آسيا ، وإما شمال أفريقية(٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا فى اكتشاف الزراعة، اعتماداً على قراءات ك ١٤ على عينات أخذت من مواقع عراقية ومصرية ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبير(٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنه لم يكن قد توفرت معلومات كافية عن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمال أفريقية . وعلى ذلك قام اعتقاد بأن الزراعة اكتشفت فى مواقع بغربى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقى . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تأثر البعض من العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هم أصحاب مرحلة نقوش البقريات(٤) ، فى زعمهم . وقد حدا الأمر بلفيف من العلماء إل دراسة المشاهد التى صورتها النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن استئناس البقر مارسه أصحابه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعاة أو مرحلة البقريات ، حيث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثيرين . ورأى

الرأى نفسه شتريتز (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بأن البقر المستأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلة المقنعة . وهو يعتقد عكس ذلك ، فالنقوش الصخرية فى الصحراء تقدم كثيراً من المؤشرات التى توضح أن فكرة ترويض الحيوانات البرية ، لم تكن غريبة عن الحضارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيد ، وعليه - حسب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويض البقر فى الصحرا ء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، تبدو أكثر احتمالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الرأيين ، هو أننا فى الصحراء الكبرى نملك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير من الجدل ، هى ظاهرة حمل بعض حيوانات النقوش - المجترات على وجه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هذه الظاهرة ، من جنوب مقاطعة وهران بالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهة المصريين القدماء صورت وهى تحمل فوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبادة الشمس ، كحتحور وإيزيس من الربات ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هذه الفكرة ، وعما إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائدية بين أقطار الشمال الأفريقى والحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلوم لزمن النقوش ، ما أغرى بعض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمة .

ورأوا فى وجود معبد للإله آمون فى واحة (سيوة) ركـيزة لزعمهـم ، حتـى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) فـى جنـوب وهـران بكبـش آمـون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصـاً مسـتديراً ، تم صقلـه بعنايـة فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كـاهن ، يرتـدى القـراب القضيبـى ، وهـو بهيئـة الليبيين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثـرى يتعارض معها لأن المحترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عـن عصـر انتشـار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأوانى الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصـر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حـوالى الألـف الرابـع ق. م. أمـا عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التـى صـورت بـرؤوس حيوانيـة ، فقد وجدت فى تاسيلى وفزان ، وسـط الصحـراء الكـبرى ، وترتبـط فـى الغـالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبـل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلى وفزان ، ومـا تتميـز بـه مـن جمـال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع الرأى الذى يرى نقوش تلك المنـاطق مركـزاً لإشـعاع هـذا الفـن إلى جميـع الأنحـاء . كذلـك تجـدر الإشـارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبهـا قـد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لمـا عليـه نقـوش تاسـيلى وفـزان ، التـى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهـذا ما يراه شيرقيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخريـة الموجـودة فـى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مـع مـا هـو موجـود بأواسـط الصحـراء الكبرى (تاسيلى وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والنحـت الصخـرى فـى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هى الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخرى . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولبيان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الحربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق. م.) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . ولم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شتريتر ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرميين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادى الآجال (الحياة) فى أوبارى من نواحى فزان . والواقع أن اصول هذه الجماعة يكتنفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقد ظهرت هذه العناصر فى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول(٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقوش تكونت لدينا معلومات مفيدة عن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك على الفور المدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولو أجريت حفائر لذلك(٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعة من النقوش أو الرسوم الصخرية فى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السابق حالة خاصة فريدة . وفى حالات كثيرة تصمت النقوش عن الإفصاح عن مكنوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فلا يتوفر له - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شاع فى رقعة واسعة من النقوش والرسوم الصخرية تصوير لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثال : إثنان من لوحات تاسيلى نشر هنرى لوط(٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبوك(٩) ، شمال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ من لوحات تاسيلى يسميها لوط بـ (السيدة البيضاء) ، وأبعاد الرسم هى ١٥٠ سم × ١٠٠ سم . وقد

لونت بالمغرة الصفراء مع لـون أبيـض والتنـورة ومتعلقـات الرقـص ، مـع حلقـات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنهـا جميعـاً صنعـت مـن أليـاف أو سيـور دقيـق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعـة مـن النباتـات يخـرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقده لـوط ... حبـوب ؟ ويقـول لـوط أننـا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقـة بشعـائر الزراعـة أو هـى ربـة الزراعـة ، قـد تكون تجسيداً للربة (إيزيس) المصرية التى كانت هى الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote علـى هـذا التفسيـر . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك فى أن فى إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخريـن بواسـطة إشـارات خاصـة أو بتضخيـم الأحجـام ، لهـو دليـل علـى تمـايز اجتماعى أو سياسـى أو دينـى . وهـو مـا سـوف نشـير إلى ثبوتـه لـدى المصريـين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلحظ أن ما ذهب إليـه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، فى الربط بين موضوع الرسـم والربـة (إيزيـس) . ففى وجود القرنين على الرأس مـا يذكـر بقرنـى البقـرة لـدى (إيزيـس) ، وهـذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب مـن الثديين ربمـا كـان تجسيداً لمعنـى الأمومـة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل فى بعض مشاهدها ، وهى تعطى ثديهـا لابنهـا (حورس) رمزاً للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجـم السيـدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسـم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعـوا نفـس الأسـلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن - على سبيل المثال - الضخامة التى صـور بهـا الملـك نعرمر فى صلايته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقترب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينمـا كـان

يؤدى طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثينى لتجديد الخصوبة المتمثلة فى قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء(١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصليين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، ربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صور للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو(١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية ، وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لمعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا ربما نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم .

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتى يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاقاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من ايحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتواءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفرى Voufrey عن كائن آخر منقوش على الركائم الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريي بـ (الحيوان الخرافي) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على ما يبدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهي بكلاب ، والرأس مزود بقرني استشعار أو ألسنة للفك ، وفي الجزء القريب من الذيل معلق نوع من كيس مزدوج للخصيتين، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريي طوطماً للملك العقرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهي تبدو ذات علاقة بما للمصريين في فترة ما قبل الأسرات(١٣) .

والواقع أنه في غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذي بذل في تنفيذها ذات علاقة موثوقة بالعالم الروحي لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دوماً - كما يذكر زيربو - هي في النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدارك الكون ، وجعله مفهوماً ؛ إذ أن الخطاب الأسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به ؟ فتمثيل كائن مخيف يعني في الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه(١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحت هذا النوع من التفسيرات الكثير من النقوش التي تنتشر في أنحاء عديدة من مناطق النقوش . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكة المغربية ، فهرساً لمواقع النقوش بالجنوب المغربي حوى الكثير من هذه الأشكال التي يصعب فهمها.

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكن في حالة التعرف عن مكنوناتها أن نزيل الغموض عن كثير من القضايا مثار الجدل بين علماء التاريخ والآثار والأنثرولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكبرى ومسالكها وآثارها ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمي . وترى بعض الآراء أن عظم المساحة التي تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهذا الحجم والتنوع ، قد يكون من الأنسب عند تناول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التى نفذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنة لأنواع الحيوانات التى صورت فى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومناطق مصر العليا وبلاد النوبة ومناطق شمال المملكة العربية السعودية ، يمكن أن تفيد فى معرفة سبب غياب حيوانات المجموعات الأثيوبية بحيواناتها العشبية الضخمة من نقوش المنطقتين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصر العليا والنوبة تميز نتاجها فى مجال الفن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . فيذكر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبلاد النوبة عرفت أسلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجود فى أى بقعة أخرى من العالم ، بما وصل إليه من دقة وإتقان . وهذا يجعلنا نعتقد أن هاتين المنطقتين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكة العربية السعودية ، فربما كان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعة تعرف أصلاً بالمجموعة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربما خضعت شبه الجزيرة العربية لظروف بيئية وجغرافية ، جعلتها بمعزل عن هذه الحيوانات ، وحالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملحوظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربية ، إذ لوحظ أن مرحلة الجمل تعقب مباشرة مرحلة البقريات (الرعى) . وبالتالى نجد أنفسنا أمام فرضية مدهشة، وهى أن شبه الجزيرة العربية لم تستخدم الحصان قبل القرون الميلادية(١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلة الجمل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية فى مصر وادى النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التى صار عليها وادى الشاتى بليبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية فى هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنى لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربى المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق فى خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أى الأيدوجرام Ideogramme(١٦) بمعنى رسم الصورة التى تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

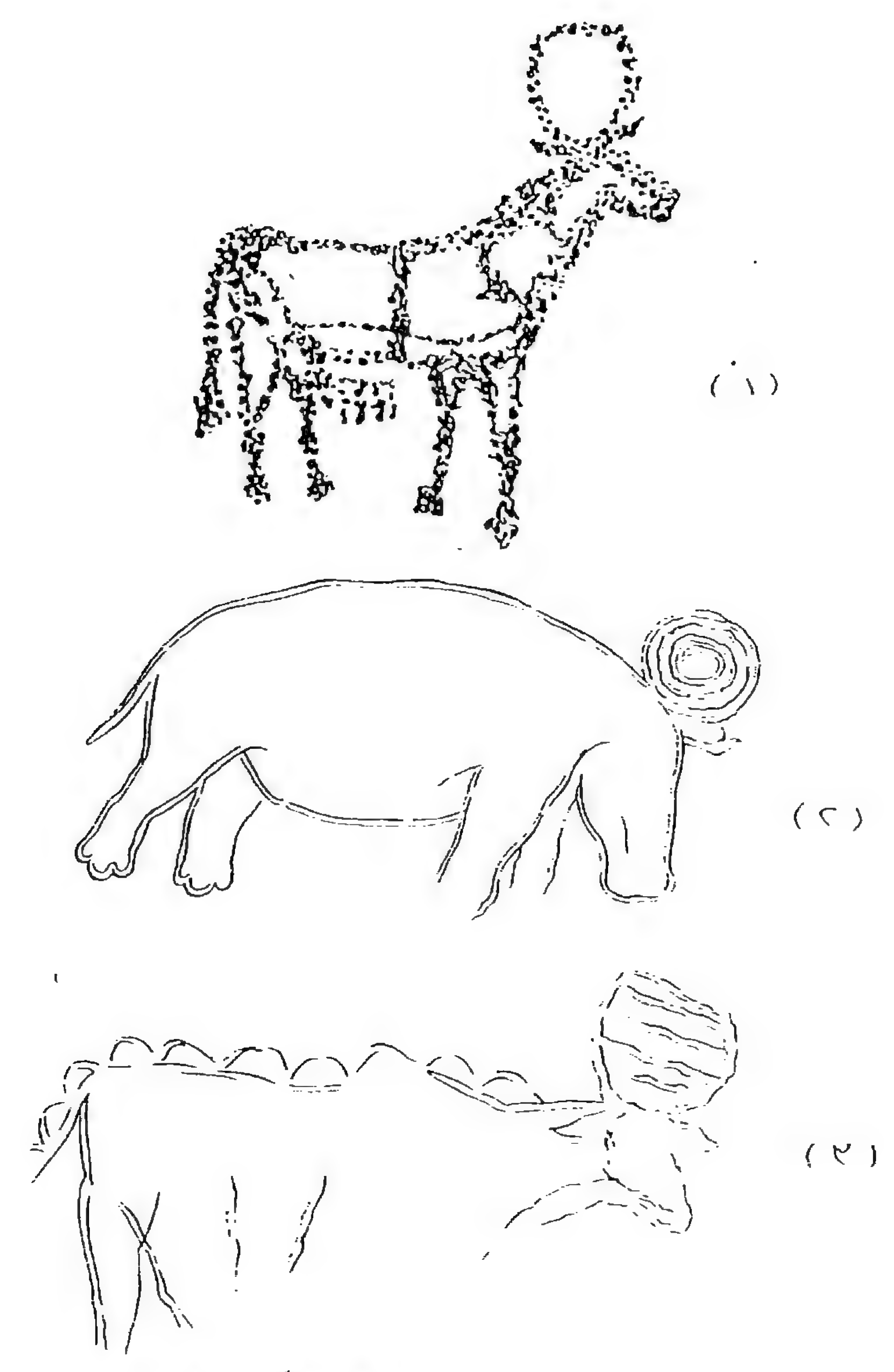
يرى - شتريتز (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات فى هذاالاتجاه . وممن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه في النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالى زيربو(١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم فى سبيل بيان ذلك عدة آراء جديرة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخرى تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التى أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالته إذا أطلقنا على مشاهده عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهى تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة فى محاولته شرح أحد النقوش على جانبى صخرة ، ومحتوى النقش صورتى

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبى للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعضيده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادى .. وكان مثل هذا التركيب الرمزى يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

إننا ندرك تمام الإدارك أن الشوط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيروغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .

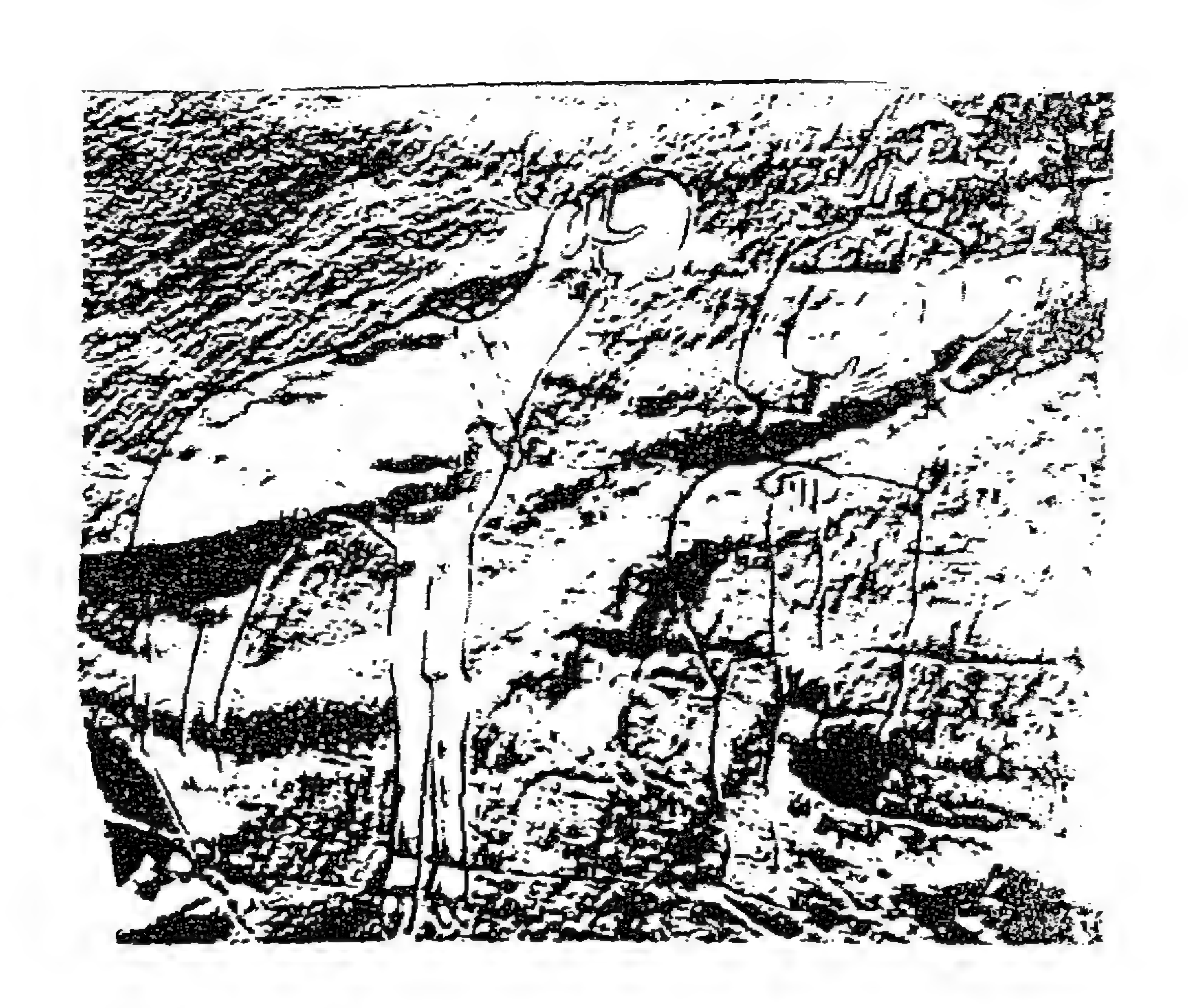


نقوش لحيوانات تحمل أقواصاً بين قرنيها

١ - وادى الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

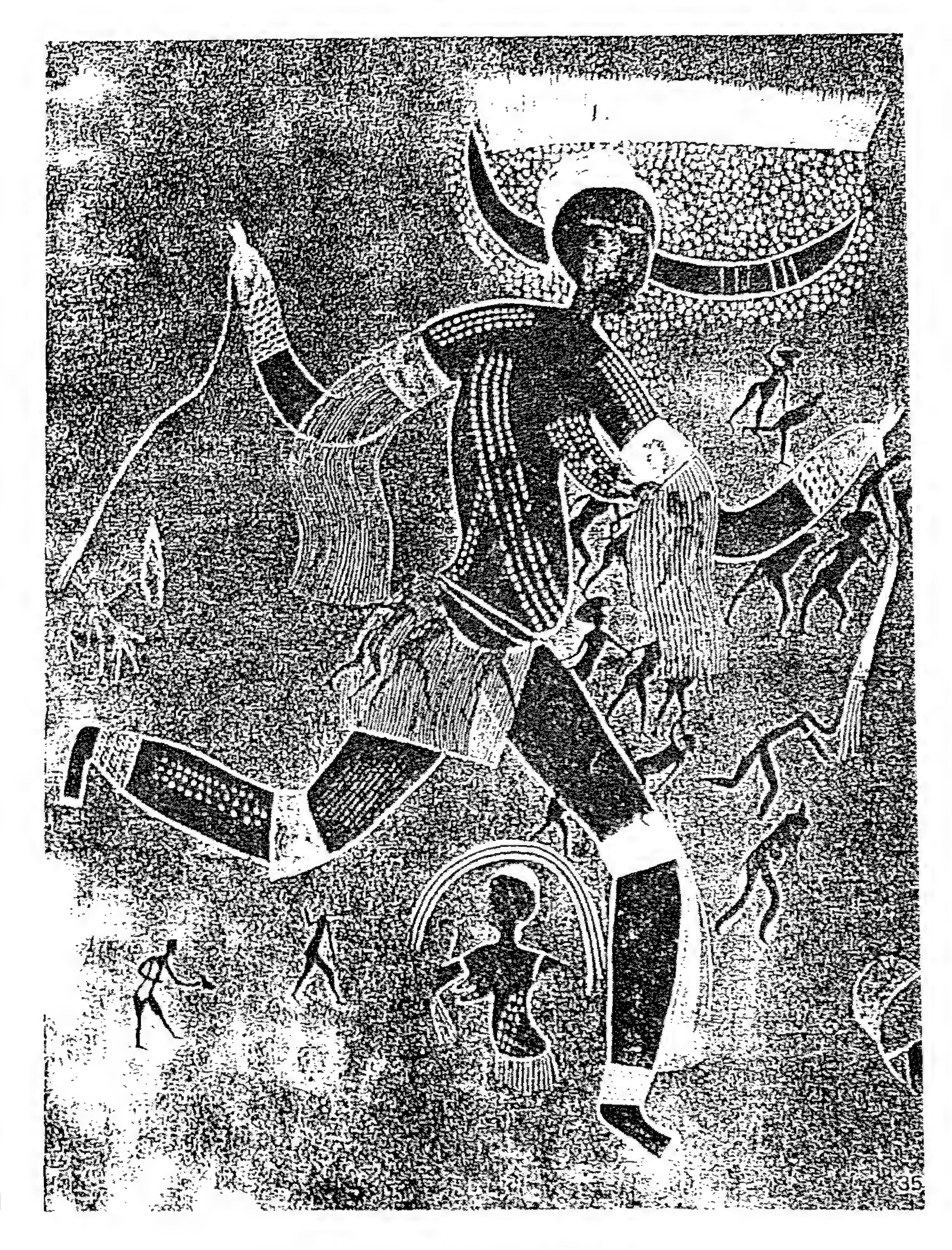
٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I



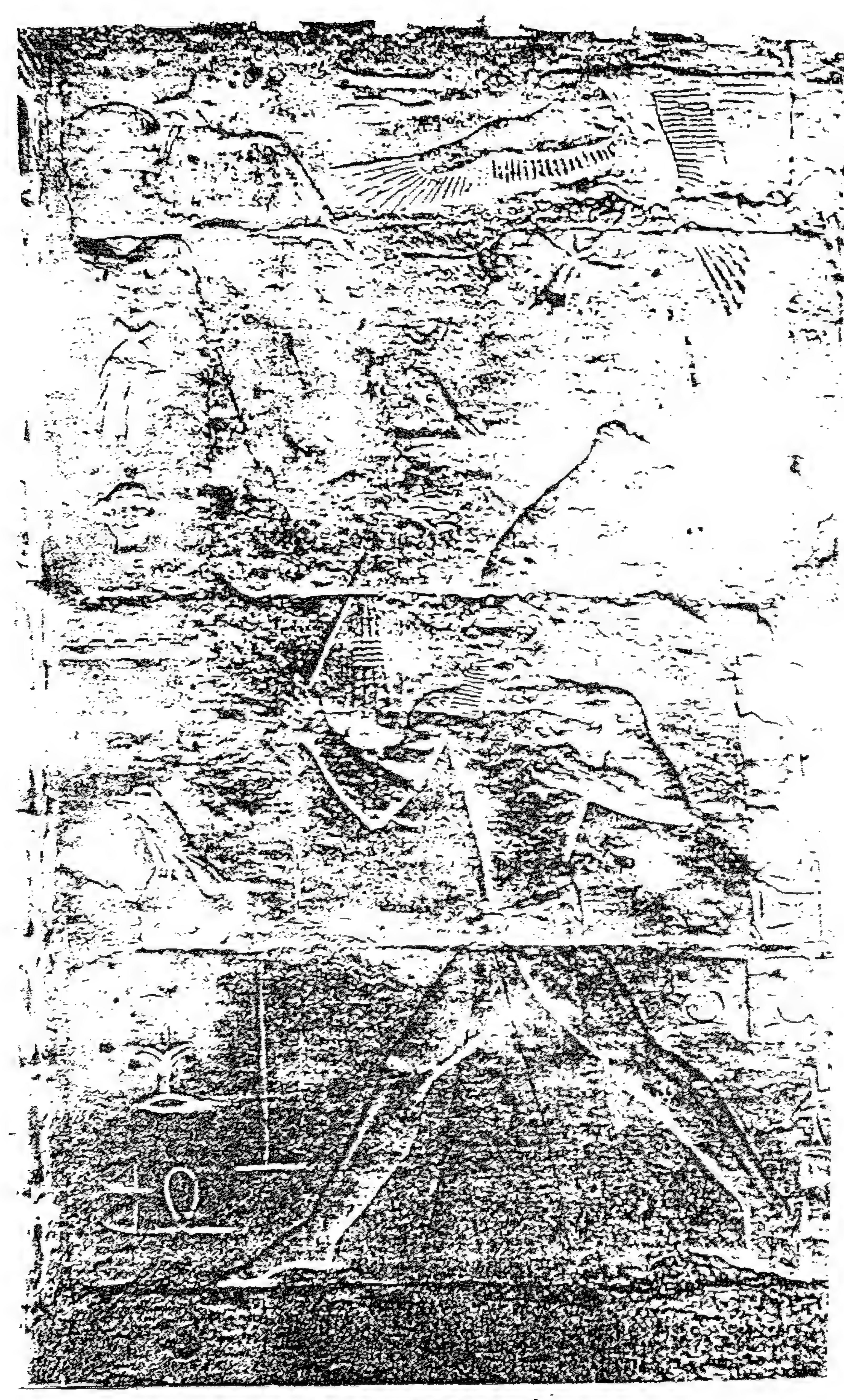
كبش بوعلام (الجزئر)

لوحة II



« السيدة البيضاء » تاسيلى نشر لوط

لوحة III



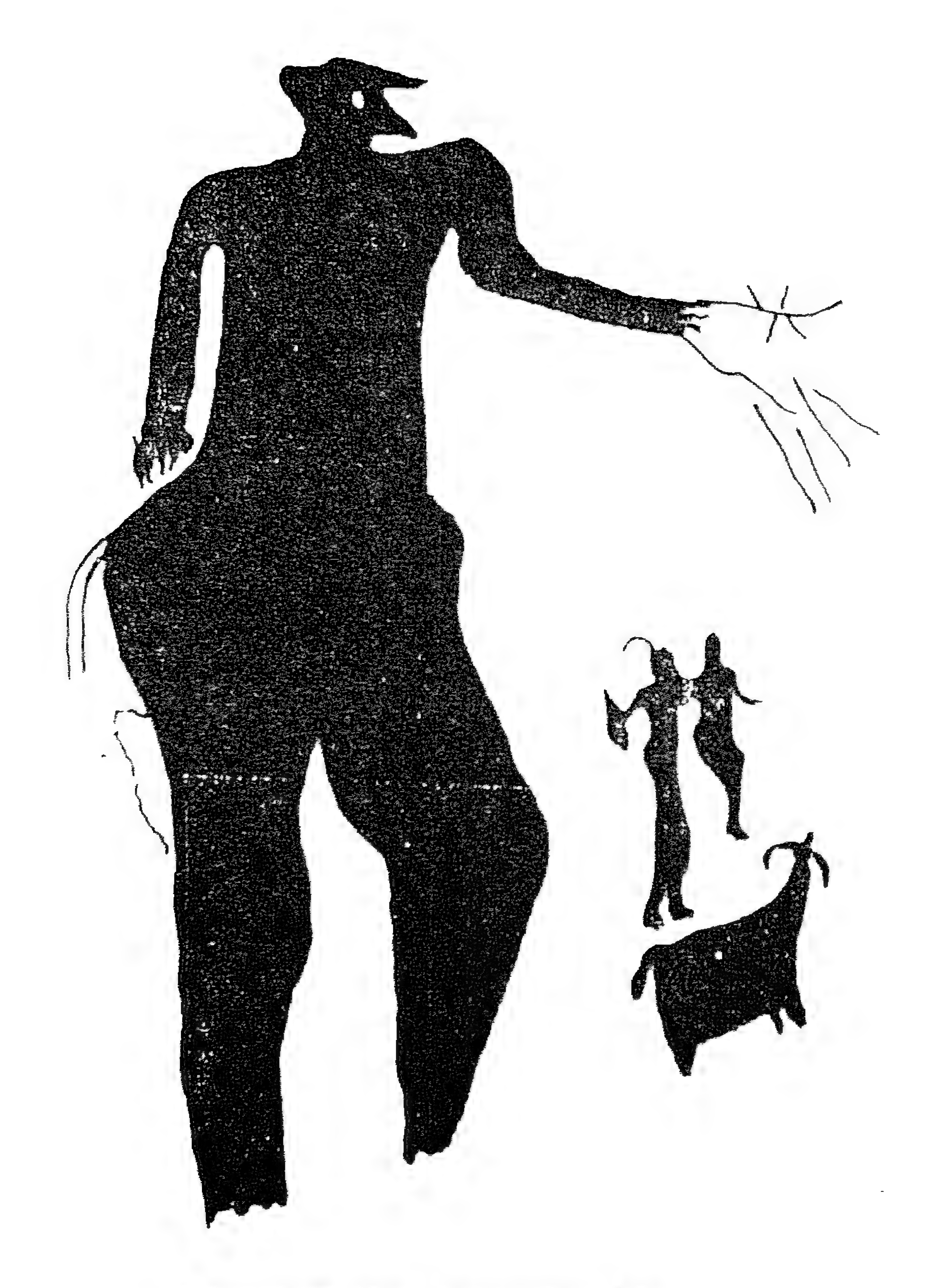
زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدى طقوس عيد الحب سد



الإله الكبير – تاسيلى – نشر لوط

لوحة ٧



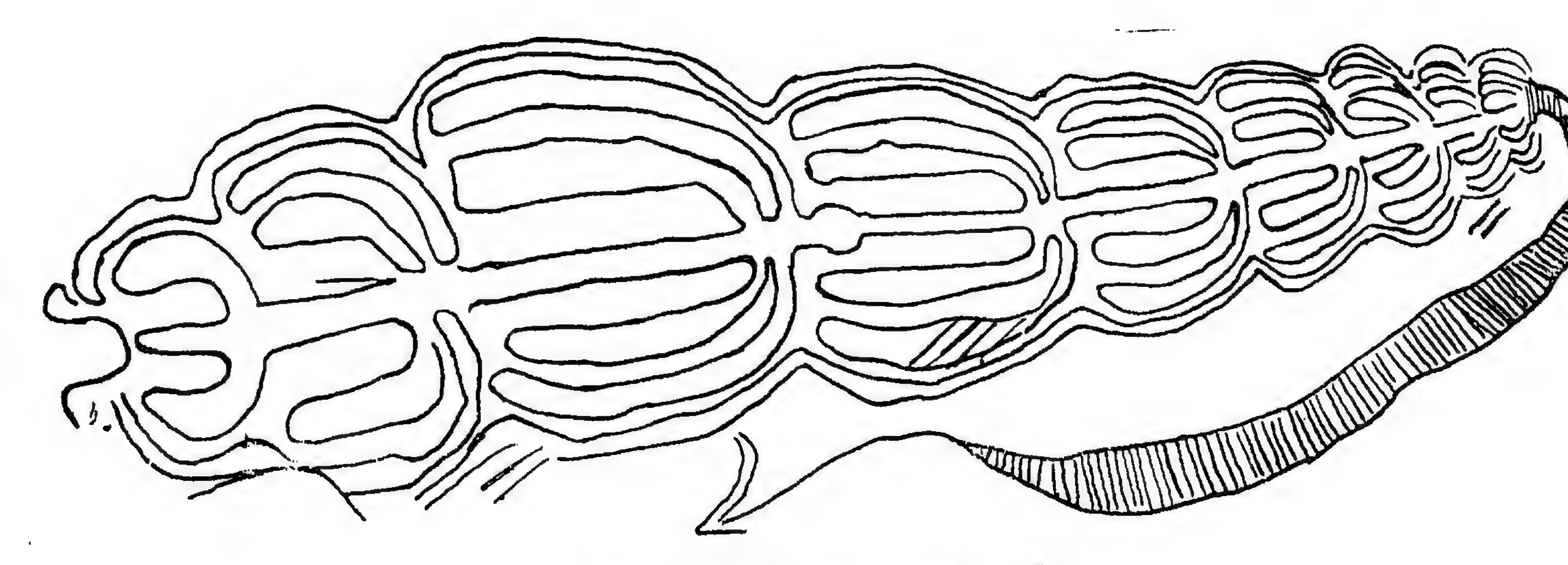
Tracings of a rain deity from jubbah.

أشكال آدمية خيالية فى جبه بحائل عن مجيد خان

لوحة VI

« الكائن الخرافى » شمال الجزيرة العربية عن مجيد خان

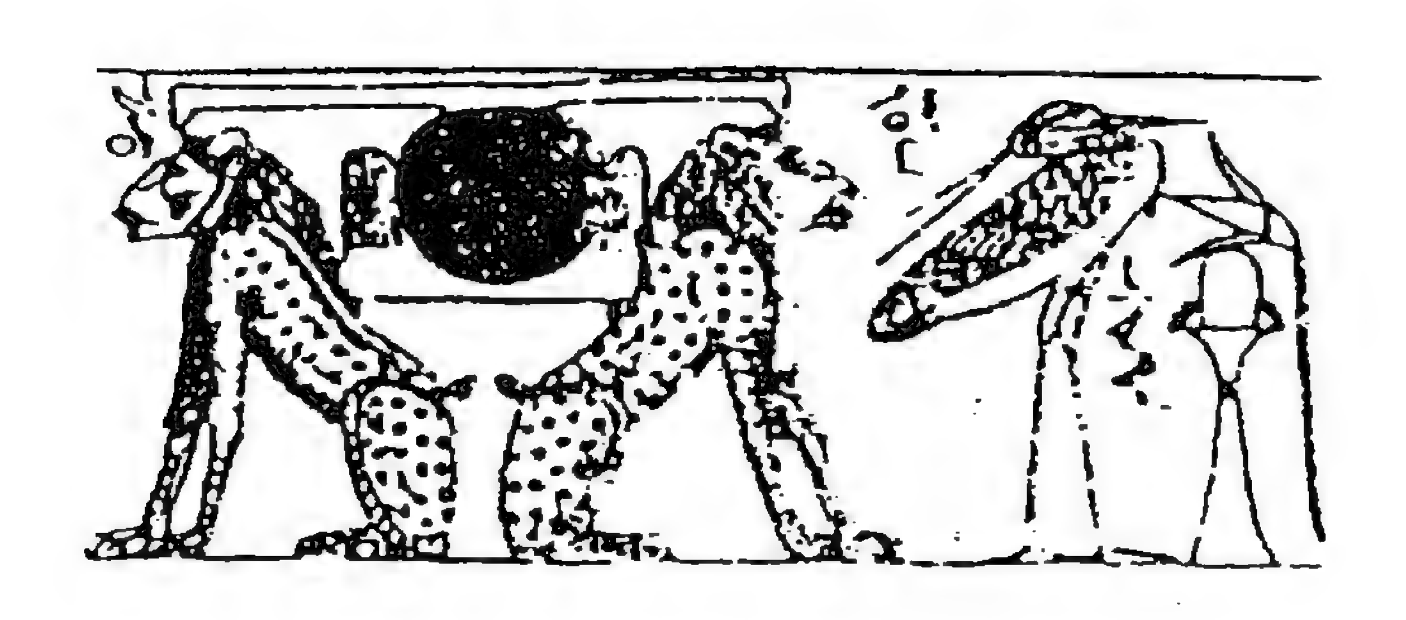
لوحة VII



الكائن العجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufrey

لوحة VII



إلى السان إلهى الأمس واليوم فى صورة أسدين ظهراً لظهر يدعمان الأفق بقرص الشمس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسار يسمى « اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيل في بحث سابق . انظر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) مجلة المؤرخ العربى ، العدد السادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفي زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هى الموطن الأصلى للنباتات التى استزرعها الإنسان فيما بعد ، فهى مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt beforettlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهرى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in Iraqi Kurdistam, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعيين لهذا الرأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التى تؤيد وجهة نظرهم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهو إله كبش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربرية تعنى الماء هى : آمان وآمون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)،(٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام) اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorire de l'Afrique, t. l. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧.

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير (؟!) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها . أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣ حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط » (لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجرى الحديث المتأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (؟!) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

في شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها آنفاً .

(١٦) في بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخرى ، عرض لرأيه بخصوص الكثافة الفائقة عن الحد فى بعض المواضع وبالجهد الخارق فى سبيل تنفيذها . الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداع رموز للكتابة خاصة بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وئدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر للباحث: الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .

- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistorie invenstigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.

- Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.

- Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.

- Debono, F., and Mortensen , B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.

- Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.

- El-Chericf, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.

- Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.

- Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.

- Kozlowski, J. K., Récherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).

- Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).

- Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.

- Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.

- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.

- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.

- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.

- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.

- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).

Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).

الخليج العربى : الموقع والأهمية

خلال العصر البرونزى الحديث

(١٤٥٠ – ١٠٠٠ ق. م.)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

لعبت جغرافيا الخليج العربى دوراً هاماً فى توزع المراكز الحضارية على طول ساحله الغربى بصفة خاصة . وكان لتوافر العديد من المرافىء الطبيعية والمراسي المحمية ، ومياه الشرب من عيون وآبار – خاصة فى واحة الاحساء بشرق السعودية ، فيلكا ، جزيرة البحرين وجزيرة أم النار بدولة الإمارات العربية المتحدة – أثر فى الجغرافيا البشرية لسكان المكان عبر فترات طويلة من التاريخ القديم(١) . إضافة إلى ذلك ، فأن توافر المواد الأولية كالنحاس ، والأحجار ، واللؤلؤ ، وبيض النعام ، ساعد على تبادلها فى متابل ما كان يحتاجه أهل المكان مع سكان المناطق المجاورة من الأخشاب والعاج ، والعقيق الأحمر واللازورد ، وبصفة خاصة بلاد الرافدين (العراق القديم)(٢) ، شمالاً وحتى أقصى الشرق فى منطقة وادى السند ، براً عبر إيران ، أو بطريق المساحلة البحرية إلى سواحل الهند وباكستان ، وخاصة إلى ميناء لوثال(٣) ، اعتماداً على ما ورد فى النصوص السومرية ، حيث وردت كلمة « خرانوم » فى النصوص السومرية بمعنى « رحلة بحرية » ، وكانت تتم عادة فى شهر آيار (مايو) ، وكانت البضائع تجهز فى شهر آذار (مارس) ، وتبحر إلى الساحل الهندى قبل موسم الرياح فى المحيط الهندى(٤) . « انظر خريطة(١) » .

ودلت البحوث الأثرية بالمكان ، وخاصة من البعثة الدانمركية الأثرية من متحف أرهوس بالدانمرك (بدءاً من عام ١٩٥٣) ، وبعض أعمال التنقيبات

(*) كلية الآثار – جامعة القاهرة .

الأثرية من البعثات الإنجليزيـة ، الفرنسية ، الأمريكيـة ، الإيطاليـة ، وكذلـك مـن بعض البعثات العربية المشتركة ، إضافـة إلى بعـض المصـادر النصيـة ضمـن وثـائق حضارات بلاد الرافدين دلت هذه البحوث على قـدم المراكـز الحضاريـة بسـاحل الخليج العربى الغربى منه ، أو الشرقى الإيرانى خلال الألفـين الثـالث والثـانى قبـل الميلاد(٥) ، مع وجود بعض الفراغ التاريخى ، وكذلك عدم العثور على مـا يؤكـد استمرارية الوجود البشرى ، لأسباب متعددة خـلال مـا يعـرف بـالعصر البرونزى المبكر والوسيط .

وشـهد العصـر البرونزى الحديـث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) تغيـيرات عديدة بظهور قوى حضارية جديدة بالمكـان (الشرق الأدنـى القديـم) كـان لهـا تأثيراتها على المكـان وأهلـه ، وكذلـك عـودة الحيـاة إلى بعـض المراكـز الحضاريـة خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، والشمال الغربـى منهـا (اليمن والسعودية على التوالى) ، وما كان له من تأثيرات على المكان واتصالاتـه . وكانت الخريطة السياسية للشرق الأدنى القديم من منتصـف الألـف الثـانى ق. م. واضحـة المعـالم فـى تسيد قـوى دوليـة بعينهـا علـى منـاطق جغرافيـة محـددة : الإمبراطورية المصرية فى أقصى توسع جغرافى لها اشتمل على النوبة (إلى الجنـوب من مصر وفى جمهورية السودان الحالى) ، ما بين الجندل الرابع وشمالاً إلى الحـدود المصرية فى القطاع الأفريقى ، وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وجنوب سوريا فـى القطاع الآسيوى(٦) ، الإمبراطورية الميتانية (الحوريـون) فـى الجـزء الشـمالى مـن بـلاد الرافدين ، المملكة البابلية الكاشية (الكاسيون) ذوى الثقافة اللغويـة الآريـة (هندوأوربيـة) كـأحد شـعوب الشـرق الجبليـة (١٥٧٠ - ١١٥٨ ق. م.) ، والإمبراطورية الحيثية (تركيا الحاليـة)(٧) . وشـهدت المنطقـة علاقـات متشـابكة تفاوتت ما بين العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية التى كان يدعمها أحياناً الـزواج « الدبلوماسى » من جهة ، أو التزاحم والصراع العسكرى من جهـة أخـرى(٨) . وقد شغلت الأحداث الإمبراطورية الميتانية فى تداخلاتها وصراعهـا فـى جبهتـين : ضد الإمبراطورية الحيثية ، والمصرية القديمة فـى عهـد ملـوك أسـرة التحامسـة مـن

الدولة الحديثة ، وأن تطورت تلك العلاقات العدائية بين مصر وميتان إلى علاقة تسودها المحبة والصداقة ، دعمها « الزواج الدبلوماسى » من أجل مواجهة النفوذ المتزايد للحيثين في بلاد الأناضول(٩) . ولعل ذلك التداخل فى الصراع منع النفوذ الميتانى من التداخل إلى الجنوب من بلاد الرافدين ضد السيادة الكاشية ، وربما بالتالى من التوسع جنوباً فى مناطق الخليج العربى(١٠) .

وكان لظهور أخطار « شعوب البحر » دور سلبى على المراكز الحضارية الهامة فى الأناضول (تركيا) ، وساحل شرق البحر المتوسط وعلى مصر الفرعونية ذاتها وإلى حين(١١) ، بينما كانت المناطق الشرقية (الأبعد إلى الداخل) نسبياً بعيدة عن خطرها المباشر ، وإن وقعت ذاتها فريسة للنزاع الداخلى ما بين آشور وبابل ، واستفادة عيلام من ذلك ، وتقدمها غربا للإجهاز على بابل ، حيث سقطت الأسرة الكاسية حوالى ١١٦٠ ق. م. تحت ضربات الملك العيلامى « شونروك ناخونته الأول » منهيا بذلك فصل من فصول الحضارة العراقية ، ولتبدأ من بعد زعامة أسرة حاكمة من أيسن (أيسن الثانية ، ١١٥٨ - ١٠٢٧ ق.م.) ، والتى كان آخر ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق. م.) الذى يذكر له محاولة إعادة توحيد البلاد(١٢) .

ومما يرتبط أيضاً بفترة العصر البرونزى الحديث هو معرفة أهل منطقة الجزيرة العربية ، وحواف الخليج العربى الغربية ، لاستئناس الجمل واستخدامه كوسيلة انتقال وحيوان حمل عبر فيافى الصحراء . ولعل ما كان معروفاً عن طبيعة هذا الحيوان من قدرة على الصبر ، وتحمل العطش والجوع ، ما ساعد على اختراق تلك الفيافى من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وبدء تدشين سلسلة من خطوط الانتقال لنقل تجارة البخور بصفة رئيسية عبرها . ولعل أهمها ما كان موازياً لساحل البحر الأحمر الشرقى ، من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وشمال غرب إلى مصر ، أو باتجاه شمال شرقى إلى منطقة الإحساء على الخليج العربى ، ثم شمالاً إلى جنوب العراق ماراً بالكويت ، أو عبر ساحل ظفار (حضر موت) ثم إلى

الداخل عبر دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ساحلها الغربى على الخليج العربى ماراً بمنطقة حفيت وهيلى(١٣) . وتأرجحت عملية استئناس الجمل ما بين ١٤٥٠ ق. م. إلى ٨٥٠ ق. م. وفقاً لما عثرت عليه بعثه جامعة بنسلفانيا الأمريكية من بقايا عظميه بموقع وادى الجوية فى اليمن عام ١٩٨٣(١٤) . بينما رجح «أولبرايت» حدوث ذلك حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلادى(١٥) .(انظر خريطة٢) .

وقد رجح رأى لبعثة « جون هوبكنز » الأمريكية ٧٣ - ١٩٧٤ أن الكسر الفخارية المتناثرة على تلال جزيرة عكار « القرين » بالكويت تعود فى معظمها إلى العصور الإسلامية حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، واشتملت بينها قطع فخارية مستوردة من منطقة البحر المتوسط من القرن الثانى الميلادى ، وأيضاً بعض الكسر الفخارية الكاسية الطراز من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد(١٦) ، والذى يرجح معه وجود تداخل ما بين تلك الجزيرة والقوى السياسية الهامة على مسرح الشرق الأدنى القديم السياسى آنذاك ، وعلى توزع الدلائل الأثرية على اتصالها بالمكان وبغيره من مراكز حضارات الخليج العربى القديمة . ومن اللافت للنظر وجود فراغ زمنى فى التواجد البشرى على جزيرة فيلكا ما بين فترة ايسين الثانى والعصر الكلدانى . ولم يعثر إلا على دليل خادع ممثلاً فى جرة من العصر الحديدى عثرت عليها البعثة الفرنسية أثناء حفائرها فى طبقات العصر البرونزى من موقع فيلكا ٦ (F6)(١٧) .وتشبه تلك الآنية من الجرار (bell - shapes ar) والمزينة بزخرفة من الحبال حولها مع تلك الأوانى الجنازية من نيبور ، لارسا ، تل اللاخوم والبحرين المؤرخة عادة من الفترة ما بين القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد(١٨) . إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض الأختام الأسطوانية الكاشية الطراز أو ذات طراز كاشى زائف ، وعيلامى ضمن موقعى فيلكا ٣ و ٦ (الأختام أرقام ٣٩٨ - ٤٢٢)(١٩) . وبصفة عامة فإن الوجود الكاسى فى فيلكا ذا طبيعة مختلفة تمثل فى أن الأنماط الفخارية من المرحلة (4A) فى موقع القصر (F6) فى فيلكا (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.) محلى الصناعة ، ولم يعثر ضمن أنماطه على

تلك الأوانى الطويلة المميزة من نمط (Flask)(٢٠) . بينما يتضح من أنماط فخار مرحلة (4A) فى فيلكا من موقع (F3) (١٢٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) أنه كان مستورداً من بابل . وعثر على بقايا نمط تلك الأوانى المميزة (Flask) هناك(٢١). كما أن أختام مرحلة العصر الكاسى وما بعده (معظمها من الأخير) عثر عليها فى كل من فيلكا ٣ (F3) وفيلكا ٦ (F6) . وبالمثل فإن البقايا المعمارية المدنية (المنازل) فى (4B) فى فيلكا تنتمى كذلك إلى الفترة الأخيرة من مرحلة العصر الكاسى ، واستمرت إلى ما بعدها(٢٢) .

إضافة إلى ذلك ، فإن معظم الاكتشافات فى مناطق شرق المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة تؤرخ من الألف الأول قبل الميلاد ، من العصر الحديدى إلى العصر الساسانى ، ثم مرحلة ما قبل العصر الهيلينى(٢٣) ، فيما عدا بعض المواد الأثرية المشابهة للحضارة الكاسية حيث عثر على خاتم أسطوانى من الفيانس فى موقع السبخة ما بين الظهران والعقير يؤرخ من القرن١٣ أو ١٢ق.م.، وعلى كسرات من الفخار من النمط المعروف (ring - based goblets) من العصر الكاسى أو العيلامى فى منطقة إلى الجنوب من الظهران ، وذلك عام ١٩٨٣(٢٤). كما رجح Zarins تأريخ المادة الأثرية المكتشفة فى بعض مواقع جبانة الظهران الممثلة فى رءوس سهام نحاسية ، وأحياناً حديدية ، أساور نحاسية وخواتم ، خرز ، محار ضخم ، وبعض الأطباق الصوانية الصغيرة من الجزء الأخير من الألف الثانى ق. م.(٢٥) . كما أن المادة الأثرية من إحدى مقابر الظهران اشتملت على فخار وأدوات حجرية يتطابق على الأقل فيما يتعلق بالأوانى الحجرية مع تلك الأوانى المعروفة من موقع القلعة بالبحرين فى مرحلتها الثالثة (Qalaat City III B) (١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق. م.) وتتشابه مجموعة من الأوانى الفخارية من نمط goblet ذات القاعدة المسطحة والدائرية مع مثيلاتها الكاشية العيلامية(٢٦) .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر ، فقد لعبت الظروف البيئية ، وعدم توافر المياه وقلة الأعشاب دوراً سلبياً على المكان . ودرج الباحثون على إطلاق صفة «الأرض المجدبة» على المكان . ويبدوأن سكانها اضطروا للهجرة ربما إلى الساحل المقابل : إلى يابسة شبه الجزيرة العربية . ولم يقطع الصمت عن المكان ، وتاريخه منذ العصور الحجرية القديمة والوسطى وربما النيوليثية إلا ما كشف عنه أخيراً من أعمال للبعثة الأثرية الفرنسية فى موقع « الخور » من وجود « ٢ مليون محارة Shell » ، مما يرجح معه أن يكون المكان قد استخدم لاستخراج الأصباغ ، والتى تذكرنا بما كان للفينيقين من ارتباط بالمكان وفقاً لآراء الباحثين القدامى(٢٧) ، أضافة إلى ذلك فإن ارتباط العثور على الأصباغ مع الفخار الكاسى الطابع أكد تأريخ الموقع من أواخر الألف الثانى ق. م. وأوائل الألف الأول ق. م.(٢٨) . وعكس تشابها للفخار المكتشف من مرحلة (4B) فى جزيرة فيلكا الكويتية المؤرخ من أواخر العصر الكاسى(٢٩) . ومن الملاحظ أن معظم ما عثر عليه بعد ذلك فى قطر يرجع إلى عصور متأخرة جداً ، من العصر اليونانى وما تلاه خلال العصر السليوقى بالمكان من القرن الثانى قبل الميلاد(٣٠) .

كما أوضحت الدلائل الأثرية المكتشفة من مواقع دولة الإمارات العربية المتحدة ندرة وجود آثار من العصر البرونزى الحديث فيما عدا موقع القصيص المؤرخ من نهاية الألف الثانى ق. م.(٣١) ، وأن معظم ما دلت عليه أعمال التنقيب الأثرية الأخيرة فى حفيت ، بديع بنت مسعود ، هيلى ، الرميلة ، وقطاره تعود إلى العصر الحديدى(٣٢) ، وفى ارتباط فيما يبدو باختراع نظام الأفلاج كوسيلة رى ، ومع خطوط الاتصال التجارى مع مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بعد عملية استئناس الجمل والقدرة على اختراق الفيافى ، محملاً بإنتاج الجزيرة من البخور ، واللبان المرغوب فيهما من المراكز الحضارية المجاورة وما تلاها(٣٣) .

وقد شهدت مرحلة أواخر العصر البرونزى الوسيط فى دورية الثانى إلى الثالث تناقصاً متزايداً فى ترديد اسم دلمون (البحرين) فى المصادر الميزوبرتاميه .

ويرجع آخر ذكر لها من تلك الفترة من العام الخامس من فترة حكم «سامسوايلونا» (حوالى ١٧٤٥ ق. م.) حيث ورد ذكر « نحاس من دلمون » جنبًا إلى جنب مع « نحاس من آلاشيا »(٣٤) ، والتى رجح أن تكون «قبرص»(٣٥) . وتعود عدة عوامل إلى إنهيار الاتصال التجارى بين بابل ودلمون ، وإلى انهيار الثراء الاقتصادى فى موقع الخليج العربى فى هذا الوقت لعل من بينها انهيار الحضارة الهارابانية Harappan فى أوائل الألف الثانى ق. م. مما جعل من الصعب الحصول على المواد القيمة النفيسة من الشرق ، ونقلها إلى جنوب ميزوبوتاميا خاصة إلى أور . كما توضح الإشارات إلى نحاس الاسيا (= قبرص) مدى التغير فى الاتجاه الاقتصادى ناحية الغرب كمصدر لتلك الموارد الضرورية ، وبالتالى قللت من أهمية ماجان ودلمون كممولين لذلك(٣٦) . وربما كان لغزو أريان (Aryan) لملوخا فى منتصف الألف الثانى ق. م. تأثير سلبى واضح فى توقف بل ووضع حد للعلاقة التجارية مع ملوخا ، وبالتالى سبب إنهياراً سريعاً فى ثراء وغنى، وأهمية دلمون(٣٧) . و لم تظهر دلمون ثانية فى المصادر الميزوبوتامية حتى القرن الرابع عشر ق. م. خلال العصر البرونزى الحديث (LB) . وترجح الدلائل الأثرية من البحرين وفيلكا أن الفترة المتأخرة من الألف الثانى ق. م. كانت فترة هدوء نسبى فى المناطق الشمالية من الخليج العربى ، بينما فى ميزوبوتاميا استمتعت الأسرة الكاشية بداءاً من عام ١٧٥٠ ق. م. بحكم طويل نسبياً تميز فى معظمه بالسلام ، والأتصالات الدولية البعيدة ، كما كان لها علاقات متعددة مع منطقة دلمون (البحرين) ، والتى كانت مصدراً هاماً للتمور(٣٨) . وقد قدمت حفائر البعثة الأثرية لمتحف أرهوس الدانمركية عام ١٩٥٦ الدلائل على الوجود الكاسى بالبحرين فى منطقة القلعة استناداً على العثور على نمط فخار (Carmel ware) المميز للعصر البابلى القديم والعصر الكاسى(٣٩) . كما عثر على دلائل معمارية فى نفس المكان من العصر الكاسى أيضاً . وكان من نتيجة حرق المكان (أو القصر) أن حفظت الكثير من الشردات وبقايا الفخار التى أعطى التأريخ بالراديو كربون ١٤ (C14) تاريخاً من ١١٠

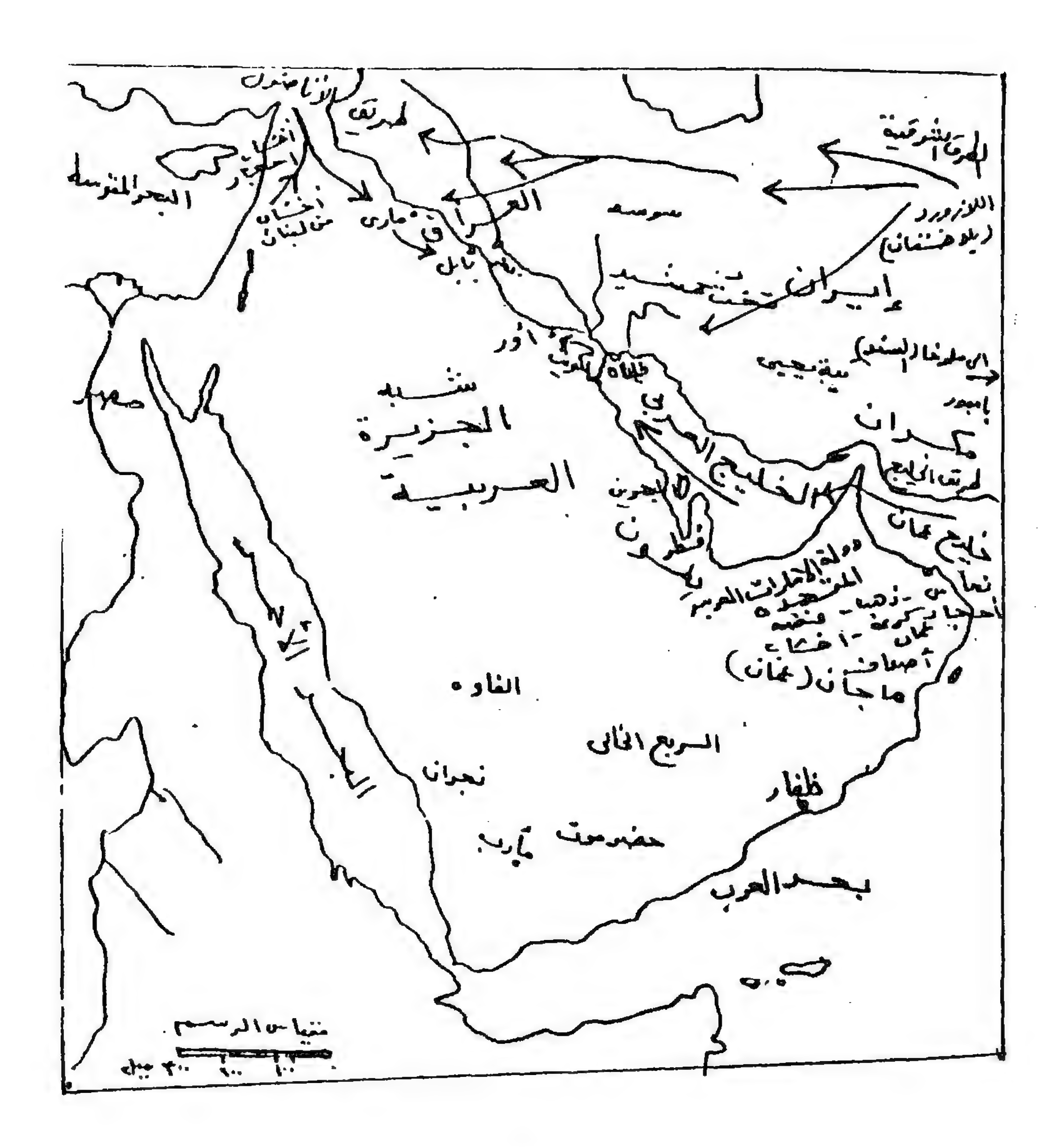
+١٨٠٠ق. م.(٤٠) . كما كشفت أعمال الحفر الأثرى من عام ١٩٧٠ بإشراف الطراونة F. al. Tarawneh فى موقع الحجر عن وجود مجموعة من المقابر (عدد ١٤ قبر) مقطوعة فى الصخر ، تعود مقابر ١،٣،٨،١١،١٢ منها إلى العصر الكاسى ، استناداً على تواجد الفخار ، والأختام الأسطوانية ، وخاتم من الفيانس من نفس نمط نوزى من القرن ١٥ - ١٤ ق. م. عثر عليه فى القبر رقم(١) ووجد عليه تصوير لاثنين من الغزال . كما عثر على خاتم زجاجى مؤرخ من القرن ١٤ - ١٣ ق. م. فى القبر رقم (٣) يبدو عليه رسم حيوان خرافى بوجهين لأسد ، واقفاً على مؤخرته على شكل بشرى مقهور، وممسكاً لأعلى باثنين من الثيران ذات السنام Humped bull(٤١) . كما عثر على أربع مقابر أخرى على الأقل من نفس العصر الكاسى فى موقع « سار » : مدافن ١٥٠ ، ١٥٠أ ، ١٥٠ب ، والمدفن الجماعى رقم ٤٢ بها ، والتى تضمنت بقاياها الأثرية فخار يمكن مقارنته مع فخار موقع المدينة الثالثة بالبحرين (City III)(٤٢). إضافة إلى ذلك ، فقد عثرت البعثة الأثرية الاسترالية فى موقع « بورى » فى موسم ١٩٨١ - ١٩٨٢ على فخار كاسى(٤٣) . كما عثر كذلك على مقابر كاسية فى موقع المقشة ، وكذلك على مقابر ، أو ربما بقايا سكنات ، استناداً على الشردات الفخارية ذات الطابع الكاسى على سطع موقع قرية باربار(٤٤) . كما أوضحت النصوص السومرية المكتشفة من البحرين بواسطة البعثة الأثرية الدانمركيه احتمالية وجود « مدرسة تدريبية » على ارض البحرين ذاتها من العصر الكاسى(٤٥) . وبالمثل عثر عام ١٩٧٩ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل أعيد استعمالها فى العهد البارثيانى فى موقع إلى الشمال من رأس القلعة مدون عليها بقايا كتابات سومرية اعتبرها B. Andre - Leicknam نقشاً معمارياً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد من فترة حكم المدعو " بورنابورياش الثانى » (١٣٥٩ - ١٣٣٣ ق. م.)(٤٦) . كما وردت إشارة إلى دلمون ضمن نصوص منطقة نيبور التى حفرت بها بعثة أمريكية ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٠م ، وعثر بالمكان على حوالى ١٢ ألف لوحة مكتوبة ، وآثار تعود إلى العصر الكاسى ، اشتملت بينها على لوحتين وردت بهما

إشـارة إلى دلمـون . ولعـل أهميـة تلـك النصـوص أنهـا لخطابـات تمـت كتابتهـا ، وتدونيها فى دلمون ، وأرسلت إلى نيبور ، وإلى أنها ترجح أيضـاً وجـود « حـاكم كاسى على دلمون »(٤٧) . وقد رجح أن يكون هذا الحاكم على دلمون فى الفـترة ما بين ١٤٢٠ - ١٤١٠ ق. م. خـلال فـترة ذروة التوسـع الكاسـى ، وفـى قمـة اتصالاتهم الحضارية مع ملوك مصر الفرعونية خـلال عصـر العمارنـة(٤٨) . كمـا تعكس نصوص إحدى الرسائل التى عثر عليها فى نفر مؤرخـة مـن العـام الخـامس من فترة حكم بورنابورياش الثانى استمرارية العلاقة مع دلمـون مـن جهـة ، وعلـى تزويد دلمون لبلاده بتمور من جهة أخرى(٤٩) .

وانتهى هذا الدور من السيطرة المكاسية على دلمـون ، ووردت آخـر إشـارة لذلك الوجود الكاسى بالمكان ضمن أحد نصوص الملك نيكولتى - نينورتـا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م.) عثر عليه فـى موقـع تلـول عقـير ، يتضمـن إحصـاء بالغنائم الوفيرة للملك التى حصل عليها بعد هزيمته للحاكـم الكاسـى Kastiliasu (١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق. م.)، وتلقب من بعد بلقب «ملك دلمون وملوخاً»(٥٠). وقد ترتب على ذلك انقطاع ملموس فى التسلسل التاريخى للحضارة فى البحريـن لمدة تزيـد عـن ٥٠٠ عـام بعـد مرحلـة الوجـود الكاسـى بالمكـان وحتـى العصـر الآشورى الحديث يقطعه أحياناً بعض المكتشفات الأثرية مثلمـا عـثر عليهـا ضمـن أعمال البعثة الأثرية الفرنسية ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٢ بالمكان خاصـة أنمـاط مميزة من فخار ذى لون قرنفلى غامق ، وبصلابة ملموسة ، وفـى أشـكال جـرار طويلـة ذات شفة دائرية أو متقلبة ، وجرار ذات قواعد بشكل الطوربيد ، أو فخـار أكـثر شيوعاً بلون أصفر أو أصفر - برتقالى ، وفى شـكل جـرار ذات رقـاب ، وأوانـى بشكل الكؤوس قد تشابه فى بعض أشكالها وملامحها مع فخار حجر بن حميد فـى وادى بيحـان اليمنـى ، وفـى منطقـة نجـران - الأخـدود قـرب الحـدود السـعودية اليمنية(٥١) . وبإطلاق فـإن سقوط الإمبراطوريـة الكاشـية ، وانتهـاء دورهـا فـى السيطرة على ميزوبوتاميا عام ١٢٠٠ ق. م. وما ترتـب عليـه مـن فقـد سيطرتها عليه جنوب بابل ، ومنطقة الخليج العربى قد ارتبط به وجود تسللات متزايدة مـن

القبائل البدوية من المنطقة الصحراوية فى شمال شبه الجزيرة العربية من اراميين وكلدانيين وسوتيين ، وربما بالمثل من جنوب غرب الجزيرة العربية استناداً على تلك الأنماط الفخارية(٥٢) .

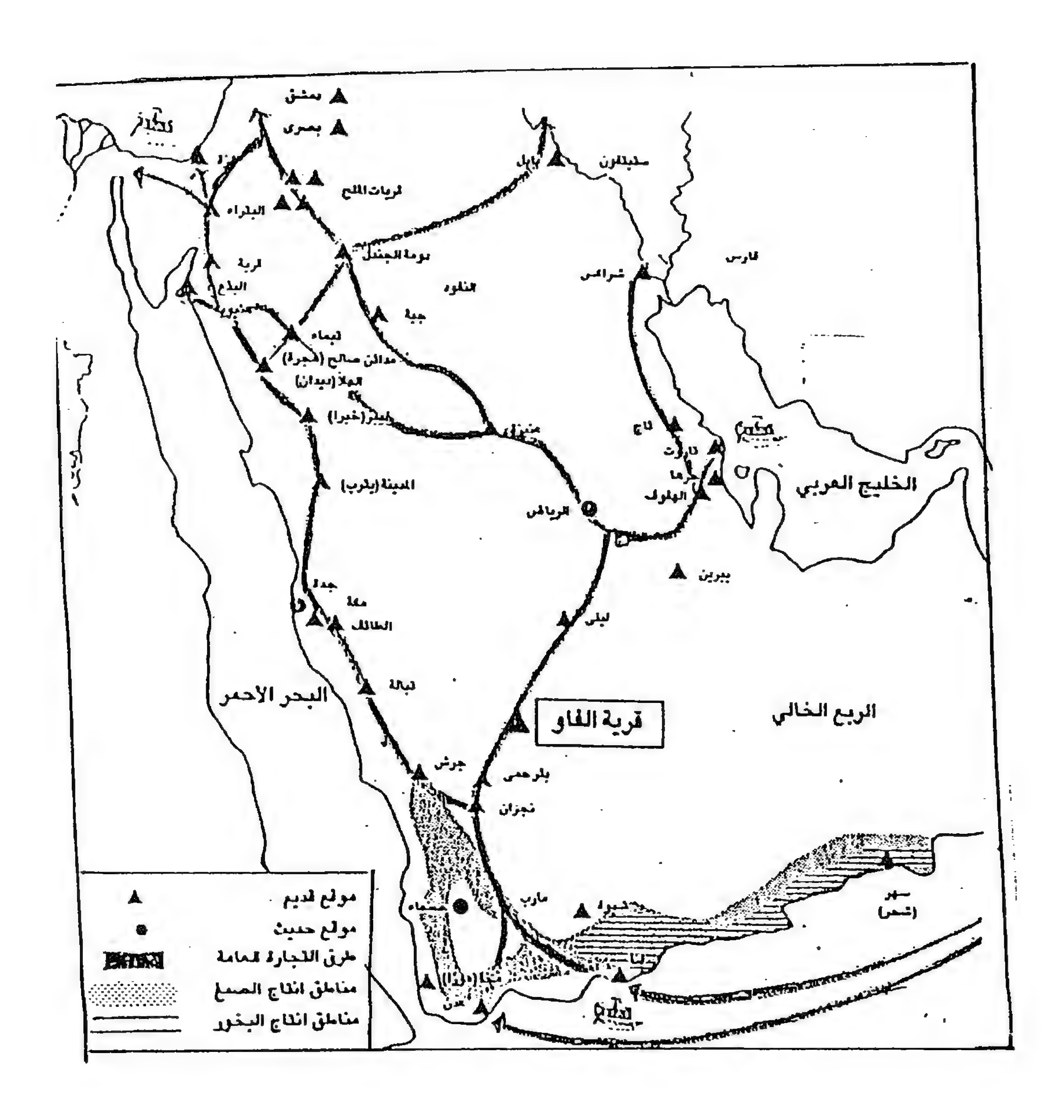
وبالنظر إلى ما سبق ، فإنه بالرغم من تلك التغيرات السياسية الضخمة خلال العصر البرونزى الحديث فى مواقع حضارات الشرق الأدنى القديم خارج منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة فى بلاد الرافدين ووادى النيل وشرق حوض البحر المتوسط فإن مجمل ما كشفت عنه الدلائل الأثرية وإلى الآن لا تقدم لنا الكثير من مواقع لتجمعات بشرية كثيفة على الساحل الغربى من الخليج العربى فيما عدا منطقة البحرين ، وأن معظم ما عثر عليه بتلك المواقع ارتبط بصفة خاصة مع تلك التغييرات السلبية الناجمة عن انهيار المراكز الحضارية إلى الشرق من الخليج العربى فى وادى السند بصفة خاصة والتى كان لها من قبل صلات حضارية وعلاقات تجارية بالمكان وأهله من جهة ، وفى الوجود الكاسى المكثف خاصة مع منطقة البحرين من جهة أخرى .



خريطة (١)

أهم المواقع الحضارية فى الخليج العربى

وأهم الموارد الاقتصادية المرتبطة به والمنقولة عبره



خريطة (٢)

أهم خطوط التجارة القديمة عبر الخليج وشبه الجزيرة العربية

الهوامش

(١) البدر (سليمان) ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ « الصلات الاقتصادية والسياسية لمنطقة الخليج العربى فى أواخر الألف الثالث ق. م. » مجلة كلية الآداب والتربية العدد ٩ (يونيو ١٩٧٦) ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الصباح (ميمونة) الكويت حضارة وتاريخ (المجلد الأول) ، الكويت : ١٩٨٩ ص٢٦ .

(٢) تعددت الآراء فى التسمية الواجب إطلاقها على العراق القديم ما بن ميزوبوتاميا بمعنى بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات مع ما فى ذلك من تجاهل لباقى الأراضى المحيطة بالنهرين ، أو بارابوتاميا بمعنى بلاد ما هو خارج النهرين ، أو باطلاق تسميات مرتبطة بدويلات مدنها السياسية : بلاد سومر ، بلاد سومر وأكد ، بلاد بابل ، أو بلاد آشور ، وإن كان من الأفضل إطلاق اسم « العراق القديم » ليغطى كل البعد الجغرافى لحضارات منطقة دجلة والفرات وما حولها . راجع عامر سليمان ، القانون فى العراق القديم ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد : ١٩٨٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) البدر ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، الصباح ، المرجع السابق ص ٢٦ ، زيادة (نقولاً) ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع ، السنة الأولى (أكتوبر ١٩٧٥) ، ص ٦٩ - ٩٤ .

(٤) البدر ، المرجع السابق ص ٤٩ ؛ سلطان (غانم) ، الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت ١٩٨٨ ، ص ٣٥ .

(٥) الهاشمى (رضا جواد) ، « دراسة فى مصادر تاريخ وآثار الخليج العربى فى عصوره القديمة » مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، السنة السابعة (أكتوبر ١٩٨١) ، ص ١١٥ - ١٢٩ ، البدر (سليمان) ، « محاولة لرسم معالم حضارية :

التنقيب الأثرى عملية تقنية بالأساس تعتمد على معطيات علوم أخرى . الجزء الثانى » ، المنهل العدد ٤٩٢ ، المجلد ٥٣ (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) ، ص ٣٠ - ٣٥ ؛ صالح (عبد العزيز) ، الرحلات والكشوف الأثريه للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية ، الكويت: ١٩٨١ ، ص ٦٣ - ٨٠ .

(٦) راجع مقالة : Kemp, B.J. « Imperialism and Empire in New Kingdom Egypt » (c.1575 - 1087 B. C. « Imperialism in the Ancient world. Edited by Gatnsey, P. D. and whittaker. C. R. Cambridge University Press : 1978, pp. 7-57; pp. 284 - 373.

(٧) فرزات (محمد حرب) ومرعى (عيد) ، دول وحضارات فى الشرق العربى القديم سومر وآكاد ، بابل وآشور ، آمورو وآرام . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق : ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ص ١٧٢ .

(٨) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٩) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧١ ؛ توفيق (سيد) ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٧ ؛ Hayes. W. C. « Egypt : Internal affairs from Tuthosis I to the Death of Amenophis III », CAHII, Part I, Cambridge University Press : 1973, p. 343.

(١٠) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٢ .

(١١) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

عن شعوب البحر وأخطارها راجع أيضاً :

Sandars, N. K. The sea People, London : 1978.

(١٢) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٣) صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٨٨ ، ص ٢٧ ؛ مهران (محمد موسى) ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية : ١٩٩٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ غلاب (محمد السيد) التجارة فى عصر ما قبل الإسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزية العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ خريطة رقم (٤) ؛ رشيد (صبحى أنور) ، (العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء) دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ٣٨٧ - ٨٩ .

(١٤) توبلن (مايكل) ، الجوبة ، مشروع وادى الجوبة الآثارى . الجزء الأول : المسح الآثارى فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٨٤ ، ترجمة زاهى حواس ومراجعة د. جاب الله على جاب الله ، المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بواشنطن : ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

(١٥) صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(١٦) النجار (جواد كاظم) ، « التنقيب فى جزيرة عكاز (القرين) ١٩٧٨ (الموسم الأول)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٣ ، السنة السادسة (يوليو ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ - ٤٤ .

(١٧) سال (ج.ف) تقرير عن انجازات البعثة الفرنسية للكشف الأثرى لجزيرة فيلكا (١٩٨٣ - ١٩٨٧) وخطة البعثة للكشف الأثرى ١٩٨٨ - ١٩٩٢ ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل غربية ، وزارة الإعلام ، إدارة الآثار والمتاحف ، الكويت ؛ - Salles (Jean Francois), Failake, Fouilles Francaises 1983, Travaux de La Maison I'Orient No.9, Lyou : 1984

(18) Potts, D. T. The Arabian Gulf in Antiquity. vol. I : Form Prehistory to the fall of the Achaemenid Empire. Oxford : 1990, p.329.

(١٩) كيروم (ب) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثانى قبل الميلاد . المجلد الأول ، الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان البدر ود. عز الدين غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الأعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر ص ١٧١ - ٧٨ .

(20) Denton, B. E. The Late Second millennium B. C. in the Arab / Iranian Gulf, ph. D. Disserlation, UmI, Ann Arbor : 1991, p. 277.

(21) Denton, Op. cit., p. 277.

(22) Denton, Op. cit., p. 277.

(23) Potts, Op. cit., p. 330.

(24) Potts, Op. cit., p. 303.

(25) Zarins, J. Mughannum. A. S. and Kamal, M., « Excavations at Dhahran South the tomuli field (208 - 92). 1403 A. H., 1983. A Preliminary Report », Atlal the Journal of Saudi Arabian Archaeology 8 (1984), pp. 25-54; Denton, Op. cit., p. 266.

(26) Denton, Op. cit., p. 278. Potts, Op. cit., p. 303.

(27) Rice, M. Search for the Paradisce Land. An introduction to the Archaeology o Bahrain and the Arabian Gulf from the earliest times to the death Alexander the Great. Lonodon and New York : 1984, P. 227.

اعتقد تيودرور بنت فى أن مقابر البحرين تعود إلى الفينيقين قبل هجرتهم من الخليج العربى اعتماداً على دراسته للآثار ، وتأثره برأى هيرودوت الداعى بأن الفينقيين كانوا يدعون فى عهده بأن إسلافهم جاءوا من الخليج . راجع البدر ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد ، ص ٢٦ .

(28) Rice, Op. cit., p. 278.

(29) Denton, Op. cit., p. 278.

(30) Rice, Op. Cit., p. 227.

(٣١) البدر ، المرجع السابق ص٣٨ .

(٣٢) بوشارلات (ريمى) وبيير لومبارد ، « نتائج التنقيبات فى موقع رميلة / العين ١٩٨٠ - ١٩٨٣ » ترجمة وليد التكريتى ، مجلة الآثار فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد ٤ (١٩٨٥) ، ص٤٢ - ٥٩ ؛ شعت (شوقى) ، « التقنيات الأيرية فى الخليج العربى وأهميتها التاريخية » الخليج العربى . دراسات تاريخية وجغرافية منذ أقدم العصور حتى الوقت الراهن ، دمشق : ١٩٩٣ ، ص ٥٦-٥٩.

(٣٣) هيستنجر(أ) ، عمان فى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى مترجم إلى العربية ، سلسلة تراثنا العدد ٤١ ، سلطنة عمان ، إدارة التراث القومى والثقافة : ١٩٨٣ ، ص ٢٦ ؛ ولكنسون _ جى) الأفلاج ووسائل الرى فى عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨١ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، « البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة » ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة . مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، الأسكندرية : ١٩٩٣ ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(34) Denton, Op. cit., p. 49.

(35) Wachsmann, S. « Is Cyprus Ancient Alashiya? New evidence From an Egyptian Tablet ». Biblical Archaeologist 49.1 (March 1986), p. 37.

(36) Denton, Op. cit., p. 50.

(37) Vine, P. Pearls in Arabian Gulf. The Heritage of Bahrain, Immel Publishing , p. 26.

(38) Denton, Op. cit., p. 50. Vine. Op. cit., p. 26.

(39) Potts, Op. cit., p. 298.

(40) Potts, Op. cit., p. 299.

(41) Potts, Op. cit., p. 302.

(42) Potts, Op. cit., p. 302.

(43) Potts, Op. cit., p. 302.

(44) Potts, Op. cit., p. 303.

(45) Potts, Op. cit., p. 307.

(46) Potts, Op. cit., p. 307.

(47) Potts, Op. cit., p. 309.

(48) Potts, Op. cit., p. 310.

(٤٩) البدر ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(50) Potts, Op. cit., p. 314 ; Vine. Op. cit., p.27.

(51) Potts, Op. cit., p. 314 -15.

(52) Vine, Op. cit., p. 27. Potts, Op. cit., p. 392.

التقاويم السبئية الحميرية

فى ضوء نقش حميرى جديد

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

لم يعرف اليمنيون القدماء نظاما موحدا للتأريخ ، فهم لم يؤرخوا بسنى حكم ملوكهم وحكامهم ، ولم يدونوا قوائم بأسماء هؤلاء الملوك والحكام كما فعل المصريون القدماء . والتاريخ الوحيد بسنى حكم الملك الوارد فى النقوش اليمنية القديمة ، سجل خارج اليمن وبالتحديد فى مصر ، وهو التاريخ المنقوش على تابوت التاجر المعينى « زيد أيل بن زيد » (المحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) الذى عاش فى مصر فى عصر البطالمة ؛ فقد جاءت فيه عبارة « ب و ر خ هـ / ك ى ح ك / خ ر ف / ث ن ى / و ع ش رى / ك ت ل م ى ث / م ل ك ن « وترجمتها » فى شهر كيهك (من) السنة الثانية والعشرين من (عصر) بطلميوس الملك (Abdel Monem 1984, p. 93) والعبارة تسرد تاريخ دفن التاجر المذكور . ومن الواضح أن كاتب هذا النقش تأثر بأسلوب التأريخ السائد فى مصر فى العصر البطلمى والذى من الواضح أنه استمرار لأسلوب التأريخ الذى كان متبعاً فى عصر الفراعنة .

أن كل ما أورده اليمنيون القدماء من تأريخ للأحداث فى نقوشهم يقتصر على ذكر أرقام السنوات فقط أو ذكر أرقام السنوات مقترنة بأسماء غامضة أكثرها شيوعاً فى النقوش الأسماء : « مبحض بن أبحض » ونبط (نبط أيل بن ابأمر RES 4133) ثم اسم تعرف عليه العلماء أخيراً وهو « ابعلى بن .. » ويبدو من تركيب هذه الأسماء واحتوائها على كلمة « بن » أنها أسماء أجداد أوائل أو زعماء قدامى للقبائل(١) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد ظل العلماء حائرين أمام التواريخ المقترنة بهذه الأسماء أو المذكورة بدونها حتى تمت ترجمة النقش المعروف بين النقوش اليمنية القديمة باسم « نقش حصن الغراب » ترجمة صحيحة(٢) ، فقد ساعد ذلك العلماء على التوصل إلى بداية أحد التقاويم اليمنية بأن هذه البداية كانت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد أطلقوا على هذا التقويم فى أول الأمر « التقويم السبئى » ثم عدلوا التسمية فى السنين الأخيرة إلى « التقويم الحميرى » (لأسباب سنذكرها فيما بعد) . والحقيقة أنه لا السبئين ولا الحميريين استخدموا تقويما فى ذلك التاريخ ، فإن أقدم نقش مؤرخ بهذا التقويم يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، عندما بدأ اليمنيون يذكرون تاريخ بعض الأحداث مقترنة إما باسم التقويم الذى أطلقوا عليه « مبحض بن أبحض » أو باسم التقويم الذى دعوه « نبط » (أو باسم تقويم « أبعلى » الذى لم يتعرف العلماء على اسمه إلا أخيراً) أو يذكرون رقم السنة دون ذكر أى من هذه الأسماء أى أن إتباع اليمنيين للتأريخ للأحداث بدأ بعد البداية المذكورة للتقويم (عام ١١٥ ق. م.) بحوال أربعة قرون .

والذى ساعد العلماء على تحديد عام ١١٥ ق. م. (وهو الرأى الغالب لأن بعضهم حدد هذا التاريخ بسنة ١٠٩ أو بين ١١٨ و ١١٠ قبل الميلاد) كبداية للتقويم المذكور فى نقش حصن الغراب ، وورود العبارة التالية فى السطور الأخيرة من النقش « أ ح ب ش ن / ... ك هـ ر ج و / م ل ك / ح م ى ر م / ... و ر خ هـ و / د ح ج ت ن / ذ ل أ ر ب ع ى / و س ث / م ا ت م/ خ ر ف ت م . (RES 2633) .

وترجمتها « الأحباش ... عندما قتلوا ملك حمير ... تاريخه (شهر) ذو الحجة (لسنة) ٦٤٠ من التقويم »(٣) .

وكما نرى لم يذكر النقش اسم التقويم الذى تنتمى إليه تلك السنة ، ولكن الباحثين عادلوا أحداث هذا التاريخ بما ورد فى المصادر الحبشية والمصادر المسيحية البيزنطية عن حملة الأحباش على اليمن على أثر مذبحة (أو محرقة) شهداء نجران ،

وتوصلوا إلى أن ذلك الغزو حدث سنة ٥٢٥ ميلادية . ومن هنا اعتبروا أن سنة ٥٢٥ م هذه هى السنة المقابلة لسنة ٦٤٠ المذكورة فى نقش حصن الغراب . وبطرح السنين ٦٤٠ - ٥٢٥ = ١١٥ أمكن التوصل إلى أن سنة ١١٥ ق. م. هى بداية التقويم الذى تنتمى إليه سنة ٦٤٠ . ولما كانت لا توجد نقوش يمنية مؤرخة بالسنة التى تعادل سنة ١١٥ ق. م أو حتى السنوات التى بعدها حتى القرن الثالث الميلادى فقد اعتبر الباحثون هذه السنة البداية « النظرية » للتقويم اليمنى ، واعتبروها « نظرية » لأن هذا التقويم لم يستخدم فعلاً إلا بعد هذه البداية بحوالى أربعة قرون .

غير أن الذى حير العلماء ورود أرقام سنوات فى النقوش اليمنية مقترنة بأسماء التقويمين « مبحض بن ابحض » و « نبط » ، فافترض بعضهم بدايات لهذه التقاويم تتطابق أحياناً مع التاريخ الذى يبدأ نظرياً بعام ١١٥ ق. م. ، والذى أطلقوا عليه التقويم الحميرى لأنه ورد فى القرن الثالث الميلادى مقترنا بأسماء الملكين الحميريين « ياسر يهنعم وشعر يهرعش » ، بينما افترض آخرون بدايات مختلفة عن بداية هذا التاريخ ومثال ذلك العالم « البرت جام » الذى افترض أن تقويم « مبحض » هذا بدأ سنة ٩٧ قبل الميلاد (Jamme 1962, p. 362) أى أن هناك فارق زمنى بينه وبين التقويم الحميرى يبلغ ١٨ سنة بزيادة التقويم الحميرى ، كما افترض أن تقويم « نبط بدأ حوالى عام ٣٤ ق. م. (Ibid) ولكن من ناحية أخرى فقد تنبه علماء آخرون مثل العالم « بيستون » إلى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم الحميرى (الذى كان يسميه فى البداية « التقويم السبئى ») ولكنه اعترف أن آرائه هذه هى مجرد افتراضات (Beeston 1981, p. 4) كما فسر بيستون علاقة التقاويم الثلاثة ببعضها تفسيراً صحيحاً فقال أن تقويم «نبط» كان يستخدم إلى جانب تقويم « مبحض » فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أهمل تقويم « نبط » وبقى تقويم « مبحض » مستخدما فى النقوش السبئية المتأخرة (يقصد الحميرية) وافترض بيستون أن الفارق بين تقويمى « مبحض » و« نبط » يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981 , p. 3) . وقد اتفق رأى العالم

« جونزاج ريكمانز » مع رأى بيستون فى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم السبئى (يقصد الحميرى) ولكنه أخطأ عندما افترض أن التاريخ الوارد فى النقش رقم RES 3958 المؤرخ بسنة ١٤٤ هو بالتقويم الحميرى (Ryckmans 1943, p. 236) لأنه سوف يتضح أنه مؤرخ بتقويم آخر لم يرد اسمه فى النقوش قبل قراءة نقش المعسال ، وهو التقويم المسمى « ابعلى » كما سنذكر بعد(٤) . وقد حاول العالم البريت تفسير أصل تقويم نبط فقال أنه ينسب إلى آخر ملك قتبانى وهو الملك « نبطم يهنعم » لأن الذين استخدموه هم قبائل بنى ذرانح « الذين كانوا يسكنون منطقة كانت خاضعة لدولة قتبان قبل خضوعها لدولة حمير . وقد حدد البريت بداية تقويم « نبط » بالسنة الخامسة قبل الميلاد (Albright 1958, p. 6) ولكن هذا التاريخ ثبت عدم صحته بعد قراءة نقش المعسال . وكل هذه الاراء سواء الصحيح منها وغير الصحيح كانت مجرد احتمالات تفتقر إلى إثبات بالدليل الأثرى ، حتى تم الكشف فى السنين الأخيرة عن نقوش جديدة فى منطقة جبل المعسال التى تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت هذه المنطقة تسكنها قبيلتان هما قبيلة « ردمان » وقبيلة « خولان » (وهذه الأخيرة غير قبيلة خولان المعروفة التى كانت تسكن فى شمال غرب اليمن بالقرب من مدينة « صعدة ») تنضويان تحت لواء قبيلة كبرى تدعى « بنو معاهر» ومنطقة هذه القبائل تقع إلى الجنوب من دولة سبأ وإلى الشرق من دولة حمير وإلى الجنوب الغربى من دولة قتبان ، أى أنها فى موقع الاحتكاك بين هذه القوى الثلاث (انظر الخريطة) ويبلغ عدد نقوش جبل المعسال (١٨ نقشاً) ، أهمها جميعاً النقش رقم ٢ طبقاً لترقيم البعثة الفرنسية . وقد سبق أن نسخت بعثة ألمانية بعض هذه النقوش ووصفها العالم الألمانى « والتر مللر »بوجه عام (Muller 1973, p. 16) ، ثم نشر العالم البلجيكى « البيرت جام » بعض النصوص (Jamme 1976, p.110) وأعطاها الأرقام (Ja. 2861, 2864, 2867 .....) . ولكن لم يتمكن هؤلاء العلماء من نشر النقوش كاملة بسبب وعورة المنطقة وشدة انحدار الصخر من ناحية ولارتفاعها الشاهق وصغر حجم حروفها من ناحية أخرى.

ولذلك لم تظهر أهمية هذه النقوش مما نشره عنها كل من والتر مللر والبرت جام، حتى تمكنت البعثة الفرنسية (MAFRAY) باستخدام وسائل أكثر تقدما ومن بينها عدسات مقربة قوية من نسخ هذه النقوش كاملة أو شبه كاملة ، وتمكن العالم الفرنسى كريستيان روبان من قراءتها (Robin 1981, pp. 316 - 339) ، وركز دراسته على النقش رقم (٢) . الذى ألقى ضوءاً جديداً على التقاويم اليمنية، كما غير من تواريخ حكم بعض ملوك سبأ وحمير التى كانت شائعة بين علماء الدراسات اليمينة القديمة .

لقد كان جبل المعسال يقع فى نطاق عاصمة قبيلة بنى معاهر التى تدعى فى النقوش « وعلان » وهذه القبيلة قتبانية الأصل أى كانت تخضع فى أول الأمر لدولة قتبان ثم خضعت لدولة حضر موت عندما اسقطت هذه الدولة دولة قتبان . ثم ما لبثت قبيلة بنى معاهر أن خضعت لدولة حمير عندما غزا ملوك حمير دولة حضر موت . وهكذا كانت قبيلة بنى معاهر وعاصمتها وعلان فى مركز الصراع بين هذه الدول الثلاث الذى انتهى بسيادة دولة حمير والتى ما لبثت أن اسقطت دولة سبأ وسيطرت على اليمن كله . وكان ذلك فى عصر الملكين الحميريين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش . وقد أرخت النقوش التى تروى هذه الأحداث لسنوات ٣٨٥، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ولم يكن معلوماً قبل قراءة نقش المعسال رقم (٢) مدلول هذه الأرقام على وجه التحديد وأن كان بعض العلماء قد رجح أن تكون هذه التواريخ محسوبة ابتداء من عام ١١٥ ق. م. كما قلنا، ولكن ذلك كان فى عداد الاحتمالات ويحتاج إلى دليل من النقوش حتى جاء هذا الدليل بشكل حاسم فى نص من النقش المذكور كما يلى :

القراءة : ب و ر خ ن / ذ م ذ ر أن / ذ ل ت س ع ت / و س ب ع هـ ى/

الترجمة : فى شهر ذومذر أن (يولية) من (سنة) تسع وسبعين .

القراءة: و م أ ت/ خ ر/ ى ف ت م / ب ن / خ ر ف / أ ب ع ل ى / ب ن/

الترجمة : ومائة (من) التقويم (حرفيا : سنوات) (الخاص) بزمن ابعلى بن ...

القراءة:/و ت خ ر ف/ ح م ى ر م/ ذ ل ث ل ث ت/ و س ث هـ ى/و ث ل ث

الترجمة : ... (الموافق فى) التقويم الحميرى (سنة) ثلاثة وستين وثلاث

القراءة : م أ ت م / ب ن / خ ر ف / م ب ح ض / ب ن / أ ب ح ض

الترجمة : مائة من تقويم (حرفياً : سنة) مبحض بن أبحض .

والواضح من هذا النص أنه حل مشكلة التعرف على تقويم « مبحض بن أبحض » وإثبات أنه هو نفسه التقويم الحميرى المستخدم فى نقوش العصور التالية، وبذلك ثبتت آراء كل من بيستون وريكما نزالتى ذكرناها والتى كانت قبل ذلك مجرد افتراضات . ولتفسير اختفاء اسم « مبحض بن أبحض » كأسم للتقويم من هذه النقوش قال العلماء بأنه حدث بعد توحيد دولة حمير لليمن كله تحت لوائها ، فلم يعد هناك داع لذكر اسم التقويم لأنه أصبح مفهوما أنه التقويم الخاص بالدولة الحاكمة.

وكانت لمعادلة السنة ٣٦٣ من التقويم الحميرى بالسنة ١٧٩ من تقويم «ابعلى» كما ورد فى النقش المذكور نتيجتان هامتان الأولى هى التعرف على البداية النظرية لتقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية (٣٦٣ - ١٧٩ = ١٨٤ - ١١٥ ق. م. = ٦٩م) . والنتيجة الثانية هى التعرف على التواريخ

الواردة فى النقوش التى أرخت بهذا التقويم دون أن تذكر اسمه لأن كلمة «أبعلى» وردت فى هذا النقش لأول مرة فى النقوش اليمنية القديمة ، فقد تمكن العلماء من التعرف على التواريخ المدونة بهذا التقويم من مقارنة أسماء القبائل والمناطق المقترنة بهذه التواريخ باسماء القبائل والمناطق الواردة فى نقش المعسال رقم (٢) ومثال ذلك النقش المرقم RES 3958 فى مجموعة النقوش السامية الذى لم يكن مصدره الأصلى معروفاً لدى العلماء هل هو من وادى بيحان ، أم من مارب ، أم من منطقة ريدان .(RES TOME, VI, P. 12) وهو مؤرخ بسنة ١٤٤ دون ذكر اسم التقويم ، فقد ورد فى هذا النقش ما يفيد أن كاتبه « القيل » (أى أمير الحصن) « نص يهحمد » ينتمى لقبائل ردمان وخولان ومعاهر ، وأن عاصمته هى « وعلان » (التى يقع فى نطاقها جبل المعسال) . ومن الواضح أنها نفس القبائل ونفس المنطقة المذكورة فى نقش المعسال رقم (٢) الذى أمكن عن طريقه التعرف على بداية تقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية كما تقدم ، وبذلك أمكن تحديد التاريخ الميلادى المقابل لسنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش وهى سنة ٢١٣ ميلادية . وقد استخدمت نفس الطريقة للتعرف على التاريخ الميلادى للنقوش الأخرى المؤرخة بهذا التقويم دون ذكر اسمه وهى السنوات ٧٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، وذلك بإضافة الرقم ٦٩ إليها فهى بذلك تعادل السنوات الميلادية ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١، ٢٤٨ ، ٢٦٧ على التوالى .

وبتطبيق النتيجة التى توصل إليها العلماء من التوحيد بين التقويم الحميرى وبين تقويم « مبحض بن ابحض » أمكن تحديد السنوات الواردة من عصر الملكين « ياسر يهنعم » وابنه « شمر يهرعش » المؤرخة بتقويم مبحض بن أبحض وهى السنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ المذكور معها اسم التقويم بالإضافة إلى السنة ٤٠٩ التى لم يذكر معها اسم التقويم ، بأنها تعادل التواريخ الميلادية ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ على التوالى .

وقد أفادت هـذه النتيجـة أيضـاً فـى التعـرف على البدايـة النظريـة للتقويـم المسمى « نبط » المذكور فى النقش رقم RES 4196 فى مجموعة النقوش السـامية والمؤرخ بسنة ٣١٦ من هذا التقويم ، فمن دراسةهذا النقش تبين أن كاتبه « القيل فرعن يازل » من قبيلة « بنى ذرانح » يظهر خضوعه للملكين ياسـر يهنعـم وابنـه شمر يهرعش أى أن النقش كتب أثناء اشتراك هذين الملكين فى الحكم ، ولما كانت هذه الفترة طبقاً لما سبق استخلاصه تمتد بين عامى ٣٨٥ و٤٠٩ حميريـة فـلا شـك أن عـام ٣١٦ مـن تقويـم « نبـط » يقـع فـى نطـاق هـذه الفـترة التـى إذا أخذنـا متوسطها وهو سنة ٣٩٧ حميرية وعادلناها بسـنة ٣١٦ مـن تقويـم « نبـط » فـأن فرق التقويمين يكون حوالى ٨١ سنة ، وهذه النتيجة تتفق تقريبـاً مـع رأى بيسـتون الذى سبق أن حدد الفرق بين التقويمين (قبل قراءة نقـش المعسـال رقـم ٢) بمدة تتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سـنة (Beeston 1981, p. 3) وعلـى هـذا فـأن البدايـة النظريـة لتقويـم نبط هـى حـوالى عـام ٣٥ - ٣٤ قبـل الميـلاد (١١٥ - ٨١ = ٣٤)(٥) .

وكما قلنا فأن العلماء استخدموا عبارة « البداية النظريـة » لإطلاقهـا علـى سنوات بدايـة التقـاويم الثلاثـة وهـى ١١٥ ق. م. للتقويـم الحـميرى أو تقويـم «مبحض بن أبحض» و ٣٤ ق. م. لتقويم « نبط » ، ٦٩ ميلادية لتقويم «ابعلى» وسبب ذلك أن هذه التقاويم لم تستخدم فعلاً فى هذه التواريخ ولكنها استخدمت بعد عدة قرون منها ، وعندما استخدمها اليمنيون فى هذا الوقـت المتـأخر نسـبوها إلى اسماء أجداد قدماء (رؤساء قبائل أو حكام أوائل) عاشوا خلال فترات البدايـة هذه . ويتضح ذلك من وجود كلمة « بن » فى اسماء هذه التقاوم وهى تعنـى أمـا « ابن » أو « من قبيلة » التى يليها اسم الأب أو القبيلة .

نتائج قراءة نقش المعسال بالنسبة لتعاصر ملوك سبأ وحمير :

أن النتائج السابقة التى توصل إليها العلماء من قـراءة نقـوش جبـل المعسـال وخاصة النقش رقم (٢) ، وأن كانت قد حلت مشكلة التعرف على ما هية وبداية

التقاويم اليمنية القديمة وتحديد المقابل الميلادى للتواريخ الواردة فى النقوش المؤرخة بها ، إلا أنها خلقت من ناحية أخرى مشكلة كبيرة هى اختلاف تواريخ حكم ملوك سبأ وحمير اختلافاً كبيراً عما كان معروفاً لدى العلماء من قبل ، فإن الذى دون النقش رقم (٢) وهو القيل « لحى عثت أوكن » أمير وعلان روى فيه أخبار انتصار سيده الملك الحميرى « كرب أيل أيفع » الذى أطلق عليه فى النقش لقب « ملك سبأ وذو ريدان » أى بإضافة كلمة « سبأ » إلى لقبه (وهذا له مغزى كبير ستتنا وله فيما بعد) - وقد روى هذا القيل انتصار مليكه الحميرى على الملك السبئى « أيل شرح يحضب » فى موقعة أطلق عليها اسم « ح ق ل ن / ذ ح ر م ت م » أى « حقل ذى حرمة » (Robin 1981, p. 323) والنقش مؤرخ كما ذكرنا بسنة ١٧٩ ابعلى وبسنة ٣٦٣ حميرية اللتان تعادلان سنة ٢٤٨ - ٢٤٩م . والدليل على صحة هذه المعلومات أن هذه المعركة نفسها ذكرت فى نقوش الملك السبئى « أيل شرح يحضب » باسم « ح ق ل / ح ر م ت م » أى « حقل حرمة » وذلك بين النقوش التى ترجع لعصر هذا الملك السبئى والتى وجدت فى معبد مأرب المسمى « محرم بلقيس » والتى نشرها العالم « البرت جام» وخاصة النقش رقم Ja578 (Jamme 1962, pp. 83 - 86) غير أن الطريف فى الأمر أن أعوان الملك السبئى « أيل شرح يحضب » الذين دونوا أخبار هذه المعركة فى النقوش المذكورة أدعوا انتصار مليكهم على الملك الحميرى الذى أطلقوا عليه لقب « ذو ريدان » فقط أى مجردا من كلمة « سبأ » بينما أطلقوا على مليكهم « ملك سبأ وذوريدان » وهذا معناه أن كل من الملكين السبئى والحميرى أضاف إلى لقبه الأصلى الذى به اسم بلاده (وهى « سبأ » بالنسبة للملك السبئى و « ريدان » بالنسبة للملك الحميرى) - اضاف اسم بلاد خصمه رمزاً لانتصاره عليه فادعى كل منهما إنه « ملك سبأ وذوريدان » وفى الوقت نفسه عندما يذكر كل منهما اسم ولقب خصمه يجرده من اسم بلاده هو ، فالملك

السبئى يدعو الملك الحميرى « كرب ايل (ايفع) ذوريدان أى بدون ذكر كلمة « سبأ » والملك الحميرى يدعو الملك السبئى «ايل شرح يحضب ملك سبأ» أى بدون ذكر عبارة « ذو ريدان » .

وهكذا تنافس الملكان فى انتحال لقب « ملك سبأ وذو ريدان » وفى تجريد كل منهما الآخر من أى ادعاء بالسيطرة على خصمه ، كما تنافساً فى ادعاء كل منهما الانتصار على الآخر فى موقعة حقل ذى حرمة .

ويهمنا من هذه المساجلات والروايات المتناقضة أن الملك السبئى « أيل شرح يحضب » وهو أيل شرح يحضب الثانى فى قوائم ملوك سبأ يميز بأخيه « يازل بين» عن أيل شرح يحضب الأول الذى يرجح أنه عاش فى القرن الأول الميلادى (Kitchen 1994, pp.11-13 & 202) وهذا الملك عاصر الملك الحميرى « كرب أيل ايفع » الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) مقترنا بتاريخ محدد (تاريخ معركة حقل ذى حرمة) وهو ٣٦٣ حميرية (زمن مبحض بن ابحض) و١٧٩ ابعلى ، وهما التاريخان المعادلان لسنة ٢٤٨ - ٢٤٩ ميلادية وهذه النتيجة احدثت انقلاباً كبيراً فى تحديد تواريخ حكم ملوك سبأ وملوك حمير فقد ترتب عليها انتقال فترة حكم الملك السبئى « ايل شرح يحضب الثانى » من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبالتحديد فى الفترة من ٥٠ - ٢٠ ق. م. كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل Jamme 1962, p.391 إلى ما بين عامى ٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية أى بتأخير ثلاثة قرون تقريباً ، ولم يعد الملك أيل شرح يحضب الثانى هذا هو الملك الذى عاصر حملة « ايلليوس جاللوس » الرومانية ضد دولة سبأ سنة ٢٤ قبل الميلاد والذى دعاه استرابون مؤرخ الحملة «ايلزاروس» كما كان يعتقد من قبل (Jamme 1962 , p. 391) بل انتقل ذلك إلى عصر الملك السبئى المسمى « ذمار على بين » الأول (حوالى ٣٠ - ١٥ ق. م.) ولما كان اسم هذا الملك لا يحمل نطق « ايلزاروس » مثل كلمة « ايلشرح » فى اسم الملك ايلشرح يحضب ، فقد رجح العلماء أن الذى تصدى

لحملة ايلليوس جاللوس هو أخ الملـك « ذمـار علـى بـين » المسـمى « ايلشرح » اعتماداً على النقش رقم (RES 4085) . (Kitchen 1994, p. 204) .

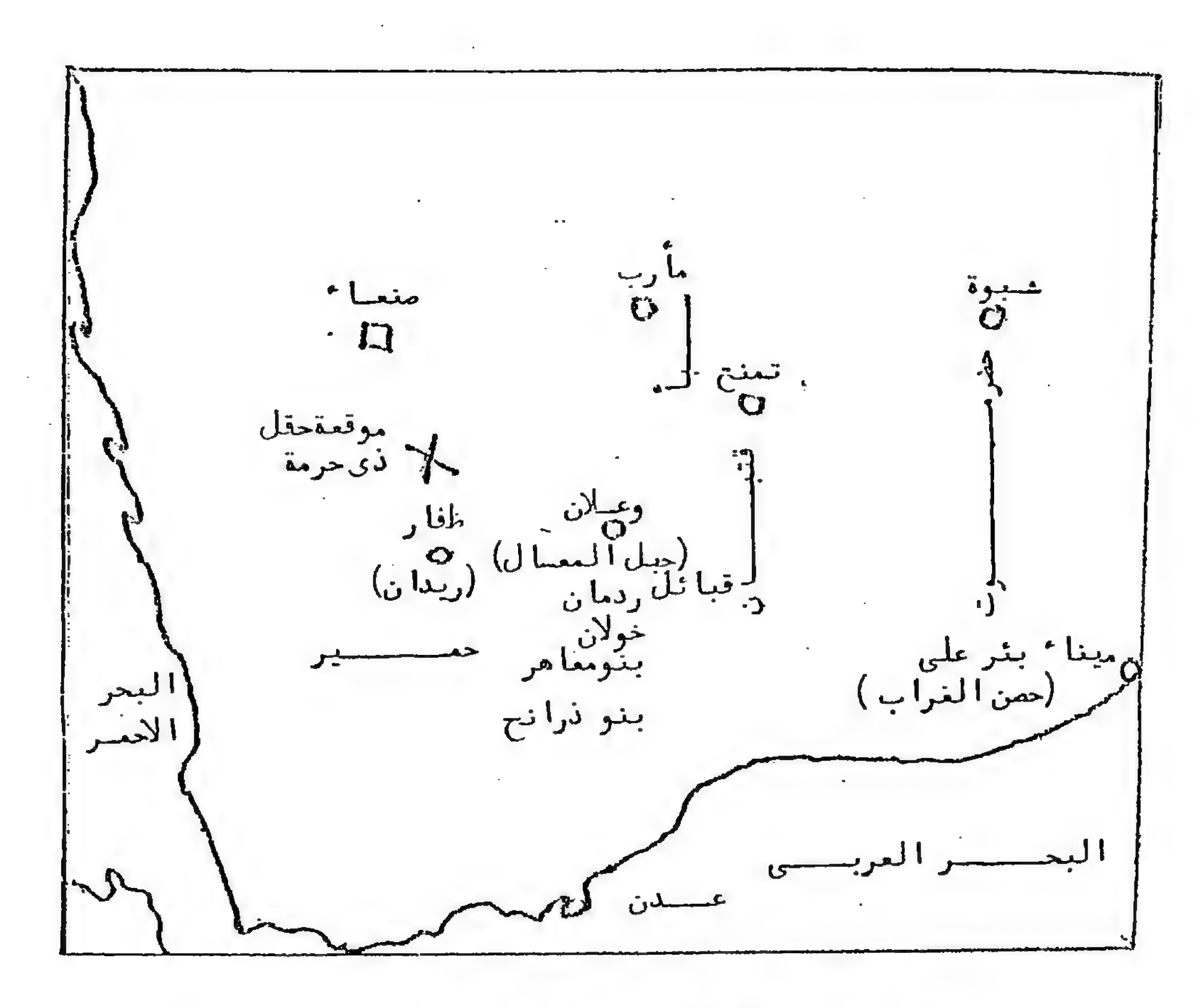
وبطبيعة الحال ترتب على هذا التأخيرلمدة ثلاثة قـرون تأخـير عصـور ملـوك سبأ الذين سبقوا الملك « أيل شرح يحضب الثانى » والذين خلفوه ، فالملوك الذين سبقوه وتعدلت تواريخ حكمهم هم :

اسم الملك	التاريخ السابق	التاريخ بعد التعديل
- وهب ايل يحوز	١٦٠ - ١٤٥ قبل الميلاد	١٥٠ - ١٦٥ بعد الميلاد
- إنمار يهأ من	١٤٥ - ١٣٠ قبل الميلاد	١٦٥ - ١٧٠ بعد الميلاد
- كرب أيل وتار يهأ من الثانى	١٣٠ - ١١٥ قبل الميلاد	١٧٠ - ١٨٥ بعد الميلاد
- يريم أيمن	١١٥ - ٨٥ قبل الميلاد	١٨٥ - ١٩٠ بعد الميلاد
- علهان نهفان	٨٥ - ٦٥ قبل الميلاد	١٩٠ - ٢٠٥ بعد اليلاد
- شاعر أوتر	٦٥ - ٥٥ قبل الميلاد	٢٠٥ - ٢٣٠ بعد الميلاد

(Jamme 1962, p. 390) (Kitchen 1994, p. 240)

ويلى ذلك اسما ملكين ، هناك خلاف بين العلماء على تحديد مكانهمـا مـن هذا التسلسل ، هما « لحى عثت يرخم » و « فرعم ينهب »(٦) ، ويأتى بعدهمـا الملك أيل شرح يحضب الثانى الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) والذى تعـدل تاريخ حكمه من ٥٠ - ٢٠ ق. م. إلى ٢٤٠ - ٢٦٠ م كما ذكرنـا وقـد خلفـه ملك واحد هو « نشأ كرب يهأ من » الـذى تعـدل تـاريخ حكمـه مـن ٢٠ - ٥ ق.م. إلى ٢٦٠ - ٢٧٥ ميلادية وهو آخر ملوك دولة سبأ ، فقـد استولت دولـة حمير على سبأ فى آخر عهده أى سنة ٢٧٥ ميلادية (Kitchen 1994, p. 245) وأخيراً فقد ثبت من نقوش المعسال أن حمير لم تكن مجموعة من القبائل المتفرقـة

المتناحرة كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل بل كانت دولة قوية استطاعت أن تسقط دولة سبأ وأن تسيطر على بلاد اليمن كلها (بعد أن اسقط الملك الحميرى شمر يهرعش دولة حضر موت حوالى عام ٢٩٠ ميلادية) وأن تفرض اسمها على كل مناطق اليمن مما دعا العلماء إلى تسمية العصر الذى بدأ بالربع الأخير من القرن الثالث الميلادى بعصرالإمبراطورية الحميرية (Kitchen 1994, p. 245) .



خريطة الجزء الجنوبى الغربى من الجمهورية اليمنية لبيان الدول القديمة وعواصمها وأسماء المواقع والقبائل الواردة فى هذه البحث

الهوامش

(١) هذه الأسماء هى التى وردت فى النقوش اليمنية القديمة مقترنة بأرقام سنوات ولكن هناك عدد كبير من النقوش أتبع فيها التأريخ بأسماء حكام أو زعماء قدامى أو معاصرين لتدوين هذه النقوش ، لا تذكر فيها أرقام سنوات بل يذكر فيها اسم الحاكم أو الزعيم مقترناً بسنة تنصيبه أو ولايته التى يفهم من سياق النقش أنها السنة الأولى من هذه الولاية والمثال النموذجى لذلك هو النص السبئى التالى :

ب و ر خ / ذ أ ب هـ ى / ذ خ ر ف / و دد ا ل / ب ن / أ ب ك ر ب / ب ن / ج ذ م ت

وترجمته : فى شهر ذوابهى (الأباء) من سنة ودد ايل بن أبيكرب من (قبيلة) حذمت.

(Beeston, 1954, p. 29).

وإذا كانت فترة الولاية هى الثانية لنفس الشخص كان السبئيون يضيفون كلمة « ث ن ى » بمعنى الولاية الثانية (Beeston 1954, p.28) .

(٢) نقش حصن الغراب : حفر هذا النقش على الصخر بجوار حصن قديم يطلق عليه « حصن الغراب » يطل على الميناء الحالى المسمى « بئر على » جنوب حضر موت ، وقد دونه القائد « سميفع أشوع » الذى كان يحارب الأحباش تحت قيادة الملك المسمى فى النقوش الحميرية « يسف أسار يثأر » (Jamme 1966, p. 39) وهو المعروف فى المصادر الإسلامية باسم « يوسف ذو نواس » الذى تنسب إليه هذه المصادر حادثة حرق شهداء نجران ، التى يرى الكتاب المسلمون أنها حادثة الأخدود المشار إليها فى سورة البروج . والواضح من سياق النقش أن القائد « سميفع أشوع » لجأ مع قبيلته إلى هذا الحصن البعيد بعد هزيمة مليكه وقتله على يد الأحباش .

ومن المفارقات الغريبة بشأن هذا النقش أن بعض الباحثين العرب مازالوا حتى اليوم يفسرون نصوصه بأنها تتحدث عن النبى هود وقوم عاد مقلدين فى ذلك قسيس أنجليزى يدعى Ch. Forester ترجم هذا النقش على أساس هذا التفسير الخطأ فى كتابه المسمى The historical geography of Arabia 1844, vol. 2, p. 445 ، وكان ذلك

قبل أن يتمكن العلماء المتخصصون فى النقوش اليمنية القديمة من قراءة هذه النقوش قراءة صحيحة . ولكن بعد أن تم لهم ذلك ترجموا هذاالنقش ترجمة صحيحة وتبين أنه لا توجد علاقة بين نصوص هذا النقش وبين النبى هود وقوم عاد ، وكانت أولى هذه الترجمات الصحيحة تلك التى نشرها العالم « بريتوريوس » سنة ١٨٧٢م ثم تلاها ترجمات ودراسات متعددة آخرها هى المنشورة فى « مجموعة النقوش السامية تحت رقم ٢٦٣٣ (RES 2633) والصادرة عام ١٩٢٨م .

ورغم التكرار المتواصل للترجمة والدراسات الصحيحة لنقش حصن الغراب طوال مائة عام فما زال هؤلاء المؤلفون العرب يكررون ترجمة القس فورستر الخاطئة بأن النقش يروى أخبار النبى هود وقوم عاد . ومنهم مترجمو كتاب التاريخ الجغرافى للقرآن الصادر فى مجموعة الألف كتاب الأولى عام ١٩٥٦ ص ١٨٣ ، ومقال « اللغة والأبجديات » لمحمد سالم شجاب المنشور فى مجلة الأكليل اليمنية عدد سنة ١٩٨٨ ص ٧٥ . فهل أصحاب هذه المؤلفات ما زالوا فى عزلة عن تقدم علم قراءة النقوش اليمنية القديمة لدرجة ترديد قراءة خاطئة غير معقولة لأحد هذه النقوش صدرت منذ مائة وخمسين عاماً وصححت لمدة مائة عام ؟

(٣) استخدمنا كلمة «التقويم» كترجمة لكلمة « خ ر ف ت م » الحميرية الواردة فى نهاية هذا النقش ومعناها الأصلى « سنة » وقدمنا كلمة « التقويم » قبل رقم السنة على عكس السياق فى النص الحميرى وذلك لكى يستقيم معنى الترجمة مع لغتنا العربية وسنسير على هذا المنوال فى ترجمة باقى النقوش فى هذا البحث أى فى ترجمة هذه الكلمة وشبيهاتها مثل « ت خ ر ف » و « خ ر ف » بكلمة « تقويم » .

(٤) يذكر محمد بافقيه أن تقويم « ابعلى » هذا ظل طويلا مثار تخرصات منذ أن عثر عليه مستخدماً فى النقش رقم RES 3958 (محمد بافقيه ١٩٨٠ ، ص ١٣) وهذا غير صحيح لأن النقش المذكور فضلا عن خلوه من اسم التقويم (ابعلى) فأن العلماء لم ينتبهوا إلى أنه مؤرخ بهذا التقويم لأن اسمه وقت ترجمة هذا النقش لم يكن معروفاً لديهم كما ذكرنا سابقا ، بدليل أن العالم « رودوكاناكس » الذى ترجم هذا النقش فى

مجموعة النقوش السامية (RES) اعتقد أنه التقويم الحميرى الذى يبدأ بسنة ١١٥ ق.م. فعادل سنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش المذكور بسنة ٢٩ ميلادية (١٤٤ - ١١٥ = ٢٩).

(٥) يعتبر روبان وفقيه أن هذا التاريخ وهو ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد يزيد أو ينقص بمقدار ١٥ عاماً وذلك فى مقالهما Christian Robin & Muhammad Bafaqih, « Deux nouvelles inscriptions de Radman datant du lle siecle de I'ere chretienne » Raydan, vol.4 (1981) , p. 87.

(٦) ملوك حمير الذين عاصروا ملوك سبأ المذكورين غير واضحة أسماؤهم فى النقوش مثل وضوح ملوك سبأ ، ويفترض العلماء أنهم بدأوا بالملك الذى بدأ باسمه التأريخ وهو « مبحض بن أبحض » وذلك فى سنة ١١٥ ق. م. ثم تلاه أربعة حكام مجهولين حتى سنة ٢٠ ق. م. عندما ظهر فى النقوش اسم ملك يدعى « سمه على ذرح » حكم ما بين ٢٠ - ٥ ق. م. ثم ملك يدعى « ذمار على وتار يهنعم » حكم من حوالى ٥ ق. م. إلى حوالى سنة الميلاد ، وبعد ذلك خضعت حمير لحكم سبأ التى حمل ملوكها لقب « ملك سبأ وذو ريدان » إلى أن بدأ ملوك حمير يظهرون ثانية فى النقوش السبئية بلقب « ذو ريدان » فقط ، وأولهم الملك « ياسر يهصدق « الذى حكم ما بين ١٤٠ - ١٤٥ ميلادية ، ثم تتوالى ملوك أغلبهم مجهولون حتى الملك » شمر يهحمد « الذى حكم ما بين ٢٣٠ - ٢٤٥ ميلادية يليه الملك كرب أيل ايفع » (٢٤٥ - ٢٦٥م) الذى حارب الملك السبئى « ايل شرح يحضب » الثانى فى موقعة حقل ذى حرمة كما جاء فى نقش المعسال رقم (٢) ، يليه الملك « ياسر يهنعم » (٢٦٥ - ٢٨٥ م) الذى اسقط مع أخيه « شمر يهرعش » دولة سبأ وبدأ بهما عصر الإمبراطورية الحميرية كما ذكرنا (Kitchen 1994, p. 244).

المصادر والمراجع

استخدامنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فى المؤلفات الأوربية والأمريكية والمعروف باسم Harvard Refenences System وذلك لتميزه على النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقت وجهد القارئ فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع .

المراجع العربية :

- محمد بافقية ١٩٨٠ : محمد عبد القادر بافقيه « أهمية جبل المعسال » ، حولية ريدان لوفان (بلجيكا) العدد الثالث ١٩٨٠ ص١٠ - ٢٨ (Raydan Louvain) .

المراجع الأجنبية :

- Abdel Monem 1984 : Abdel Monem A. H. Sayed « Reconsideration of the Minaean inscription of zayd il bin Zayd » PSAS, vol. 14, pp. 93 - 99.

- Albright 1958 : F. A. Albright , Zur Chronologie des Vorislamischen Arabien. Berlin.

- Beeston 1954 : A. F. L. Beeston , Epigaphic South Arabin calender and dating, London.

- Beeston 1981 : A. F. L. Beeston, « Old South Arabian Era dating , PSAS, vol, 11, pp. 1 - 6.

- Jamme 1962 : A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimere.

- Jamme 1966 : A. Jamme, Sabaean and hasaean inscriptions from Saodi Arabia, Rome.

- Jamme 1976 : A. Jamme, Garnegie Museum publication no. 2 pp. 110 - 119.

- Kitchen 1994 : K. A. Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.

- Muller 1973 : W. Muller , Ergebnisse der deutschen Jemen - Expedition, AFO, XXIV, p. 160 - 61.

- Robin 1981 : M. Christian Robin, « Les inscription d'Al - Micsal et la chronologie de l'Arabie Meridionale au IIIe siècle de l'ere chrétienne », AIBL pp. 315 - 339.

- Ryckmans 1943 : Gonsague Ryckmans, Chronologie Sabaenne, Paris,

Abbreviations .

- AIBL : Academie des inscriptions et Belles - Lettes, Comptes Rendus, Avril - Juin, 1981 Paris.

- AFO : Archiv fur Orient Forchung.

- MAFRAY : Mission Archéologique Française en R. A. du Yemn

- PSAS : Proceedings of the Seminar of Arabian Studies, London.

- RES : Répertoire d'Epigraphie Semitique, Paris.

مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد

حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى « رؤية نقدية »

أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى(*)

إن الحديث عن مناطق إنتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبان ومُرّ وطيوب وقصيعة وقرفة وغيرها ، حديث شائع فى المصادر الكلاسيكية اليونانية من هيرودوت فى القرن الخامس ق. م. حتى أجاثا رخيديس فى القرن الثانى ق. م.

ومن خلال هذا التتابع التاريخى يأتى ذكر عرب شبه الجزيرة - لا سيما عرب جنوب شبه الجزيرة العربية - فى المصادر الكلاسيكية ونحاول نحن أن نتتبع ما ذكر عنهم فى كل مرحلة بدءاً بالقرن الخامس حتى القرن الثانى ق. م. ففى القرن الخامس يركز هيرودوت على إنتاج مناطق جنوب الجزيرة لكافة أنواع الطيوب من لبان ومر وقصيعة وقرفة ولادن ، وإن لمح إلى أن القصيعة والقرفة ربما كانتا تنتجان فى بلاد أخرى (حيث تربى ديونيسوس) ويقصد بها بلاد الهند . كذلك ركز على أن غابات الطيوب كانت تحرسها ثعابين مجنحة تطرد برائحة العبهر المحروق . وذكر أن الفنيقيين كانوا يقومون بالوساطة التجارية فى نقل طيوب جنوب الجزيرة العربية إلى بقية الشعوب(١) . وفى القرن الرابع يحدد ثيوفراستوس قبائل عرب الجنوب التى تتحكم فى إنتاج وتجارة نفس أنواع الطيوب التى ذكرها هيرودوت ، مع إبراز سيادة وتفوق السبئيين على وجه الخصوص ، كما أشار إلى عدم وجود حراسة على غابات الطيوب ، مما حدا ببعض البحارة الأجانب الطامعين إلى سرقة كميات منها .كذلك ركز على الدور الهام الذى يقوم به كهنة إله الشمس فى تسيير دفة تجارة الطيوب والحصول على ثلث هذه الطيوب المباعة وتخصيصه لإله الشمس مما يوحى بنوع من الاحتكار لهذه التجارة

(*) أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

من قبل المعابد . وأشار إلى حكم عرب الجنوب لبعض الجزر المجاورة المنتجة للطيوب والتوابل(٢) (ربما كان يقصد المناطق الساحلية المجاورة في شرق أفريقيا). وفى القرن الثالث ق.م. نجد إراتوسثنيس يقسم قبائل العرب الرئيسية فى الجنوب ، وموقع كل منها، وعاصمة كل إقليم (معين وعاصمتها كارنا ، وسبأ وعاصمتها مأرب ، وقتبان وعاصمتها تمنا أو تمنع ، وحضر موت وعاصمتها شبوة) ، ونظام الحكم الملكى فيها ، وما تتمتع به من رفاهية وثروات . وركز على تخصيص مناطق لإنتاج طيوب بعينها ، فذكر أن قتبان تنتج اللبان فى حين تنتج حضر موت المر ، وقيامهم بمقايضة هذه الطيوب - وطيوب أخرى غيرها - مع التجار(٣) . أما من القرن الثانى ق. م. فنجد أجاثار خيديس - كما أورده ديودوروس الصقلى - لا يذكر من قبائل عرب الجنوب سوى السبئيين دون سواهم (ربما كانوا يتمتعون فى عصره بالسيادة على بقية عرب الجنوب كما ألمح ثيوفر استوس فى القرن الرابع)، ويسهب فى وصف ما لديهم من غابات الطيوب من كافة الأنواع، بأريجها الفواح على الساحل ، وفى الداخل . ويصف الثعابين الضخمة التى تحرسها مثلما ذكر هيرودوت . كما يسهب فى وصف الثراء والبذخ الأسطورى الذى تمتعت به سبأ وتدفق كميات الذهب والفضة عليها من تجارة الطيوب ، واستخدامهم لتلك المعادن النفيسة فى رياشهم وأدواتهم المنزلية(٤) .

هذه الكتابات المبكرة للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين اتسمت - رغم ما تحويه من معلومات قيمة عن عرب الجنوب - بسمتين قللتا نسبياً من أهمية المعلومات المستقاة عنهم : ألا وهما التعميم فى بعض الأحيان ، والخلط وعدم الدقة فى أحيان أخرى. فمن ناحية التعميم نجد هؤلاء الكتاب ينسبون إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة إنتاج كافة أنواع البخور والطيوب المذكورة . أما من تفادى منهم هذا الخطأ ومال إلى التحديد فإنه غالباً ما يقع فى الخطأ الأخر وهو الخلط وعدم الدقة فى المعلومات . وربما ذكر معلومات عكسية تماماً مثل تخصيص اراتوسثنيس - على لسان سترابون - لقتبان فى إنتاج اللبان وحضر موت فى إنتاج المر .

هذا التعميم أو الخلط لمناطق إنتاج وتصدير الطيوب العربية في المصادر الكلاسيكية في الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثاني ق. م. بحاجة إلى دراسة متأنية للمصادر والوثائق ، للوصول إلى قدر أكبر من التحديد حول هذه الجزئية . وسيحاول الباحث في هذا البحث القيام بهذه المهمة بخصوص إنتاج وتصدير أحد أهم طيوب مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو اللبان . ومن حسن الحظ أن مصادر القرنين الأول والثاني للميلاد تزودنا بمعارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير هذه السلعة الهامة من سلع عرب الجنوب ، ومن أبرز تلك المصادر المتاحة من الفترة المعنية كتاب « الطواف حول البحر الاريتري » لمؤلف مجهول ، وهو على الأرجح أحد تجار أو ملاحي الإسكندرية في مصر في القرن الأول الميلادي ، ممن كانوا يجوبون البحار الشرقية في جنوب بلاد العرب وشرق أفريقيا وبلاد الهند . وأراد من كتابه هذا أن يكون دليلاً للتجار والملاحين المصريين في تلك المناطق . وكذلك من مصادر تلك الفترة حول هذه النقطة مقتطفات هامة من مؤلف « التاريخ الطبيعي » لبليني الأكبر من القرن الأول كذلك . أما في القرن الثاني فإن هناك وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية يتمثل في المواضع المعنية بتلك المنطقة من كتاب « الجغرافيا » لبطلميوس الجغرافي. لكن المشكلة الحقيقية التي يعالجها هذا البحث هي أن هناك بعض التفسيرات الحديثة غير صحيحة حينا ، وغير دقيقة أحياناً ، أوردها بعض الباحثين ممن أدلوا بدلوهم في الموضوع ، مما أدى إلى فهم غير دقيق لبعض محتويات هذه المصادر في هذا الشأن . لذا سيحاول الباحث في الصفحات التالية أن يورد تلك الفقرات والمقتطفات الجدلية الخلافية من المصادر المذكورة أعلاه ، وتلك التفسيرات الحديثة لها من قبل بعض العلماء والباحثين الذين لا يتفق الباحث مع تفسيراتهم ويعتبرها غير صحيحة أو غير دقيقة . وأخيراً آراء وتفسيرات الباحث نفسه التي يعتبرها أكثر دقة وأقرب إلى الصواب ، وتبريرات ذلك . ثم يدعم الباحث تفسيراته بمجموعة من النقوش بالخط المسند حول إقامة مدينة تدعى « سمارام » لتصدير لبان منطقة ساكلان في جنوب الجزيرة العربية في عمان الحالية (من القرن الأول

ق. م.) ليثبت أن « سمارام » فى نقوش الخط المسند هى « موسخا » التى ورد ذكرها عند « الطواف » و « بطليموس الجغرافى » ، وأن ساكلان فى نقوش المسند هى منطقة « ساخاليتيس » فى المصدرين المذكورين المكتوبين باليونانية من فترة لاحقة فى القرنين الأول والثانى للميلاد .

والأن لنبدأ فى ذكر ما ورد فى المصادر المكتوبة باليونانية حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى فى مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية :

ففى مؤلف « الطواف » يرد ما يلى :

- على بعد نحو ألفى ستاديون إلى الشرق من ميناء العربية السعيدة (عدن) « يقع ميناء تجارى آخر على الساحل (الجنوبى للجزيرة العربية) هو كانى (قانا) وهو يتبع مملكة إلياذوس الأرض المنتجة للبان ... وفيما وراء « كانى » تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل ، وهى مقر إقامة الملك كذلك . وكل ما ينتج فى المنطقة من لبان يؤتى به إليها حيث كانت بمثابة مستودع ، وذلك عن طريق الإبل والقوارب المحلية الصغيرة المصنوعة من الأكياس الجلدية والسفن(٥) .

- وبعد « كانى » تنحسر أرض الشاطى أكثر فأكثر ، يلى ذلك خليج عميق جداً يمتد لمسافة طويلة يسمى خليج ساخاليتيس وأرض اللبان ، وهى منطقة جبلية وعرةهواؤها ثقيل وضبابية أسفل الأشجار المنتجة للبان . ولكن الأشجار المنتجة للبان هنا ليست ضخمة ولا مرتفعة وهى تفرز اللبان الذى يتجمد على لحائها كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشجار لدينا فى مصر التى تفرز الصمغ . ويقوم على جمع اللبان عبيد ملكيون وسجناء أرسلوا لقضاء فترة عقوبة(٦) .

- ويقع على هذا الخليج مرتفع هائل وجهته نحو الشرق ويسمى سياجروس (رأس فرتك) به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان(٧) .... إلخ .

وبعد سياجروس مباشرة يوجد خليج ممتد ينبعج بعمق نحو الساحل . وتقع عمان على مسافة ستمائة ستاديون من طرف هذه الخليج ، وبعدها جبال شاهقة صخرية شديدة الانحدار ، حيث يعيش أناس فى كهوف لمسافة خمسمائة ستاديون أخرى . وبعد هذه الأماكن يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس يسمى ميناء موسخا (خور رورى / على الساحل العمانى) ... وفى مقابل الأقمشة القطنية والحبوب والزيت كان هؤلاء التجار يأخذون من الوكلاء الملكيين لبانا من تشكيلة كلها من منطقة ساخاليتيس »(٨) .

أما بلينى الأكبر فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى » فيذكر أنه لم يكن هناك من ينتج اللبان باستثناء العربية (يقصد جنوب الجزيرة العربية) وأن اللبان لم يكن ينمو فى كل مناطقها بل فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة تقريباً حيث تقع مملكة تسمى Astramitae تابعة (لنفوذ) السبئيين . وعاصمة هذه المملكة هى سابوتا التى تقع على جبل مرتفع ؛ وعلى بعد ثمانية أيام من العاصمة تقع المنطقة المنتجة للبان فى هذه المملكة وتسمى ساريبا ، وهو اسم يعنى بالنسبة للإغريق « السر الغامض »(٩) .

(واضح أن المملكة المقصودة التى تقع فيها مناطق إنتاج اللبان هى «حضرموت» وأن عاصمتها سابوتا هى « شبوة » وأن المنطقة المنتجة للبان هناك والتى يسميها ساديبا تقع شرقى حضر موت فى الأغلب) .

وفى فقرة أخرى يذكر بلينى أنه ليس هناك من بين العرب بخلاف هؤلاء (يقصد الحضارمة) من وقع بصره على شجرة اللبان . ولا يسرى هذا القول على كل (الحضارمة) بل أن عدداً لا يزيد على ثلاثة آلاف أسرة احتفظوا لأنفسهم بهذا الحق الوراثى (زراعة أشجار اللبان ورعايتها وجمع المحصول) . ولذلك كان يطلق عليهم المباركون . وهؤلاء لا يسمح لهم بتدنيس أنفسهم

بجماع النساء أو (السير) فى الجنازات ، عندما يكونون مشغولين بحز وشق تلك الأشجار للحصول على اللبان ، مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار اللبان لارتباطها بمفاهيم دينية(١٠) .

وفى موضع آخر يقول بلينى أنه بعد جمع اللبان كان ينقل بالجمال إلى سابوتا (شبوة) وتفتح لذلك إحدى بوابات المدينة . وكان الجنوح عن هذا الطريق (من قبل أصحاب الجمال المحملة باللبان) يعد جريمة كبرى فى عرف الملوك . وهناك (فى شبوة) كان الكهنة يأخذون عشوراً (ضرائب صغيرة) لإله يسمونه سابيس - وهى ضرائب تقدر بالمعيار وليس بالوزن ولا يسمح بعرض البخور فى السوق قبل أداء هذه الضريبة(١١) .

* * *

لنحاول الآن أن نستخلص من المعلومات السابقة الواردة فى المصدرين الطواف وبلينى الأكبر - بعض النتائج المحققة حول مناطق إنتاج اللبان وتخزينه واحتكاره ومناطق توزيعه وتصديره .

يتضح من حديث المصدرين حول إنتاج اللبان أن المنطقة الرئيسية لإنتاج اللبان هى مملكة حضر موت التى كانت عاصمتها شبوة (سيرد الحديث عن امتداد ومناطق نفوذ هذه المملكة نحو الشرق لاحقاً فى هذا الجزء) وأن أقرب منفذ للتصدير البحرى للبان لشبوة هى كانى أو قانا (حصن الغراب حسب تفسير كاسون للطواف) . ويذكر فى « الطواف » أن ملك هذه المملكة (حضر موت) يسمى إليازوس (على الأرجح « العز » ، كما سنرى لاحقاً) . ويتفق المصدران على أن كل لبان المنطقة (المملكة الحضرمية) كان يجمع فى منطقة معينة من المملكة بعد جمع المحصول من على أشجاره . وهذه المنطقة ذكرها بلينى صراحة على أنها العاصمة شبوة (سابوتا) التى كان المحصول ينقل إليها بالجمال، بل زاد من درجة اليقين حول هذه النقطة حين أورد أن ملوك حضر موت كانوا

يعدون أى انحراف عن هذا الطريق (المؤدى لشبوة) من جانب أصحاب الجمال المحملة باللبان جريمة كبرى . أما مؤلف كتاب « الطواف » فيفهم من حديثه أيضاً أن كل محصول اللبان من مملكة إليازوس (حضر موت) كان يذهب إلى ساوباثا (شبوة) العاصمة ، ولكن صياغة العبارة فى « الطواف » جعلت ليونيل كاسون - فى ترجمته للفقرة ٢٧ من الطواف وتعليقه عليها ص ١٦٢ ، ومن قبل فان بيك ، يرون أن منطقة تجميع محصول اللبان هى ميناء كانى(١٢) . (حصن الغراب) ، وهذا خطأ .

فبالإضافة إلى وضوح ومباشرة نص بلينى بخصوص شبوة - كما أسلفنا - فإن الأرجح والأقرب للمنطق أن مؤلف « الطواف » كان يقصدها كذلك فى نصه ، ولنعد إلى النص لنتأكد من مدى دقة هذا الترجيح . فى هذه الفقرة ٢٧ من الطواف يرد الحديث عن ميناء « كانى » الذى يتبع مملكة إليازوس (حضر موت) أرض اللبان ، ويذكر جزيرتين قاحلتين قريبتين من هذا الميناء هما جزيرة الطيور (سيخا) وترويلاس (براقة) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستأديون من «كانى» ثم يورد ما يلى :

« وفيما وراءها (يقصد كانى) تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل (أى بعيداً عن الساحل) والتى هى كذلك مقر إقامة الملك . وكل ما ينتج فى المنطقة (مملكة إليازوس) (حضر موت) من اللبان يؤتى به إليها (واضح أنه يقصد ساوباثا أى شبوة) إذ كانت بمثابة مستودع ، عن طريق الإبل والقوارب المحلية المصنوعة من الأكياس الجلدية وعن طريق السفن »(١٣) .

إن تفسير كاسون وفان بيك بأن كل محصول اللبان كان ينقل إلى «كانى» غير مقبول للأسباب الآتية :

(أ) أن نص الطواف واضح الدلالة فى إشارته إلى ساوباثا (شبوة) وليس إلى كانى (حصن الغراب) .

(ب) من غير المنطقى أن ينقل « كل ما تنتجه المنطقة (المملكة) من لبان » إلى ميناء واحد هو « كانى » دون بقية الموانىء والمستودعات الساحلية الأخرى فى مملكة حضر موت مثل سياجروس (رأس فرتك) وموسخا (خور رورى) . كان يمكن أن يكون تفسير كاسون مقبولاً لو أن المحصول المنقول كان محصول المنطقة القريبة من كانى (أى محصول جزء من المملكة) ، أما حين يتعلق الأمر بمحصول المملكة كلها فالأقرب إلى المنطق أن يذهب إلى عاصمة المملكة فى شبوة حيث يقيم الملك ، لا سيما فى حالة وجود احتكار ملكى للسلعة وهو ما تشير القرائن إلى أنه كان موجوداً(١٤) .

(جـ) قد يثور اعتراض على أن مكان تجميع محصول اللبان هو شبوة ، من جهة أن وسيلة نقل هذا اللبان كانت الجمال والقوارب الصغيرة والسفن ، وهى وسائل نقل إلى ميناء وليس إلى مكان داخلى مثل شبوة .

وللرد على هذا الاعتراض الأخير نقول أنه إذا صح كلام بلينى من أن شبوة تبعد مسافة ثمانية أيام عن (أقرب - فيما أتصور) مناطق إنتاج اللبان (إلى الشرق والجنوب الشرقى كما سيتضح) فمعنى هذا أن مناطق إنتاج اللبان (الممتدة لمسافة كبيرة نحو الشرق عل خليج ساخاليتيس الذى سنتحدث عنه لاحقاً ، وعن مدى امتداده والذى ورد ذكره فى فقرات الطواف المقتبسة أعلاه) كانت تبعد مسافات كبيرة عن شبوة كان أقلها حوالى ثمانية أيام . هذا ربما يعنى أن الجمال كانت تنقل اللبان من مناطق إنتاجه القريبة نسبياً بطريق البر إلى شبوة مباشرة . أما مناطق الإنتاج الأبعد نسبياً فربما كان لبانها ينقل بالبحر بالقوارب الصغيرة أو السفن (حسب المسافة) من أقرب نقطة لمناطق الإنتاج على الساحل الحضرمى (ساحل مملكة حضر موت) إلى أقرب نقطة ساحلية على هذا الشاطىء إلى العاصمة شبوة فى الداخل . هذه النقطة الساحلية الأقرب إلى شبوة (فى مملكة حضر موت) هى بالتأكيد ميناء كانى (حصن الغراب) الذى كانت تنتقل إليه حمولات اللبان من مناطق الإنتاج . لكن « كانى » لم تكن - فى هذه الحالة - المحطة النهائية التى

يقطعها محصول اللبان على القوارب والسفن ، بل كانت المحطة قبل الأخيرة ، إذ كانت الجمال تنقل اللبان الذى تم تفريغه فى « كانى » من الأخيرة إلى شبوة حيث المستودعات الملكية هناك .

هذا التفسير يتفق وما ورد عند بلينى من أن اللبان كان ينقل بالجمال إلى شبوة وأن إحدى بوابات المدينة كانت تفتح لهذا الغرض . وكانت هذه الجمال تنقل اللبان إما من مناطق الإنتاج إلى شبوة مباشرة أو من « كانى » - حيث اللبان الذى أتى إليها بالبحر كما أوضحت - إلى شبوة . وبعد وصول المحصول كله إلى شبوة حيث المستودعات الملكية والموظفون الملكيون المنوط بهم مسألة إدارة الاحتكار الملكى يبدو أنه كان يتم حصر كميات محصول اللبان ومنح حصتها (عشورها) من اللبان التى أشار إليها بلينى ، وبعد ذلك ربما كان المحصول يوزع بطريقة مركزية ومحسوبة من المستودعات الملكية المركزية فى شبوة إلى منافذ وموانئ بيعه وتصديره البرية والبحرية .

وإذا كان بلينى قد أوجز فيما يتصل بمناطق إنتاج اللبان فذكر أنها تبعد مسافة ثمانية أيام من شبوة ، وأن ثلاثة آلاف عائلة قد تخصصت بصورة وراثية فى حصاد أشجار اللبان والعمل فيها وأطلق عليهم المباركون ، فإن « الطواف » قد افاض نسبياً فى الحديث عن مناطق الإنتاج وظروفه وموانئ التخزين والتصدير ، كما رأينا فى الفقرات المقتبسة عنه أعلاه . فقد ذكر هذا المؤلف معلومات عن «خليج ساخاليتيس الذى هو أرض اللبان وعن ميناء ومستودع سياجروس (رأس فرتك) حيث يخزن لبان هذه المنطقة ، وبعدها بحوالى ألف ومائة ستاديون(*) (فى نهاية « خليج عمان » كما أسماه الطواف أو « خليج القمر » الحالى شرق رأس فرتك) يوجد ميناء موسخا (خور رورى قرب صلالة على ساحل ظفار غرب

(*) الـ « ستاديون » وحدة إغريقية قديمة من وحدات قياس الطول تبلغ حوالى ٦٠٧ قدماً انجليزياً أى أقل قليلاً من مائتى متر أو ثمن ميل أو خمس كيلو مترا .

سلطنة عمان) حيث يتم تصدير وتجارة لبان منطقة الساخاليتيس ، بالإضافة إلى ميناء كانى (حصن الغراب) المقابل لشبوة على الساحل الحضرمى الغربى والذى سبق الحديث عنه .

ونأتى الآن للحديث عن « خليج ساخاليتيس » هذا كما ورد عند «الطواف» الذى حدد بدايته من جهة الغرب بأنه ذلك الخليج العميق الذى يعقب أرض الشاطىء المنحسرة بعد ميناء « كانى » (ربما بدءاً من المكلا الحالية على الساحل فى وادى حضر موت) ، ثم يحدد مؤلف « الطواف » - بصفته تاجر وملاحاً - أهم المعالم التجارية على ساحل هذا الخليج الطويل الممتد επὶ πολὺ παρεκτείνων .

فيذكر سياجروس (رأس فرتك) بصفتها مرتفع هائل على هذا الخليج به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان ، وبعدها يذكر خليجاً عميقاً منبعجاً فى الساحل هو خليج عمان - حسب تسمية الطواف - تبلغ المسافة بين طرفيه ستمائة ستاديون (خليج القمر الحالى) ومن بعده بخمسمائة ستاديون أخرى (ألف ومائة ستاديون من رأس فرتك) « يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس ويطلق عليه ميناء موسخا » . وفيما وراء هذا الميناء لمسافة ألف وخمسائة ستاديون أخرى تقع (فى الداخل) سلسلة جبلية تمتد (نحو الشرق) حتى منطقة تسمى أسيخون يقابلها على الشاطئ سبع جزر يسميها جزر زنوبيوس (جزر كوريا موريا الحالية) وبعدها تمتد بلد أخرى أجنبية لا تنتمى لنفس المملكة أى مملكة إليازوس (حضر موت) بل تنتمى لبلاد الفرس(١٥) .

معنى الكلام السابق أن أقصى الحدود الشرقية لمملكة حضر موت - حسب وصف الطواف - كان المنطقة الداخلية المقابلة لجزر كوريا موريا فى سلطنة عمان الحالية ، وأن منطقة الساخاليتيس كانت تمتد من شرق كانى (حصن الغراب) نحو الشرق حتى ميناء موسخا - على الأقل - الذى كان لبان هذه المنطقة يشحن منه(١٦) ، رغم تسمى المنطقة الساحلية الواقعة قبل « موسخا » بمسمى محلى هو

« خليج عمان » ، بل ربما كانت منطقة الساخاليتيس تمتد أكثر من موسخا (خور روري) نحو الشرق حتى نهاية حدود مملكة اليازوس (مملكة حضر موت) على الساحل وفى الداخل قبالة جزر كوريا موريا .

ولكن يرى بعض العلماء أن بطلميوس الجغرافي والفلكي السكندرى من القرن الثانى الميلادى قد حدد منطقة ساخاليتيس - أرض اللبان - بانها تقع إلى الشرق من سياجروس (رأس فرتك) على العكس من جغرافى سابق له هو مارينوس الذى يرى أن هذه المنطقة تقع إلى الغرب من رأس فرتك(١٧) ، وعلى العكس كذلك من فهم البعض الخاطىء للتحديد الجغرافى للمنطقة من قبل مؤلف « الطواف » على أنها تمتد من شرق « كانى » (حصن الغراب) حتى سياجروس (رأس فرتك) أى إلى الغرب من سياجروس كما وصفها مارينوس(١٨) .

والواقع أن بطلميوس الجغرافى لم يحدد منطقة « الساخاليتيس » بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس كما فسره أو فهمه هؤلاء العلماء بطريق الخطأ ، بل أن وصفه الجغرافى لهذه المنطقة يكاد يتطابق مع التحديد الذى أوردناه قبل قليل عند مؤلف « الطواف » . ولكن العلماء الذين قالوا بوجود تناقض واختلاف بين تحديد المصدرين للمنطقة ، لم يقرأوا وصف بطلميوس القراءة الدقيقة والصحيحة فيما اعتقد . صحيح أن بطلميوس صنف مناطق « أرض حضر موت » من الغرب إلى الشرق وجعلها تبدأ بمنطقة تسمى « مدينة أبيسما Ηβισμα πόλις » وتنتهى فى الشرق بـ « رأس سياجروس εύαγρος ακρα » ، ثم بدأ الفقرة التالية بعد نهاية هذه الفقرة مباشرة - أى بعد الحديث عن « رأس سياجروس » - بالحديث عن إقليم « الساخاليتيين » فى فقرة مستقلة تحدث فيها عن مواقع هذا الإقليم . ومن هنا ربما حدث الخلط الذى ذهب إليه العلماء المشار إليهم فذكروا أن بطلميوس قد أوضح صراحة أن « الساخاليتيس » تقع بعد « سياجروس » .

لكن بنظرة أعمق قليلاً إلى نص بطلميوس ندرك أن الأمر لم يكن كما ذهب هؤلاء العلماء إلى فهمه :

ففى حديث بطلميوس عن « أرض حضر موت » يجعل أول مناطقها من الغرب وهى « مدينة ايبيسما » تقع على خط طول هو ٨٢ وخط عرض ١١ ٣/٤ ، وآخر هذه المناطق وهى « سياجروس » فى الشرق على خط طول ٩٠ وخط عرض ١٤ . أما مواقع إقليم « الساخاليتيين » فتبدأ من الغرب بموقع يسمى « قرية ميتاكون » على خط طول ٨٨ وخط عرض ١٦ ١/٢ ، وتنتهى فى الشرق بموقع يسمى « مرتفع كورودابون » الذى يقع على خط طول ٩٣ وخط عرض ٢٠ ١/٤ (١٩)(*) .

من هذا التصنيف أعلاه يتضح أن بطلميوس قد أورد أقليم « ساخاليتيس » بعد مواقع « أرض حضر موت » وآخرها سياجروس كنوع من الترتيب الوصفى لمادته ، وليس بحسب الموقع الجغرافى المحدد بخطوط الطول والعرض . فمن خلال ملاحظتنا لمواقع « أرض حضر موت » والواقعة بين خطى طول ٨٢ ، ٩٠ وخطى عرض ١١ ٣/٤ ، ١٤ ، ومواقع « الساخالتيين » الواقعة بين خطى طول ٨٨ (أو بالأحرى ٨٧ ١/٣ ، حيث أورد بعد الموقع الأول موقعين آخرين على خطى طول ٨٧ ١/٣ ، ٨٧ ١/٢) ، ٩٣ وبين خطى عرض ١٦ ١/٢ ، ٢٠ ١/٤ ، ندرك أن بطلميوس أورد تحت الفقرة المعنونة مواقع « أرض حضر موت » المواقع الساحلية « الجنوبية » من مملكة حضر موت ، ثم تلاها بمواقع « الساخاليتيين » وهى المواقع الداخلية (الشمالية) من المملكة وخصوصاً منها المناطق الداخلية المقابلة لخليج « الساخاليتيس » كما ورد عند « الطواف » وهى (أى المناطق الداخلية) ما أسماه بطلميوس هذه المرة باسم الساخاليتيس .

(*) هذا التحديد بخطوط الطول والعرض هو حسب رؤية بطلميوس الفلكى والجغرافى حسب معايير عصره طبعاً ، وليست خطوط الطول والعرض الحالية .

ولمزيد من تأكيد هذا الترجيح فإننا نجد أن ميناء « كانى » يقع عند بطلميوس على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرمى) فى حين يبدأ أول موقع من منطقة « الساخاليتيين » عند خط طول ٨٧ ١/٣ ، (لكن فى المنطقة الداخلية من حضر موت) وآخر مواقعها يقع على خط طول ٩٣ (وهى منطقة طويلة وممتدة) ومعنى ذلك أن كلا من « الطواف » و « بطلميوس » قد جعلا منطقة « الساخاليتيس » تمتد من شرق ميناء « كانى » (حصن الغراب) حتى آخر حدود مملكة حضر موت فى الجزء المقابل لجزر زنوبيوس (كوريا موريا) التى تبدأ بعدها منطقة أجنبية تابعة للفرس . الفارق ببساطة هو أن « الطواف » أطلق مسمى « الساخاليتيس » على الجزء الساحلى من هذه المنطقة - بصفته تاجراً وملاحاً يتعامل مع الموانئ والمناطق الساحلية - ولذلك اسمى هذا الامتداد الكبير «خليج ساخاليتيس» ، أما بطلميوس فقد أطلق مسمى أرض « الساخاليتيس » على « المناطق الداخلية » لنفس هذا الامتداد السابق وهى المناطق المنتجة للبان فى مملكة حضر موت . والأصح - فى تقديرى - هو تحديد بطلميوس الجغرافى ، بمعنى أن المناطق الداخلية المنتجة للبان فى مملكة حضر موت حسب الامتداد الذى ذكره بطلميوس هى التى كانت تسمى فى الأصل « أرض الساخليتيس » ثم صارت المنطقة الساحلية المقابلة لها تسمى باسم المنطقة الداخلية ، أى « خليج الساخاليتيس » إجمالاً حتى وإن اكتسبت مناطق منه مسميات محلية كخليج عمان مثلاً .

هذا التفسير - خصوصاً لوصف بطلميوس الجغرافى - يفسر عبارة وردت فى الكتاب الأول لبطلميوس يقول فيها « إن مارينوس حدد خليج ساخاليتيس بأنه يقع على الساحل الغربى من رأس سياجروس ، ولكن كل من يبحرون فى هذه البقاع يجمعون معى أنه (يمتد) إلى الشرق من سياجروس وأن الساخاليتيس منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليتيس اسمه(٢٠) . (الكتاب الأول - فقرة ١٧). اعتقد أنه فى ضوء الوصف الجغرافى التفصيلى لبطلميوس لمنطقتى « أرض حضر موت » Αδραμιτων χωρας ثم منطقة « الساخاليتيين » Σαχαλιτων (فى

الكتاب السادس - الجزء السابع - فقرتى ١٠ ، ١١) فإن بطلميوس يعنى فى فقرته السابقة أن خليج الساخاليتيس لا ينتهى شرقاً عند رأس سياجروس وبالتالى لا يقع غربها فقط ، بل يمتد كذلك إلى الشرق من هذه النقطة بإجماع من أبحروا فى تلك البقاع ، أى أنه لم يقصد القول أنه يقع إلى الشرق - فقط - من رأس سياجروس .

لكن ما تزال هناك مشكلة فى وصف بطلميوس للمنطقة الساحلية من «أرض حضر موت» وهى أنه جعل « سياجروس » (التى حدد معظم العلماء موقعها بـ « رأس فرتك ») نقطة النهاية للساحل الحضرمى ، فى حين رأينا فى «الطواف» أن آخر المواقع الهامة على هذا الساحل هى « موسخا » (خور رورى) . هل معنى هذا أن بطلميوس لم يذكر « موسخا » فى وصفه الجغرافى لحدود منطقة حضر موت الساحلية ؟ بلى أوردها وتحت اسم « ميناء موسخا » كما أورد قبلها « ثياليلا » وهى صلالة الحالية فى ظفار قبل « خور رورى » أو موسخا القديمة . معنى هذا أن بطلميوس قد أخطأ فى تحديد موقع « سياجروس » وبدلاً من أن يجعلها قبل صلالة وموسخا جعلها تقع بعدهما . إذن فقد ذكر بطلميوس الجغرافى موانىء مملكة حضر موت على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وهى كانى وسياجروس وموسخا ولكنه أخطأ - على الأرجح - فى تحديد موقع سياجروس .

ومن الأمور الطريفة التى ألقت مزيداً من الضوء على موقع ساخاليتيس وميناء « موسخا » (خور رورى) أن بعثة أمريكية تابعة للمؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان قامت فى أعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ بحفائر فى موقع « خور رورى » وكان من بين اكتشافاتها من هذا الموقع ستة نقوش بالخط المسند تتحدث عن تأسيس مدينة أو ميناء فى منطقة « سكلان (الاسم العربى للإقليم الذى يكتب «ساخاليتيس» باليونانية كما رأينا عند الطواف وبطلميوس) .

هذه النقوش نشرتها جاكلين بيرين فى العدد الأول من « مجلة دراسات عمان » عام ١٩٧٥ (هامش رقم ٧٢) .

تتحدث هذه النقوش عن إقامة أو إنشاء مدينة تسمى « سمارام » (بمعنى «المبتغى السامى» من كلمتى سما يسمو ، ورام يرام(٢١) . أي يبتغي وينشد ، وقد وردت فى خريطة فى مقدمة كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى عن حفائر « الفاو » باسم « سامراء ») فى أرض «سكلان » بأوامر من الملك «العز يالوط» ملك حضر موت أصدرها إلى قائد الجيش الحضرمى ويدعى أبياتاع صالحين بن ذمر على ، وأشرف هذا الأخير على كل مراحل التنفيذ . وكتب هذه النقوش موظفون ملكيون أسندت إليهم مهام مثل تنظيم موقع المدينة الجديدة وإمدادها بالمياه (النقش الأول) وبالبناء والتشييد (النقش الثانى)، كما قام بعض المستوطين الجدد بكتابة نقوش أخرى مثل الرابع الذى كتبه جماعة من النساجين .

وهذه النقوش تكاد تسير على وتيرة واحدة إذ يذكر كاتب النقش اسمه (أو أسماءهم لو كانوا مجموعة) ، كما يذكرون مواطنهم الأصلية التى قدموا منها إلى هذا المكان الجديد . وقد أتى معظمهم - إن لم يكن كلهم - من العاصمة «شبوة» ورحلوا عنها بأوامر ملكية لتوطين المدينة الجديدة « سمارام » . ويذكر فى نقشين من هذه النقوش (النقشين الثالث والرابع)(٢٢) . أن المستوطنين الجدد كانوا ينتمون إلى أحد بطون قبيلة حاتم فى شبوة هو بطن عميس حيث يذكر فى النقشين حرفيا أنهم من أهل (عميس ثلث حاتم ويضمون ذلك الجزء الذى اختير للتهجير) .

وهناك بعض التعليقات العامة للربط بين محتويات هذه النقوش وما ورد عند « الطواف » و« بطلميوس » . أول هذه الملاحظات هو أن مدينة « سمارام » الجديدة التى أمر الملك الحضرمى « العزيالوط » - من القرن الأول ق. م. حسب تأريخ جاكلين بيرين لهذه النقوش من خلال خطوطها - تقع فى موقع (خور

روری) أو موسخا التی وردت عند « الطواف » ، وورد اسمها عند بطلميوس رغم أنه لم يحدد موقعها بدقة كما رأينا أعلاه . إذن فإن « سمارام » هی نفسها *«موسخا» (الأولى التسمية العربية والثانية اليونانية القديمة) ميناء تصدير اللبان* لمنطقة « سكلان » (سا خاليتيس) المنتجة للبان . والملاحظة الثانية هو اسم الملك الحضرمی من القرن الأول ق. م. الذی أمر بإقامة المدينة وهو « العز يالوط » ومنه يتضح أن اسم « العز » كان اسماً مألوفاً فی العائلة الملكية الحضرمية حينذاك ، إذ نجد فی مؤلف « الطواف » - من حوالی منتصف القرن الأول الميلادی - أن *مملكة حضر موت وعاصمتها شبوة مقر إقامة الملك الحضرمی كانت تعرف بـ* «مملكة إليازوس» والتی تعنی بلا شك « مملكة العز » . والملاحظة الثالثة هو ان الموظفين الملكيين الذين أسندت إليهم بعض مهام تعمير وتخطيط المدينة الجديدة يصفون أنفسهم فی هذه النقوش (النقشين الأول والثانی) بأنهم « عبد العز يالوط ملك حضر موت » . هذه الإشارة فی النقوش تفسر ما سبق أن ذكر عند « الطواف » من أن القائمين على جمع لبان مناطق الساخاليتيس (السكلان) كانوا من العبيد الملكيين وممن أرسلوا لقضاء فترة عقوبة فی هذه المناطق (الفقرة ٢٩) . من خلال نقوش « سمارام » يبدو أن كل من كان يكلف بمهام من قبل الملك كان يعد من « عبيد الملك » كما رأينا أعلاه ، بمعنی أنهم ينفذون أوامر الملك تنفيذاًدقيقاً وصارماً أكثر من دلالتها على العبودية بمعناها الحرفی . أما الإشارة عند «الطواف» إلى أن بعضاً من جامعی لبان الساخاليتيس كانوا ممن يقضون فترة عقوبة هناك فربما ارتبطت من طرف خفی ببعض الإشارات الواردة فی بعض نقوش « سمارام » فمن المحتمل أن يكون مؤسسو هذه المدينة الجديدة قد هجروا قسرا من موطنهم الأصلی من بطن عميس فی قبيلة حاتم فی شبوة ، لا سيما أن هناك كلمات وردت فی ختام بعض هذه النقوش - بصورة منفردة منفصلة عن السياق - تعبر عن المعاناة مثل كلمة « أذيت » فی ختام النقش الثالث ، وكلمة «يشقی» فی النقش الثامن .

الهوامش

(1) **Herodotus, Historiae III, 97,,107-112.**

(2) **Theophrastus, Enquiry into Plants IX. 4.2.-6, 10.**

(3) **Strabo, Geography XVI.4.2-4.**

(4) **Diodorus Siculus, Historical Library III, 45; 47.2-3, 5-6.**

(5) **L. Casson, PME,27** :

ἐμπόριόν ἐστιν ἕτερον παραθαλάσσιον Κανή, Βασιλείας Ἐλεάζου, Χώρας Λιβανωτοφόρου....

πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται καμήλοις τε καὶ σχεδίαις ἐντοπίαις δερματίναις ἐξ ἄσκων καὶ πλοίοις.

(6) Ibid., 29 :

Μετὰ δὲ Κανὴ ..... ἄλλος ἐκδέχεται βαθύτατος κόλπος, ἐπὶ πολὺ παρεκτείνων, ὁ λεγόμενος Σαχαλίτης, καὶ Χώρα Λιβανωτοφόρος ....

ἔστιν δὲ τὰ δένδρα τὰ λιβανοφόρα οὐ μεγάλα λίαν οὐδὲ ὑψηλά .....

Μεταχειρίζεται δὲ ὁ λίβανος ὑπὸ δούλων βασιλικῶν καὶ τῶν ὑπὸ τιμωρίαν πεμπομένων.

(7) Ibid., 30 :

Τούτο<υ> δ' ἐστὶν ἀκρωτήριον τοῦ κόλπου μέγιστον, ἀποβλέπον εἰς ἀνατολήν, ὁ καλούμενος Σύαγρος, ἐφ'οὗ φρούριόν ἐστι τῆς χώρας καὶ λιμὴν καὶ ἀποθήκη τοῦ συναγομένου λιβάνου.

(8) Ibid., 32 :

....καὶ μετ'αὐτοὺς ὅρμος ἀποδεδειγμένος τοῦ Σαχαλίτου λιβάνου πρὸς ἐμβολήν, Μόσχα λιμὴν λεγόμενος ....

παρὰ τῶν βασιλικῶν πρὸς ὀθόνιον καὶ σῖτον καὶ ἔλαιον λίβανον ἀντιφορτίζουσιν παρ' ὅλον δὲ τὸν Σαχαλίτην.

(9) Pliny the Elder, NH 12. 30. 51 - 52 :

Tura praeter Arabia nullis, ac ne Arabiae quidem universae. in medio eius fere sunt Astramitae, pagus Sabaeorum, capite regni Sabota in monte excelso, a quo octo mansionibus distat regio eorum turifera Sariba appellata - hoc significare Graeci mysterium dicunt .

(10) Ibid., 12. 30. 54 :

Nec praeterea Arabum alii turis arborem viderunt, ac ne horum quidem omnes, feruntque III non amplius esse familiarum quae ius per successiones id sibi vindicent, sacros vocari ob id, nec ullo congressu feminarum funerumque, cum indicant eas arbores ut metant, pollui, alque ita religione merces augeri.

(11) Ibid., 12. 32. 63 :

Tus collectum Sabotam camelis convehitur, porta ad id una patente; degredi via capital reges facere. ibi decumas deo quem vocant Sabin mensura, non pondere, sacardotescapiunt, nec ante mercari licet :

(12) Gus W. Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 9.

(13) L. Casson, PME, 27 :

Τρουλλάς, ἀπὸ σταδίων ἑκατὸν εἴκοσι τῆς Κανῆς, Ὑπέρκειται δὲ αὐτῆς μεσόγειος ἡ μητρόπολις Σαυβαθά, ἐν ᾗ καὶ ὁ βασιλεὺς κατοικεῖ. πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται. . . .

انظر كذلك هامش رقم ٥٩ أعلاه .

(١٤) إن ما ورد فى فقرات بلينى المقتبسة - وخاصة حول اهتمام ملوك حضر موت بضرورة نقل محصول اللبان كله إلى شبوة أولاً واعتبار عدم الامتثال لهذه الأوامر الملكية فى هذا الصدد جريمة كبرى - يشير بوضوح إلى احتكار ملكى للسلعة . كما أن ما ورد عند الطواف عن العبيد الملكين والمسجونين الذين يقومون بجمع المحصول من غابات اللبان فى إقليم خليج « ساخاليتيس » ، وكذلك تعامل التجار مع « الوكلاء الملكيين » وحصولهم على اللبان منهم مقابل سلعهم يشير بوضوح إلى هذا الاحتكار الملكى للبان .

(15) L. Casson, PME.33 :

(15) L. Casson, PME.33 :

<Ἀπὸ δὲ Μόσχα> λιμένος ἐπ' ἄλλους σταδίους ὡς χιλίους πεντακοσίους ἕως Ἀσίχωνος ἄχρι <ὄρος> τῇ γῇ παρατείνει καὶ κατὰ τὸ ἀπολῆγον αὐτοῦ μέρος ἑπτὰ νῆσοι πρόκεινται κατὰ τὸ ἑξῆς, αἱ Ζηνοβίου λεγόμεναι, μεθ'ἃς ἄλλη παράκειται χώρα βάρβαρος οὐκέτι τῆς αὐτῆς βασιλείας ἀλλ, ἤδη τῆς Περσίδος.

(16) Ibid., note on 29 : 9. 22-23, pp. 165 - 66.

(17) Ibid., Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 10.

(18) Jacqueline Pirenne, « The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in Dhofar », Journal of Oman Studies, vol., 1, 1975, pp. 81 - 96, p. 95.

(19) Claudius Ptolemaeus(ptolemy); Geography, 6. 7. 10 :

Ἀδραμιτῶν Χώρας

Ἤβισμα πόλις .... πβ ια ∠' δ

ساكتفى بذكر أهم الموانى التى تعنينا على هذا الساحل ومواقعها ولن أذكر كل المواقع التى أوردها بطلميوس :

Κάνη ἐμπόριον καὶ ἄκρον	πδ	ιβ	∠'
Θιάλλη λα κώμη	πζ	ιδ	
Μόσχα λιμήν	πη ∠'	ιδ	
Σύαγρος ἄκρα	ϙ	ιδ	

ثم الفقرة التالية مباشرة عند بطلميوس (6. 7. 11) والخاصة بمواقع « الساخاليتين »

Σαχαλιτῶν

Μέτακον κώμη	πη	ιϛ	∠'
Αὔσαρα πόλις	πζ γ'	ιϛ	∠' δ
Ἄγγη κώμη	πζ ∠'	ιζ	∠'

ثم ترد بعد ذلك مواقع عديدة سأذكر آخرها وهو :

Κορόδαβον .... ϙ γ κ δ'

(20) J. Pirenne, loc, cit.

(21) Ibid., p. 82.

(22) Ibid., pp. 85 - 87.

الاستعراضات العسكرية عند الرسول ﷺ وأساليبها

د. عبد العزيز بن عبد الله السلومي(*)

مقدمة :

كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بداية الانطلاق لتأسيس دولة إسلامية مستقلة ، ذات نظم شتى مستمدة منهجها ودستورها مما ينزل على رسول الله ﷺ من وحى ، وبما يعمله أو يقوله أو يأمر به أو يقره عليه الصلاة والسلام ، فهو القدوة وهو المثل ، فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى البطولات والفداء ، فساس هذه الأمة سياسة حكيمة ، وقادها إلى الرفعة والسمو وإلى العز والتمكين فى شتى المجالات .

ومن هذه المجالات ما تمتع به الرسول الله ﷺ من شخصية عسكرية متميزة أبهرت الجميع ، مما يصعب الاستطراد فيه هنا ، بل يحتاج إلى بحوث وكتب كثيرة لدراسة هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وحيث أن موضوع البحث هو « الاستعراض العسكرى عند الرسول ﷺ وأساليبه » كأحد جوانب فنه وتعبئته واعداده لجيش الدولة الإسلامية الناشئة التى تحتاج - بالطبع - إلى جيل متميز وفريد وجديد بأسلوبه العسكرى ، كما هو جديد بانتمائه لعقيدته السليمة الصادقة ، لذا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام ربى هذا الجيل ودربه وأشرف بشكل مباشر على تدريبه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعرض جنده بين الحين والآخر ليتأكد من سلامتهم واقتدارهم ، كما يوجههم بالتوجيه المناسب حسب مقتضى الحال .

ومن هنا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبدع فى هذا المجال ، وتفنن ونوع وجدد مما يدل على عمق شخصيته العسكرية .

(*) قسم الحضارة والنظم الإسلامية - جامعة أم القرى .

فنجده وهو فى بدر يستعرض جنده - رغم قلة عددهم - وينظمهم صفوفاً أمام عدوهم اللدود « قريش » - الذين جاءوا حسب زعمهم لمناجزة محمد والتخلص منه والقضاء عليه - فكان يحرص على الدقة فى تنظيمهم ليحقق واحداً من أهداف هذا التنظيم وهو إظهار العدد كبيراً أمام الأعداء .

أما فى أحد فنجده ينظم جيشه تنظيماً مغايراً لما سبق فى بدر ، كما أنه استعرض جنده بأسلوب مختلف ، حتى أننا نجده يعرض الغلمان الذين تسابقوا وحرصوا على الاشتراك فى الجهاد ، فكان عليه الصلاة والسلام يستعرض هؤلاء الأولاد فمن كان جديراً بالقتال وحمل السلاح أثبته ومن كان صغيراً خاف عليه ورده .

إن نظم الاستعراض فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءت متنوعة بين عرض للجند أمام الرسول ﷺ إلى استعراض للجيش أمام الأعداء .

ففى غزوة خيبر عبأ جيشه وسار على تعبئته بنظام الخميس ، حتى فاجأ اليهود بهذه التعبئة فقض مضاجعهم وأوهن عزائمهم وبث الرعب فى نفوسهم .

وفى الحديبية - وكجانب من جوانب عرض قوة المسلمين أمام رسل قريش - تمت بيعة العقبة بين المسلمين وبين الرسول ﷺ بأقوى صورها وأشكالها « على الموت وعدم الفرار » ، كل ذلك على مرآى ومسمع من مندوبى قريش ، كوسيلة ضغط على أهل مكة .

أما فى غزوة الفتح ، فبعد أن أسلم أبو سفيان ، وقبل أن يرجع إلى مكة ليخبر قومه بما حدث ، أمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يحبسه عند خطم الجبل ، حتى تمر جنود الله فيراها . وبعد أن تم العرض العسكرى أمام قائد مكة وزعيمها قبل الفتح ، رجع إليها حاملاً أكبر صورة وأبلغ أثر ليشعر قومه بأنه جاءهم أمر لا طاقة لهم به ، ولا قوة فكان ذلك درساً بليغاً حمله من خلال ذلك العرض

العسكرى المهيب وبذلك نجح الرسول ﷺ بدخول مكة بأقل خسائر ممكنة من خلال تلك الخطة المحكمة .

ولم يقتصر الاستعراض على ذلك بل تعداه إلى استعراض الخيول ، والاهتمام بها وعمل المسابقات لها نظراً لما تشكله الخيول من أهمية بالغة فى الفروسية وفى الميادين الحربية ، لذا نجد الرسول ﷺ هو الذى يتولى عرض الخيول بنفسه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول ﷺ استعمل أسلوب إشعال النيران أمام الأعداء حتى يبث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء ، ونلمس ذلك واضحاً فى كل من غزوة حمراء الأسد وفتح مكة .

وهكذا كانت أساليب الاستعراض التى عمل بها الرسول ﷺ وأمر بها أو دعى إليها متعددة ومتنوعة ، بحسب طبيعة وظروف المعركة فالرسول ﷺ هو القائد القدوة الذى كان على علم بكيفية اكتشاف طاقات أمته شيوخاً وشباناً وأحداثاً وصبياناً بل ونساءً . كما كان على دراية واسعة بأدوات العدة الجهادية من سلاح وخيل وأساليب قتالية ، مع العمل على الأفادة من هذه الطاقات وتوجيهها نحو الخير فى خدمة الدعوة ، وتحقيق فرضية الجهاد التى تميزت بها هذه الأمة لتكون أمة هداية وخير ، كل ذلك ليتأسى به قادة الإسلام فى حركاتهم الجهادية ، وتفقدهم لأساليب القتال وإعداد العدة للجهاد فى سبيل ا لله .

وقد سرت فى هذا البحث على جمع المادة العلمية من كتب الأحاديث النبوية وكتب المغازى والسير التى تحدثت عن غزوات الرسول ﷺ وحرصت على نقل الروايات الصحيحة والاسشهاد بها قدر المستطاع ، وإذا لم أجد شيئاً فى الصحيحين ، اعتمدت على اقوال أهل الحديث فى الحكم عليه ، كما قمت بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها حتى يسهل الرجوع إليها برواتها وأسانيدها، سائلا ا لله عز وجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح إنه سميع مجيب.

استعراض(١) الصفوف :

من وسائل الاستعراض العسكرى الذى عمله الرسول ﷺ فى حربه مع الأعداء تنظيم الجيش الإسلامى على هيئة صفوف أمام الأعداء استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى للمقاتلة بنظام الصف كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيا مرصوص ﴾(٢) . أورد ابن كثير قولاً لابن عباس فى معنى ذلك « أنه مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة ألم تر إلى صاحب البنيان لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره »(٣) .

وفى بدر بالذات كان نظام الصف الذى عمله الرسول ﷺ مفاجئاً للمشركين مما كان عاملا فى إحداث خلل فى خططهم وصعوبة فى إعادة ترتيب وضعهم وكان ذلك مهما فى انتصار المسلمين على أعدائهم . ولعل فى ذلك فوائد كثيرة منها :

- ظهور جميع المقاتلين أمام القائد والتعرف عليهم واحداً واحداً .
- الايحاء للأعداء بكثرة عدد المسلمين وإظهار قوة المسلمين لبث الرعب فى قلوب أعدائهم(٤) .
- اختبار كفاءة المقاتلين وقدراتهم القتالية .
- سهولة حركة القائد بين الصفوف بشكل فيه مرونة وسرعة .
- أن القتال بالصف يصلح لأى من الظروف القتالية سواءاً كان هجوماً أو دفاعاً.
- الاستماتة والاستمرارية فى القتال لأطول فترة ممكنة .
- وجود قوة احتياطية متمثلة فى الصفوف الخلفية لمعالجة أى طوارئ غير متوقعة(٥) .

ومن هنا رغب الرسول ﷺ بذلك روى الإمام أحمد بسنده(٦) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله إليهم :

الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » . فعمل المسلمون بذلك .

كما أن الرسول ﷺ طبقه في بدر حيث دلت على ذلك الأحداث الكثيرة وتواترت فى كتب المغازى والسير . من ذلك ما رواه الإمام أحمد(٧) . بسنده عن يونس بن محمد حدثه شيبان بن عبد الرحمن عن قتاده . قال : حدثنا انس بن مالك أن أبا طلحة رضى ا لله عنه قال : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم بدر»(٨).

وأورد ابن كثير رحمه ا لله من رواية للترمذى عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : « صفنا رسول ا لله ﷺ يوم بدر ليلاً »(٩) .

وقد أورد البيهقى بسنده(١٠) من رواية الفضل بن دكين عن حمزة بن أبى أسيد عن أبيه قال : « قال رسول ا لله ﷺ يوم بدر حين صفنا لقريش وصفوا لنا ، إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل » وهو بسند صحيح حيث أورده البخارى بقوله : «إذا أكثبوكم يعنى أكثروكم فأرموهم بالنبل واستبقوا نبلكم »(١١) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبرانى(١٢) وأحمد(١٣) من رواية عبد ا لله بن لهيعة حدثه يزيد بن أبى حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبى حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول : « صففنا يوم بدر فندرت منا نادره - وفى رواية فبدرت منا بادرة - أما الصف فنظر رسول ا لله ﷺ إليهم فقال معى معى » ، قال ابن كثير رحمه ا لله فى هذا الحديث تفرد به أحمد وإسناده حسن(١٤) ، وقال الهيثمى رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح(١٥) .

وفى هذا المقام أيضاً ما تواتر عند أهل المغازى والسير فى قصة سواد بن غزية الأنصارى(١٦) ﷺ عندما كان الرسول ﷺ يسوى الصفوف ويعدلها يوم بدر .. فقد أورد ابن اسحاق بسنده عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : « أن رسول ا لله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزيه حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل(١٧) من

الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد . فقال يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني- فكشف الرسول ﷺ عن بطنه فقال : استقد.. وذكر تمام الحديث »(١٨) .

وأورد الهيثمى رواية عن عبد الله بن جبير الخزاعى قال : « طعن رسول الله ﷺ رجلاً فى بطنه إما بقضيب وإما بسواك . فقال : أوجعتنى فأقدنى ، فأعطاه العود الذى كان معه فقال : استقد . فقبل بطنه . ثم قال : بل أعفو لعلك أن تشفع لى بها يوم القيامة » .

قال الهيثمى أورد هذه الرواية الطبرانى ورجاله ثقات(١٩) .

إن هذه القصة لتدل دلالة واضحة على مدى الدقة والانضباط فى الاستواء بالصفوف من دون أية تقدم أو تأخر ولو حتى بجزء من الجسم كما هو واضح من قصة سواد وبروز بطنه فى الصف ، ولهذا وجد الرسول ﷺ بدًا من إشعار سواد بأهمية الاعتدال والاستواء والإلتزام بذلك ولو جاء ذلك بأسلوب التأديب كما هو الحال هنا .

ثم أن موقف سواد ﷺ وطلبه القود من الرسول القائد ﷺ وعرض الرسول ﷺ نفسه والكشف عن بطنه لسواد فى مثل هذه الظروف الحرجة بل والحالكة لتؤكد عدالة الرسول ﷺ والاستجابة من القائد لهذا الجندى فى وقت العرض لما طلبه ، حيث أنه كان يطمح ، أن يكون آخر العهد أن يمس جلده جلد رسول الله ﷺ على ما أوردته المصادر فى سياق تلك القصة .

كما أن الرسول ﷺ استعمل نظام الصف أمام الأعداء يوم أحد ، فقد روى أبو طلحة ﷺ بسند صحيح قال : « غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذٍ . قال فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه ، والطائفة الأخرى . المنافقون ليس لهم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق »(٢٠) .

استعراض الغلمان لاختبار كفاءتهم القتالية :

فى غزوة أحد عندما علم رسول الله ﷺ بتعبئة المشركين لمهاجمة المسلمين بعد هزيمتهم فى غزوة بدر استشار ﷺ أصحابه فى مكان القتال ، فهناك من أشار عليه بداخل المدينة وكان عليه الصلاة والسلام يرى هذا الرأى ، وهناك من أشار عليه بالخروج عن المدينة ليجنبها ويلات الحرب وكان هذا هو الرأى الراجح ، فعندئذٍ عبأ الرسول عليه الصلاة والسلام جيشه وخرج إلى أحد ثم انسحب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى المنافق من جيش المسلمين . ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا سبعمائة رجل(٢١) . وقبل المعركة وضع فرقة من الرماة عليهم عبد الله ابن جبير رضي الله عنه ووجههم إلى جبل الرماة لحماية ظهور المسلمين لئلا يلتف عليهم المشركون من الخلف(٢٢) ... كما استعرض الرسول ﷺ جيشه ، وقبل من قبل ورد من رد وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التى تثبت أنه استعرض أبناء الصحابة الصغار واحداً واحداً ، فمن كان سنه أقل من خمس عشرة سنة رده ، ومن كان أكثر من ذلك أجازه ، ولهذا نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جعل سن الخامسة عشر الحد ما بين من يثبتهم فى عطاء المقاتلة من عطاء الذرية(٢٣) .

أورد البخارى بسنده ، حدثه نافع ، حدثه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه « ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى »(٢٤) . قال نافع : «فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة»(٢٥).

وقد رواه البيهقى بلفظ آخر بسنده ، من طريق محمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، قالاً حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا عبيدا الله عن نافع ، عن ابن عمر،

قال : « عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فاستصغرني وردني مع الغلمان ، فلما كان يوم الخندق عرضني وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني .. الحديث »(٢٦) .

وأوردت كتب السير مجموعة من الغلمان الذين استعرضهم رسول الله ﷺ بعد العصر وقبل غروب الشمس(٢٧) منهم ، عبد الله بن عمر ، وأسامه بن زيد وزيد بن ثابت ، البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيظي ، وابن سعيد بن خيثمة ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج(٢٨) . وزاد المقريزي عليهم الأسماء التالية : النعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، وعمرو بن حزم، وسعد بن حبتة الأنصاري(٢٩) .

وفي أثناء العرض رد الرسول ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة . فقيل للرسول ﷺ : إن رافعاً رام ، فأجازه رسول الله ﷺ ثم قال سمرة لقد اجزت رافعاً ورددتني ولو صارعني لصرعته ، قال فصارعته فصرعته فأجازني في البعث(٣٠) .

يقول ابن حجر : « أن عرض الجيش هنا هو اختبار لأحوالهم قبل مباشرة القتال ، للنظر في هيئتهم وترتيب منازلهم ... »(٣١) .

أما قصة المصارعة وقت العرض فقد وردت في كتب المحدثين ، إذ أوردها الحاكم في المستدرك بسنده من رواية عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، عن سمرة ابن جندب رضي الله عنهم ... وذكر الحديث ... وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه(٣٢) ، أي البخاري ومسلم .

كذلك رواه البيهقي والطبراني أيضا(٣٣) :

ثم إن بعض المصادر أشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يقيم مثل هذه العروض في كل سنة ، وليس خاصاً في غزوة من الغزوات ، فقد وردت بذلك روايات عدة، منها على سبيل المثال : ما رواه البيهقي بسنده ، أخبره أبو عبد الله

الحافظ ، حدثه أبو الحسن محمد بن الحسن ، أنبأه على بن عبد العزيز ، حدثه إبراهيم بن عبد الله الهروى ، حدثه هشيم ، حدثه عبد الحميد بن جعفر الأنصارى ، عن أبيه، عن سمرة بن جندب ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار فى كل عام فيلحق من أدرك منهم ... الحديث »(٣٤) .

غير أن الملاحظ هنا فى نصوص هذا الحديث أن العرض فى كل عام كان خاصاً بغلمان الأنصار دون المهاجرين . لكن سبق معنا فى أحاديث صحيحة وردت عند البخارى ومسلم ما يدل على أن العرض كان حتى لأبناء المهاجرين. من ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه »(٣٥) . وعبد الله بن عمر من أبناء المهاجرين .

كذلك أورد ابن حجر حديثاً لأبى واقد الليثى ﷺ قال : « رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق »(٣٦) . هكذا مطلقاً ، ولم يحدد الراوى هل هم غلمان الأنصار ، أم غلمان الصحابة بشكل عام ، وهو الأرجح ، لثبوت الأدلة على ذلك بما سبق . ثم أن القصد من هذا العرض أمام الرسول ﷺ إنما هو لمعرفة من تكون له قدرة على القتال من هؤلاء الأبناء ، ممن لم يبلغ تلك المنزلة . فقصة رافع الذى أجازه الرسول ﷺ لأنه كان يجيد الرمى كما مر معنا آنفاً، على الرغم من وجود غلمان كانوا فى سنه ولم يجزهم الرسول ﷺ ابتداءاً لكن لأن المسألة هنا كانت مسألة قوة واقتدار على القتال ، فإن سمرة بن جندب ﷺ اعترض على ذلك وبين أنه يصرع رافعاً لو تصارع معه ، عندها وافق عليه الصلاة والسلام على المصارعة . فلما تمكن سمرة من مصارعة رافع ، أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا يقول ابن حجر فى رواية أبى واقد الليثى : « أن الرسول ﷺ أجاز من أجاز ورد من رد إلى الذرارى »(٣٧) .

استعرض الجيش بنظام الخميس :

وفى غزوة خيبر نجد أن الرسول ﷺ عبأ جيشه نحـو يهـود خيبر مستخدماً عنصرين أساسيين هما :

- عنصر المفاجأة حيـث أنـه صبحهـم بكـرة ، فمـا أن خرجـوا إلى مزارعهـم فـى الصباح إلا وقد فوجئوا بجيش الرسول ﷺ أمامهم . وذلك أسلوب من أساليب بث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء .
- العنصر الثانى هو استعراض جيش المسلمين للأعداء وفق تنظيم عسكرى دقيق ، وهو نظام الخميس حيث تحرك الجيش إلى خيبر بهذه التعبئة التى فاجأت اليهـود وجعلتهم يفزعون منها .

وأورد البخارى بسنده من رواية محمد بن سيرين عـن أنـس بـن مـالك ﷺ قال : « صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحى ، فلما بصروا بالنبى ﷺ قالوا : محمد وا لله ، محمد والخميس . فقال النبى ﷺ ا لله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنـا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ... الحديث(٣٨) .

وقد أورده من طريق آخر بلفظ « أن رسول ا لله ﷺ آتى خيبر ليـلاً وكـان إذا أتى قوماً بليل لم يعز بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجـت اليهـود بمساحيهم ومكـاتلهم ، فلمـا رأوه قـالوا : محمـد وا لله ، محمـــد والخميـس ... وذكـر تمـام الحديث »(٣٩) .

إضافـة إلى ذلـك فـإن رسـول ا لله ﷺ حـاصر يهـود خيـبر ، واسـتمر فــى محاصرتهم ومحاربتهم . وكان بذلك صافـا عسـاكره وجيوشـه فـى ليلـه ونهـاره ، ومحاولاً فتح خيبر وهو على تعبئته تلك . وأثناء تلك المحاولات أعلن عليـه الصـلاة والسلام أنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحب ا لله ورسـوله ، ويحبـه ا لله ورسـوله ، يفتح ا لله على يديه . عندها أخذ الناس يتطاولون ويعرضون أنفسهم علـى رسـول ا لله كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ، إلى أن سأل عن على ﷺ ثم دفعهـا لـه

فتم فتح خيبر ، وقد روى أحمد(٤٠) بسنده من رواية عبد الله بن بريده أنه سمع أبا بريدة يقول : « حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له ، وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إنى دافع لوائى غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح له، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا على بن ابى طالب وهو أرمد فتفل فى عينيه ومسح عنه ودفع إليه اللواء وفتح الله له . قال : وأنا فيمن تطاول لها »(٤١) .

استعراض قوة المسلمين عن طرق تجديد البيعة :

فى مستهل ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه من المسلمين ما يقارب ألفاً وأربعمائة على ما رواه البخارى من رواية جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما(٤٢) ، لقصد العمرة وذلك إظهاراً لتعظيم المسلمين للبيت الحرام ودحضا لأقاويل المشركين من أهل مكة الذين أدعوا على المسلمين عدم احترامهم للكعبة ، حيث بدأت مثل هذه الأقاويل تنتشر عند بعض قبائل الجزيرة العربية .

وتحسباً لوقوع صدام مع قريش فقد استعد الرسول ﷺ ومن معه بالسلاح وسار الرسول عليه الصلاة والسلام متجهاً نحو مكة عبر طرق بعضها غير معتادة ، حتى وصل إلى الحديبية - بالقرب من مكة بين الحل والحرم - على أن قريش حينما علمت بمقدمه اعترضت على دخوله مكة ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسلاً إلى قريش يخبرهم أنه لا يريد حرب أحد وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه . ومع ذلك رفضت قريش ، وظنت أن ذلك خدشاً بمكانتها عند العرب ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة ،

علهم يستجيبوا لرغبة المسلمين . وحدث أن تـأخر عثمـان بـن عفـان فـى مكـة ، وكان فى الوقت نفسه عروة بن مسعود الثقفى مفاوضاً من قبل قريش ، فكان خلال وجوده مع الرسول ﷺ شديد الملاحظة ، فهاله تقدير واحترام المسلمين للرسول ﷺ ومكانته عندهم ، ومدى فداءهم لـه فنقـل هـذه الصـورة لقريـش فكان مما قال : « ... أى قوم والله . لقد وفدت على الملوك ، ووفدت علـى قيصر وكسرى والنجاشى ، والله أن رأيت مليكاً قـط يعظمـه أصحابـه ، مـا يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ... الحديث»(٤٣).

ولما أشيع أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ، دعا الرسول ﷺ أصحابه للبيعـة فهبوا إليه جميعاً ليبايعوه وتسابق المسلمون لمبايعته على القتال(٤٤) .

إن هذه الصورة من المبايعة وصلت إلى مسامع قريش ، مما جعلهـم يعيـدون النظر فى أسلوبهم وتعاملهم مع هذا الحدث العظيـم ، الـذى أصبـح خطـراً يقـض مضاجعهم ، فانصاعوا إلى الصلح بدلاً من إشعال الحرب التى خافوا أنها لا تكـون فى صالحهم ، لما رأوا من عزيمة المسلمين وقوتهم وثبـاتهم ومبـايعتهم للرسـول ﷺ على القتال . فكان ذلك عرضاً عسكرياً بالغاً لتحويل توجيه الحـدث وقبـول مبـدأ التفاوض مع المسلمين وتحقيق مطالبهم ولو آجـلا ، ممـا جعـل قريـش لا تقـوم لهـا قائمة بعد هذا الصلـح ، حيـث تكتفـت يداهـا ، وأصبحـت فـى حكـم المدافـع ، وانتهى دورها كمهاجم للمسلمين .

عرض كتائب المسلمين أمام الأعداء :

وإذا ما انتقلنا إلى غزوة الفتح ، أو فتح مكة نجد أن العرض العسكرى هنـاك أخذ طابعاً مميزاً عن غيره من العروض العسكرية السابقة ، والتى كانت تعتمد على رؤية الرسول القائد ، ومتابعته لها ، والإشراف عليها ، وإبداء التوجيهات اللازمة،

واختبار كفاءة المقاتلين ، وخاصة الشباب الجدد منهم . أما هنا فإن الوضع مختلف والأسلوب مغاير ذلك أن الرسول ﷺ لما خرج قاصداً مكة حرص على أن لا تعلم قريش بخبره ، حتى أتى إلى مر الظهران(٤٥) . وأحست قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمون إليهم . وكان أبو سفيان زعيم المشركين وأهل مكة آنذاك . فخرج يستروح الأخبار حتى ظفر به العباس ﷺ ، فاخبره خبر جيش المسلمين . ومازال العباس ﷺ بأبى سفيان يدعوه للدخول فى الإسلام حتى وضعه بين يدى النبى ﷺ، حتى أسلم ثم أعطاه الرسول ﷺ الأمان ولكل من يدخل بيته أو المسجد الحرام أو من يغلق عليه بابه . ولكن قبل أن ينصرف إلى مكة وإلى قومه - على ما ذكره المحدثون وأهل السير - أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه عد خطم الجبل(٤٦) . حتى يرى جنود ا لله بكامل عدتهم وعتادهم ، لينقل هذه الصورة إلى قومه ، وقد أورد البخارى هذه القصة بحديث طويل فى صحيحه(٤٧) . يمكن إيراد ما يخص هذه الحادثة وهو قول النبى ﷺ للعباس « ... احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة(٤٨) على أبى سفيان ، فمرت كتيبة قال يا عباس : من هذه ؟ قال هذه غفار . قال : مالى ولغفار ، ثم مرت جهينة ، وقال مثل ذلك . ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ... الحديث » .

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة(٤٩) وذكر الطبرانى وغيره رواية مثل تلك إلا أنه وصف الكتيبة التى فيها الرسول ﷺ بقوله : « ... فلما مرت كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق(٥٠) ، قال سبحان ا لله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول ا لله ﷺ فى المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. الحديث »(٥١) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى مبيناً أمر الرسول ﷺ للعباس فى حبس أبى سفيان عند خطم الجبل ... « وإنما حبسه هناك لكونه مضيقاً ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم »(٥٢) .

كما أن ترتيب الرسول ﷺ لجيشه وتقسيمه إلى عدة فرق كل فرقة تتجه إلى مكة من طريق غير الطريق الذى تسلكه الفرقة الأخرى ، لهو نوع أيضاً من أنواع استعراض القوة أمام أهل مكة ، مما لا قبل لهم به ولا حول ولا قوة ، فيجعلهم يستسلمون وتسهل السيطرة على مكة وشعابها وجبالها . فقد أوردت كتب المغازى والسير والمحدثون ما يفيد بتقسيم الجيش ، حيث دخل رسول الله ﷺ من كداء بأعلى مكة(٥٣) ، وأمر خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى أن يدخل من الليط أسفل مكة ، إضافة إلى فرقة أبى عبيدة بن الجراح على فرقة الرجالة ، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى(٥٤) ، ومعه الراية التى أمره الرسول ﷺ أن تركز بالحجون ، على ما رواه البخارى(٥٥) .

عرض الرسول ﷺ نفسه بين فلول الهاربين من المسلمين :

أما فى غزوة حنين فإن المسلمين لما خرجوا لملاقاة هوازن بعد فتح مكة ، وبعد أن انضم إليهم ما يقارب الألفى شخص من مسلمة الفتح ، وبعد أن احتدمت المعركة وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر وأخذوا فى جمع الغنائم ، إنهالت عليهم سهام هوازن ، حيث كانوا يجيدون الرمى ، فانكشف المسلمون فولوا هاربين إلا الرسول ﷺ ومن ثبت معه وهم قلة . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعرض وبنفسه وعلى بغلته البيضاء المسلمين وهو متجه نحو هوازن ويدعو الناس للثبات وعدم الفرار ، ويطلب من يذكر المسلمين بمواقفهم وبيعتهم تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان يوم الحديبية . وكان النبى ﷺ وهو على بغلته يصرخ فى المسلمين ويقول :

أنا النبى لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

وأخذ المسلمون فى التوافد نحو ذلك الصوت . ثم صفهم الرسول ﷺ على ما أورده مسلم (٥٦) ، وأعاد المسلمون قواهم فكروا على عدوهم ، حتى كتب الله لهم النصر . وقد أورد البخارى ومسلم(٥٧) حديثاً من رواية البراء بن عازب ﷺ أن رجلاً قال له : « أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال : لكن الرسول الله ﷺ لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لاقيناهم حملنا عليهم فأنهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ؛ فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها ، والنبى ﷺ يقول :

أنا النبى لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

استعراض القوة بالنيران أمام الأعداء :

ومن الاستعراضات العسكرية التى كان الرسول ﷺ يثبت بها قوته واقتداره أمام الأعداء ، ما كان يعمله عليه الصلاة والسلام من إشعال النيران أحياناً ليرهب بها الأعداء وليشعرهم بقدومه ، وحرصه عليه الصلاة والسلام من تكثير هذه النيران وتوزيعها حتى يدرك الراءون لها كثرة عدد أصحابها . من ذلك مثلاً ما حدث فى غزوة حمراء الأسد(٥٨) ، فبعد أن انتصر أهل مكة على المسلمين فى أحد هموا بالرجوع إلى المدينة من أجل استئصال المسلمين دفعة واحدة ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمر الناس بالاستعداد لطلب العدو ، وأن لا يخرج معهم إلا من حضر فى أحد - على الرغم مما اصاب المسلمين من الجراح والتعب - يقول ابن حجر رحمه الله فى ذلك « وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذى اصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم»(٥٩) .

وقد أورد ابن سعد فى قصة إيقاد النيران أنه « ... كان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار ، حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم

ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهم »(٦٠) ، ووافق ابن سعد هنا كل من ابن سيد الناس ، وعلى الحلبى(٦١) .

أما المقريزى فقد ذكر أنهم أوقدوا خمسمائة ناراً وأن الرسول ﷺ كان يأمر المسلمين بجمع الحطب نهاراً وإشعالها ليلاً على انفراد(٦٢) ، وقد أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد على ذلك ثلاث أيام ، وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء . ثم رجع إلى المدينة لما علم برجوع المشركين إلى مكة(٦٣) .

وكان هذا الاستعراض مصدر قوة للمسلمين ليس فقط تجاه المشركين أهل مكة ، وإنما حتى على المنافقين فى المدينة الذين كانوا يخذلون المسلمين ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر .

وإذاما انتقلنا إلى فتح مكة ، فإننا نجد جميع المصادر التى تحدثت عن هذه الغزوة أشارت إلى ما كان يعمله الرسول ﷺ من ايقاد النيران الكثيرة التى تشعر العدو بكثرة عدد المسلمين . وتلك النيران جعلت أبا سفيان - على ما ذكرت المصادر - هو ومن معه من كبراء مكة يخرجون إلى خارج مكة تحسساً للأخبار . وفى ذات ليلة ، وكما أورد البخارى فى صحيحه(٦٤) « ... أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفه ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفه . فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ... وذكر تمام الحديث » وقد اتفقت جميع المصادر على هذا الحديث ، وتلك المحاورة بين أبا سفيان ورفاقه(٦٥) .

وعن عدد ما أوقد تلك الليلة من النيران ، فأننا نجد إشارة عند ابن سعد تفيد بأن الرسول ﷺ « .. أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ... »(٦٦) . وهذا العدد يمثل عدد جيش المسلمين الذى ذهب إلى مكة لفتحها .

عرض الرسول ﷺ للخيل :

تمثل الخيول أهمية بالغة فى العسكرية الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام أهتم اهتماماً بالغاً بالخيل من حيث تنشئتها وتكثيرها ، وتدريبها والتدرب عليها ، ومعالجتها ، والحرص على إقتنائها . ووضع الحمى الخاصة بها . وكذلك عمل العروض اللازمة لها ، ثم الإسهام لها فى الغنيمة ، وقد ورد فى الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيمة الأجر والغنيمة »(٦٧) .

إن كل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى بحث مستقل بذاته ، وحيث اننا بصدد الحديث عن استعراض الخيول وعرضها فى عهد الرسول ﷺ وما يتعلق فى ذلك فلابد من الإشارة هنا إلى الأحاديث الواردة فى هذا الشأن ، حتى يتبين لنا مدى العناية البالغة من الرسول ﷺ برياضة الخيول وتدريبها لغرض الجهاد فى سبيل الله . من ذلك مثلاً ما رواه الحاكم(٦٨) بسنده عن أبى بكر أحمد القاضى ، حدثه محمد بن سعد العوفى ، حدثه يعقوب الزهرى ، حدثه محمد ابن طلحة التيمى ، حدثه أبو سهل بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يجهز أو كان يعرض جيشاً ببقيع الخيل(٦٩) فأطلع العباس بن عبد المطلب ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأحناه عليها » ، وقد أورد هذا الحديث أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه وأبى يعلى فى مسنده والطبرانى فى المعجم الأوسط(٧٠) من طريق محمدبن طلحة .

وأورده الهيثمى بروايات متعددة . قال : « كنا عند النبى ﷺ ببقيع الخيل»، وفى رواية أنه قال : « خرج النبى ﷺ يجهز جيشاً فنظر إلى العباس فقال ... وذكر تمام الحديث » ، قال الهيثمى عن رواة أحمد وأبى يعلى ثقات ورجالهم رجال الصحيح(٧١) .

ومما يدل أيضاً على استعراض الرسول ﷺ للخيل ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده(٧٢) من طريق أبى عثمان عن أبى موسى قال: « أخذ القوم فى عقبة أو ثنية ، فكلما علا رجل عليها نادى لا إله إلا الله والله أكبر ، والنبى ﷺ على بغلة يعرضها فى الخيل . فقال يا أيها الناس : إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً ... الحديث » ، كما روى هذا الحديث أيضاً البخارى وابن حبان فى صحيحه وأبو داود فى السنن ، والنسائى فى سننه الكبرى(٧٣) .

وهناك حديث آخر ورد وبروايات متعددة يبين لنا مدى معرفة الرسول ﷺ بالخيل ، وحرصه عليها ، واستعراضه لها بين الحين والآخر ، وهو ما رواه أحمد بسنده ، حدثه صفوان بن عمرو ، قال حدثنى شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدى ، عن عمرو بن عبسة السلمى قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن الفزارى. فقال له النبى ﷺ أنا أفرس بالخيل منك. فقال عيينه وأنا أفرس بالرجال منك ... وذكر تمام الحديث بطوله...»(٧٤). وقد أورده الحاكم فى مستدركه وقال « هذا حديث غريب المتن صحيح الإسناد » ولم يخرجاه(٧٥) أى البخارى ومسلم .

أما الطبرانى فرواه بلفظ آخر من رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « كان النبى ﷺ فى دارنا يعرض الخيل فدخل عليه عيينه ... الحديث »(٧٦) .

كما أورده الهيثمى من هذا الطريق وقال رواه الطبرانى ورجاله ثقات(٧٧) .

أما عن رواية أحمد فقد قال أنه رواه متصلاً ومرسلاً ورجاله ثقات(٧٨) .

وكما أن الرسول ﷺ اهتم بالخيول ورياضتها فإنه حرص أيضاً على تخصيص مكان لها فحمى النقيع(٧٩) للخيل - وهو على بعد عشرين فرسخاً من المدينة ، وقدره ميل فى ثمانية أميال على ما أورده ابن حجر(٨٠) - فقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، منها ما رواه البخارى بسنده من رواية عبد الله بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين »(٨١) ، كما رواه البيهقى بسنده عن نافع عن ابن عمر بلفظ « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين ترعى فيه »(٨٢) .

وقد تواترت فى ذلك الأدلة وروى هذا الحديث أغلب المحدثين(٨٣) .

وبالإضافة إلى عرض الخيول أمام النبى ﷺ فإنه كان أيضاً يعمل المسابقة بينها عل حسب أنواعها ، وفئاتها وهو نوع من أنواع عرض الخيول ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر »(٨٤) .

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يسابق بين الخيول المضمرة وغير المضمرة(٨٥) . فقد روى البخارى بسنده حدثه أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد اضمرت فأرسلها من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك . قال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التى لم تضمر فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بنى زريق . قلت : فكم بين ذلك؟ ... قال : ميل أو نحوه . وكان ابن عمر ممن سابق فيها »(٨٦) .

وذكر الخزاعى رواية عن الزهرى قال : « سبق سهل بن سعد الساعدى ﷺ على فرس لرسول الله ﷺ يقال له الظرب . فكساه رسول الله برداً يمانياً . وسبق أبو أسيد الساعدى على فرس لرسول الله ﷺ يقال له : لزاز فلما طلع الفرس جثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وأطلع من الصف وقال : كأنه بحر . وكسا أبا أسيد حلة يمانية »(٨٧) .

وكان التشبيه له بأنه بحر مما يدل على سرعة الفرس وعدم انقطاع جريه ، مثل البحر لا ينقطع ماؤه(٨٨) ، ولهذا نجد هناك أحاديث رواها البخارى وذكر فيها أن الرسول ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة يقال له « مندوب » فقال إنا وجدناه « لبحراً » . وقصة ذلك فيما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : « كان » بالمدينة

فزع فاستعار النبى ﷺ فرساً لأبى طلحة يقال له مندوب . فركبه وقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً »(٨٩) .

ومن خيل الرسول ﷺ التى سابق فيها وسبقت كانت « السكب » و « سبحه » و « الأدهم » وغيرها(٩٠) .

ولم يكن أجراء العروض للسباق خاصاً بالخيل فقط وإنما شمل حتى الإبل ، فلقد سابق الرسول ﷺ بين الإبل ومعهن القصواء وعليها بلال ﷺ (٩١) . وذكر ابن جماعة أن للرسول ﷺ ناقة اسمها الجدعاء وكانت لا تسبق(٩٢) . مما يدل على أنه عمل لها ولغيرها سباق بين الإبل فسبقت ، كذلك أورد البخارى بسنده من رواية أنس ﷺ قال : « كانت لرسول الله ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابى على قعود فسبقها . فشق على المسلمين . فلما رأى ما فى وجوهم ، قالوا يا رسول الله : سبقت العضباء ؟ قال : إن حقاً على الله أن يرتفع من الدنيا شىء إلا وضعه »(٩٣) .

عرض الصحابة الفارون أنفسهم على رسول الله :

ومن أساليب العرض على رسول الله ﷺ ما كان يعمله بعض الصحابة رضوان الله عليهم ممن ارتكب خطأ فى القتال من فرار ونحوه ، أنهم يأتون ويعرضون أنفسهم على رسول الله ﷺ ليعفو عنهم أو يرى رأيه فيهم . من ذلك مثلاً ما رواه أبو داود وبسنده(٩٤) من رواية يزيد ابن أبى زياد ، أن عبد الرحمن ابن أبى ليلى حدثه أن عبد الله بن عمر حدثه ، أنه كان فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال : « فحاص الناس حيصة(٩٥) فكنت فيمن حاص . قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فقلنا ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون . فأقبل إلينا فقال : بل أنتم العكارون(٩٦) قال فدنونا فقبلنا يده فقال إنا فئة المسلمين » .

وقد أورد هذا الحديث مجموعة من المحدثين بأسانيدهم من طريق يزيد بن أبى زياد ، فقد أورده الترمذى فى سننه(٩٧) ، كما أورده ابن حبان فى صحيحه(٩٨)، وكذا الحاكم فى المستدرك على الصحيحين(٩٩)، وذكره الإمام أحمد فى مسنده(١٠٠) . والطبرانى فى المعجم الكبير(١٠١) ، وأبو يعلى فى مسنده(١٠٢) .

عرض الأسرى والمحاربين أمام الرسول ﷺ :

وكان الأسرى يعرضون على الرسول ﷺ بعد المعركة ليرى فيهم رأيه ، ويحكم عليهم بحكمه ، بحسب مقتضى حالهم ، ومدى إيغالهم فى العداوة للإسلام وأهله ، ومدى حرص الرسول ﷺ وطمعه بإسلام البعض منهم . ولهذا نجد أن الرسول ﷺ - بعد غزوة بدر وأنتصار المسلمين وأسرهم لعدد من المشركين وأثناء عودتهم قافلين إلى المدينة - أمر بقتل كل من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على ما رواه ابن اسحاق ، قال : « ... حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبى طالب ... ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط ... »(١٠٣) . وقد وردت روايات عدة عند المحدثين عن ذلك(١٠٤) .

أما المحاربون - وهم اليهود بعد نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ - فقد وردت أحاديث فى غزوة بنى قريظة تبين أن الرسول ﷺ لما حاربهم وانتصر عليهم وجمع رجالهم وصبيانهم ونساءهم ، فإنه جعل النساء والذرارى من السبى . أما الرجال فتم قتلهم(١٠٥) . وأما الأولاد فإنهم عرضوا على النبى ﷺ فمن رآه قد أنبت شعره - أى وصل إلى البلوغ - قتل ، ومن لم ينت لم يقتل . من ذلك ما رواه الترمذى(١٠٦) بسنده قال حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال : « عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلى سبيله ، فكنت ممن لم ينبت فخلى سبيلى .. » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح(١٠٧) .

وقد رواه ثلة من المحدثين بأسانيدهم ، عن سفيان حدثه عبد الملك بن عمير، حدثه عطية القرظى(١٠٨) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير(١٠٩) ، من رواية أسلم بن بجره بلفظ « ... فكان ينظر إلى فرج الغلام فمن أنبت ضرب عنقه وإن لم ينبت ففى المغنم ... »(١١٠) .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على استعراض أولئك الغلمان للتأكد من واقع بلوغهم ، وإنزال الحكم فيهم ، وحتى لا يؤخذ أحد بالظنة أو الخطأ أو النسيان ، لأن فى هذا حكما من أحكام الله أجراه الله على لسان سعد ابن معاذ ﷺ ، حينما قال له الرسول ﷺ على ما أورده البخارى «... قضيت فيهم بحكم الله ... »(١١١) . وذلك بسبب جريمتهم البشعة فى نقض العهود فى أحلك الأوقات أيام غزوة الأحزاب » .

الهوامـش

(١) الاستعراض من العرض ، يقال عرضت الجند عرض العين ، إذا أمررتهم عليك ونظرت ما حالهم ، وقد عرض العارض الجند ، واعترضوا هـم . ومنـه اعـتراض الجنـد على قـائدهم ، واعترض الناس : عرضهم واحداً واحداً . وقيل هـو مـن عـرض الجنـد بـين يـدى السلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم . ومنه الاعتراض على الدابة ، إذا كـان وقـت العـرض راكبـاً . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢٨٨٥/٥ .

(٢) الآية ٤ من صورة الصف .

(٣) انظر ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/٤ .

(٤) وبالمقابل فإن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى نظر المسلمين حتى تقوى عزائمهم ومعنوياتهم ومنه قوله تعالى : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشـلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ الآية ٤٣ من سورة الأنفال.

(٥) انظر محمود شيت خطاب - الرسول القائد ٧٨ ، ٧٩ ، أكـرم العمـرى - المجتمـع المدنـى فى عهد النبوة ٤٧ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٠/٣ .

(٧) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٩/٤ .

(٨) انظر عن هذا الحديث البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٤٩٣/٤ - وسـنن الترمذى ٢٢٩/٥ ، النسائى - السنن الكبرى ٣١٦/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩٥/٥ .

(٩) انظر ابن كثير ، السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ .

(١٠) انظر البيهقى - السنن الكبرى ٩/ ١٥٥ وانظر أبى داود - السنن ٣/ ٥٢ بلفـظ حين اصطففنا يوم بدر ، وانظر أيضاً الطبرانى - المعجم الكبير ١٩ / ٢٦٢ .

(١١) انظر البخارى - الصحيح ١٠/٥ - ١١ .

(١٢) سليمان الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٤/٤ .

(١٣) مسند الإمام أحمد ٥/٤٢٠ .

(١٤) السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ٣/٢٧١ .

(١٥) انظر الهيثمى - مجمع الزوائد ٦/٧٥ .

(١٦) انظر عن ترجمته ابن عبد البر - الاستيعاب ٤/٢٩٣ ، ابن حجر - الإصابة ٤/٢٩٢ - ٢٩٣ .

(١٧) يقال نتل من بن أصحابه نتلاً ونتولاً واستنتل أى تقدم ، واستنتل القوم على الماء إذا تقدموا. انظر ابن منظور - لسان العرب ٧/٤٣٣٧ .

(١٨) انظر عن ذلك - ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٢/٤٥٦ - ٤٥٧ ، ابن هشام من رواية ابن اسحاق فى السيرة النبوية ٢/٦٢٦ ، وكذا ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ٢٧١ ، والسيرة النبوية ٢/٤٠٩ - ٤١٠ ، وكل هؤلاء أوردوها من طريق واحد هو هذا الإسناد الذى فيه جهالة شيوخ حبان بن واسع بن حبان .

(١٩) انظر مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٩ .

(٢٠) قال الترمذى حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذى ٥/٢٢٩ كما رواه أحمد فى المسند ٤/٢٩ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٥/٩٥ .

(٢١) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٣/٦٤ ، ٦٥ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٣/٢٦ - ٢٩ .

(٢٢) انظر المصادر السابقة وانظر أيضاً البخارى - الصحيح ٥/٢٩ .

(٢٣) انظر ابن سعد - الطبقات ٥/٢٥٨ ، ابن حجر العسقلانى - فتح البارى ٥/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٧/٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٢٤) البخارى - الجامع الصحيح ٥/٤٥ ، صحيح مسلم ١٣/١٢ ، أبو داود - السنن ٤/٥٦١ ، ٥٦٢ ، الترمذى - السنن ٣/٦٤١ ، أحمد - المسند ٢/١٧ .

(٢٥) انظر - البيهقى - السنن الكبرى ٦/ ٣٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ١/٥٩ ، انظر فتح البارى ٥/٢٧٦ ، ٧/٣٩٣ حيث شرح هذا الحديث شرحاً وافياً .

(٢٦) انظر سنن البيهقى ٥٥/٦ ، كما أورد مسلم جزءاً من هذه الرواية ، انظر الصحيح ١٢/١٣ .

(٢٧) انظر المقريزى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ حيث قال : « فلما فرغ العرض وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب » .

(٢٨) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٩/٣ - ٣٠ المقريزى - إمتاع الأسماع ١١٩/١ .

(٢٩) انظر إمتاع الأسماع ١٩٩/١ ، انظر أيضاً ابن سيد الناس - عيون الأثر ٧/٢ حيث ذكر أن عدد من ردهم الرسول ﷺ من الأولاد بلغ أربعة عشر غلاماً .

(٣٠) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٥٨/٤ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٢٤١ .

(٣١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ .

(٣٢) انظر الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٢/ ٧٩ وذكر محقق الكتاب عبد القادر عطا أن الذهبى قال فى التلخيص حديث صحيح .

(٣٣) انظر سنن البيهقى ١٨/١٠ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٧/ ١٧٧ .

(٣٤) انظر سنن البيهقى ١٨/١٠ ، الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٦٩/٢ ، الطبرانى ، المعجم الكبير ١٧٧/٧ ، وانظر ابن عبد البر - الاستيعاب ٤/ ٢٥٨ بلفظ « كان يستعرض غلمان الأنصار فى كل عام » .

(٣٥) انظر الجامع الصحيح للبخارى ٤٥/٥ ، صحيح مسلم١٣/ ١٢ .

(٣٦) انظر ابن حجر - فتح البارى ٣٩٤/٧ .

(٣٧) انظر المصدر السابق ٣٩٤/٧ حيث ذكر أن معنى الإجازة هنا هو « امضاؤه والإذن له بالقتال » .

(٣٨) انظر صحيح البخارى ٥٧٣/٥ ، وصحيح مسلم بلفظ : « فأتيناهم حين بزغت الشمس ... الحديث ١٦٥/١٢ .

(٣٩) انظر المصدر السابق ٧٣/٥ ، ابن حجر - فتح البارى ٤٦٧/٧ .

(٤٠) انظر مسند أحمد ٣٥٣/٥ .

(٤١) انظر السنن الكبرى ١٠٩/٥ ، ١٧٩/٥ ، وانظر أيضاً ، أحمد بن حنبل . فضائل الصحابة ٥٩٣/٢ وذكر المحقق أن أسناده هنا صحيح .

(٤٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤٤٣/٧ ، ٤٤٤ .

(٤٣) أورده البخارى مطولاً فى قصة الحديبية فى باب الشروط فى الجهاد ، وانظره مع الشرح فى فتح البارى ٣٢٩/٥ وما بعدها .

(٤٤) وردت روايات عدة عن صيغة البيعة وهل هى على الموت ، أو على عدم الفرار أو على الصبر حيث وردت أحاديث كثيرة فى ذلك ظاهرها التعارض ، وقد جمع العلماء بين هذه الآراء فمن ذلك ما ذكره الترمذى من أن هناك من بايعه من أصحابه على الموت ، وبايعه آخرون فقالوا : « لا نفر » انظر سنن الترمذى ١٥٠/٤ ، أما ابن الحجر فقال : « لا تنافى بين قولهم ، بايعوه على الموت وعلى عدم الفرار ، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا ، وليس المراد أن يقع الموت ولابد وهو الذى أنكر نافع وعدل إلى قوله : « بل بايعهم على الصبر » أى على الثبات سواءاً أفضى ذلك إلى الموت أو لا « والله أعلم » . انظر ابن حجر فتح البارى ١١٨/٦ .

(٤٥) مر الظهران ، سمى مر لمرارته والظهران وادٍ قرب مكة بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً . وبطن الوادى تخزعت خزاعة أيام سيل العرم ، وبه كان الرسول ﷺ ينزل إذا أتى إلى مكة، انظر البكرى - معجم ما استعجم ١٢١٢/٢ ، ياقوت - معجم البلدان ٦٣/٤ .

(٤٦) الخطم رعن الجبل وهو الأنف منه حيث يضيق الموضع الذى يخرج فيه . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٢٠٣/٢ .

(٤٧) انظر صحيح البخارى ٩١/٥ ، وانظر ابن كثير - السيرة النبوية ٥٤٩/٣ ، ٥٥٣ .

(٤٨) الكتيبة هى القطعة العظيمة من الجيش والجمع كتائب . انظر الجزرى - النهاية فى غريب الحديث ١٤٨/٤ ، ابن منظور - لسان العرب ٣٨١٨/٦ .

(٤٩) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٦/١ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٩/٩ البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٥٥٩/٤ .

(٥٠) الحدق هو السواد المستدير وسط العين ومنه التحديق وهو شدة النظر بالحدقة ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٨٠٦/٢ .

(٥١) الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٠/٤ .

(٥٢) انظر فتح البارى ٨/٨ ، وانظر أكرم العمرى - المجتمع المدنى فى عهد النبوة ١٧٦ .

(٥٣) انظر البخارى - الصحيح ٩٣/٥ .

(٥٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢٦/١٢ ، ١٢٧ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٧/٣ ، ابن سعد - الطبقات ٩٨/٢ ، ابن الديبع الشيبانى - حدائق الأنوار ٦٦٩/٢ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٣/٤ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٥٥) انظر البخارى - الصحيح ٩١/٥ .

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١١٨/١٢ - ١٢٠ .

(٥٧) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١٢١/١٢ .

(٥٨) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة إليه انتهى رسول الله ﷺ فى اليوم الثانى من يوم أحد بطلب المشركين ، انظر البكرى - معجم ما استعجم ٤٦٨/١ ، ياقوت معجم البلدان ٣٠١/٢ .

(٥٩) انظر فتح البارى ٣٧٤/٧ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، السيرة النبوية ٩٨/٣ .

(٦٠) انظر طبقات ابن سعد ٣٥/٢ الواقدى - المغازى ٣٣٨/١ .

(٦١) انظر عيون الأثر ٣٨/٢ ، على الحلبى - السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٩.

(٦٢) انظر امتاع الأسماع ١٦٩/١ .

(٦٣) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، أما ابن سعد فقد أشار إلى أن الرسول ﷺ انصرف إلى المدينة ودخلها يوم الجمعة ، وقد غاب عنها خمس ليال ... انظر الطبقات ٣٥/٢ .

(٦٤) انظر الصحيح البخارى ٩١/٥ .

(٦٥) انظر مثلاً سنن البيهقى الكبرى ١١٩/٩ ، ومسند الإمام أحمد ٢٦٦/١ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر أيضاً ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٢/٤ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٥٧٤/٣ ، البداية والنهاية ٢٨٩/٤ .

(٦٦) انظر الطبقات ٩٧/٢ ، ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، وانظر ابن حجر - فتح البارى ٧/٨ حيث أشار إلى أن النيران قد أخذت الوادى كله .

(٦٧) الحديث رواه مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر صحيح مسلم ١٤٩٣/٣ ، النسائى - السنن ٢٢١/٦ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٢/٦ ، أبى يعلى فى المسند ٥١/٥ ، ٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٣٣٧/٢ .

(٦٨) قال الحاكم عن هذا الحديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه البخارى ومسلم ، انظر المستدرك ٣٧١/٣ .

(٦٩) البقيع هو الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ومنه بقيع المدينة ، أما بقيع الخيل فهو مكان بالمدينة عند دار زيد بن ثابت . انظر ياقوت - معجم البلدان ٤٧٣/١ ، ٤٧٤ .

(٧٠) وانظر مسند أحمد ١/ ١٨٥ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٢٨/١٥ ، مسند أبى يعلى ١٣٩/٢ ، الطبرانى - المعجم الأوسط ٢/ ٥٥٢ .

(٧١) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٧١/٩ .

(٧٢) انظر صحيح مسلم ٢٠٧٧/٤ ، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٤٠٧ .

(٧٣) انظر الجامع الصحيح المختصر ٥/ ٢٣٥٤ ، ابن حبان - الصحيح ٨٤/٣ ، أبو داود السنن ٨٧/٢ ، النسائى - السنن الكبرى ٢٥٥/٥ ، ١٣٧/٦ .

(٧٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٧/٤ ، فضائل الصحابة ٢/ ٨٧٧ .

(٧٥) انظر المستدرك على الصحيحين ٩١/٤ ، وقال فى التلخيص صحيح غريب .

(٧٦) انظر المعجم الكبير للطبرانى ٢٠/ ٩٨ .

(٧٧) انظر الهيثمى حيث ذكر أن رجال الطبرانى ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ بن جبل ، فى مجمع الزوائد ١٠/ ٤٧ .

(٧٨) انظر المصدر السابق ٤٦/١٠ .

(٧٩) النقيع : هى الأرض السهلة المستوية تنبت الرمث والبقل وأطايب العشب ، وقيل هى متسع الوادى ، فأصل النقيع كل موضع يستنقع فيه الماء ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٥٢٦/٨ ، وانظر فتح البارى ٤٥/٥ .

(٨٠) انظر فتح البارى ٥/ ٤٥ .

(٨١) انظر الجامع الصحيح المختصر ٢/ ٥٣٥ .

(٨٢) انظر سنن البيهقى ١٤٦/٦ .

(٨٣) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد ٢/ ٩١ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٣٨/١٠ ، سنن الدار قطنى ٢٣٨/٤ ، شرح معان الآثار ٢٦٩/٣ .

(٨٤) انظر النسائى - السنن بشرح الإمام السيوطى ٢٢٦/٦ .

(٨٥) من الإضمار او التضمير وهو تقليل علف الفرس مدة وتحليلها لتعرق ويجف عرقها فيخف لحمها وتقوى على الجرى ، وقيل هو تسمينها أولاً ثم ردها إلى القوت . انظر - السيوطى - شرح سنن النسائى ٢٢٦/٦ .

(٨٦) البخارى - الصحيح ٣/ ٢١٩ ، ٢٢٠ ، بروايات متعددة ، النسائى - السنن بشرح الإمام السيوطى ٢٢٦/٦ .

(٨٧) انظر تخريج الدلالات السمعية ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٨٨) انظر الثعالبى- فقه اللغة ١٥٢ .

(٨٩) انظر صحيح البخارى ٣/٢١٨ ، كما رواه من طريق آخر بلفظ « ... أن النبى ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بحراً . فكان بعد ذلك لايجارى » ، انظر البخارى ٣/٢١٩ .

(٩٠) انظر ابن جماعة الحموى - مستند الأجناد فى آلات الجهاد ٧٠ ، ٧١ ، الخزاعى التلمسانى تخريج الدلالات السمعية ٣٩٣ .

(٩١) انظر المقريزى - إمتاع الأسماع ١/٢٠٦ .

(٩٢) انظر مستند الأجناد لابن جماعه ٧٣ .

(٩٣) انظر صحيح البخارى ٣/٢٢٠ ، وانظر سنن النسائى بشرح السيوطى ٦/٢٢٧ .

(٩٤) انظر أبو داود - السنن ٣/ ٤٦ .

(٩٥) من الحيص : وهو الحيد عن الشيء ، يقال حاص عنه يحيص حيصاً أى رجع . يقال للأولياء : حاصوا عن العدو . وللأعداء انهزموا . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢/ ١٠٧٠ .

(٩٦) من عكر على الشيء يعكر عكراً واعتكر أى كر وانصرف ، يقال رجل عكار فى الحرب أى عطاف كرار . وقال ابن الأعرابى العكار : الذى يولى فى الحرب ثم يكر راجعاً . انظر الجوهرى - الصحاح ٢/٧٥ ، ابن المنظور - لسان العرب ٥/٣٠٥٥ .

(٩٧) انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٤/٢١٥ قال عنه هذا الحديث حسن .

(٩٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥/٣٦٦ .

(٩٩) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٤٣٩ .

(١٠٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٨ .

(١٠١) المعجم الكبير ١٨/٥ .

(١٠٢) انظر مسند أبى يعلى ٩/٤٤٧ ، ١٠/ ١٥٨ وذكر المحقق له حسين سليم أسد أن إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ابى زياد . أما الذهبى فقال عن يزيد بن أبى زياد أنه شيعى عالم فهم صدوق ردئ الحفظ لم يترك روى له مسلم والأربعة . انظر الكاشف ٣/٢٧٨ / أما ابن حجر فقال عنه ضعيف كبر فتغير ، انظر تقريب التهذيب ٢/٣٦٥ .

(١٠٣) ذكر ابن كثير من رواية ابن اسحاق أن عقبة بن أبى معيط لما أقتيد وقدم للقتل قال : فمن للصبية يا محمد . قال : النار ... ثم قال لما أقبل عليه عاصم بن ثابت لقتله : يا معشر قريش علام أقتل من بين هؤلاء ؟ قال له : على عداوتك الله ورسوله . انظر ابن كثير - السيرة النبوية ٤٧٣/٢ ، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣ .

(١٠٤) انظر عن هذه الروايات أحمد باوزير - مرويات غزوة بدر ٣٠٤ - ٣١٢ .

(١٠٥) ذكر البخارى أن الرسول ﷺ طلب من سعد بن معاذ أن يحكم فيهم قال سعد فإنى أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم . انظر صحيح البخارى - ٥١/٥ .

(١٠٦) فى الجامع الصحيح - سنن الترمذى ١٤٥/٤ .

(١٠٧) الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٤/ ١٤٥ ، وذكر المحقق أيضاً أن الألبانى صححه وانظر أيضاً الضحاك فى كتابه الآحاد والمثانى ٢٠٥/٤ .

(١٠٨) انظر مثلاً صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠٤/١١ ، الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٤٣٠/٤ ، ابن ماجه - السنن ٢/ ٨٤٩ ، سنن الدرامى ٢/ ٢٩٤ ، مسند أبى داود الطيالسى ١٨١ ، مسند الإمام أحمد ٣١٠/٤ .

(١٠٩) انظر المعجم الكبير ٤٣٦/١٩ .

(١١٠) أورده الهرثمى بسند أسلم بن بجره الأنصارى وقال فيه جماعة لم أعرفهم. انظر مجمع الزوائد ١٤٤/٦ .

(١١١) انظر صحيح البخارى ٥٠/٥ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم :

- الآحاد والمثانى :

أحمد بن عمرو بن الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، ط / الراية - الرياض عام ١٤١١هـ ، مراجعة باسم فيصل الجوابره .

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب :

يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : طه محمد الزينى ، ط١ مكتبة الكليات الأزهرية .

- الإصابة فى تمييز الصحابة :

شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، ط الأولى . دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٩٣هـ .

- البداية والنهاية :

لأبى الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط/ الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- الجامع الصحيح المختصر :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) . ط/ دار ابن كثير «اليمامة» بيروت عام ١٤٠٧هـ . مراجعة د. مصطفى ديب البغا .

- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى :

لمحمد بن عيسى الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، ط / دار أحياء التراث ، بيروت ، مراجعة أحمد محمد شاكر .

- الرسول القائد :

محمود شيت خطاب ، الطبعة المصرية - القاهرة .

- السنن لابن ماجه :

أبو عبيد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥هـ) ط / المكتبة الإسلامية بتركيا . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى .

- السنن للدارمى :

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامى (ت ٢٥٥هـ) ، الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

- السنن لأبى داود :

سليمان بن الأشعث المعروف بأبى داود ، ط/ دار الفكر ، مراجعة : محمد محيى الدين عبد الحميد .

- السنن الكبرى للبيهقى :

أحمد بن الحسين بن على بن موسى (ت ٤٥٨هـ) ، ط / مكتبة دار الباز بمكة عام ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

- السيرة النبوية :

أبى الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط/ دار المعرفة - بيروت عام ١٣٩١هـ .

- السيرة النبوية :

لأبى محمد عبد الملك بن هشام (ت٥٨١هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط/ الثانية عام ١٣٧٥هـ ، مطبعة البابى الحلبى .

- الصحاح :

إسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٢هـ .

- الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة :

للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨ ، ط/ دار الكتب الحديثة - مصر ، ط / الأولى ١٣٩٢هـ ، تحقيق : عزت على عطيه ، موسى محمد الموسى .

- الطبقات الكبرى :

لمحمد بن سعد الزهرى مولاهم ، ط/ دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة .

- المجتمع المدنى فى عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين » :

د. أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- المستدرك على الصحيحين :

أبو عبد الله محمد النيسابورى المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ ، راجعه : مصطفى عبد القادر عطا .

- المعجم الكبير :

سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى (ت٣٦٠هـ) ط / مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤هـ . مراجعة : حمدى السلفى .

- المغازى :

لمحمد بن عمر الواقدى (ت٢٠٧هـ) ، ط/ عالم الكتب - بيروت ، تحقيق : د. ماردسن جونس .

- المسند :

للإمام أحمد بن حنبل - دار النشر ، مؤسسة قرطبة بمصر - مصورة عن الطبعة الميمنية .

- **النهاية فى غريب الحديث :**

لمجد الدين أبى السعادات بن الأثير الجزرى ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى ومحمود طناحى ، ط١ ، المطبعة عيسى البابى الحلبى عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

- **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع :**

تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، صححه محمود شاكر ، ط/ الشؤون الدينية بقطر ، الطبعة الثانية .

- **إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ « السيرة الحلبية » :**

على بن برهان الدين الحلبى ، ط/ المطبعة المصرية عام ١٢٩٢هـ .

- **تخريج الدلالات السمعية على ماكان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية :**

أبى الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى (ت ٧٨٩هـ) ، مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية - عام ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .

- **تفسير القرآن العظيم :**

لأبى الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٨م - ١٩٦٩م .

- **تقريب التهذيب :**

شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٥هـ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

- **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار :**

لابن الديبع الشيبانى الشافعى ، تحقيق : عبد الله الأنصارى ، ط/ قطر عام ١٤٠٣هـ .

- سنن النسائى الكبرى :

أحمد بن شعيب بـن على النسـائى ، ط / المكتبة العلمية - بـيروت ، دار الكتـب العلمية/ بيروت ١٤١١هـ ، مراجعة : عبد الغفار البندارى وسيد كروى حسن .

- صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج النيسابورى ، ط/ إحياء التراث العربى - بيروت ١٣٧٤هـ ، وصحيح مسلم بشرح النووى - المطبعة المصرية .

- صحيح البخارى :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، ط/ المكتبة الإسلامى باستانبول - تركيا .

- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير :

لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) . ط/ طبعة دار المعرفة للطباعة - بيروت .

- فتح البارى شرح صحيح البخارى :

لابن حجر . شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيـق : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء .

- فضائل الصحابة :

لأبى عبـد الله احمـد بـن محمـد بـن حنبـل (ت ٢٤١هـ) ، ط/ الأولى عـام ١٤٠٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق : د. وصى الله محمد عباس .

- فقه اللغة وسر العربية :

أبى منصور الثعالبى ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، طبعة مصطفـى البـابى الحلبى ١٩٥٤م .

- لسان العرب :

جمال الدين أبو الفضل محمد بـن مكـرم ابـن منظـور ، تحقيـق : عبـد الله علـى الكبير وآخرون ط / دار المعارف بمصر .

- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :**

للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧هـ) ط:٢ عام ١٩٦٧م، دار الكتاب ، بيروت .

- **مرويات غزوة بدر :**

أحمد محمد باوزير ، ط١ ، مكتبة طيبة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- **مستند الأجناد فى آلات الجهاد :**

لابن جماعة الحموى (ت ٧٣٣هـ) ، تحقيق : أسامة ناصر النقشبندى ، منشورات وزارة الثقافة بالعراق ١٩٨٣م .

- **مسند أبى يعل الموصلى :**

أحمد بن على بن المثنى التميمى (ت ٣٠٧هـ ، ط/ دار المأمون للتراث ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، تحقيق : حسين أسد .

- **معجم البلدان :**

شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى ، طبعة دار صادر ودار بيروت عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :**

عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط عالم الكتب - بيروت .

العباسيون والأمويون

دراسة في العلاقات بين البيتين (١١-١٢٥هـ)

د. محمد بن ربيع بن هادي مدخلي(*)

يتصل البيتان العباسي والأموي بجد واحد يجمعهما ألا وهو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة(١) .

فالعباس هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف(٢) ، عم رسول الله ﷺ ، وصاحب المواقف الجلية معه بعد وفاة أبي طالب بن عبد المطلب (في السنة العاشرة من البعثة النبوية) ، حيث شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو مشرك(٣) ، ثم ساند رسول الله ﷺ معنوياً بعد الهجرة إلى أن هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة سنة ٨هـ(٤) .

وحظي العباس عند رسول الله ﷺ بمكانته اللائقة به ، وأنزله منه منزلة الوالد(٥) ، وكان يجله ، ويقدره ، ويعتز به بين صحابته(٦) ، وبقي على مكانته تلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، إذا أنزله الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) منزلته التي يستحقها حتى وفاته سنة ٣٢هـ(٧) ، رضي الله عنه . وكان له عدد من الأبناء منهم الفضل (ت ١٨هـ)، وعبد الله (ت ٦٨هـ) ، وعبيد الله (ت ٥٨هـ) (٨) ، وكان أشهرهم حبر الأمه ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

أما أبو سفيان فهو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة(٩) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

تولى قيادة جيوش قريش ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فى أحد والأحزاب، وبعض الغزوات الصغيرة (١٠) ، ثم هداه الله للإسلام فى يوم الفتح ، وذلك عندما آمنه العباس بن عبد المطلب ، ودخل به على رسول الله ﷺ حيث أعلن إسلامه . وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يميز أبا سفيان بشيء لأنه كما قال رجل يحب الفخر ، فقال ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »(١١) .

وشهد أبو سفيان مع رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وفقئت إحدى عينيه ، وأعطاه ﷺ مائة من الإبل ، وأعطى ابنه يزيد (ت ١٨هـ) ومعاوية (ت ٦٠هـ) يتألفهم على الإسلام(١٢) .

وهوقبل ذلك كله كان صهرا لرسول الله ﷺ قبل إسلامه إذ تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان(١٣) .

واستعمل رسول الله ﷺ ابنة معاوية على بعض الأعمال ومنها الكتابة(١٤). وبعد وفاة رسول الله ﷺ شارك أبو سفيان فى حركة الفتح الإسلامى تحت راية ابنه يزيد ، ففقئت عينه الأخرى فى معركة اليرموك(١٥) ، فعاد إلى المدينة مكرماً من الخلفاء الراشدين إلى أن توفى سنة ٣٤هـ(١٦) .

وهكذا كان هذان العلمان من ذوى الشرف والسؤدد فى قومهما ، يضاف إلى ذلك أنه كانت تجمع بين العباس وأبى سفيان علاقة خاصة قبل الإسلام ، فالأخير كان نديماً للعباس فى الجاهلية(١٧) ، هذه الصداقة جعلت العباس ﷺ يعمل على حماية صديقه ، إجارته عام الفتح عندما التقى به فى مر الظهران(١٨) ، وأردفه على بغلة رسول الله ﷺ زيادة فى الحرص على سلامته حتى دخل به على رسول الله ﷺ وجادل عمر بن الخطاب ﷺ الذى كان يرى أن الله قد أمكن من

أبى سفيان من غير عهد ، فاتهم العباس عمر أنه متحامل على أبى سفيان لأنه من بنى عبد مناف(١٩) ، وهى تهمه نفاها عمر ﷺ وكان صادقاً فى ذلك .

هذا الإصرار من جانب العباس عم رسول الله ﷺ على حماية أبى سفيان ، والحرص على سلامته توضح مدى وفاء العباس لصديقه القديم ، ومن ناحية أخرى حب العباس لقريش عموماً وخشيته عليها إن لم يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل وصوله ﷺ إلى مكة(٢٠) .

ولعل الصلة بين هذين البيتين والزعامة فيهما ، وقرابتهما من رسول الله ﷺ هى الدافع لأبى سفيان فى رواية(٢١) ، أو خالد بن سعيد بن العاص (ت ١٣هـ) فى رواية أخرى(٢٢) ، لمخاطبة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ينكر عليهما موافقتهما على بيعة الصديق ، وحسب رأى القائل أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى عبد مناف . والملاحظ هنا أن هذا القائل لم يخص بنى هاشم أو بنى عبد المطلب ، وإنما عم بنى عبد مناف ، ومنهم بالطبع بنو أمية . ونستشف منه أن بنى أمية كانوا يرون لأنفسهم حقاً فى خلافة رسول الله ﷺ ، أو على الأقل إن نالها على بن أبى طالب فقد تحققت بواسطته زعامة بنى عبد مناف على قريش خاصة والمسلمين عامة .

وعلى كل فقد وضعت خلافة الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ من قبل المهاجرين والأنصار(٢٣) ، حدا فى مسألة الوراثة سواء من بنى هاشم ، أو غيرهم، وأن مسألة الخلافة كما بين الصديق ﷺ هى فى قريش عموماً للحديث الذى رواه عن رسول الله ﷺ فى ذلك وأنها غير محصورة ببيت من البيوت بعينه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الراشدين لم يستعينوا بزعيمى بنى هاشم وبنى أمية فى أعمال الدولة الإسلامية ، وإنما جاءت الاستعانة بأبنائهما حيث برز كل من هؤلاء الأبناء فى مجال يختلف عن الآخر .

فعبد الله بن عباس رضى الله عنهما احتل مكانة مرموقة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخاصة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، إذ كان يقدمه على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه ، وفقهه ، ودقة استنباطه للأمور الشرعية ، وخاصة تفسير كتاب الله العزيز ، الذى كان كثيراً ما يسأله عن معانى بعض آيات كتاب الله عز وجل . وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ معجباً به أيما إعجاب وكان يقول عنه : « ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول»(٢٤) ، ويقول فيه : « كيف تلومونني على ابن عباس »(٢٥) ، وقد أوتى ابن عباس هذا العلم وهذا الفقه حتى نال هذه المكانة بفضل دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »(٢٦) .

هذا فى الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فقد برز دوره فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد .

أما أبناء أبى سفيان - يزيد ومعاوية - فقد جعل الصديق ﷺ يزيد بن ابى سفيان على رأس أحد الجيوش الأربعة المتوجهة إلى الشام لفتحها(٢٧) . وبعدما توفى الصديق سنة ١٣هـ ، وخلفه عمر ﷺ استعمل يزيد على مدينة دمشق بعد فتحها ، واستمر فى منصبه ذاك حتى توفى سنة ١٨هـ ، فولى أمير المؤمنين عمر مكانه أخاه معاوية ، ثم جمع له ولاية الشام بعد ذلك(٢٨) .

ظل معاوية أميراً على الشام حتى مقتل عثمان ﷺ سنة ٣٥هـ فى الفتنة المعروفة . وكان من جراء ذلك أن دبت الفتنة والخلافات بين أبناء الدولة الإسلامية بسبب مقتل عثمان ﷺ ، وذلك لاختلافهم حول القصاص من قتلته ، بعد أن اختير على ﷺ ، (ت ٤٠هـ) من قبل المهاجرين والأنصار خليفة وأميراً للمؤمنين(٢٩) .

كان ابن عباس نظراً لظروف الفتنة قد نصح عليا بعدم قبول البيعة فى مثل تلك الظروف ، لأنه إن قبلها ، فسيلزمه الناس دم عثمان ، ولينتظر فسيجتمع عليه الناس لا محالة(٣٠) ، لكن عليا ﷺ رأى أن التأخير فى القيام بأمور المسلمين ستترتب عليه مفاسد كبيرة أخطرها : أن الذين قتلوا عثمان ربما يصرفون الخلافة عن أهل الحل والعقد من أهل المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وهو ما هددوا به فعلاً أهل المدينة(٣١) . وبعد البيعة كان من رأى ابن عباس أن يبقى أمير المؤمنين على ﷺ معاوية فى إمارة الشام حتى تستقيم الأمور ، ثم إن شاء بعد ذلك عزله . وكان رأيه هذا بعد أن طلب منه أمير المؤمنين على أن يتولى بلاد الشام ، لكن ابن عباس رفض ذلك لخطورة قدومه إلى تلك المنطقة فى مثل تلك الأوضاع(٣٢) .

وعندما اشتد أوار الفتنة ، واحتكم إلى السيف فى الجمل وصفين شارك بنو العباس - عبد الله ، عبيد الله ، قثم - فى تلك المعارك مع على ﷺ . وكذلك استعان بهم فى الإدارة حيث تولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، وقثم مكة(٣٣) ، وظلوا معه حتى قتل سنة ٤٠هـ ، وبويع الحسن بن على رضى الله عنهما بالخلافة التى تنازل عنها اصلاحاً بين الناس وحقنا لدماء المسلمين ، وليتحقق فيه قول النبى ﷺ « إن ابنى هذا سيد ولعل الله شاء أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »(٣٤) ، ومن ثم اجتمعت الأمة على معاوية وسمى عام ٤١هـ عام الجماعة(٣٥) .

ومن الطبيعى أن ينخرط بنو العباس فى هذه البيعة الجديدة ، بل إن عبيد الله بن عباس سارع إلى مكاتبة معاوية قبل أن يعقد الصلح مع الحسن ، وشرط لنفسه ولمن معه الأمان وله الأموال . فلبى معاوية له شروطه ، فالتحق به عبيد الله، فأكرمه معاوية ، وكافأة بألف ألف درهم وقيل ألفى ألف درهم(٣٦) .

وأصبح عبيد الله مطاع الرأى عند معاوية ويتقبل مشورته فيمن يتولى أمور البصرة. وحسب الرواية فإن معاوية كان يريد أن يولى عليها أحد بنى القين ، فعدل عنه إلى عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩هـ)(٣٧) .

أما عبد الله بن عباس فتشير بعض الروايات إلى أنه كان قد غادر البصرة إلى الحجاز بعد أن استولى على بيت مالها ، وذلك عندما طلب منه أمير المؤمنين على ﷺ أن يرفع إليه الحساب(٣٨) . ويبدو من هذه الرواية الوضع والاختلاق ، فهناك عدة قرائن تشير إلى أن عبد الله بن عباس ﷺ ظل ملازماً لعلى ﷺ إلى اليوم الذى قتل فيه . ومن هذه الروايات ماورد فى ترجمة على بن عبد الله بن عباس حيث ذكرت بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً ﷺ افتقد عبد الله بن عباس فى اليوم الذى قتل فيه وذلك فى صلاة الظهر ، فسأل عنه فقيل له شغل بمولود ولد له . فلما قضى صلاته توجه إلى عبد الله بن عباس وهنأه بالمولود ودعا له ، ثم إن أمير المؤمنين سمى هذا المولود باسمه ، وكناه بكنيته ، فأصبح اسمه على بن عبد الله بن عباس(٣٩) .

وهناك رواية ذكرها الطبرى أن ابن عباس لم يبرح البصرة حتى قتل على ﷺ وبويع الحسن وشهد معه الصلح(٤٠) .

وهذه الروايات الأولى بالقبول والتصديق ، من تلك التى تقذف صحابياً جليلاً له من العلم والورع والتقوى ما يمنعه من استحلال مال المسلمين بغير حق(٤١) .

كما أنها تبين لنا أن ابن عباس صمد فى وجه معاوية إلى أن تنازل الحسن ، فلما أصبح معاوية خليفة دخل ابن عباس فيما دخل فيه المسلمون ، وبايع معاوية وتبعاً لما هو معروف عن معاوية الدهاء والحزم وحسن التصرف فى الأمور وقد

وصف نفسه بقوله : « لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت »(٤٢) ، لذا كان من الطبيعى أن يقرب إليه أهل العلم ، والشرف ، ويجعلهم من خواصه ومقربيه ، فكيف برجل من بنى عبد مناف ، أقرب إليه رحماً ، ويتمتع بمكانة كبيرة فى عهد من سبقه لعلمه ، وفقهه ومكانته مثل عبد الله بن عباس . بل إننا نجد أن معاوية يقرب إليه بنى هاشم أكثر من تقريبه لبنى أمية ، ويجزل لهم العطايا أكثر من غيرهم؛ مثل الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب (ت ٨٠هـ) مما جعل بنى أمية يعاتبونه على تقريبهم أكثر منهم(٤٣) .

وفى المقابل فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قابل ود معاوية بود ، واحتراما باحترام . وعبارات الثناء التى صدرت منه فى حق معاوية تدلنا على ذلك، ومن هذه الأقوال :

١ - « ما رأيت أحداً كان أحق بالملك من معاوية ، لله دره إن كان لحليما ، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب »(٤٤) .

٢ - فى إحدى قدمات ابن عباس إلى معاوية أمر الأخير ابنه يزيد أن يأتى ابن عباس ويسلم عليه ، فلم وصل إلى ابن عباس رحب به وحدثه . فلما خرج من عنده قال ابن عباس : « إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس »(٤٥) .

وقال هذا القول فى يزيد بحكم معرفته الوثيقة به عندما شاركه فى الحملة المتوجه إلى القسطنطينية لمحاولة فتحها سنة ٤٩هـ(٤٦) .

٣ - وقال عن معاوية : « لله در ابن هند ، ولينا عشرين سنة ، فما آذانا على ظهر منبر ولا بساط ، صيانة منه لعرضه ، وأعراضنا . ولقد كان يحسن صلتنا ويقضى حوائجنا(٤٧) .

وكان معاوية يستفيد من حضور ابن عباس إليه . روى على بن عبد الله بن عباس قال : « كنت مع أبى عند معاوية ذات ليلة فأتاه المؤذنون يؤذنون لصلاة

العشاء الآخرة ، فضن بحديث أبى ، فأمر رجلاً أن يصلى بالناس ، ثم تحدثنا حتى إذا فرغنا من حديثهما ، قام معاوية فصلى وليس خلفه غيرى وغير أبى ، وذلك بعدما أصيب ابن عباس فى بصره ... »(٤٨) .

ولما أنكر على بن عبد الله على معاوية وتره بركعة واحدة ، قال له ابن عباس إنه أعلم منك(٤٩) .

هذه الروايات التى ذكرناها تختلف تماماً عن الروايات الأخرى التى تصور ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما ، كشخصيتين متنافرتين يتربص كل منهما بالآخر سقط الكلام ، ويبدو التباغض منهما كل تجاه الآخر ، ومن هذه الروايات:

١ - « ... لما جاء معاوية نعى الحسن بن على استأذن ابن عباس على معاوية ، وكان ابن عباس قد ذهب بصره ، فكان يقول لقائده ، إذا دخلت بى على معاوية فلا تقدنى ، فإن معاوية يشمت بى ، فلما جلس ابن عباس قال معاوية : لأخبرنه بما هو أشد عليه من أن أشمت به . فلما دخل قال : يا ابا العباس هلك الحسن بن على ، فقال ابن عباس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وعرف ابن عباس أنه شامت به ، فقال : أما والله يا معاوية ، لا يسد حفرتك ولا تخلد بعده، ولقد أصبنا بأعظم منه فجبرنا الله بعده ، ثم قام . فقال معاوية : لا والله ما كلمت أحداً قط أعد جواباً وأعقل من ابن عباس(٥٠) .

وحقيقة هذا الموقف بين الرجلين جاءت فى رواية أخرى ، هى أن معاوية قال لابن عباس : « يا عجبا من وفاة الحسن شرب من عسله بماء رومه فقضى نحبه، لا يحزنك الله ولا يسوؤك فى الحسن ، فقال ابن عباس : لا يسوؤنى ما أبقاك الله » ، فامر له معاوية بمائة ألف وكسوة . وفى رواية ثانية أنه أمر له بألف ألف ما بين عرض وعين ، وقال له : « اقسم هذه فى أهلك »(٥١) .

هاتان الروايتان تدلان على أن كثيراً من الروايات التى وردت فى بعض المصادر تحرف الكلام عن مواضعه وتنقل أخباراً كاذبة عنهما سواء فى المفاخرة أو المعاتبة أو غيرهما من الأمور(٥٢) .

ونخرج من هذا كله بأن ابن عباس أقر بخلافة معاوية ، حامداً لها ، راضياً عنها ، إلى أن توفى معاوية بن أبى سفيان ﷺ سنة ٦٠ هـ ، لتبدأ أحداث جديدة فى الدولة الإسلامية سنرى موقف ابن عباس منها عما قليل .

أدت وفاة معاوية بن أبى سفيان ﷺ إلى تغير الأوضاع فى الدولة الإسلامية. وكانت بيعة يزيد بن معاوية مقدمة لهذه الأوضاع ، ذلك أن الموقف من خلافته أخذ يزداد وضوحاً فى أهم إقليمين من أقاليم الدولة الإسلامية هما العراق ممثلاً فى أهل الكوفة ، والإقليم الثانى هو الحجاز حيث يسكن كبار الصحابة وصغار أصحاب رسول الله ﷺ وفى مقدمة هؤلاء الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما اللذين كانت لهما المواقف المعارضة بولاية العهد ليزيد فى حياة أبيه . وبعد البيعة وضحت معارضتهم لخلافة يزيد من خلال فرارهم من المدينة إلى مكة(٥٣) . وبالطبع لم يكن ابن عباس من المعارضين ليزيد ، إذ يذكر البلاذرى أن ابن عباس حين توفى معاوية كان فى مكة، فلما بلغه خبر وفاة معاوية استرجع ومدح معاوية ، وقال فى حقه أنه لن يأتى أحد بعده مثله . ومدح يزيدًا بأنه من صالحى أهله . ثم طلب ممن حوله أن يعطوا بيعتهم ليزيد . ومن ثم ذهب إلى والى مكة واعطى بيعته(٥٤) . ويذكر الطبرى رواية عن الواقدى أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير وهما فى طريقهما إلى مكة وسألاهما فأخبرهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فوعظهما ابن عمر، وسألهما ألا يفرقا جماعة المسلمين(٥٥) . فلما وصل الحسين إلى مكة قدمت رسل أهل الكوفة بمبايعته ودعوته للقدوم عليهم(٥٦) .

ويبدو أن يزيداً أحس بما يدبره شيعة الكوفة تجاهه ، لذا فإنه أراد أن يمنع الحسين بن على من الخروج عليه بواسطة كبير بنى هاشم والمنظور إليه من قبل أهل مكة عامة وبنى هاشم خاصة ، ألا وهو عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، الذى أمل فيه يزيد أن يمنع الحسين من الخروج عليه . ولذلك كتب إليه يقول : «... نحسب أنه جاءه رجال من المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبره ، فلو فعل فقد قطع القرابة والرحم ، وأنت كبير أهل بيتك ، والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى فى الفرقة »(٥٧) . وقد رد عليه ابن عباس فى رسالة بقوله : « إنى لأرجو أن لا يكون خروجه لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة له ... »(٥٨) ، ويلاحظ هنا أن ابن عباس رضى الله عنهما لم يلزم نفسه بشىء أمام يزيد غير الاجتهاد فى النصح للحسين حتى يكف عن الخروج .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس من خلال مرافقته لأمير المؤمنين على ﷺ فى العراق ، عرف طبائع الشيعة هناك ، وأن الانقياد لهم سوف يؤدى إلى عواقب وخيمة لاتحمد عقباها ، ولذلك ذهب إلى الحسين مبيناً له ما يخشاه عليه من الذهاب إلى العراق ، وذلك من خلال قوله : « ... إنى لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان ... »(٥٩) ، فما كان من الحسين إلا أن قال له «إنك شيخ قد كبرت » ويبدو أن ابن عباس غضب من هذه الإجابة غيرالمتوقعة من الحسين ، ولذلك رد عليه ابن عباس بقوله : « ... لولا أن يزرى بى وبك ، لنشبت يدى فى رأسك ، ولو أعلم أنك تقيم إذا لفعلت ... »(٦٠) . وهناك رواية أخرى أن الحسين استشار ابن عباس فى خروجه من مكة إلى العراق فلم يؤيده فى ذلك ورد عليه ابن عباس بقوله السابق ، مما يدلنا على الخوف الشديد الذى انتابه من جراء خروج الحسين إلى العراق الذى صمم على التوجه إلى شيعته. وفى الطريق تصدت له قوات عبيد الله بن زياد وقتلته فى كربلاء سنة ٦١هـ(٦١).

وقد ترك مقتل الحسين رضى الله عنهما آثار كبيرة أبرزها اعتصام ابن الزبير فى مكة والدعوة إلى نفسه فيها(٦٢) . ومن ناحية أخرى خرج أهل المدنية على يزيد ، ومن ثم حدثت وقعة الحرة التى قتل فيها الكثير من خيار أهل المدينة سنة ٦٣هـ(٦٣) .

هذه الأحداث وقعت وعبد الله بن عباس - كما يبدو من الروايات - فى مكة ، وبطبيعة الحال سيسعى ابن الزبير إلى أن يبايعه ابن عباس لتكون بيعته عونا أمام المسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ليثبت أن مناداته بالخلافة لها وجه شرعى ، بدليل مبايعة ابن عباس له . فما موقف ابن عباس من يزيد بن معاوية ؟ وما موقفه من عبد الله بن الزبير فى خضم هذه الأحداث ؟ .

يذكر البسوى فى تاريخه أن ابن الزبير دعا عبد الله بن عباس إلى بيعته بعد مقتل الحسين رضى الله عنهما فامتنع ابن عباس من بيعته ، فما كان من يزيد إلا أن بعث إليه رسالة يشكره فيها على موقفه من ابن الزبير ، ومحافظته على بيعته ، ويعده بالبر وتعجيل الصلة ، ويطلب منه فى رسالته أن يعلم الناس برأيه فى ابن الزبير ، لأنهم لرأيه أسمع ، وله أطوع(٦٤) . وكان يزيد يظن أن ابن عباس رضي الله عنه كما كان عارفاً بحقه ، طاعة لله عز وجل دون أن يدرك الألم الكبير الذى شعر به المسلمون عموماً وبنو هاشم خصوصاً ، ومنهم بالطبع ابن عباس ، من جراء مقتل الحسين بن على ومن كان معه من أهل بيته ، لذلك كان رد ابن عباس إليه معبراً عن شعوره الغاضب من ذلك الحدث حيث كتب إليه « ... وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا سرور ولا كرامة ، كيف وقد قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء ... »(٦٥) . ونرى من خلال هذه الإجابة أن ابن عباس كان فى شدة الغضب على يزيد ، إن التزم بالطاعة وفاء

للبيعة التى فى عنقه . ولم يلبث أن توفى يزيد عقب هذه الأحداث ، وخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذى ما لبث أن مات هو الآخر بعد خلافته بشهر ونصف ، وذلك سنة ٦٤هـ(٦٦) . وأعقب وفاته اضطراب البيت الأموى ، مما أفسح المجال لابن الزبير أن ينتشر نفوذه من الحجاز إلى العراق إلى كثير من مناطق بلاد الشام ومصر ، حتى تولى مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) أمور الدولة الأموية ، لتنقلب الأمور مرة أخرى لصالح بنى أمية . وهذا بالطبع سيقودنا إلى الإجابة عن السؤال الثانى الذى طرحناه من قبل عن علاقة ابن عباس بابن الزبير خلال الفترة من وفاة يزيد إلى تولى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وهى فترة أصبح فيها ابن عباس فى حل من البيعة بعد وفاة يزيد .

اشتهر فى بعض المصادر امتناع ابن عباس ومحمد بن الحنفية عن مبايعة ابن الزبير، وساق بعضها علة ذلك الامتناع وهى قولهم « لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس »(٦٧) . وهذه المصادر توحى بالرفض المطلق لابن عباس لبيعة ابن الزبير الذى آذى كلا من ابن الحنفية وابن عباس بسبب موقفهم هذا .

والواقع أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير وعضده ووقف معه فى بداية خلافته . لكن الأخير لم يستثمر هذا التأييد من ابن عباس ويدنى ابن عباس منه ، بل نجده يدنى إليه جماعة من بنى أسد ، ويقصى ابن عباس على علمه ورأيه ومكانته ، مما جعل ابن عباس يصرف تأييده عنه إلى عبد الملك بن مروان . ونأخذ هذه الحقيقة من صحيح البخارى رواية عن ابن عباس نفسه الذى برر فيه انصرافه عن ابن الزبير فيقول : « ... ألا تعجبون لابن الزبير قام فى أمره هذا فقلت : لأحاسبن نفسى له ما حاسبتها لأبى بكر ولا عمر ، ولهما كانا أولى بكل خير منه وقلت : ابن عمة النبى ﷺ ، وابن الزبير ، وابن أبى بكر ، وابن أخى خديجة ، وابن أخت عائشة ، فإذا هو يتعلى عنى ولا يرد ذلك ، فقلت : « ما كنت أظن

أني أعرض هـذا مـن نفسـي فيدعـه ، ومـا أراه يريـد خـيراً ، وإن كـان لابـد لأن يربني(٦٨) ، بنو عمي أحب إلي من أن يربني غيرهم »(٦٩) ، وفـي روايـة أخرى عنه يتضح سبب إحجام ابن عباس عن ابن الزبير وانصرافه إلى بني أميـة بقولـه فـي حديث طويل « ... فآثر على التويتات ، والأسامات ، والحميدات » يريـد أبطنـا من بني أسد(٧٠) . وبذلك فقد تـأزمت الأمور بينهمـا إلى درجـة أن ابـن عبـاس صعد إلى الطائف تاركاً مكة لابن الزبير الذي ضايقـه فيهـا أشـد المضايقـة ، ومـن هناك أوصى ابنه عليا باللحاق بعبد الملك بن مروان(٧١) ، و لم يلبث أن توفـي ﷺ سنة ٦٨هـ(٧٢) ، لتبدأ علاقة جديدة بين عبد الملك وأبنائه وبين علي بن عبـد ا لله ابن عباس سنذكرها عما قليل .

* * *

توجه علي بن عبد ا لله بن عباس إلى عبد الملك بن مروان في الشام حسـب وصية أبيه . وتذكر بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان سأله عن كنيتـه فأخـبره بأنه يكنى بأبي الحسن ، فطلب منه أن يغير كنيته فغيرها إلى أبي محمد(٧٣) .

ويبدو في هذه الرواية التي ساقتها تلك المصادر الوضع والاختـلاق ، سـواء بالنسبة لعلي بن عبد ا لله أو عبد الملك . ويتضح ذلك في ضوء الأسباب التالية :

أولاً : أن عبد الملك بن مروان لم يكن رجلاً غريباً لدى علـي بـن عبـد ا لله ابن عباس ، وكذلك لم يكن غريباً عند عبد الملك ، فكلا الرجلين قرشي حجـازي يعرف أحدهما الآخر تمام المعرفة من خلال نشأتهما فـي المدينـة ، وتلقيهمـا العلـم على اصحاب رسول ا لله ﷺ فيها . وما حادثة ثورة المدينة عنا ببعيد ، فقد أخـرج منها بنو أمية ومنهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك(٧٤) ، وقبض على علـي بـن عبد ا لله بن عباس عقب موقعة الحرة ومطالبته بالبيعة ليزيد(٧٥) ، مما يدلنا على أن كلا الرجلين من خلال تواجدهما في المدينة في تلك الفـترة كـان معروفـاً للآخـر تمام المعرفة .

ثانياً : مولد محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة ٦٠ هـ أو سنة ٥٨هـ(٧٦) .

وثورة المدينة سنة ٦٣ هـ وكانت سن محمد بن على بين الثلاث إلى الخمس سنوات يومئذ فهل كان عبد الملك يجهل أن لعلى بن عبد الله ولداً يدعى محمداً ؟ الإجابة فيما يظهر هى أنه لم يكن يجهل ذلك .

لقد تغيرت كنية على بن عبد الله بن عباس من قبل معاوية بن أبى سفيان ﷺ ، وهو الذى طلب من عبد الله بن عباس أن يغير كنية على إلى أبى محمد ، ليس بغضا فى اسم على بن أبى طالب وكنيته ، وإنما كما قال معاوية ﷺ : « ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد »(٧٧) ، وهذا فيما يبدو إشعار من معاوية لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بمكانته عنده ، وأن منزلته لا تقل عن منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين على ﷺ .

ثم إن على بن عبد الله بن عباس لم يحضر مرغماً إلى عبد الملك وإنما طوعاً واختياراً ورغبة منه . وليس من المعقول أن يفاتح عبد الملك بن مروان بعد استخلافه فى أول لقائه بعلى بن عبد الله بن عباس بأسلوب فظ « غير اسمك وكنيتك فلا صبر لى على اسمك وكنيتك »(٧٨) ، مما يؤكد لدينا زيف مثل هذه الروايات بناء على ما سبق .

ومهما يكن فإن على بن عبد الله أصبح من خواص عبد الملك حيث أجار عليه عددا من قادة العرب فى الكوفة من الذين خافوا غائلة عبد الملك ، فلجأوا إليه وقبل عبد الملك جواره ، وأمنهم حتى ظهروا(٧٩) . وتبعاً لمكانته تلك فإن على بن عبد الله اصبح بإمكانه أن يدخل على عبد الملك فى مجالسه الخاصة ويلقى منه الإكرام ، ويقبل منه النصح ويقضى عنه دينه(٨٠) . واستمرت تلك العلاقة

الحسنة حتى أقدم على بن عبد الله على الزواج من أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر، والتى كان عبد الملك قد طلقها . واعتبر عبد الملك أن تصرف على هذا إهانة له ، ومن هنا بدأ يغير معاملته له(٨١) . ومما يجدر ذكره أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد ابن يزيد بن معاوية حتى يضع منه ويصغر شأنه(٨٢) . ومن أجل ذلك كان غضب عبد الملك إذا اعتبر تصرف على بن عبد الله مثل تصرف مروان ابن الحكم مع خالد بن يزيد .

كانت هذه الفعلة من قبل على بن عبد الله سببا فى إقدام الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ) على إساءة معاملته . وتذكر بعض المصادر أنه ضرب بأمر من الوليد بسبب ذلك . و لم يكتف بذلك فأمر بنفيه إلى الحميمة سنة ٩٥هـ(٨٣) ، واستقر بها هو وبنيه منذ ذلك التاريخ .

و لم نعد نرى أى لقاء بين على بن عبد الله بن عباس والخلفاء الأمويين : الوليد ، سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) ، عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) ، بعد هذه الحادثة ، سوى لقاء واحد تحدث عنه ابن خلكان فى الوفيات وكان مع هشام بن عبد الملك من أجل ديون كثرت عليه فطلب من الخليفة الأموى قضاءها ، فوجد منه كل ترحاب وقضى عنه دينه ، كما طلب منه أن يستوصى خيراً بحفيديه ، وهما عبد الله وعبد الله المعروفان فيما بعد بالسفاح (ت ١٣٦هـ) ، والمنصور (ت ١٥٨هـ)(٨٤) .

وقد توفى على بن عبد الله بن عباس سنة ١١٧هـ(٨٥) ، ليحتل مكانته ابنه محمد بن على .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، هو أول عباسى عمل على إسقاط الدولة الأموية(٨٦) ، ووصول بنى العباس إلى الخلافة ،

وهذا يقودنا إلى سؤال : هو هل كان محمد بن على هو أول صاحب طموح سياسى للخلافة الإسلامية من بنى العباس ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة مرة أخرى إلى الجذور بدءاً من العباس بن عبد المطلب . وقد عرفنا مكانته عند رسول الله ﷺ ، تلك المكانة ، وذلك التقدير والاحترام من جانب الرسول ﷺ تجاهه ، لم يعطه الجرأة لسؤال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه عن خلافته ﷺ ، ولذلك لجأ إلى ابن أخيه على بن أبى طالب ليسأل رسول الله ﷺ عنها قائلاً له : « إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا ، فقال على : إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها ، لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسالها رسول الله ﷺ »(٨٧) . ويتضح من هذا الحوار أن العباس رضي الله عنه كان يجهل من سيكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ ، ولنقل أنه كان يطمع أن يلى هذا الأمر بنو عبد المطلب ، ولذلك قال : إن كان فينا علمنا . وكانت إجابة على رضي الله عنه دالة أيضاً على فقهه وعلمه وخبرته بمقاصد رسول الله ﷺ ، وأن مثل هذا السؤال ، لو أعطى فيه رسول الله ﷺ جوابا فى منعهم فلن يمكنهم الناس من الخلافة فى المستقبل ، ومعنى ذلك حرمانهم من حق مشاع فى قريش وهو الخلافة(٨٨) .

ثم إن عليا رضي الله عنه كان يرى رسول الله ﷺ يقدم أبا بكر الصديق فى الصلاة عندما كان مريضاً ، ويرى إلحاحه فى ذلك(٨٩) ، ففهم ما يقصده ﷺ .

وجاء اختيار خلفاء رسول الله ﷺ بعد ذلك ليدلل بشكل قاطع على أن السبق والقدم فى الإسلام ، والمكانة من رسول الله ﷺ ، هى المرشح للخلافة ، ولا علاقة للقرابة من رسول الله ﷺ وحدها بهذه المسألة . من أجل ذلك فإن العباس رضى أن يكون كأحد أفراد المسلمين ، له مكانته وتقديره واحترامه من قبل

الخلفاء الراشدين . أما ابنه عبد الله بن عباس فقد أسهم مع أمير المؤمنين علي ﷺ في جميع ما كلفه به ، واحتل لديه مكانة مرموقة . فلما قتل وتنازل ابنه الحسن ، عاد إلى ميدانه الذى وجد نفسه فيه وهو نشر العلم الذى فتح به الله عليه ، واكتسب مكانته ﷺ بين المسلمين ، وأحلوه من أنفسهم أيما محل . يروى أن معاوية حج ، وحج معه عبد الله بن عباس فكان معاوية في موكب وابن عباس في موكب فمن يسأل عن الفقه(٩٠) ، مما يعطينا الدليل على ما يحمله المسلمون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من تقدير وإجلال ، وحب لهذا العالم لعلمه ولقرابته من الرسول ﷺ . واستمر في هذا الميدان لم يتطلع لأى نفوذ سياسى . لقد قال له معاوية ذات مرة بعد وفاة الحسن بن علي : « أصبحت سيد قومك ، قال ما بقى أبو عبد الله فلا »(٩١) ، دلالة على تواضعه وعدم سعيه للنفوذ السياسى .

وبعد مقتل الحسين وجدناه التزم بيعته ليزيد حتى وفاته ثم بايع لابن الزبير .

أما علي بن عبد الله بن عباس - وإن لم يكن مثل أبيه - فإنه كانت له المكانة الكبيرة في نفوس أهل الحجاز لعلمه وورعه وتقواه(٩٢) .

وعلى ذلك ارتضى بأن يكون مثل أبيه ، ولم يتطلع إلى الخلافة . ومن جانب آخر فإن الشيعة عموماً لم يتطلعوا إلى البيت العباسى كتطلعهم إلى البيت العلوى ، حتى أحدث أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب (ت ٩٨، ٩٩هـ) هذا الانقلاب من خلال اتفاقه مع محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ومن ثم أحدث هذا الاتفاق تحولاً كبيراً على يدى الأخير ، فتغيرت نظرة بني العباس إلى الخلافة وبدأ تطلعهم نحوها .

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على العلاقة بين هاتين الشخصيتين ومنذ متى بدأت ؟ وكيف انتهى المطاف بأبى هاشم بأن يخص محمد بن علي العباسى

دون غيره من البيت الهاشمى بالدعوة السرية الهادفة إلى إسقاط بنى أمية والحلول محلهم فى الخلافة .

ويعد محمد بن على بن عبد الله بن عباس مؤسس الدعوة العباسية ومنظمها(٩٣) ، ذلك أنه كان قد ارتبط بأبى هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى تذكر بعض المصادر أنه سلم أمور الدعوة السرية المناهضة لبنى أمية إليه عند دنو أجله فى الحميمة(٩٤) . ويرى البعض أن السبب الذى جعل أبا هاشم يوصى لمحمد بن على هو عدم وجود من يخلفه من الذكور من ذريته(٩٥) ، فأثر أن يوصى إلى محمد بن على . وهذا الافتراض غير صحيح ، لأن أبا هاشم كانت له ذرية من الذكور والإناث ، كما جاء فى ترجمته فى الطبقات لابن سعد(٩٥) ، ، كذلك ذكر كل من المزى ، وابن حجر أن له ابناً يدعى عيسى بن عبد الله وهو ممن روى عن والده(٩٦) . يضاف إلى ذلك أنه كان له أخ يدعى الحسن بن عبد الله بن محمد بن الحنفية(٩٧) ، توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٨٩ ، ١٠٠هـ) ، فإذا كانت المسألة هى عدم وجود من يخلفه من ذريته إذا افترضنا وفاة أولاده فى حياته ، فإن الشيء المؤكد أن أخاه الحسن قد توفى بعده بسنة على الأقل ، فلماذا لم يوص إليه إو إلى أحد من آل على بن أبى طالب ؟

ويفترض بعض الباحثين أن للظروف أثرها فى ذلك التنازل ، فعند وفاة أبى هاشم لم يكن بقربه إلا أولاد العباس ، وربما تنازل محمد بن على ، أو أخبره بأن يعطيها لغيره . وكان محمد طموحاً ، فأخذها لنفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمحمد، فإنه عرف الدعاة وأسماءهم ، وسأل عنهم أبا هاشم قبيل وفاته .. »(٩٨).

واعتقد أن كل هذه التساؤلات والافتراضات تأتى فى ظل غياب المعلومات الدقيقة فى المصادر التى ربما لم يطلعوا عليها ، إذ أن صداقة الرجلين كانت قديمة وطموحاتهما أيضاً كانت قديمة فى إسقاط الدولة الأموية ، إذ يذكر كل من ابن

عساكرو صاحب أخبار الدولة العباسية ، رواية عن عيسى بن علـى العباسـى ، أن أبا هاشم كان يقف موقفاً عدائياً من على بن عبد الله بن عباس ، فلما بعث علـى ابن عبد الله ابنه محمداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وجد عنده أبـا هاشـم محمـد بـن على ، فتقرب محمد إلى أبى هاشم وأخذ عنه العلم ، وأظهر له التقدير والاحترام ، كما بعث له بالهدايا ، مما كون بينهما صداقة قوية ، كف بعدهـا أبـو هاشـم عـن تناول على بن عبد الله . وكانت هذه الصداقة أيضاً سبباً فى تحول دعاة خراسـان إليه فيما بعد(٩٩) .

ويؤكد هذه التلمذة والتلقى أن كتب تراجم رجال الحديث ذكـرت أن مـن الرواة عن أبى هاشم محمد بن على وابنه إبراهيم الإمام(١٠٠) .

ويبـدو مـن خـلال هـذه الصداقـة أن كـلً منهمـا عــرف الآخــر وعــرف طموحاته. ووجـد أبـو هاشـم فـى محمـد طموحـاً سياسيـاً للخـلاص مـن الخلافـة الأموية. والبلاذرى يذكر رواية عن المدائنى تستحق أن نتوقـف عندهـا وتحليلهـا . تقول هذه الرواية : أن على بن عبد الله بن عباس قال فى اجتماع بينـه وبـين ابنـه وأبى هاشم : « يا أبا هاشم أهل المغرب يؤملونك . وقـال لابنه محمـد : أن أهـل المشرق يؤملونك . ثم نظر إلى حمار بين شجرتين ، فقال : وا الله لا تليان حتى يلى هذا الحمار ،كبرتما عن تبين صاحب هذا الأمر »(١٠١) .

هذه الرواية أوضحت : **أولاً** : أن أبا هاشم كان له أنصار يدعون إلى ولايته ويتزعمونه ، وأن كنت لم أتوصل إلى مـا قصـد علـى بـن عبـد الله بـأهل المغـرب بالنسبة إلى أبى هاشم ، فإنه من المؤكد أن الذين كانوا يقولون بأمامـة أبـى هاشـم هم طائفة من الفرقة الكيسانية(١٠٢) .

وثانياً : عرف على بن عبـد الله بـن عبـاس أن لابنـه أنصـاراً مـن المشـرق يدعون لإمامته . ومعنى ذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس كان قد بـدأ

فى تكوين أنصار له من أهل المشرق لا علاقة لهم بأبى هاشم . ولعل الرواية التى ساقها البلاذرى والتى يذكر فيها أن رجالاً من أهل المشرق بحثوا عمن يقودهم ، تلقى أيضاً ضوءاً على ذلك . وهذا نص ما قال : « ... كان الخراسانيون الذين قدموا لطلب الإمام يقولون هذا أمر لا يصلح إلا لذى شرف ودين وسخاء ، فتبعه قوم لشرفه ، وآخرون لدينه ، وآخرون لسخائه ، وأتوا رجلاً من ولد على بن أبى طالب ، فدلهم على محمد بن على بن عبد الله وقال أفضلنا فأتوه »(١٠٣) ، ومع أن هذه الرواية لم تحدد تاريخ هذا اللقاء ، ولا الشخص العلوى الذى دلهم عليه ، إلاأنه من الراجح أن ذلك كان قبل وفاة أبى هاشم بمدة طويلة .

وهنا تبدو نقطة مهمة يجب إيضاحها وهى تتعلق بأبى هاشم ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن الفرقة الكيسانية كانت تتعلق به وبأبيه من قبله . ومن الواضح أن محمداً بن الحنفية كان يتبرأ منهم لغلوهم فيه(١٠٤) . ولا يبعد أن أبا هاشم مثل أبيه . وكما قال ابن حجر ينتحلونه أى ينتسبون إليه(١٠٥) . ولم يذكر صراحة موقفه منهم . ومما يقوى عندنا براءة أبى هاشم منهم توثيق الزهرى (ت ١٢٤هـ) لأبى هاشم وقرنه بأخيه الحسن ، وكان عنده الحسن أوثق(١٠٦) . فلو كان أبو هاشم يؤمن بأفكار الفرقة الكيسانية لما وثقه الزهرى وهو من أعلام المدينة النبوية ومحدثيها ، ولولا معرفته الوثيقة به لما وثقه .

ويقودنا هذا مرة أخرى إلى طرح افتراض آخر وهو : أليس من الجائز أن أبا هاشم بحكم التجارب التى مر بها أهل بيته بدءاً من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الحسن إلى الحسين مع أهل الكوفة ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد (ت ٦٧هـ) ، اتضح لديه بجلاء أنه لا فائدة من الاعتماد على الشيعة العلوية فى مثل هذه الأمور الكبيرة التى برهنوا فيها على عدم نصحهم وحديتهم تجاه أهل البيت ، مما ولد لديه القناعة الأكيدة بأنه من الأفضل أن يسلم زمام

الأمور إلى شخصية تتمتع بالقيادة وبعد النظر وحسن التنظيم ، وهى صفات يبدو لى أنه عرفها فى محمد بن على . فلما حانت وفاته أوصى دعاته بعد إقناعهم ، بأن ينضموا إليه ويقفوا إلى جانبه(١٠٧) . يضاف إلى ذلك السمعة الحسنة والمكانة الكبيرة للبيت العباسى من خلال مكانة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم على بن عبد الله بن عباس ، وأخيراً محمد بن على الذى كانت له منزلة كبيرة أيضاً إلى درجة أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رحمه الله قال فى شأنه عندما زاره ثم خرج من عنده : « لو كان إلى من الخلافة شىء لقمصتها هذا الخارج »(١٠٨) .

كل هذه الأسباب والعوامل التى ذكرناها سابقاً تبين بوضوح سبب إقدام أبى هاشم على أن يسلم مقاليد الدعوة التى كان يديرها إلى محمد بن على العباسى لتضافر الجهود فى إسقاط الدولة الأموية .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل الدعوة العباسية وتنظيماتها وكيف أدارها محمد بن على العباسى ، فهذا موضوع آخر ، ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو علاقته بالخلفاء الأمويين بعد قيامه بالتنظيم للدعوة ، وهل ابتعد عنهم ؟ أم ظل كسابق عهده فى زيارتهم والتقرب إليهم ؟

تشير بعض المصادر إلى أن محمد بن على العباسى لم يقطع صلته بهم ، وكما مر معنا فإنه دخل على عمر بن عبد العزيز وزاره أثناء خلافته . ولم أجد فيما بين يدى من مصادر شيئاً عن اتصاله بيزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) . وتأتى ذروة العلاقة فى خلافة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذى نشطت الدعوة العباسية فى عهده نشاطاً ملحوظاً ، إذ بدأت المصادر تتحدث بشكل ظاهر عن الدعاة العباسيين ، وذلك فى السنوات ١٠٥هـ ، ١٠٧هـ ، ١٠٩هـ ، ١١٧هـ ، ١١٨هـ(١٠٩) .

وهذا النشاط المحموم لدعاة بنى العباس فى عهد هشام بن عبد الملك يوضح لنا بجلاء استغلال محمد بن على ودعاته لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة الأموية. صحيح أن عهد هشام يعد من عهود الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، لكن يبدو أن قرب محمد بن على من بلاد الشام ، ومن البلاط الأموى جعله يطلع على كثير من أسرار هذا البيت ، ويعرف بوادر النزاع المقبلة بعد انقضاء خلافة هشام ، سيما وأن يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) كان قد اشترط على هشام أن يجعل الوليد بن يزيد ولى عهده(١١٠) . وربما كان هذا الشرط من العوامل التى جعلت الحسد والتنافس يدب فى أفراد البيت الأموى الحاكم . ولذلك نشط دعاة بنى العباس فى تلك الفترة ، استثمارا لما بعد هشام ، وتهيئة الناس لتلقى فكرة ظهور العباسيين والتى روجوا لها بالبشارات والأحاديث النبوية والطعن فى بنى أمية ، إلى غير ذلك من الأساليب التى استخدموها للتحضير لقيام دولتهم(١١١) .

ومن المؤكد أن هشام بن عبد الملك لم يكن غافلاً عن هذه الدعوة ، ولا عن أصحابها ، وذلك من خلال ولاته على خراسان ، وعلى رأسهم أسد بن عبد الله القسرى (ت ١٢٠هـ) الذى سبق له أن قبض على عدد من الدعاة ونكل بهم(١١٢) . وقد عبر هشام عن غضبه على محمد بن على العباسى أكثر من مرة بسبب هذه الدعوة ، ومن ذلك أن محمد بن على استأذن على هشام بن عبد الملك، فلما دخل عليه سأله عن سبب مجيئه ، فقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال له هشام : « انتظر بها دولتكم التى تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم »(١١٣) .

وأتهم هشام بنى العباس أنهم جعلوا رسول الله ﷺ لهم سوقاً(١١٤) . ويبدو أن هشام بن عبد الملك أدرك مدى خطورة الدعاية التى قام بها العباسيون فى أيامه، وأنها أثرت فى الناس واستمالت كثيراً منهم . لذلك نراه قد هم بسجن

محمد بن على وأبنائه ، لأنهم كما قال « يزعمون ان الخلافة تصير إليهم ، وقد استشرف لها الناس »(١١٥) ، وربما أن هشاماً لم يملك دليلاً قوياً ضد رجل بعينه منهم ، لشدة التكتم على صاحب الدعوة ، أو أنه خشى من الإقدام على هذه الخطوة إذ ربما يكون لها عواقب وخيمة ، أو ليتخذ عندهم يدا بالإحسان إليهم ليكافئوه عند وصول الأمر إليهم ، كما قال له الأبرش الكلبى(١١٦) .

وعلى كل فقد توفى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ(١١٧) ، وتوفى قبله محمد بن على سنة ١٢٤هـ ، أو سنة ١٢٥هـ(١١٨) ، ودخلت الأسرة الأموية فى صراع على السلطة ، وخاصة بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وقيام فتنة عمت أرجاء الدولة الإسلامية استثمرها بنو العباس ، وأعلنوا ثورتهم المسلحة على الدولة الأموية سنة ١٢٩هـ ، ومن ثم إسقاطها سنة ١٣٢هـ .

الهوامش

(١) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٥ - الكلبى ، جمهرة النسب ، ص ٢٦ -٢٧.

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ٥ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٤١ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، جـ٦ ، ٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٦ ، ص ١٠ - ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٦ ، ص ١٠ -١١ .

(٨) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٩) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ١٢٧ .

(١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ، ٢١٥ .

(١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٥ ، ص ١١٧ .

(١٣) أم حبيبة هى : رملة بنت أبى سفيان ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى أسلما وهاجراً إلى الحبشة حيث ارتد فيها زوجها إلى النصرانية وتوفى عنها هناك ، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها ، وأصدق النجاشى عن رسول الله ﷺ وزوجه إياها ثم بعث بها إلى المدينة ، توفيت فى المدينة سنة ٤٤هـ انظر : ابن حجر ، الإصابة ، جـ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(١٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ١٠ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٩ ، ص٢٢٣ .

(١٥) ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ١٢٩ ، وانظر الزركلى ، الإعلام ، حـ٣ ، ص ٢٠١.

(١٦) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ص ٣٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ ، قال العباس : « مهلاً يا عمر فوا الله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوا الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم » . ويبدو لى وا الله أعلم أن العباس لم يقصد اتهام عمر بالعصبية والتحامل ، وإنما أراد أن يكسر حدة عمر فى ذلك الموقف ويصرفه عن أبى سفيان فقال له ما قال .

(٢٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص ٢٨ ، ونص الرواية : « لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبى فصيل إنما هى بنو عبد مناف » ، وهناك روايات أخرى حول موقف أبى سفيان من بيعة الصديق ﷺ يبدو عليها الوضع . انظر نفس المصدر ، ص ٢٦. وانظر البلاذرى ، أنساب الأشراف ، م٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير الكامل حـ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص٢٣ - ٢٦ .

(٢٤) ورد فى صحيح البخارى ص ٧١٩ حديث رقم ٣٤٩٥ عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » ، وفى مسند الإمام أحمد ، حـ١ ، ص ١٩٩ من رواية أبى بكر الصديق ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

(٢٥) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ٣٤٤ .

(٢٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ٤٧ وسبب هذه المقولة أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ عاتبوا عمر بن الخطاب على دخول ابن عباس معهم عليه على حداثة سنه ، فطلب منهم عمر ﷺ تفسير سورة النصر فكان ابن عباس رضى الله عنهما أحسن تفسيراً وأكثر فهماً لمعانيها ومقاصدها . وانظر أيضاً أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ٢ ، ص ٤٨٦ .

(٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٩ ، الطبرى ، تايخ الأمم حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، الذهبى سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، حـ٢٤ ، ص ٤٠٢ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٩ ، ص ٢٣٢ .

(٣٠) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ، ص١٥٨.

(٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٣ ، ص ١٩٨ .

(٣٢) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص٤٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ، ص ٢٤٧.

(٣٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ ٢ ، ص ٥٧٣ - الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص ٤٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٥) صحيح البخارى ، ص ٥٤٢ ، حديث ٢٧٠٤ .

(٣٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص٧٩ .

(٣٨) الطبرى ، تايخ الأمم جـ٥ ، ص٨٢ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٤٠) المبرد ، الكامل فى الأدب ، جـ١ ، ص ٣٦٧ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ص ٢٧٤ .

(٤١) الطبرى ، تايخ الأمم جـ٦ ، ص ٥٨ .

(٤٢) علق محمد بركات البيلى فى بحثه الدعوة العباسية ، ص ٧ - ٨ على رواية استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة بقوله : « سواء كان هذا الاتهام صحيحاً أم باطلاً ، فيبدو أن الأموال التى استحوذ عليها عبد الله بن عباس ، قد جعلت بنيه فى سعة من العيش ومكنتهم فيما بعد من الانفاق على الدعوة العباسية وتحمل أعبائها المالية » ثم استند فى الحاشية على ما بذله محمد بن على بن عبد الله العباسى لبعض أهل خراسان من مال ، ليدلل على صحة استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة ، والواقع هو كذب تلك الرواية أولاً ، وثانياً لم يكن على بن عبد الله بن عباس الوارث الوحيد لأبيه ، فله أخوة كثيرون كما فى ترجمة العباس ولم يكن محمد بن على الوريث الوحيد لوالدة فهو الآخر لديه أخوة كثيرون يشاركونه فى الميراث ، ويستبعد أن يكون مال البصرة المزعوم ما زال موجوداً إلى ما بعد المائة للهجرة .

(٤٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ١٣.

(٤٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص ٥٤ .

(٤٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ٦ ، ص ١٤٨ .

(٤٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص٩١ .

(٤٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص٩٨٤ - ٩٨٥ .

(٥٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص٩٨٥ .

(٥١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٢ .

(٥٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٥٣) انظر مثلاً : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، حـ٤ ، ص ٨٠ - ٨٣ .

(٥٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ٢٣٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٢٦٠.

(٥٥) أنساب الأشراف ، حـ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٥٦) الطبرى ، تايخ الأمم حـ٦ ، ص ٢٦٣ .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ ٦ ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٥٩) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٢٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٨ ص ١٧٣ .

(٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٤٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٦٣) يذكر خليفةبن خياط فى تاريخه أن ابن الزبير دعا إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية وذلك سنة ٦٤هـ .

(٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٣٧ - ٢٣٩ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٩٦ - الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٥ .

(٦٥) المعرفة والتاريخ ، مجلد ٢ ، ص ٥٣١ - وانظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ص ١٢٧ .

(٦٦) البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٥٥ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ص ١٧٢ ، وانظر : البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) يربنى : بفتح الياء وضم الراء والباء المشددة أى يكون على أميراً وذلك كما فسره ابن حجر ، أو بمعنى رباه وقام بامره وملك تدبيره . ومعنى كلام ابن عباس « لأن أكون فى طاعة بنى أمية أحب إلى من أن أكون فى طاعة بنى أسد » لأن بنى أمية أقرب إلى بنى هاشم من بنى أسد . انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، جـ٨ ، ص ٣٢٠ .

(٧٠) ابن حجر ، فتح البارى ، جـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧١) ابن حجر ، فتح البارى ، جـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٤٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٧٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ٧١ .

(٧٤) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٧ ، ص٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٧٥) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص٤١٨ .

(٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص١٢٠ .

(٧٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ١٥ ، ص ٧٤٩ .

(٧٨) المبرد ، الكامل فى الأدب ، جـ١ ، ص ٣٦٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣، ص ٢٧٤ .

(٧٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، وفى الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٧ ، ص٦٣٨ أن عبد الملك سأله عن اسمه وكنيته فأخبره فقال عبد الملك لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم والكنية لأحد وسأله هل له من ولد فأخبر بولده محمد فكناه به .

(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ٣٣١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ٩٩، ١٠٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص ٢٧٨ . وذكر أن التى تزوجها على هى لبابة بنت عبد الله بن جعفر .

(٨٢) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٥٥٢ .

(٨٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣، ص٢٧٥ ، والحميمة - صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٨ .

(٨٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٦ .

(٨٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٧

(٨٦) ابن أسد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤، ص ١٠٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص١٨٧ .

(٨٧) ابن كثير ، البداية ، جـ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) عليان ، قيام الدولة العباسية ، ص ١٥. نقلاً عن محمد حلمى أحمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

(٨٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨٣ .

(٩١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ١ ، ص ٣٦٣ ، تحقيق محمد بن صامل ، ويقصد بقوله : « ما بقى أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما .

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٩٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص١٩ .

ويرى فاروق عمر ، أن على بن عبد الله بن عباس هو أول شخصية تطمح لنيل الخلافة ، دون أن يسند ذلك إلى مصدر ، والواقع هو أن ابنه محمداً هو الذى بدأ العمل من أجل ذلك . انظر : العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٤٠ .

(٩٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٨ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢٠ ، ص ١٠٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٨ .

(٩٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٧ ، الدورى ، العصر العباسى ص ٢٢، الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ .

(٩٦) جـ٥ ، ص ٣٢٩ ، ومن هؤلاء الأبناء هاشم ، وبه كان يكنى ، ومحمد الأصغر وعلى ، وطالب ، وعون ، وعبيد الله ، ولم يذكر ابن سعد وفاة هؤلاء أو بعضهم فى حياة أبيه .

(٩٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ٦ ، ص ٨٧ ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(٩٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ص١٦ .

(٩٩) الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ . وانظر فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٣٩ أخبار الدولة العباسية ، ص ١٧٣ ، تاريخ دمشق ، جـ١٤٥ ، ص ٧٤٩ .

(١٠٠) المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، ص ٨٧ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠١) أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠٥ .

(١٠٢) نسبة إلى رجل يدعى كيسان مولى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وقيل تلميذ لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، والكيسانية تعتقد فى أبن الحنفية حده ودرجته من إحاطته بالعلوم كلها ، ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك على رجال وهم فرق متعددة ومنها المختارية أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، مجلد١ ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(١٠٣) الأنساب ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ١ ، ١٤٩ .

(١٠٥) تهذيب التهذيب ، ص ٦٦ .

(١٠٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، حـ١٦ ، ص ١٤٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص١٦.

(١٠٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص ٩٨٧ .

(١١٠) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، حوادث السنوات المذكورة .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، حـ ٥ ، ص ٢٦٤ .

(١١٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣ .

(١١٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(١١٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص١١٣ .

(١١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص١١٣.

(١١٨) كانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، ص ٢٦١ .

(١١٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، ص ٢٧٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) .

١ - الكامل فى التاريخ ، جـ ٣ ، جـ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

البخارى : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .

٢ - صحيح البخارى : الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

البسوى : يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) .

٣ - المعرفة والتاريخ ، مجلدا ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٠هـ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .

٤ - كتاب جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ٤ ، ٥ ، تحقيق سهيل زكار ، ورياض زركلى ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ٨ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٥ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٧ - تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن .

حنبل : الإمام أبو عبد الله أحمد بن بن حنبل (ت ٢٤١هـ) .

٨ - مسند الإمام أحمد ، جـ١ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت .

٩ - كتاب فضائل الصحابة ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ) .

١٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ٣ ، ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .

خياط : خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠هـ) .

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

الدينورى : أبو حنيفة بن داود (ت ٢٨٢هـ) .

١٢ - الأخبار الطوال ، مراجعة وتصحيح حسن الزين ، بيروت ١٩٨٨م .

الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .

١٣ - سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون الطبعة ١١ ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

الزبيرى : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) .

١٤ - كتاب نسب قريش ، عنى بنشره وتصحيحه ليفى بروفنسال الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٢م .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٤٣٠ هـ) .

١٥ - الطبقات الكبرى ، الطبقة الخامسة من الصحابة ، جـ١ ، ٢ تحقيق محمد بن صامل السلمى ، الطبعة الأولى ، الطائف ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الطبقات الكبرى ، مجلد ٤ ، بيروت ، بدون تاريخ .

الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٤٨هـ) .

١٦ - الملل والنحل ، جـ١ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت ٤٣هـ) .

١٨ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، جـ٥ ، ٦ ، ١٠ ، تحقيق طه محمد الزينى، الطبعة الأولى مذيلة بكتاب الإصابة ، القاهرة ١٣٣٦هـ ، ١٩٧٦م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) .

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١هـ) .

٢٠ - تاريخ دمشق ، طبعة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم الشيخ محمد بن رزق الطرهونى ، المدينة المنورة ١٤٠٧هـ .

ابن كثير : الحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) .

٢١ - البداية والنهاية ، جـ٥ ، ٧ ، ٨ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .

الكلبى : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) .

٢٢ - جمهرة النسب ، تحقيق ناجى حسن ، بدون ذكر لتاريخ ومكان الطبعة .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد النحوى (ت ٢٨٥هـ) .

٢٣ - الكامل فى اللغة والأدب ، جـ١ ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

مجهول : من مؤرخى القرن الثالث الهجرى .

٢٤ - أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدورى ، وعبد الجبار المطلب ، بيروت ١٩٧١م .

المزى : جمال الدين يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ) .

٢٥ - تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، تحقيق بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

٢٦ - مختصر تاريخ دمشق ، جـ٤ ، أختصره على نهج ابن منظور وعنى بتحقيقه إبراهيم صالح .

٢٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، جـ٢٥ ، تحقيق مأمون الصاغرجى ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) .

٢٨ - السيرة النبوية ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع :

البيلى : محمد بركات :

٢٩ - الدعوة العباسية « ثورة بنى العباس على الخلافة الأموية » القاهرة١٩٨٦م.

الدورى : عبد العزيز :

٣٠ - العصر العباسى الأول ، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م .

الزركلى : خير الدين :

٣١ - الأعلام ، جـ٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩م .

العبادى : أحمد مختار :

٣٢ - فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م .

عليان : محمد عبد الفتاح .

٣٣ - قيام الدولة العباسية ، وتفسير جديد لدوافع الفرس إلى مؤازرتها ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٤م .

فوزى : فاروق عمر :

٣٤ - العباسيون الأوائل ٩٧هـ / ٧١٦م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، جـ١ الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

الكبيسى : عبد المجيد صالح :

٣٥ - عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) بغداد ١٩٧٥م .

المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب
من خلال كتابه : « أحسن التقاسيم »

د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح(*)

تقديم :

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب) . ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين فى الوقت نفسه(١) ، مثل : « هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩م »(٢) ، واليعقوبى المتوفى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م)(٣) .

وقد شهد القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) – وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية – اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية ، فيما عرف بكتب (المسالك والممالك) . وقد أطلق كراتشكوفسكى على عدد من أعلام المصنفين فى ذلك المجال – من أمثال : البلخى(٤) ، (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) ، والاصطخرى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى(٥) ، والمقدسى (أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر للميلاد) – لقب أصحاب (المدرسة الكلاسيكية) ، قاصداً بذلك اقتصارهم فى مؤلفاتهم على أقاليم دار الإسلام ، وبلوغهم منزلة جيدة فى فن رسم الخرائط(٦) ، وحول آخر هؤلاء الأعلام (المقدسى) يدور هذا البحث .

أولاً : التعريف بالمقدسى :

نبدأ بالإشارة إلى ندرة المادة العلمية المتاحة فى تراجم ذلك العلم الجغرافى المؤرخ ، وإلى تناقل المراجع المتوالية لها واجترارها ، دونما إضافات حقيقية شافية . ولعل هذا النوع من العلماء ، الذين غلبت عليهم اهتماماتهم الجغرافية لم يحظ

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة .

باهتمام مصنفى كتب التراجم والطبقات ، الذين وجهوا انتباههم إلى المحدثين ، والفقهاء ، والمفسرين وغيرهم ، ولم يفطنوا إلى تراجم الجغرافيين . وإزاء ذلك النقص الشديد فى المادة ، حاولت سد الخلل عن طريق استخراج المزيد عنه من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم) .

أولاً : نسبه وأسرته :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى(٧) ، الحنفى(٨) ، المعروف بـ (البشارى)(٩) ، ومن خلال سياقه نسبه السابقة ، وما توفر لدى من معلومات نلاحظ ما يلى :

(أ) أن (المقدسى) شامى فلسطينى ، ينتمى إلى مدينة (بيت المقدس) تحديداً ، كما هو ظاهر من نسبه ، وعلى نحو ما صرح به فى كتابه(١٠) .

(ب) أنه يتبع المذهب الحنفى فى الفقه ، وسنرى بعض التفاصيل عن ذلك عند تناول (ثقافته) .

(جـ) أن جده لأبيه(١١) المعروف بـ (أبى بكر البناء) كان من أشهر البنائين ، وأمهرهم ، وأبرعهم فى زمانه . ولعل ما قام به من تشييد التحصينات القوية الخاصة بميناء (عكا)(١٢) ، زمن أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٧٦٨ - ٨٨٣م) يشهد له بالريادة فى مجال (الهندسة المعمارية) ، التى تمكن - بمقتضاها - من الاهتداء إلى البناء فى الماء فى ذلك الوقت المبكر . وقد حظى بإعجاب ابن طولون ، فدفع إليه ألف دينار ، بخلاف الخلع وغيرها من المركوب ، علاوة على تخليد اسمه بتسجيله على الميناء ، اعترافاً بفضله فى حماية الميناء ومراكبه من إغارة الأعداء(١٣) .

(د) عرفنا - من خلال قراءة كتاب المقدسى - أن والده كان على درجة ما من الثراء ممتلكاً عدداً من الغلمان ، الذين روى عنهم المقدسى فى كتابه عند حديثه عن بناء الحمامات فى (إقليم فارس)(١٤) .

(هـ) كان عمه (أبو على الحسن بن أبى بكر) ، مهتمـاً بالآثـار المعمارية القديمة في مدينة (بيت المقدس) ، وعنه روى المقدسى ما يتصـل بموقـع قـبر سيدنا يوسف (عليه السلام) بأرض فلسطين . وقد ذكر أن عمه المذكور ، وجده، كانا يشرفان على عمليات حفر العمال ، حتى انتهوا إلى خشب العجلة - ربما التى يظن أن جثمان يوسف حمل عليها - قد أكلتها الأرض . و لم يزل المقدسى يجد من بقاياها عند عجائز قومه ، يستشفين بها من الرمد(١٥) .

(و) وردت إشارة سريعة إلى أسرة والدة المقدسى فى كتاب: (أحسن التقاسيم)، إذ ذكر المؤلف أن جده لأمه (أبا الطيب الشوا) ينسب - فى الأصل - إلى كورة (قوميس)(١٦) ، بـ (إقليم الديلم) ، وإلى مدينة (بيار) تحديداً ، تلك التى تعد إحدى مدن قصبة (قومس) المسماة بـ (الدامغان) . وقد رحل هذا الجد إلى بلاد الشام مع ثمانية عشر رجلاً(١٧) فى وقت لم يحدد بدقة . ويبدو أنه استقر مع أسرته هناك ، وطاب لهم المقام .

وأخيراً فقد أشار المقدسى - فى كتابه - إلى خاله (عبد الله بن الشوا)، وروى عنه خبراً يتصل بـ (قرية دير شمويل) القريبة من (ايليا) بـ (إقليم الشام)(١٨) .

وهكذا ، رسمنا الملامح العامة للأسرة التى نشأ فى رحابها المقدسى ، من خلال الشذرات المتناثرات فى كتابه . ويتضح منها مقدار ما تمتعت به هذه الأسرة من مكانة متميزة مادياً وعلمياً (من جهة الأب) ، وأنها تضرب بأصولها فى بلاد المشرق (من جهة الأم) . ولعل هذه الازدواجية كان لها تأثيرها فى تقسيم المقدسى كتابه إلى قسمين : (أقاليم العرب) ، و(أقاليم العجم) ، إلى جانب تأثيرات أخرى نتعرض لها عند دراسة كتابه فيما بعد .

ثانياً : حول مولده ، ووفاته :

لم تحدد سنة ميلاد (المقدسى) تحديداً مباشراً ، لكن أمكن معرفتها - على نحو قاطع - عن طريق التاريخ ، الذى حدده الرجل لظهور كتابه : (أحسن التقاسيم) ، إذ ذكر أنه أخرج إلى حيز الوجود سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، وهو فى الأربعين من عمره(١٩) . وبعملية حسابية يسيرة ندرك أنه ولد سنة (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)(٢٠) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة ، فليست ثمة إشارة ، ترشدنا إلى تحديده على النحو الذى حدد به تاريخ مولده . وقد تباينت آراء الباحثين بهذا الصدد ما بين سنوات: (نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)(٢١) ، و (حوالى ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م)(٢٢) ، و(بعد سنة ٣٧٨هـ / بعد ٩٨٨م)(٢٣) ، و(بين (٣٧٥ - ٣٨١هـ/ ٩٨٥ - ٩٩١م)(٢٤).

والحق أنى لم أقف على دليل يؤدى إلى الجزم بأى من التواريخ السابقة ؛ فإن أحداث كتاب المقدسى إذا لم تتجاوز سنة ٣٨٠هـ ، أو وقفت أخباره عند ذكر (الخليفة الطائع ٣٦٣ - ٣٨١هـ / ٩٧٣ - ٩٩١م) دون تجاوزه إلى ما وراءه من الخلفاء ، ليس بدليل أكيد على وفاته فى عهد ذلك الخليفة(٢٥) ، خاصة أن الكتاب كتاب جغرافى فى المقام الأول ، ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل أساسى ، حتى نعلل توقفه عند خليفة محدد بالوفاة . وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠ ، أو ٣٩٠هـ ، فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد . ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨هـ أقرب الآراء رغم عدم تحديده . وربما اتكأ فى ذلك - فيما يبدو - على ما ورد من صدور إحدى مخطوطتى الكتاب سنة ٣٧٥ هـ ، والأخرى سنة ٣٧٨هـ ، فتكون الوفاة بعدها(٢٦) . وعلى كل ، فخروجاً من هذا الخلاف أقول: لعله توفى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى .

ثالثًا : سماته الشخصية :

اهتم بإبراز هذه السمات من واقع نصوص (كتـاب المقدسى) ؛ تعويضـاً للنقص الشديد فى معلوماتنا عنه ، وتسليطاً لمزيد من الأضواء عليه ، بما يفيدنا عند دراسة كتابه كمصدر من مصادر تاريخ العرب .

١ - الجانب الخلقى :

من خلال بعض عبارات المقدسى يتبين لنا مـا يتمتـع بـه مـن حس دينـى ، وخلقى رفيع ، ونية صادقة دفعته إلى تأليف كتابه . فمثلاً : يتوجـه إلى ا لله سـائلاً إياه التوفيق فى إتمام هذا العمـل ، فيقـول : « وسـألت ا لله عـز اسمـه - أن يجنبنـى الخطأ والزلل ، ويبلغنى الرجاء والأمل »(٢٧) . ويقول فى موضع آخر مبيناً هدفـه منه ، فيذكر أنه يريد أن « يقيم علمـاً يحيـى بـه ذكـره، ويحقـق بـه نفعـاً للخلـق ، يرضى به ربه »(٢٨) .

يرى بعض الباحثين أن المقدسى يتصف بالفخر والزهـور ، والاعتـداد بـالنفس(٢٩)، إضافة إلى أنه ينقد سابقيه جميعاً فى أسلوب لاذع ، لا يغفره لـه أن كتابـه أحسـن مـا الـف المشارقة فى باب (المسالك ، والممالك ، والبلدان ، والرحلات)(٣٠) .

ولعل من أقوى العبارات ، *التى دفعت إلى هذا الاتهام ما ذكره المقدسـى* - وهو يقارن بين كتابه ، وكتب الآخرين - من أن النـاظر فـى كتابـه يجـده (نسيج وحده ، يتيماً فى نظمه)(٣١) ، إلى جانب القصيدة التى نظمها فى ختـام كتابـه ، وافاض فيها فى ذكر ميزاته ، ومظاهر إيداعه(٣٢) .

والحق أن ما اتهم به المقدسى لا يمكن التسـليم بـه علـى إطلاقـة ؛ إذ يمكـن تفسيره على أنه فرط ثقة بنفسه وقدراتـه ، وإنجـازه ، حتـى مدحـه أحـد البـاحثين بقولـه : إنـه « لا يغمـط حقـه فـى الفهـم والذكـاء والأصالـة ، والطرافـة، وقـوة الملاحظة»(٣٣) . ويدعم هذا التفسير وجود عدة مواضـع فـى كتابـه نفسـه يظهـر

تواضعه فيها جلياً ، مثل قوله : « ثم إنى لا أبرء نفسى من الزلل ، ولا كتابى من الخلل ، ولا اسلمه الزيادة والنقصان ، ولا أفلته من الطعن على كل حال »(٣٤) . ثم إننا نجد الرجل يذهب إلى مدى أبعد فى التنزه عن كل غرض وضيع من وراء تأليف كتابه ، ويسمو به إلى درجة الفرض الحتمى اللازم ، الذى يدفعه إلى أدائه ما امتلك من أسبابه وأدواته ، فيقول : (لو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلغنا الله (تعالى) أقاصى الإسلام ، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته ؛ وجب أن ننهى ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل : سيروا فى الأرض »(٣٥) ، و « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا»(٣٦) . وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر)(٣٧) ، وأخيراً، فإن نقده الموجه إلى السابقين كان قائماً على أساس علمى(٣٨) ، ولم يكن هدفه التقليل ، أو الحط من شأنهم ، ثم إنه لم يمنعه من الاعتراف بمكانة بعضهم(٣٩) . وهكذا يمكن القول : إن المقدسى لم يكن يتسم بالزهو والخيلاء على طول الخط ، وإنما كان فيه خلق التواضع أيضاً ، ولا يعيبه إلا ما يند عنه - أحياناً - من عبارات الثقة الزائدة بالنفس ، مما كان التورع عنها به أولى .

يتصف المقدسى - أيضاً - بالتقوى والورع ، والزهد . ونلمس ذلك مما كشفه لنا فى كتابه من حب الورعين والمتعبدين(٤٠) ، وإيراد بعض الروايات عن الزاهدين(٤١) . ويضاف - إلى ذلك - ما نثر من حكم فى الزهد فى كتابه ، عندما بين أن الأرباح - أبداً - مع الأخطار ، وأن على العبد أن يعلم أن الله يعطى العبد جزاء ركعتين ، يصليهما بالإخلاص ، أكثر من الدنيا بحذافيرها . وماذا يصنع العبد بنعمة الموت من ورائها ، وجمع أموال لابد من تركها(٤٢) ؟! وأخيراً الناظر فى خاتمة كتابه يقف على مدى تقواه وورعه من خلال تضرعه إلى الله (عز وجل)(٤٣) .

٢ - الجانب النفسي :

تمتع المقدسي بخلة أصيلة فيه هي (قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة) . ولا ريب أن هذه السمة المهمة هي التي ارتكن إليها في تحمله مشاق رحلاته ، التي اعتقد انه جمع فيها خيرى الدنيا والآخرة (المال من العمل والتجارة ، والعلم بجغرافية وتواريخ وأحوال البلدان التي زارها) . وقد سجل لنا الرجل في كتابه مدى الجهود الكبيرة ، والصعاب الشديدة التي تجشمها في جولاته بالبلدان ، وزياراته أقاليم الإسلام (عربا ، وعجماً) ، ومنها يتبين لنا أنه كان يلتقي بالعلماء ، ويخالط الملوك ويدخل في خدمتهم ، ويجالس القضاة ، ويدرس على الفقهاء ، ويتردد على الأدباء والقراء والمحدثين ، ويغشى مجالس الزهاد والمتصوفة ، والقصاص والمذكرين ، ويعاشر التجار وعوام الناس ، كل ذلك مع تفطن قوى وفهم جلي ، مع ملاحظة ما حوله من مناخ ومياه ، وتحكم عظيم في النفس حيث الصبر عن المعصية ، ونصح المسلمين ، والصبر على ذل الغربة ، مع مراقبة الله والخشية منه(٤٤) .

واتفق مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على أن أمثال تلك الرحلات ، على ما فيها من تحمل المخاطر واستجلاء المجهول ، ليست من قبيل الفخر آنذاك(٤٥) ؛ إذ لم يكن ركوب المخاطر ، والمجازفة بالنفس مما يعلى قدر المرء حتى يتجشم الكذب فيه ، اللهم إلا إذا ثبت بالدليل المقبول عدم تحرى أصحابها الصدق(٤٦) ، وهو ما ننزه عنه عالماً من طراز المقدسي .

٣ - الجانب الثقافي :

لا شك في أن شخصية طلعة نهمة كشخصية المقدسي ، لابد أن تنهل وتروى من معين الثقافة التي تعاصرها . والمطالع كتاب المقدسي يلمس - بوضوح - موسوعية ثقافته . ومن أبرز معالم ثقافته(٤٧) :

(أ) ثقافته العربية الأصيلة :

لقد امتلك المقدسى ناصية البيان بالعربية - لغة عدد غير قليل من الأقاليم التى زارها - التى أحسن الكتابة بها ، وذلك واضح من أسلوبه الجزل الرصين ، وجملة ذات الفواصل الموسيقية المؤثرة ، التى رآها البعض تصنعاً وتكلفاً ، وجد فى بداية ، وخاتمة ، وصلب الكتاب دون داع(٤٨) .

وبالنظر فى اسلوب الرجل ومراجعته ، ألفيته أسلوباً بلاغياً راقياً ، لا تكرار ولا إملال فيه غالباً ؛ مما يدل على تمكنه اللغوى وفصاحته . ومن ذلك قوله فى خطبة كتابه : (الحمد لله الذى خلق فقدر ، وصور فاتقن صنع البرية ، بلا مشير يناصره ، ودبرها بلا معين يعاضده . اتقنها أى اتقان ، وأحكمها بلا أعوان)(٤٩). وفى سياق حديثه عن جهاده فى رحلاته ، قال : (ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأخبار حتى عرفتها ، وتفتشى عن المذاهب حتى علمتها)(٥٠) .

ويلاحظ على المقدسى - أيضاً - أنه متقن لمفردات المعجم اللغوى العربى ، ويميل إلى استخدام غريب اللغة نوعاً ما . ومن ذلك قوله : (فكركرهم عنى)(٥١). وذلك فى أثناء إشارته إلى إنقاذ أحد الكتبة له من بين أتباع أحد المفرطين فى حب معاوية ﷺ ؛ لأن المقدسى تجاسر ، وكذب حديثاً موضوعاً ، رواه ذلك الرجل فى فضل معاوية . وكذلك قوله عن هواء بيت المقدس شارحاً موضحاً : سجسج (لا حر ، ولا برد شديد)(٥٢) . وأيضاً قوله عن ذهابه إلى إحدى المناطق ، فوجدها خالية : (فلم أر بها دياراً)(٥٣) .

وأخيراً ، فإن بكتاب المقدسى شواهد ، تدلل على إلمامه بعدد من فنون العربية (رجزاً(٥٤) . وأمثالاً(٥٥) ، وشعراً)(٥٦) . ويضاف - إلى ما سبق - معرفته بمدلولات الألفاظ المستخدمة المتباينة بتباين الأقاليم(٥٧) .

(ب) ثقافته الجغرافية :

لا شك فى أن رحلات المقدسى إلى أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة ، واهتمامه بمطالعة المصادر الجغرافية قدم له زاداً وفيراً ، ومادة علمية غزيرة ، منها ألف كتاب (أحسن التقاسيم) . وسأكتفى بمثال واحد كشاهد على دقة معرفته بالبلدان(٥٨) حيث عقد فصلاً لبلدان وكور ، تتفق أسماؤها ، وتتباين مواضعها ، ويشكل على الناس أمرها ، والمنسوبون إليها (مثل : البصرة بالعراق وبالمغرب(٥٩) ، وحلوان التى هى كورة بالعراق ، ومدينة بمصر ، وقرية بنيسابور)(٦٠) .

(جـ) ثقافته فى العلوم الإسلامية :

فى القراءات : تبين لنا – من خلال بعض نصوص كتابه – أنه لديه إلمام بـ (علم القراءات القرآنية) ، فهو – شخصياً – لديه ميل وإتقان لقراءة (عبد الله بن عامر)(٦١) ، وبها قرأ القرآن فى مصر(٦٢) . ومن خلال تناوله ثقافات أهل الأقاليم التى يحدثنا عنها ، أورد معلومات تدل على إحاطته باتجاهات الأقاليم المختلفة فى علم القراءات فى زمانه (فى القرن الرابع الهجرى) . فمثلاً : فى الحجاز توجد قراءات نافع ، وابن كثير ، وغيرهما . وقراءة أهل الشام – ومنهم : المقدسى – هى قراءة (عبد الله بن عامر)(٦٣) .

فى الحديث : أورد المقدسى عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة فى كتابه ، وحرص على ذكر أسانيدها كاملة ومناسباتها الجغرافية ، مثل : حديث إعادة بناء الكعبة لدى تعريفه بـ (مكة)(٦٤) ، ومجموعة أحاديث عن مكان إحرام أهل المدينة ، والشام ، ونجد (وذلك عند تناول الجحفة ، وقرن)(٦٥) ، وغير ذلك من الأحاديث(٦٦) .

فى الفقه : اهتمام المقدسى بـ (علم الفقه ، ورجاله) اهتمام أصيل . فالرجل فقيه حنفى تتلمذ بالعراق على أيدى الفقهاء الأحناف ، وأختار مذهبهم ، وفضله عما سواه من المذاهب(٦٧) . وللفقهاء عنده منزلة سامية ، فيحترمهم ويعرف فضلهم ، ويرفعهم فوق أهل العلم والأدب عامة(٦٨) ، وقد تأثر المقدسى فى دراسته للأقاليم بمصطلحات الفقهاء ، فذكر أنه قد أجرى مسائل كتابه على (التعارف ، والاستحسان) ، كما أجرى الفقهاء كتابى (المكاتب ، والإيمان) ، ورتبه على مذاهب أهل العراق التى فيها تفقه ، وإياها اختار ، واستعمل القياس فى مواضع تحسن وتليق(٦٩) .

لقد احتوى كتاب (أحسن التقاسيم) على باب من (مقدماته) ، خصص لذكر المذاهب عامة (فقهية ، وكلامية ، وحديثية) . وتناول بالحديث المذاهب الفقهية وأصولها وأئمتها ، وما تفرد به كل مذهب منها عما سواه(٧٠) . هذا ، إلى جانب إشاراته المتعددة فى كتابه إلى المناظرات والمناقشات الفقهية الدائرة حول بعض المسائل الخلافية فى الأقاليم الجغرافية التى يعرضها(٧١) ، إلى جانب سرد بعض أحكام الدين عندما تلوح المناسبة(٧٢) .

رابعاً : (دراسة القسم الأول من كتاب : «أحسن التقاسيم»)(٥٠):

من المعلوم أن المقدسى قسم كتابه المذكور إلى قسمين :

أحدهما : خاص بأقاليم العرب .

وثانيهما : يتعلق بـ (أقاليم العجم) . ولما كانت دراستنا فى هذا البحث تنصب على جانب (تاريخ العرب) ، فقد اقتصرت الدراسة عل (القسم الأول) فقط ، كمحاولة لتسليط الأضواء على المادة التاريخية - تقليدية ، وغير تقليدية - المبثوثة فى ثنايا هذا المصدر الجغرافى الأصيل .

١ - عرض عام لمحتويات هذا القسم :

١ - بدأ المقدسى كتابه بمقدمة عامة ، أثنى فيها على الخالق المبدع سبحانه ، مبيناً قدرته فى بعض ظواهر الكون ، ثم ذكر أهداف تأليف كتابه ، وموضوعه ، وفوائده ، وأهميته ، وما بذل فى جمعه من جهد(٧٤) .

٢ - وتحت عنوان : (مقدمات وفصول لابد منها) أورد عدة موضوعات ، منها: الأسس المنهجية لكتابه ، وذكر البحار والأنهار ، والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلف فيها ، وغير ذلك(٧٥) .

٣ - عرض أقاليم العرب واحداً بعد الآخر : (جزيرة العرب(٧٦) ، والعراق(٧٧)، وأقور(٧٨)، والشام(٧٩) ، ومصر(٨٠) ، والمغرب(٨١) ، وبادية العرب(٨٢). وكان المقدسى يقسم الإقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة فى أحجامها حسب توفر المادة العلمية عن كل منها ، فيدرس فى الأول مدن الإقليم ، والمواضع العامرة فيه . ويبحث الثانى فى المناخ وطوائف السكان ، ولغتهم ، والأوزان، والنقود ، والعادات ، والمياه ، والمعادن ، والأماكن المقدسة ، وأخلاق سكانه، وتاريخه السياسى والاقتصادى ، ويتناول الثالث الحديث عن المسافات ، وطرق المواصلات فى كل إقليم(٨٣) .

٢ - موارده :

فى هذه الجزئية نركز الحديث عن المصادر الواردة فى قسم (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، والتى استمد منها مادته . وقبل الولوج إلى ذكر أنواع الموارد ، التى استمد منها مادتـه التاريخية غالباً ، نذكر القواعد النظرية العامة التى حكمت اختياره لهذه الموارد ، ونوعياتها ، وطريقته فى الأخذ منها(٨٤) ، وهى كالآتى :

(أ) البحث والتنقيب والتحرى فى اختيار وتحديد المصادر ، التى ينقل عنها مادته.

(ب) المشاهدة ، والقناعة العقلية ، سؤال أولى الألباب عن الناس ممن لم يعرفوا بالغفلة والالتباس ، وسؤالهم عن الكور والأعمال فى المناطق التى بعد عنها المقدسى ، ولم يقدر على الوصول إليها (كالأندلس مثلاً) . فإذا اتفق أكثر من مصدر سأله ، أثبت ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه تركه ونبذه ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه ، قصده .

(جـ) ما لم يقره قلبه ، ولم يقبله عقله ، أسنده إلى الذى ذكره ، أو قال : زعموا .

(د) الاجتهاد فى عدم ذكر شيء قد سطره أصحاب المصنفات قبله فى ذلك العلم ، ولا يشرح أمراً قد أوردوه وبينوه إلا عند الضرورة ؛ كى لا يبخسهم حقوقهم ، ولا يتهم بالسرقة من تصانيفهم(٨٥) .

(هـ) يذكر المقدسى فى كتابه ما رآه ، ويحكى ما سمعه . فما صح من الروايات بالمعاينة وأخبار التواتر ، أرسل به القول (أى : لم يذكر مصدره) ، وما شك فيه من أخبار ، أو رواه من طرق الآحاد ، أسنده إلى راويه . ويلاحظ أنه لم يذكر فى كتابه مصدراً إلا وهو (صدر مشهور ، أو عالم مذكور ، أو سلطان جليل) ، وباستثناء مواضع ذكر فيها موارد ، لا تندرج تحت هؤلاء المذكورين ؛ لضرورة ، أو لورودهم عرضاً خلال إحدى الروايات . ويميز هذا المصدر الأقل مكانة بتسميته رجلاً ذاكراً محله (مكانته) ، ليفرق بينه وبين جلة المذكورين .

أقسام موارده :

* لخص لنا المقدسى هذه الأقسام فى عبارة مجملة ، جاء فيها : أن موارد كتابه على النحو الآتى :

(أ) ما عاينه .

(ب) ما سمعه من الثقات .

(جـ) ما وجده فى الكتب المصنفة فى هذا الباب . وفى غيره . فما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ، ولا مذكر وبلد إلا وشهدهم ، حتى استقام له ما ابتغى فى هذا الباب(٨٦) .

والأن ننتقل إلى الجانب التطبيقى الفعلى لمصادر المقدسى ؛ وهى على النحو الآتى :

(أ) مصادر ذكر عناوينها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها :

(قرأت فى أخبار المدينة)(٨٧) ، و (قرأت فى أخبار البصرة)(٨٨) ، وهو (قرأت فى كتاب الطلسمات)(٨٩) .

(ب) مصادر لم تحدد عناوينها ، ولا أسماء مؤلفيها :

(وجدت فى بعض خزائن الخلفاء)(٩٠) ، و(قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة(٩١) ، و(قرأت فى بعض الكتب)(٩٢) .

(جـ) مصادر معلومة الاسم ، والمؤلف :

(وجدت فى كتاب ابن خرداذبه)(٩٣) ، و (قرأت فى كتاب ابن خرداذبه)(٩٤) ، و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب)(٩٥) ، وأما الدخل ، فقرأت فى كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر(٩٦) ، و (قرأت فى كتاب ابن الفقيه)(٩٧) .

ملاحظتان :

الأولى : هناك مصدر ، نقل عنه المقدسى ، ولم يذكر اسمه تحديداً ، واكتفى بذكر نسب المؤلف دون اسمه . ومثال ذلك قوله : (وذكر الشمشاطى)(٩٨) . فى (تاريخه)(٩٩) .

الثانية : هناك بعض المرويات المصدرة بلفظة (قال) ، لكن الرواية فيها عن أشخاص ، يستحيل على المقدسى النقل المباشر عنهم ؛ مما يدل على أنها منقولة عن مدونات مجهولة العناوين : (قال عبد الله بن عمرو(١٠٠) ، وقال قطرب(١٠١) ، وقال كعب الأحبار)(١٠٢) .

(د) مصادر شفهية :

توجد مرويات عديدة – فى كتاب المقدسى – مصدرة بألفاظ ، يغلب على الظن معها ، أنها نقلت شفاهاً . ولعلها دونت فيما بعد . وقد وردت هذه الروايات بأشكال متعددة منها :

– ما صدر بلفظة (سمعت) ، بعدها المورد مذكور :

(سمعت – يوماً – القاضى أبا الحسين القزوينى(١٠٣) ، وسمعت أبا على الحسن بن أبى بكر البناء(١٠٤) ، وسمعت عمى(١٠٥) ، وسمعت خالى عبد الله بن الشوا)(١٠٦) .

– ما صدر بلفظة (سمعت) بعدها المصدر غير مذكور تحديداً :

(سمعت بعض العثمانية(١٠٧) ، وسمعت هذه الحكاية من عدة من مشايخ الأندلس(١٠٨) ، وسمعت بعض مشايخ القيروان)(١٠٩) .

– ما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها مصدر غير محدد :

(وسألت بعض المصريين ببخارى عن الخراج)(١١٠) .

– وما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها غير محدد ، ثم سؤال أكثر من مصدر محدد :

(وسألت جماعة منهم (أى : من الروم) ، وسألت عربياً الخادم (وكان من أهل العلم والصدق) ، وذكرت قوله لأبى سعيد الجورى بـ (نيسابور)(١١١).

- روايات مصدرة بلفظة (**أخبرنا**) بعدها سلاسل إسناد كاملة ، تنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٢) ، وروايات أخرى مصدرة بلفظة (**حدثنا**) بعدها سلاسل إسناد كاملة فى معظمها ، وتنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٣) .

- الجمع بين مصدر شفهى غير محدد ، وآخر مكتوب غير محدد أيضاً :

(وسمعت بعض العلماء ، وقرأت فى بعض الكتب)(١١٤) .

- وأخيراً ، روايات مجهولة المورد ، مصدرة ببعض الألفاظ ، مثل:

(يزعمون(١١٥) ، وسمعتهم يزعمون(١١٦) ، و(قالوا)(١١٧) ، و(قيل)(١١٨) ، و(يقال)(١١٩) ، و(يقولون)(١٢٠) ، و(يحكى)(١٢١) ، و(حكى لى)(١٢٢) ، و (زعم)(١٢٣) ، و (حدثت)(١٢٤) ، و(حدثونا)(١٢٥).

ملاحظات على موارد المقدسى :

(أ) اتضح من النماذج المختارة السابقة تنوع المصادر ، التى استمد منها المقدسى مادته ما بين مصادر مكتوبة ، وشفهية (محددة ، وغير محددة) ، وأخرى مجهولة . وتنوعت الألفاظ المستعملة للتعبير عن النقل من تلك المصادر ، فاستخدم المقدسى (قرأت) فى التعبير عن *مطالعة المصادر المكتوبة* ، وكذلك (وجدت ، وذكر) . وفى المصادر الشفهية استخدم ألفاظاً ، مثل : سمعت ، وسألت ، وأخبرنا ، وحدثنا . وفى الموارد المجهولة استخدام عدداً من الألفاظ الدالة على الظن والتشكيك ، مثل : يزعمون ، وقيل ويقال .

(ب) بالنسبة للروايات المنقولة عن كتب جغرافيين سابقين ، فما تيسر لى الإطلاع عليه من المطبوع ، قارنت ما فيه من مادة تاريخية بما أورده المقدسى نقلاً عن

هذه الكتب . وقد تبين لى أن المقدسى كان دقيقاً فى نقله من كتاب (ابن خرداذبه) ما يتصل بعدد مدن الأندلس الأربعين(١٢٦) ، وكذلك كان دقيقاً فيما يتصل بمقادير خراج (حمص ، والأردن وفلسطين)(١٢٧) .وثبت دقته كذلك فى نقله عن (ابن خرداذبة) - أيضاً - ما يتصل بمقدار (خراج اليمن)، وإن لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه ابن خرداذبه فى ذلك (ووجد فى ديوان الخراج ، رفع لبعض عمال اليمن)(١٢٨) . ووقفت - أيضاً - على دقة المقدسى فى نقله عن (كتاب الخراج) لقدامة بن جعفر ، فيما يخص مقادير خراج (الحرمين واليمن ، واليمامة والبحرين ، وعمان)(١٢٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن المقدسى كان يتصرف - أحياناً - فى نقله عن المصادر ، فهو عندما اقتبس من كتاب (ابن خرداذبه) قيمة خراج (ولاية اليمن) ، أغفل ذكر تعليق ابن خرداذبه بأن هذا هو أكثر ما ارتفع من خراج فى هذه الدولة . ثم إنه عندما ذكر (التقسيم الإدارى لليمن) ، عبر عن (الولاة) بلفظة (أعمال) ، فقال : مقسومة على ثلاثة أعمال (بدلاً من ثلاثة ولاة) . ونقل مختصراً ما قاله ابن خرداذبة ، فأسقط ذكر حجم ومنزلة ولاية من الولايات الثلاث، فقد قال ابن خرداذبه عنها ما يلى : الجند ومخاليفها (وهى أعظمها) ، وصنعاء ومخاليفها (وهى أوسطها) ، وحضر موت ومخاليفها (وهى أدناها)(١٣٠) .

وقد يبدو المقدسى مجانباً الدقة والصواب ، عندما نقل عن كتاب ابن خرداذبة أن خراج قنسرين أربعمائه ألف دينار(١٣١) ؛ لأنه بالعودة إلى كتاب ابن خرداذبه ، ألفينا هذا الرقم خاصاً بخراج قنسرين والعواصم معاً(١٣٢) . وقد ذكر ياقوت فى حديثه عن (العواصم)(١٣٣) ، أن البعض يزعم أن (حلب) ليست منها ، والبعض يزعم أنها منها ، ثم استحسن دليل من قال : إن حلب ليست من أعمال (العواصم) أنهم اتفقوا على أنها من أعمال (قنسرين) وهم يقولون : قنسرين

والعواصم ، والشيء لا يعطف على نفسه(١٣٤) . فتكون (قنسرين) شيئاً، و (العواصم) شيئاً آخر ، ويكون المقدسى غير دقيق فيما ذكر . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بما ذكره ياقوت نفسه بعد ذلك فى التعريف بـ (قنسرين)(١٣٥) ، لما قال : وبعض يدخل قنسرين فى العواصم(١٣٦) . فلعل المقدسى من هؤلاء ، فيكون ما نقله عن خراج قنسرين معبراً عن خراجها وخراج العواصم معاً ، فيسلم بذلك من المؤاخذة .

وثمة جزئية أخيرة يمكن أن تؤخذ على (المقدسى) بهذا الصدد ، وتتعلق بمقدار دخل مصر ، حيث نقل عن (قدامة) أن هذا الدخل بلغ من العين ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار . وبالعودة إلى كتاب (قدامة) وجدت أن هذا الرقم يختص بـ (مصر ، والإسكندرية) معا(١٣٧) . والراجح أن المقصود بـ (مصر) مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية لمصر . أما الإسكندرية ، فهى العاصمة القديمة قبل دخول الإسلام مصر ، وكانت تعامل معاملة خاصة فى ظل النظام الإدارى بعد الفتح الإسلامى ، فهى مدينة بارزة من مدن الوجه البحرى ، ولها وال يحكمها ، ودخل تختص به ، بخلاف دخل العاصمة (الفسطاط)(١٣٨) .

(جـ) كان المقدسى دقيقاً فى استخدام الألفاظ ، التى تصدر بها روايات كتابه ، فالمرويات التى لا يستطيع التحقق من صحتها يستخدم معها ما يدل على ميل إلى عدم الاقتناع بمضمونها ، مثل : يقولون(١٣٩) ، ويزعمون(١٤٠) .

(د) حرصه على ذكر الأسانيد الكاملة للمرويات الحديثة ، وإن لم يتعرض لها بتحديد مدى صحتها من عدمه . وفى الوقت نفسه أتى فى إحدى الروايات ، التى تغلب عليها الأسطورة والخرافة بالإسناد الكامل(١٤١) . وأحياناً كان يروى عن مصدر له صلة غير واضحة بموضوع الرواية(١٤٢) ، وأحياناً يسأل أهل الاختصاص(١٤٣) . ويكرر السؤال نفسه لدى أكثر من مصدر ، واصفاً أحدها بأنه من أهل العلم والصدق(١٤٤) ، وكل ذلك لمزيد من التدقيق والتثبت .

(هـ) وأخيراً ، فإن هذا القسم الخاص بـ (أقاليم العرب)من كتاب (أحسن التقاسيم) به كثير من المعلومات والروايات ، التى لم يذكر المقدسى لها مصدراً ، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها . ويغلب على الظن أنها من المواضع التى اتفق عليها ، وصحت للمقدسى بالمعاينة والتواتر (على نحو ما ذكر فى منهجه فى ذكر الموارد سابقاً) . وهذا يعنى أن كثيراً من مرويات المقدسى قائمة على (المشاهدة والمعاينة) ، وهى ناتجة - ولا شك - عن الرحلات الطويلة التى قام بها لأقاليم الإسلام(١٤٥) .وجولانه فى البلاد(١٤٦) ، وكثرة أسفاره فى البحار والمحيطات(١٤٧) . وهكذا ، فإن المشاهدة تأتى فى المقام الأول بين موارده(١٤٨) . وما لم يطالعه بنفسه ، اعتمد فى معرفته على المصادر المكتوبة ، سؤال أهل العلم(١٤٩) .

٣ - منهجه :

قبل الحديث عن عناصر المنهج التطبيقى ، الذى سلكه المقدسى فى عرض قسم (أقاليم العرب) من كتابه ، نضع أيدينا - أولاً - على الأسس والقواعد النظرية التى أتبعها المقدسى قبل وعند وضع كتابه ، وهى كما يلى :

أولاً : دوافع التأليف : هناك دافع عام رغب المقدسى فى تأليف كتابه ، يشاركه فيه عامة العلماء(١٥٠) ، ودافع خاص يتعلق بالمقدسى . لقد نظر فى العلوم عامة ، فوجد أن الأمور تسير على هذا النحو : علماء لهم قدم السبق والريادة ، يقومون بالتأليف فى البداية ، ثم يأتى آخرون بعدهم ، فينظرون فى مؤلفات الأولين ، فإما أن يشرحوها ، أو يختصروها أما هو ،فرأى أن يكتب فى علم قد أغفلوه ، وينفرد بفن لم يذكروه إلا وعليهم فيه مآخذ ؛ إذ عالجوا بإخلال . فرأى هو أن يذكر الأقاليم الإسلامية ذكراً شاملاً متكاملاً ، يصف طبيعة الإقليم الجغرافية ، ويصف مدنه المشهورة ، ويذكر الطرق الموصلة إليه ، مع بيان ما فيه من أنشطة بشرية صناعية وتجارية وغيرها ، مع التعرض للغة أهل

الإقليم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، ومطاعمهم وشرابهم، وصادراتهم ووارداتهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم ، ومذاهبهم ، وغيرها(١٥١) .

ثانياً : مطالعة الكتب السابقة عليه في هذا العلم ، وقراءتها قراءة نقدية . وانتهى - بعد ذلك - إلى اقتناع بأن هؤلاء الذين تقدموه ، جاءت مصنفاتهم مختلة ، واعتمدوا فيها على السماع(١٥٢) . فالجيهاني(١٥٣) صاحب معرفة بالفلسفة والنجوم والفلك . قام بالاعتماد على سؤال الغرباء عن ممالكهم ، ودخلها ، وكيفية الوصول إليها (فلم يعتمد على الرحلة إلى تلك الأقطار) .ومما أخذه عليه المقدسي أنه اهتم بذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ، ولم يفصل ذكر الكور ، ولم يرتب أجنادها ، ولم يصف مدنها ، ولا استوعب ذكرها . وكذلك انتقده المقدسي بالإطالة في الكتاب ؛ نتيجة شرح ما في الطرق من سهول وجبال ، وأودية ، وتلال ، وأنهار ، ثم أغفل أكثر طرق الأجناد(١٥٤) .

* وطالع المقدسي كتاب (أبي زيد البلخي) ، وعاب عليه تركه كثيراً من أمهات المدن ، وعدم الارتحال إلى البلدان والأعمال .

* وأخذ على ابن الفقيه الهمداني عدم ذكره إلا المدن العظمى ، وعدم ترتيبه الكور والأجناد ، وإدخاله في كتابه علوماً ، لا علاقة له بها (زهد في الدنيا ورغبة فيها وحكايات مبكية وأخرى ملهية مضحكة) .

* وأما كتاباً الجاحظ ، وابن خرداذبه ، فذكر أنهما مختصران جداً ، ولا يحصل منهما كثير فائدة(١٥٥) .

* ولا شك في أن المقدسي حاد في نقده ، لكنى لا استطيع القطع بانه كان ناقداً متعسفاً - أحياناً - على السابقين في هذا المجال(١٥٦) . لأن بعض الكتب التي ذكرها في حكم المفقودة .

ثالثاً : القيام بزيارات ميدانية ، ورحلات شخصية مطولة ؛ لجمع مادة كتابه بنفسه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ومخالطة الناس والعلماء في البلاد المختلفة التي

زارها وحضور مجالس علمائها ، وعقد صلات مع بعض الحكام ، وتصفح خزائن الكتب ومطالعة الدفاتر والخرائط(١٥٧) .

رابعاً : أثناء كتابة المقدسي مصنفة راعى تجنب الكذب والطغيان (مجاوزة الحدود والمبالغة) ، والتحرز بالحجج (الإتيان بالأدلة) من الطعان (الطعن والنقد)، فلم يودعه المجاز والمحال (الخيالات ، والمستحيلات) ، ولم يسمع إلا قول الثقات من الرجال(١٥٨) .

خامساً : وأخيراً التأني والمراجعة قبل إخراج الكتاب : ذكر المقدسي أنه حرص على استشارة الأئمة والعلماء قبل إخراجه إلى الناس ، فكل أشار به وقبله ، وبعث على إحضاره ومدحه(١٥٩) .

العناصر الإيجابية في منهج المقدسي التطبيقي :

أولاً : توضيح مفاهيم مختصراته ، ومصطلحاته ، وجغرافية أقاليمه :

* قبل أن يدخل المقدسي في صلب كتابه ، أوضح مفاهيم عدد من الألفاظ المختصرة التي يستخدمها ، فقال : لا نظير له تعني : ليس مثل بتة . فإن قال : غاية ، فإنها تعني : غاية في الجودة . وإن قال : جيد ، فقد يوجد أجود منه(١٦٠) .

* وقد يجمل المقدسي القول ، ويدع شرحه إلى حينه ، مثل قوله : ﴿ ولا أعز من أهل بيت المقدس ﴾(١٦١) .

ومن مصطلحات المقدسي التي شرح مقصوده منها ما يلي :

البلد : وتشمل - عنده - المصر ، والقصب ، والرستاق ، والكورة ، والناحية .

* عند ذكر قصبة في كورتها ، يذكرها باسمها (مثل : الفسطاط) ، فإذا أوردها في موضع آخر ، جعلها باسمها المعروف عند الناس ، فيقول : (مصر) .

المشرق : دولة آل سامان . فإن قال : الشرق ، فإنه يعني كرمان ، وفارس، والسند أيضاً .

المغرب : هو الإقليم المعروف . فإن قال : الغرب ، ضم إليه (مصر ، والشام)(١٦٢) .

* **وأخيراً** ، فإن المقدسى لم يكتف بكل هذه التوضيحات ، وإنما ابتكر لوناً جديداً من التوضيح ، تمثل فى رسم خرائط ملونة لأقاليم كتابه ، فكان يرسم حدودها وخططها ، ويميز طرقها المعروفة بالحمرة ، ويشير إلى رمالها الذهبية باللون الأصفر ، ويجعل بحارها المالحة باللون الأخضر ، وأنهارها المعروفة باللون الأزرق ، وجبالها المشهورة بالغبرة . وقد لجأ الرجل إلى ذلك ؛ لتقريب الوصف إلى الأفهام ؛ كى يقف عليه الخاص والعام(١٦٣) . وللأسف ، فإن هذه الخرائط الملونة لم تصل إلينا فى النسخة التى بين أيدينا ، ويبدو أنها سقطت من مخطوطات الكتاب ، لكن عبارات المقدسى تشير إلى وجودها فى كتابه(١٦٤) .

ثانياً : الدقة فى توزيع مادة كتابه :

نلمح تلك الجزئية المنهجية من خلال قراءة كتاب المقدسى ، حيث لا نجد تداخلاً بين معلومات الأقاليم المختلفة . فالرجل يحسن توزيع مادته العلمية ، ويضعها فى مكانها اللائق بها . فمثلاً : عند تناوله (ذكر المذاهب ، وأهل الذمة) فى فصوله الموجودة بـ (مقدمات كتابه) ، قال : واخترت من المذاهب مذهب أبى حنيفة (رحمة الله) ؛ للخلال التى ذكرها فى (إقليم العراق)(١٦٥) . وعند إشارته إلى أتباع المذاهب الكبرى ، قال : قد بينت ذلك فى شرح الأقاليم من هذا الكتاب(١٦٦) . وعندما تناول القراءات ، قال : ومن الحروف مقرأ (أبى عمران عبد الله بن عامر اليحصبى) ؛ للمعانى التى أصفها فى إقليم (أقور)(١٦٧).

ثالثاً : وضوح شخصيته فى كتابه :

هذه جزئية مهمة فى الوقوف على عقل وفكر المقدسى ، ودرجة تفاعله مع المعلومات التى يكتبها ، من حيث القدرة على التعليل ، والاستدلال ، والتعليق، والنقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين . ولا شك فى أن عناصر ثقافة الرجل

الموسوعية تفاعلت معاً ، حتى أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقدة فهماً وذكاء ، حتى قال عنه كراتشكوفسكى : تمتع المقدسى بشخصية واضحة للعيان ، حتى من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشىء ، إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقيه(١٦٨) .

١ - **التعليل** : وقد اتخذ أشكالاً وأنماطاً ، منها : تعليل فى منهج التناول ، فكثيرا ما يعلل طريقته فى عرض كتابه ، فقد حرص أن يودعه شيئاً من الغوامض والمعانى ؛ ليجل (يعظم قدره) ، ويقل (أى : المتهاونون بشأنه) ، وأورد فيه الحجج توثقاً (زيادة فى التوثيق) ، والحكايات تحققاً (أى : من صدق ما يورد)، والسجع تظرفاً (درءاً للسآمة) ، والأخبار تبركاً . وبسط أكثره ؛ ليقف عليه العوام إذا تأملوه . وأوضح الطرق ؛ لأن الحاجة إليها أشد ، وصور الأقاليم ؛ لأن المعرفة بها أروج ، وفصل الكور ؛ لأن ذلك أصوب(١٦٩) .

وتنوعت تعليلات المقدسى بين التوسط والإيجاز . ومن النوع الأول ما ورد عن تخصيص باب مستقل لـ (بادية الشام) ؛ بأن أحداً من أهل الأقاليم لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ، ولا غنى عن معرفتها ، كما أن بها طرقاً ومياها قد تجهل ولا تعرف وبها فوائد لا تحصى(١٧٠) . وكذلك تعليله بدءه عرض (أقاليم العرب) بـ (إقليم جزيرة العرب) ؛ لما يتمتع به من وجود بيت الله الحرام ، والمدينة المنورة ، ومقر الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين والأنصار ... إلخ(١٧١) .

ومن التعليلات الوجيزة ما قاله عن سبب تركه التعريف بـ (طرسوس ، وأعمالها) ؛ لأنها بيد الروم(١٧٢) . وأيضاً تركه ذكر بعض مدن الإسلام فى الأندلس غالباً ؛ لجهله إياها(١٧٣) . وإعجابه بالبصرة أكثر من بغداد ؛ لرفقها ، وكثرة الصالحين بها(١٧٤) . وسر تسمية (واسط) ، التى اختطها الحجاج ؛ لأنها بين قصبات العراق والأهواز(١٧٥) .

٢ - **الاستدلال** : دلل المقدسى على انقاص (سعيد بن العاصى) مقدار الصاع ، الذى قرره عمر بن الخطاب فى إقليم (شبه جزيرة العرب) بحضور الصحابة، وبه كان يكفر الإيمان ، فهبط به سعيد من (ثمانية أرطال) إلى (٥ ١/٣) من الأرطال . وقد استدل على مجمل عمل سعيد هذا - معتمداً على ثقافته الأدبية - بقول الراجز :

وجاءنا بجوعا سعيد ينقص فى الصاع ولا يزيد(١٧٦)

٣ - النقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين المطولة نوعاً ما :

هذا الملمح المهم إن هو إلا إنعكاس واضح لثقافة المقدسى الفقهية ، وذكائه وتوقد ذهنه ، وكثرة مطالعاته ، ومشاهداته مجالس الفقهاء والعلماء ، وما يدور به من مناظرات ومناقشات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) استدلاله على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم بشيوع تلك التسمية، وعدم معرفة الناس تسمية (إقليم بابل) ، وهو متمسك بتلك التسمية ؛ لأنه يرى كتابه على المعروف المشهور . ثم قال : بالضبط كمن حلف على ألا يأكل رءوساً ، فأكل من رءوس البقر والغنم ، فإنه يحنث على رأى أبى حنيفة ، خلافاً لما قاله الفقيهان الحنفيان (أبو يوسف ومحمد) . وقد شرح بعض الأئمة من مشايخ القدس ذلك بأنه لا خلاف ، فقد كانت تؤكل الرءوس وتباع زمن أبى حنيفة ، ثم زالت تلك العادة زمان أبى يوسف ومحمد . وأيضاً استدل على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم ، دون (إقليم بابل) بقول أبى بكر لعمر ، عندما سأله إرسال جيوش إلى العراق ،/ فبين له أبو بكر أن فتح شبر من الأرض المقدسة (الشام) أحب إليه من رستاق من رساتيق العراق . قال المقدسى : ولم يقل : (من رساتيق بابل) . ويواصل المقدسى نقاشه ، فيحشد مزيداً من البراهين ، فيقول: وأما ما جاء فى آية : « وما أنزل على الملكين ببابل »(١٧٧) ، فيجوز أن يتناول ذلك الإقليم والمدينة جميعاً ، ووقوعه على المدينة مجمع عليه ، لكن إطلاق اسم (بابل) على (الإقليم) مختلف فيه ، فمن أطلقه على الإقليم ككل ، فعليه وجب الدليل(١٧٨) .

(ب) الأدلة الكثيرة التى ساقها المقدسى ؛ دفاعاً عن إتباعه مذهب أبى حنيفة الفقهى ، والتى منها : اعتماد ذلك المذهب على أقوال وفتاوى الإمام على ﷺ ، وقدم ذلك المذهب ، واقترابه من عهد الصحابة ، وصوابه عما سواه من المذاهب الفقهية الأخرى . ولا حجة لمن طعن على أبى حنيفة ومذهبه ، فقد سبق أن طعن الطاعنون على الخلفاء الراشدين(١٧٩) .

٤ - التعليق :

اتخذ تعليق المقدسى على بعض الأخبار الواردة فى كتابه عدة صور على النحو الآتى :

(أ) تعليق على فضائل الأمصار : دخل عبد الرحمن بن أخى الأصمعى على الجاحظ ، فقال : افدنى فى البلدان فائدة . فذكر له ميزات عشرة أمصار ، ومن ذلك قوله : (الصنعة بالبصرة ، والمروءة ببغداد ، والتجارة بمصر) .

فعلق المقدسى : وقد صدق لعمرى . ثم استدرك قائلاً : إلا أن بنيسابور - أيضاً - صناعاً حذاقاً ، وبالبصرة تجارات ، وبمكة فصاحة ، وبيت المقدس حسنة البناء ... إلخ(١٨٠) .

(ب) تعليق على رواية بها معلومة اقتصادية : لقد تساءل المقدسى دهشاً ، لما قرأ عند ابن خرداذبه أن خراج اليمن ستمائة ألف دينار ، إذ قال : فلا أدرى ما أراد بذلك ، و لم أر ذلك فى كتاب (الخراج) ، بل المعروف أن جزيرة العرب عشرية(١٨١) . وهذا يعنى أنه مر فى تعليقه - أولاً : بمحاولة تفهم النص الاقتصادى الوارد ، ثم شكك فى صحته ؛ لعدم مطالعته إياه فى كتاب (الخراج)، الذى أرجح أنه كتاب (قدامة بن جعفر) ؛ لاحتوائه على قوائم الخراج فى أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم بين أن الغالب عدم تصديق النص ؛ لأن أرض الجزيرة يؤخذ من أهلها الزكاة ؛ إذ لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان . فكأن المقدسى يتحفظ على النص ، ويميل إلى رفضه بطريقة غير مباشرة .

(جـ) تعليق على نص به معلومة عن إحدى الفرق المنحرفة : قرأ المقدسى فى كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور : أن بالمغرب سبعمائه خانقاه (رباط الصوفية) لهم . فعلق قائلاً : لا ، والله ولا واحدة(١٨٢) .

(د) تعليق فقهى على حادثة تاريخية : ذكر المقدسى أن المنصور العباسى لما حج ، رأى ضيق المسجد الحرام هناك فأراد شراء ما حوله من الدور ، وزيادتها فيه مع تفخيمه ، فعرض على اصحاب الدور أموالاً جمة ، لكن رفضوا البيع . وقد علم أبو حنيفة بحيرة الخليفة ، ولم يكن اشتهر فقهه بعد ، فلقى المنصور وعرض عليه أن يسأل هؤلاء الناس : هل الكعبة نزلت عليهم أم العكس ؟ فلما ذكروا أنهم حلوا بها ، قال : ردوا فناءها ، فقد كثر زوارها ، واحتاجت إليه . فرضى الناس بالبيع . ثم علق المقدسى قائلاً : وهذه الحكاية تقوى إحدى الروايتين عن أبى حنيفة فى كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها ، إلا على تأويل(١٨٣) .

٥ - آراء نقدية يبديها :

(أ) رأيه فى سر رخاء العراق : قال المقدسى : (واعلم أن العراق ليس ببلد رخاء ولكن جل وعمر بهذين النهرين ، وما يحمل فيهما ، وببحر الصين المجاور له(١٨٤) . فهو يضع يده على عوامل ثراء ورخاء العراق عن طريق ما حباه (الله عز وجل) من عوامل الخصب والرخاء والتجارة (وجود نهرى دجلة ، والفرات ، والمحيط الهندى) .

(ب) رفضه اتهام الأمويين بالجبن أمام أعدائهم : حيث ذكر أبياتاً لمن يهجو الأمويين فعلق على واحد منها يقول :

أسد على الجيران أعداؤهم   آمنة تخطر فى دارهم .

علق المقدسى قائلاً : وكذب فى هذا البيت ؛ لأن الأعداء - أبداً - يخافونهم(١٨٥) .

(جـ) نقده كثرة إنفاق الوليد بن عبد لملك على بناء جامع دمشق ، إذ قال لعمه يوماً : يا عم ، لم يحسن الوليد ، حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو أنفق ذلك في عمارة الطرق والمصانع ، وترميم الحصون ، لكان أصوب وأفضل . فرد عمه عليه قائلاً : لقد وفق الوليد فيما فعل ؛ لأنه رأى الشام بها النصارى ، ولهم فيها بيع حسنة مزخرفة انتشر ذكرها ، مثل : كنيسة القيامة ، وبيعة الرها . فأراد أن يشغل المسلمين عن ذلك بالمسجد ، وجعله أحد عجائب الدنيا . وقد فعل والده (عبد الملك بن مروان) ذلك ، لما رأى عظم قبة القمامة ، فخشى أن تعظم فى قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة(١٨٦) .

٦ - القدرة على الاختيار والترجيح :

(أ) من المواضع إلى برزت للمقدسى فيها هذه القدرة ذكره خبراً مرفوعاً إلى النبى ﷺ عند حديثه العام عن المذاهب فى (أقاليم العرب) - فيه أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتين وسبعين فى الجنة ، وواحدة فى النار . وذكر أن بقية الأئمة يحتجون بخبر آخر فيه (اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة ناجية)(١٨٧) . فالمصيب من وافق الحق ، وهم صنف واحد . ثم قال المقدسى : وهذا أشهر إلا أن الأول أصح إسناداً ، والله أعلم . فإن صح الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثانى فالناجية السواد الأعظم(١٨٨) .

(ب) **وثمة نموذج آخر** : جعل المقدسى الأمصار - فى كتابه - كالملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة . ثم أراد تعريف الـ (مصر) ، فذكر قول الفقهاء : هو كل بلد جامع يقام فيه الحدود (مثل : نابلس). وبه أمير لإدارته ، يجمع ضرائبه ، وينفق عليه . ثم ذكر تعريف فى اللغة : هو كل ما حجز بين جهتين (مثل : البصرة ، والرقة) . **ثم أورد تعريفه لدى العوام** : كل بلد كبير جليل (مثل : الرى والموصل ، والرملة) . **ثم اختار لنفسه تعريفاً** ، **قال فيه** : وأما نحن فجعلنا الـ (مصر) كل بلد حله السلطان الأعظم ، وجمعت

له الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم (مثل : دمشق ، والقيروان)(١٨٩) .

العناصر السلبية فى منهج المقدسى التطبيقى :

(أ) التكرار ، وضعف التنسيق والترابط :

رغم إحكام المقدسى تنظيم مادته ، وإحسانه توزيعها على أماكنها المناسبة، إلا أنه وقع - أحياناً - فى خطأ التكرار ، الذى أفضى إلى الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل فى عرض مادته . ومن أمثلة ذلك : تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه فى أكثر من موضع(١٩٠) .، رغم أن ذلك يكتفى بذكره فى المقدمة فحسب ، وكذلك تكراره ذكر منهجه النظرى الذى ارتضاه لنفسه عند جمع مادته من مصادرها ، والذى سيسير عليه فى تأليف كتابه(١٩١) ، وأخيراً تكراره نقد كتب السابقين عليه فى مجال التصنيف الجغرافى(١٩٢) .

(ب) التطويل ، والاستطراد :

على الرغم من توخى المقدسى الإيجاز فى كتابه ، ونصه على ذلك فى بعض المواطن وخوفه الإطالة ؛ كراهية الملال(١٩٣) ، إلا أنه حتى فى بعض المواضع التى توقف فيها عن مواصلة السرد ، فعل ذلك بعد أن أطال إلى حدما فعلاً(١٩٤) . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المقدسى أطال بعض الشىء فى محتويات (مقدمات كتابه)(١٩٥) . رغم أهميتها إلا أنه كان يمكنه تجميعها وتركيزها ، وعرضها على نحو مختصر منظم . ويلاحظ أنه بينما نجد الإطالة فى بعض المواضع ، فإننا نشكو ندرة وشحاً فى ذكر الشخصيات العلمية المنسوبة إلى بعض الأقاليم الجغرافية . والتعريف الوافى بها(١٩٦) ؛ مما دفع أحد الجغرافيين اللاحقين لسد هذا النقص فيما بعد ، ألا وهو (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) .

وبالنسبة للاستطراد فأرى أن سيل المعلومات الفقهية لدى المقدسى دفعه للوقوع - أحياناً فى عيب (الاستطراد) . ونلحظ ذلك عند الحديث عن

(الجحفة) ميقات أهل الشام فقد استطرد في ذكر بقية مواقيت أهل الأمصار الأخرى ، وذكر الروايات الواردة في ذلك . ثم انتهز الفرصة ، فاستطرد متحدثاً عن مناسك الحج (فرائض ، وواجبات ، وسننا) . وبعد أن استطرد ، آب إلى نفسه قائلاً : نرجع - الآن - إلى وصف مدائن هذه الكورة ونواحيها(١٩٧) . (يقصد كورة الحجاز) ؛ لأنه قسم شبه الجزيرة إلى اربع كور : الحجاز ، واليمن، وعمان ، وهجر)(١٩٨) . وكذلك أفاض - قبل ذلك الموضع بعض الشيء - في ذكر مدن كور إقليم (شبه الجزيرة) ، ثم قال : الآن نرجع إلى وصف ما أمكن من بلدان الكور ، وندع ما لا فائدة فيه(١٩٩) .

(جـ) مجانبة الحياد والموضوعية ، والوقوع في التناقض والغموض :

مما يحسب للمقدسي في كتابه أنه أعطانا صورة شاملة متكاملة في دراسة جيدة متميزة لأقاليم العرب ؛ إلا أنه جانبه التوفيق ، وتجاوز الحياد الواجب ، وظهر منه شيء من التحيز نحو العلماء عامة والفقهاء منهم خاصة . وخير مثال على ذلك قوله : (وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدن فأهل العلم والأدب عنه بمعزل ، خاصة الفقهاء ؛ لأني رأيت الفضل فيهم)(٢٠٠) . وواضح أن الرجل - هنا - يلجأ إلى تعميم الأحكام ، وهذا يبعده عن الموضوعية ؛ إذ إن لكل قاعدة شواذ ، فلا نستطيع تبرئه كل المنتسبين إلى العلم والفقه من العيوب والمذمات . وكذلك يؤخذ عليه كثرة استخدام صيغة (أفعل التفضيل) في مجال المدح(٢٠١) ، واستخدامها بعيداً عن التفصيل - في مجال الذم(٢٠٢) ، مما كان الأولى الاحتراز منه . وثمة نماذج أخرى : نأى الرجل فيها عن (الموضوعية) ، وذلك عندما خصص فقرة تقريباً عن عجائب كل إقليم شرح لنا جغرافيته . يلاحظ أنه لم يذكر أسانيد بعض تلك المرويات المتصلة بهذه العجائب ؛ اعتماداً على اشتهارها وذيوع الحديث عنها في الأقاليم التي زارها . وبالنظر إلى مجموع هذه العجائب نجدها كثيرة ، وكنا نود أن يتحقق من مدى صدقها ، وألا يترك واحدة منها غفلاً من التعليق . ومن تلك العجائب ما ورد في (إقليم أقور) عن دير الكلب الموجود

بأرض الموصل ، حيث يحمل إليه من عضه كلب عقور ، فيقيم خمسين يوماً عند رهبانه ، فيبرأ ، بإذن الله تعالى(٢٠٣) . وكذلك عين الماء التى من شرب منها مات بعد ثلاثة أيام(٢٠٤) . وأيضاً منارة الإسكندرية التى يقال : إنها من عمل الأنبياء ، وكان الناظر فيها يبصر مراكب العدو ، فيخبر أمير البلد بذلك ، ثم احتال الروم ، فذهبوا بها ، أو كسروها(٢٠٥) .

ويعلق د. حسين مؤنس(٢٠٦) على ورود تلك العجائب ، وأخبار المستبعدات وأوصافها فى الكتب ، بأن ذلك راجع إلى ولع أصحابها آنذاك بذكرها ، وسذاجة فى تصوراتهم ؛ إذ يسارعون فى تصديق ما يسمعون ، ويبالغون فى تصوير ما يجاوز المعقول ، رغم أنهم لدينا من أهل الثقة والصدق ، ويؤكدون أنهم رأوا وشاهدوا ما يصفون . وذلك كله نابع من إحساس غير صادق ولا دقيق لديهم ؛ رغبة فى تشويق السامعين ، ولفت انتباه المتلقين عن نيه حسنة ورغبة ساذجة فى المتعة والتسلية . والحق أن ذلك التفسير عام ، ويغلب على ظنى أنه لا ينطبق على المقدسى تمام الانطباق ، فلم يكن الرجل بمثل هذه السذاجة ، ثم إنه ينقل لنا ما شاع وذاع فى البلد الذى يتحدث عنه ، أو ما طالعه فى بعض الكتب ذاكراً رأيه أحياناً بالموافقة(٢٠٧) ، أو المخالفة(٢٠٨) . وأخيراً فإننى أرى أن هناك حلقة مفقودة فى مثل روايات العجائب السابقة ، فمثلاً : من عضه كلب عقور ، لعل ذهابه إلى هذا الدير كان للاستشفاء على يد بعض الرهبان الأطباء طيلة الفترة المذكورة . وقد يكون الماء الذى يموت منه شاربه مسموماً ، أودى بحياة بعض شاربيه بعد فترة قصيرة ، فشاع بين الناس خبره . وقد تكون منارة الإسكندرية اخترعت وفق نظام هندسى معين - والإسكندرية مشهورة بعلمائها منذ القديم - بحيث تؤدى الغرض الدفاعى منها . إذا هناك تفسيرات لم ينقب المصنفون عنها ، مكتفين بما سمعوا ، أو قرأوا ، ولعلهم لو دققوا البحث ، واستقصوا الظاهرة ، لتوصلوا إلى نتائج طيبة .

وأخيراً ، فإن المقدسى كان - أحياناً - يأتى بالشىء ، ثم يذكر نقيضه بعد قليل ، فيوقعنا بين أمرين : إما أننا لم نفهم مراده حق الفهم ، فنتهم أنفسنا

بالقصور ونتهمه بالغموض ، وإما أنه لم ينقح هذا الجـزء جيداً ، فـأتى علـى هـذا النحو من التضارب والتناقض (كما هو الحال فى حديثه عـن أهـل حمـص[٢٠٩] ، وبلدة بيت المقدس)[٢١٠] .

٤ – المادة التاريخية : عرض ، وتحليل :

أحـاول – خـلال الصفحـات التاليـة – رصـد المـادة التاريخيـة التقليدية (الأحـداث السياسية خاصة) ، التى أوردها فى القسم الأول من كتابـه : (أحسن التقاسيم) ، فـأقوم بعرضها ، والتعليق على ما يتيسر لى منها . ثم بعدها أذكـر مجمـل المـادة التاريخيـة غـير التقليدية الموجودة فى القسم نفسه (بجوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى جانب ملمح من ملامح العلاقات الدولية) ، باعتبارها مادة جديدة وغزيـرة ، يصعب رصد كافة جزئياتها ، أو الحكم عليهـا ، وإنما نثبت بهـا مع سـابقتها . أن (أحسـن التقاسيم) – فى شقه الأول – يعد – بحق – مصدراً من مصـادر (تـاريخ العرب) ؛ إذ يجد فيه الباحثون مادة جديدة فى مصـدر غـير تقليـدى (جغرافـى فـى الأسـاس) ، تعينهم على كتابة تواريخ أقاليم العرب بصورة شاملة متكاملة ما أمكن ، وتسـد بعض النقص فى مصادر التاريخ المعروفة .

أولاً : المادة التاريخية التقليدية :

(أ) **حادثة ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق** : ساق المقدسى ذلك الحدث، وهـو يتحدث عن (إقليم شبه الجزيرة) ، وبالتحديد عند تناوله (مكة) ، وأشـار إلى إدخال ابن الزبير – قبلها – عشرة من مشايخ الصحابة ، حتى سمعـوا مـن عائشة ما روته عن الرسول ، مـن أن (الحجـر) جزء مـن (البيـت) ، وأن قريشاً لم تدخله فى بنائه ؛ لقصور النفقة عـن ذلـك ، وأن الرسـول ﷺ كـان يرغب فى إعادة بناء الكعبة ، وإدخال الحجـر فيهـا لـولا أنهـم حديثـو عهـد بالجاهلية . ومن هنـا فـإن ابن الزبـير أصر علـى تنفيـذ مـا كـان يتطلـع إليه الرسول، وقد اجتمع الناس وخشوا عاقبة الإقدام على ذلك ؛ خشـية أن يحـل

بهم العذاب ، لكن أبن الزبير أعاد بناءها على ما حكت عائشة ، وكان فى ذلك الخير وسكن الناس .

فلما قدم الحجاج ، تحصن ابن الزبير بالكعبة ، فأمر الحجاج بوضع المنجنيق على (جبل أبى قبيس) بمكة ، وقال : أرموا الزيادة التى ابتدعها هذا ، فرموا موضع الحطيم ، وتم إخراج ابن الزبير بعد قتله ، فصلب . وأعاد الحجاج الحائط ، كما كان قديماً ، وأخذ بقية الأحجار ، فسد بها الباب الغربى ، ورصف بقيتها فى البيت ؛ كى لا تضيع(٢١١) .

(ب) فى حديثه عن (المدينة) ذكر (جبل أحد) ، وبين أن به موضعاً ، اختبأ فيه النبى ﷺ ، باعتباره أقرب الجبال إلى المدينة(٢١٢) .

(جـ) فى (إقليم شبه الجزيرة) ، وعند تناوله مدينة (صحار) ، قال المقدسى : هى قصبة عمان . ثم قال : بها مسجد صحار على نصف فرسخ . ثم (هناك) بركت ناقة الرسول وقد بنى المسجد أحسن بناء(٢١٣) .

(د) الأحساء : قصبة هجر (البحرين) . بها مستقر القرامطة من آل أبى سعيد. ثم نظر وعدل ، غير أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدى ، وخزائن أخرى أيضاً ، فبعض الأموال بتلك ، بوقيته فى خزائنهم(٢١٤) .

(هـ) أهم حكام شبه الجزيرة : هى أبداً لصاحب مصر ، لأجل الميرة . واليمن . لآل زياد ، وأصلهم من (همدان) . وعلى صنعاء أمير غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ؛ ليخطب له . وربما أخرجت عدن عن ايديهم . وآل قحطان فى (الجبال) ، وهم أقدم ملوك اليمن . والعلوية على (صعدة) يخطبون لآل زياد . وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى (الأحقاف) أمير منهم(٢١٥) .

(و) فى إقليم العراق : قال المقدسى : هى مستقر خلفاء ولد العباس ، وظل الأمر أمرهم حتى ضعفوا ، وغلب عليهم الديلم . والآن لا يرون ، ولا

يلتفت إلى رأيهم . ثم ذكر خلفاء العباسيين ، وبداية ونهاية حكم كل منهم ، ومكان وفاة بعضهم ، وعدداً كبيراً من قضاتهم . ووصل فى الخلفاء حتى (الطائع لله) . ثم قال : وأول من استولى من الديلم : أبو الحسن ابن بويه ، ثم ابنه (بختيار) ، ثم عضد الدولة ، ثم ابنه بلكارزار ، ثم ابنه الأكبر (أبو الفوارس)(٢١٦) .

(ز) وفى (إقليم الشام) : اكتفى بقوله : والولايات لصاحب مصر ، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه(٢١٧) .

(ح) وفى إقليم (مصر) قال : وأما الولايات ، فللفاطمى(٢١٨) .

(ط) وفى إقليم (المغرب) قال المقدسى : وأما الولايات ، فلم يخطب لغير بنى أمية بالأندلس قط .

وأما السوس الأقصى ، فأول من غلب هناك (إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب) ، وذلك أن إدريس أفلت من وقعة من وقعة العباسيين بالطالبيين بـ (فخ) فى خلافة الهادى ، وأتى إلى مصر فساعده صاحب بريدها (واضح مولى المنصور) الشيعى ، فحمله على البريد إلى المغرب بـ (طنجة) ، فاستجيب لدعوته هناك . وقام الرشيد فى خلافته بضرب عنق (واضح) ، وصلبه . ثم دس إلى إدريس رجلاً ، يدعى الشماخ (مولى المهدى) ، وكتب له كتاباً إلى عامله (إبراهيم بن الأغلب) على إفريقية ، فخرج حتى وصل إلى (زويلة) ، وأعلمهم أنه طبيب ، وأنه من أوليائهم . فاطمأن إليه إدريس، ثم شكا له علة فى أسنانه فأعطاه ما يستن به مسموماً ليلاً ، وأمره باستخدامه عند الفجر . فقتل إدريس ، ولم يلحق بالشماخ ، فولاه الرشيد بريد مصر(٢١٩) .

* ملاحظات على ما تيسر من المادة التاريخية التقليدية السابقة :

١ - المعلومات الواردة مختصرة وسريعة ، فهى لم تقصد لذاتها ، وإنما أتت عرضاً أثناء دراسة الأقاليم الجغرافية الشاملة ، فرأى المقدسى أن يتحدث عن حكام كل إقليم بسرعة ولذلك فهى ليست تاريخاً مفصلاً ، لكنها كتابات طالت شيئاً ما عند خلفاء العباسيين بالعراق ، بينما تضاءلت جداً عند تناول إقليمى (الشام ، ومصر) ، وكأنه اكتفى فيهما بالإشارة إلى القوى التى حكمتهما مؤخراً . بينما أتى حديث المقدسى عن حكام (شبه الجزيرة) خالياً من ذكر مواقيت ولاياتهم مقتضبا . وبخصوص المغرب فقد عاد إلى بدايات حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وأشار إلى سيطرة بنى أمية على الأندلس .

٢ - بعض المعلومات التاريخية الواردة تلقى ظلالاً جديدة على بعض الأحداث ، فالحجاج لم يهدم الكعبة ويضربها بالمنجنيق لذات الهدم والتخريب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة ما أحدثه عبد الله بن الزبير من تعديل على بنيانها ؛ نكاية فى خصمه اللدود . ولا شك فى أن الحجاج كان يهدف من الضرب - ايضاً - إجبار ابن الزبير على الاستسلام . وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى : أن الحجاج نصب المنجنيق على (ابى قبيس) ؛ ليضرب ابن الزبير ، وأهل المسجد المتحصنين بالكعبة ، فنالها شر حتى مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م(٢٢٠) . ويتفق الطبرى مع هذا القول ، وتزيدنا روايته أن الحصار دام سبعة شهور ، وأن الرعد والبرق أصاباً مكة وبعض جند الشام مع الحجاج ، عندما سلط المنجنيق على الكعبة ، لكن الحجاج طمأن جنده بأن ما اصابهم يصيب عدوهم كذلك : فواصلوا الضرب(٢٢١) .

ويذكر لنا ابن كثير أن حجارة المنجنيق سقطت فى الكعبة ، وأن ابن الزبير قتل فى المسجد الحرام ، ودخلت جيوش الحجاج من أبواب المسجد(٢٢٢) .

ويضيف الطبرى قائلاً : إن الحجاج نقض بنيان الكعبة ، الذى كان بناه ابن الزبير، لما أدخل الحجر فى الكعبة ، وجعل لها بابين ، فأعادها الحجاج إلى بنائها الأول سنة ٧٤هـ/٦٩٣م(٢٢٣) .

٣ - بعض المعلومات المذكورة مخالف للمعروف المتواتر ، فناقة رسول الله لم تبرك قرب مسجد صحار بعمان وإنما بركت بالمدينة عند دار بنى مالك بن النجار ، وذلك فى مكان مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار(٢٢٤) . وكذلك لم يؤثر أن الرسول ﷺ اختبأ فى جبل أحد ، وإنما كان الجبل فى ظهر جيش المسلمين، ووضع الرسول عليه الرماة ؛ حماية لظهورهم من خيل عدوهم(٢٢٥) . وبخصوص كلام المقدسى عن (القرامطة) ، فمن الواضح الربط بينهم وبين الفاطميين ، لكن غير المفهوم أن يذكر المقدسى أن دولتهم بالبحرين كان بها نظر وعدل ، ولا أدرى كيف يتأتى ذلك وأحكام الشرع معطلة ، وانحرافاتهم على أشدها ، وقد قال المقدسى نفسه : إن الجامع هناك معطل ؟!

٤ - بالنسبة لفرار إدريس إلى مصر ، فقد ذكر المقدسى إن إدريس نزل على واضح (مولى المنصور) ، الذى سهل له مهمة الانتقال إلى المغرب . وبالعودة إلى (تاريخ الطبرى)(٢٢٦) . تبين أن (واضحاً) هذا هو (مولى صالح ابن المنصور) ، وأنه كان رافضياً خبيثاً . وقد قال بنسب (واضح) السابق ابن عذارى أيضاً(٢٢٧) ، خلافاً لما قاله المقدسى . ويلاحظ أن المقدسى ذكر أن واضحاً حمل إدريس على البريد حتى نزل به (زويلة) بالمغرب . والصواب ما ذكره الطبرى(٢٢٨) ، وابن عذارى(٢٢٩) : أنه نزل (وليلة)(٢٣٠) . وقد ذكر المقدسى أن الشماخ كوفىء بتوليته بريد مصر ، وهى معلومة صحيحة ، وردت لدى الطبرى(٢٣١) من قبل ، وابن عذارى من بعد(٢٣٢) .

٥ - إذا ألقينا نظرة فاحصة على المادة التاريخية ، التى أوردها المقدسى عن (الخلافة العباسية) ، والحكام الديلم (البويهيين) ؛ فإننا نخرج بعدة ملاحظات على النحو الآتى :

(أ) ورد نسب الخليفة العباسى السفاح فى كتاب المقدسى هكذا : (عبد الله بن محمد بن على بن العباس)[٢٣٣] . وبالعودة إلى الطبرى ، وجدت أن الصواب كالأتى : (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس)[٢٣٤] .

(ب) أسقط المقدسى الخليفة (المهتدى) ، فلم يذكره ، رغم أنه ولى الخلافة بين (المعتز والمعتمد)[٢٣٥] ، من شهر رجب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، حتى عزل وتوفى فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ٨٦٩م[٢٣٦] . ومن قبل لم يذكر خلافة (الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ/ ٨٠٨ - ٨١٣م ، واكتفى بالإشارة إلى خروج أخيه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م) عليه ، وقتله إياه[٢٣٧].

(جـ) وقع خلل فى نسبة بعض الخلفاء لمن قبلهم : فمثلاً : قال المقدسى بعد مقتل المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) : فبويع لابنه أبى العباس أحمد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م)[٢٣٨] . والصواب : فبويع لعمه (أحمد بن المعتصم) ؛ لأن الأتراك - بعد مقتل المتوكل ، وابنه المنتصر على أيديهم - خشوا أن يلى أحد أبناء المتوكل ، فلا تبقى لهم باقية ، فولوا ابن أستاذهم (أحمد بن المعتصم)[٢٣٩] .

وأيضاً وقع خلط عندما قال المقدسى بعد وفاة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) :

ثم بويع لابنه أبى العباس (أحمد بن ابى أحمد المعتضد)[٢٤٠] . والصواب : بويع لابن أخيه الموفق : فالموفق يكنى أبا أحمد ، والذى ولى هو ابنه أبو العباس[٢٤١] .

وكذلك وقع خطأ فى قول المقدسى بعد وفاة المكتفى (٢٨٩ -٢٩٥هـ/ ٩٠١ - ٩٠٧م) ، حين قال : ثم بويع ابنه (أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٢٩٥- ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م[٢٤٢] . والصواب : ثم بويع أخوه (جعفر بن المعتضد بالله)[٢٤٣] ؛ لأن المقتدر والمكتفى أخوان ، فهما ابنا الخليفة (المعتضد).

(د) بالنسبة لذكر الخلفاء العباسيين : فإننا نلاحظ عدم ذكر قضاة (الأمين، والمهتدى) ، فهماً لم يذكرا أصلاً ، ومن ثم لم يشر المقدسى لقضاتهما ، وكذلك لم يشر إلى قضاة الخلفاء : القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣م ، والراضى ٣٢٢ - ٣٢٩هـ / ٩٣٣ - ٩٤٠م ، والمتقى ٣٢٩ - ٣٣٣هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤م. وأيضاً الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٥ - ٩٧٣م)[٢٤٤] .

وجدير بالذكر أن المقدسى كان يذكر أكثر من قاض فى عهد الخليفة الواحد عند تعددهم ، لكنى أرصد الملاحظات الآتية :

١ - أن الاسم الصحيح لجد قاضى المهدى (محمد بن عبد الله بن علاقة) هو (علاثة)[٢٤٥] .

٢ - أن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ١١٣ - ١٨٣هـ / ٧٣١ - ٧٩٨م) قاضى القضاة المشهور لم يكن أحد قاضين ولاهما الخليفة الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) فقط[٢٤٦] ، وإنما الصحيح : أنه ولى القضاء لثلاثة من خلفاء بنى العباس (المهدى ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥هـ ، والهادى ، والرشيد ١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م)[٢٤٧] .

٣ - أن ابن أبى الشوارب (الحسن بن محمد بن أبى الشوارب) كان قاضياً للمعتز ، كما ذكر المقدسى ، لكن الأخير عاد وجعله قاضياً للمعتمد[٢٤٨] . وقد وجدت لدى الطبرى أن هذا الرجل حبس أواخر عهد المهتدى ، وولى مكانه (عبد الرحمن بن نائل البصرى) قضاء سامرا[٢٤٩] .

ثم وجدت له ذكراً ثانياً سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م أيام (المعتمد) عند إعطائه نسخه من كتابه ولاية العهد ؛ ليقوم بتعليقه فى الكعبة[٢٥٠] . فلعله أعيد للقضاء ثانية . وعلى كل فقد وافته المنية فى العام نفسه[٢٥١] .

(هـ) وأخيراً ، فبالنسبة لحكام الديلم ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين إبان ضعفهم فلى عدة ملاحظات هى :

١ - ذكر المقدسى أن أول من استولى من الديلم (أبو الحسن بن بويه ، ثم ابنه بختيار) . والصواب : أول من استولى من الديلم (البويهيين) على العراق هو أبو الحسين بن بويه(٢٥٢) ؛ حتى يصح أن يكون الحاكم بعده ابنه (بختيار) المذكور(٢٥٣) .

٢ - ما ذكره المقدسى عن ولاية (عضد الدولة) (٢٥٤) حكم العراق بعد (بختيار) صحيح . أما ابن عضد الدولة (بلكارزار) هذا ، الذى ولى بعد أبيه ، فلم أقف عليه فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - وبخصوص أبى الفوارس (الابن الأكبر لعضد الدولة) ، فاعتقد أنه هو الذى أشار إليه ابن الأثير ، وقال : هو شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة . ولى العراق سنتين ، وثمانية أشهر ، وأياماً ، وتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ(٢٥٥) .

ثانياً : مجمل المادة التاريخية غير التقليدية :

بعد أن استعرضنا المادة التاريخية الواردة فى القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، وكانت تتعلق - فى غالبها - بالجانب السياسى ، ننتقل إلى أبرز معالم المادة التاريخية غير التقليدية ، التى يمكن أن تخدم الباحثين فى مجال التاريخ وهى على النحو الآتى :

١ - فى المجال الاقتصادى : اهتم المقدسى برصد العديد من المظاهر الاقتصادية فى (**أقاليم بلاد العرب**) كما يلى :

(أ) **فى مجال الزراعة** : اهتم الرجل بالحديث عن الكثير من النواحى المرتبطة بالمجال الزراعى ، مثل : ذكر الأنهار الموجودة فى الأقاليم الجغرافية ، التى قام بالتعريف بها والتى تروى الأراضى الزراعية عن طريقها ، وكذلك طرق الرى المستخدمة كالسدود المقامة على بعض الأنهار(٣٥٦) ، والاستفادة من ظاهرة المد والجزر(٣٥٧) . وأشار - أيضاً - إلى مصادر الرى الأخرى ، مثل : الآبار العذبة ،

والعيون ، والبرك العظيمة ، والقنوات(٢٥٨) . ولم يفت المقدسى الاهتمام بالإشارة إلى المقاييس المقامة على الأنهار(٢٥٩) ، باعتبارها خطوة مهمة متقدمة ، تبرز مدى الاهتمام بكمية المياه الواردة إلى الأنهار الكبيرة ، لتوسيع الرقعة الزراعية التى يمكن استغلالها ، ويحقق عدالة توزيع المياه بين الناس ، وتجنب حدوث الكوارث بالاحتياط لها(٢٦٠) . وأخيراً ، تناول المقدسى بالذكر المحاصيل الزراعية التى تجود زراعتها فى أقاليم العرب المختلفة من حبوب ، وبقول ، وخضراوات ، وفواكه على مختلف أنواعها ، ذاكراً ما تشتهر به المدن المختلفة ، والظروف المناخية ووسائل الرى الملائمة لذلك(٢٦١) .

(ب) فى مجال الثورة الحيوانية : أورد المقدسى بعض المعلومات المتصلة بالنشاط السكانى فى أقاليم العرب ، فذكر الخيول ، والأغنام ، والأنعام ، والأسماك ، وبعض أنواع الطيور(٢٦٢) ، إلى جانب الإشارة إلى بعض التماسيح الموجودة فى بعض المناطق(٢٦٣) .

(جـ) فى مجال الصناعة : أطلع المقدسى على عدد من الثروات المعدنية التى تحويها أقاليم العرب ، مثل : الذهب والحديد والفضة ، والرخام ، واللؤلؤ ، والمرجان(٢٦٤) . وقد قامت بتلك الأقاليم عدد من الصناعات اليدوية كالمنسوجات والملابس خاصة الثياب الصوفية الرفيعة ، والأردية الملونة ، والستور، والأنماط(٢٦٥) . وكذلك وجدت صناعة الأرحية ، التى أقيمت على أفواه الأنهار، وتدار بوسطة المياه(٢٦٦) . وفى البلدان التى راجت فيها زراعة الزيتون ، أقيمت معاصر الزيوت . ويضاف إلى ذلك صناعة الصابون الجيد ، والمكاتل ، والسلاسل، والسيور الجلدية ، والأقلام والشمع ، والحلوى(٢٦٨) .

(د) فى العمران : أكثر المقدسى من الاهتمام بمظاهر العمران فى أقاليم العرب ، وسجل لنا العديد من شواهد ذلك فى وصف بارع دقيق . ولا شك أن نبوغ جده وعمه فى الفن المعمارى كان له تأثيره فى رؤية المقدسى الثاقبة لفنون المعمار فى الأقاليم التى زارها وكتب عنها . اهتم المقدسى فى كتابه بالإشارة إلى

قيام المدن (مثل : بغداد ، وسامرا) ، والعوامل المساعدة على قيامها (بيئية ، وزراعية ، ودينية ، وإدارية ، ومناخية ، ودفاعية وتجارية ، وغيرها) . وكذلك أهتم بإبراز عوامل ضعف المدن وانهيارها كتحول مركز الدولة عنها ، وضعف الخلفاء وسوء الإدارة ، وغير ذلك[٢٦٨] . ولا شك فى أن المساجد باعتبارها فنوناً معمارية مهمة جذبت انتباه المقدسى بتميزها وفخامتها ، فقام بوصف العديد منها كالمسجد الحرام بمكة وتطورات زيادة مساحته[٢٦٩] ، والمسجد النبوى بالمدينة[٢٧٠] ، وبيت المقدس بفلسطين[٢٧١] ، والجامع الأموى بدمشق[٢٧٢] ، وجامع عمرو بن العاص فى مصر[٢٧٣] .

(هـ) التجارة : تطرق المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) إلى ذكر مختلف أنواع الصادرات والواردات المتبادلة بين أقاليم العرب من مصنوعات جلدية، وغزل ونسيج ، ومواد غذائية ، وجلود ، ومنتجات حيوانية وصناعات معدنية ، وزيتية ، وغيرها[٣٧٤] . ولا شك فى أن الترابط والتكامل كان قائماً بين هاتيك الأقاليم من خلال الأسواق الداخلية ، وشبكة المواصلات البرية الرابطة بين مختلف الأجزاء والبلدان[٢٧٥] ، وكان المقدسى حريصاً على بيانها مع نهاية حديثه عن كل من هذه الأقاليم . ولا شك فى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع بالرخاء، ويدخل خزينتها أموال طائلة من جراء هذا التبادل التجارى ، إلى جانب مصادر الدخل الأخرى من خراج وجزية وضرائب أخرى[٢٧٦] . ونعتقد ومن خلال الصورة التى نقلها المقدسى – أن الرخاء كان منتشراً فى عدد غير قليل من تلك الأقاليم إذ كانت أسعار السلع رخيصة على نحو ما لمس المقدسى بنفسه ، مثل : أسعار اللحوم ، والتمور ، والتين ، والزبيب ، والأعناب ، والزيتون ، وغيرها[٢٧٧]. وأخيراً ، حوى كتاب المقدسى الكثير عن المكاييل والأوزان ، والنقد المستعمل فى الأقاليم العربية التى درسها[٢٧٨] .

٢ – فى الناحية الاجتماعية : سلط المقدسى الأضواء على حياة سكان الأقاليم العربية المختلفة من كافة زواياها بشكل يدعو إلى الإعجاب والانبهار .

فأهتم بالحديث عن عناصر السكان الغالبة على بعض الأقاليم(٢٨٠) وذكر حرفهم وأنشطتهم وأعطانا صورة واضحة لدورهم وأماكن سكناهم ، وعدد سكان الدار الواحدة(٢٨١) . واهتم بدراسة نفسيات شعوب هذه الأقاليم ، وطبائعهم ، وأخلاقياتهم وسلوكياتهم بإيجابياتها وسلبياتها(٢٨٢) . وتعرض ايضاً - للحديث عن عاداتهم وتقاليدهم المتبعة فى حياتهم ، وأحوال حماماتهم(٢٨٣) ، والإضاءة فى مساجدهم(٢٨٤) . وكذلك اهتم بأزيائهم وملابسهم التى يرتدونها(٢٨٥) ، وبمظاهر احتفالاتهم وأعيادهم(٢٨٦) ، ومستوى معيشتهم(٢٨٧) .

٣ - فى الناحية الثقافية : حرص المقدسى على دراسة الأوضاع الفكرية والثقافية بعامة فى كافة الأقاليم الجغرافية التى تعرض لها ، فدرس المذاهب الدينية الموجودة ، واتجاهات الفقهاء ، وأحوال الفرق الدينية الموجودة(٢٨٨) ، وعلماء القراءات(٢٨٩) ، ومظاهر الخلافات والصراعات بين أتباع الشيعة والسنة(٢٩٠) ، إلى جانب تركيز الأضواء على أهل الذمة الموجودين فى كل إقليم (من يهود ، ونصارى ، ومجوس)(٢٩١) . ويضاف إلى ذلك - اهتمامه بأحوال العلم فى الإقليم ومدى توافر حلقاته فى المساجد(٢٩٢) . وأخيراً ، فقد كان يركز على بيان الأوضاع اللغوية فى الأقاليم(٢٩٣) ، ومدى قوة وازدهار الواقع اللغوى ، وفصاحة ألسن سكانه من عدمها .

٤ - وأخيراً ملمح من ملامح العلاقات الدولية : وتمثل فى معلومات جديدة عن تفاصيل عمليات تبادل الأسرى بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، ومراسم الفداء بالشام(٢٩٤) ، وتتبع أحوال هؤلاء الأسرى من المسلمين فى القسطنطينية(٢٩٥) .

وبعد فقد انتهينا - بعد هذا التطواف الكبير - من دراسة القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، فبينا موضوعاته ، وأقسام موارده ، ومنهجه فى التناول بإيجابياته وسلبياته . وأخيراً ، عرضنا وحللنا - ما أمكن - المادة التاريخية التقليدية لديه ، وعرضنا جوانب المادة التاريخية غير التقليدية (اقتصادياً ،

واجتماعيا، وثقافيا ، وجانبا من العلاقات الدولية) فى هذا القسم ؛ كى نصل - فى النهاية - إلى قناعة بأننا أمام مصدر جديد من مصادر تاريخ العرب .

وقد يرى البعض أن هذا المصدر مساعد وغير أصيل فى باب (التاريخ). ونرد بأن المهم أنه بمنهجه المتميز ، وبمادته المبثوثة فى ثناياه ، به من المادة التاريخية الجديدة ربما ما لا نجده فى كتب التاريخ العام الأصيلة . وثمة ملاحظة أخرى ، وهى أن (أحسن التقاسيم) لم ينقل عنه المؤرخون . والحق أننى وقفت على نقول منه لدى ياقوت صاحب (معجم البلدان) فى عدة مواضع جغرافية بالطبع(٢٩٦) ، إذ لم يفطن الأقدمون إلى أهميته التاريخية .

والخلاصة :

١ - أننا أمام باحث جاد ، وجغرافى بلغ أعلى درجة فى وصف البلدان بعد طول الارتحال(٢٩٧) ، وكثرة الإطلاع ، وهو - أيضاً باحث ناقد يتحرى تمحيص ما ينقل(٢٩٨) .

٢ - أننا أمام باحث موسوعى الثقافة منهجى التفكير ، استطاع أن يصهر عناصر ثقافته فى بوتقه مؤلفه ، ونجح فى عرض جغرافى شامل متميز ، حيث تركنا وكأننا نعايش هذه البلدان ، ونعاصر ما فيها (بعد أن عالجها من كافة زواياها) .

٣ - أن الدراسة الشاملة التى قدمها المقدسى أعطتنا نموذجاً عملياً ناجحاً ، ومثلاً يحتذى فى التآزر والتناسق ، والتعاون والتكامل بين فروع المعرفة ؛ إذ نجح فى أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية ، فقدم للباحثين المعاصرين فى مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة ، تسد كثيرا من الثغرات الموجودة فى كتب التاريخ الأصيلة . ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب .

الهوامش

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس (ط٢ - ١٩٨٦م ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم) ص ١ .

(٢) أورد له ابن النديم عدة مؤلفات ، يمكن - من عناوينها - أن نعدها فى كتب الجغرافية مثل : (كتاب البلدان الصغير) ، و (كتاب البلدان الكبير) ، و(قسمة الأرضين) و (كتاب الأقاليم) . (الفهرست ، ط . دار المعرفة - بيروت) ص ١٤٢ .

(٣) راجع ترجمته فى (معجم الأدباء) لياقوت (ط٣ - دار الفكر ١٩٨٠م ، ١٥٤/٥) .

(٤) راجع ترجمته المفصلة الواردة فى (المصدر السابق) ٦٤/٣ - ٦٨ ، وكذلك دراسة كراتشكوفسكى عنه فى كتابه : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م) ١٩٧ - ١٩٩ (من الترجمة العربية لصلاح الدين عثمان هاشم) .

(٥) راجع الدراسة التى كتبها كراتشكوفسكى عنه فى (المرجع السابق) ١٩٩/١ - ٢٠١ . وتجدر الإشارة إلى أن مصنف الاصطخرى (المسالك والممالك) قد نشر فى سلسلة (تراثنا) ، التى كانت تصدرها (وزارة الثقافة والإرشادالقومى) بالقاهرة ، بتحقيق : دكتور محمد جابر الحينى سنة ١٩٦١م .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٧/١ .

(٧) كذا ضبط النسبة ابن خلكان فى (وفيات الأعيان ، طبعة دار صادر ، تحقيق د. إحسان عباس) جـ٣ ص ٢٩٢ ، وجعل النسبة إلى (بيت المقدس) . وكذا ذكر السمعانى فى (الأنساب ، ط دار الجنان - بيروت) جـ٥ ص ٣٦٣ ، زاد قائلاً بلدة (بيت المقدس) هى البلدة المشهورة ، التى ذكرها الله فى القرآن فى غير موضع ، وبها المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والمواضع الشريفة ، وإليها قبلة المسلمين سبعة عشر شهراً أول مقدم الرسول المدينة .

وتجدر الإشارة إلى وجود صيغة أخرى لهذه النسبة هى (المقدسى) . وقد أشار بروكلمان إلى استخدام (دى غويه) لهذه الصيغة فى نشرته لكتاب (أحسن التقاسيم).

ويضيف بروكلمان أن هذه ربما كان المقدسى نفسه يستخدمها ، بدليل ما ورد فى قصيدة له فى نهاية كتابه (ص ٣٧٣ ، ط . دار إحياء التراث العربى) ، حيث وصف كتابه بأنه (حكمة مقدسة) . (تاريخ الأدب العربى ، طبعة الهيئة العامة ، القسم الثانى ص ٦٦١ ، هامش١). والحق أن هاتين الكلمتين وردتا متفرقتين فى آخر بيتين من القصيدة المذكورة . لكنى أرى أن هذ التخريج بعيد . والصواب لدى أن كلتا الصيغتين صحيح ، فالمقدسى نسبة إلى (بيت المقدس) ، أى : البيت المطهر الذى يتطهر به من الذنوب . و (المقدسى): نسبة إلى (البيت المقدس) ، أى : المبارك ؛ لأن القدس تعنى البركة . (راجع مادة : المقدس فى (معجم البلدان) لياقوت ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) ١٩٣/٥ - ١٩٤ ، و(لسان العرب) لابن منظور (ط . دار المعارف) ، مادة (ق. د. س) جـ ٥ ص ٣٥٥٠، و(المعجم الوسيط ، ط٢ - مجمع اللغة العربية) جـ٢ ص ٧٤٦ .

(٨) كشف الظنون ، لحاج خليفة (طبعة دار العلوم الحديثة - بيروت) ١٦/١ .

(٩) ورد لقبه هذا فى (معجم البلدان) لياقوت ١٩٦/٥ ، لكنى لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لى من معاجم اللغة ، ومصادر الأنساب .

(١٠) أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ .

(١١) جعله د. فلاح شاكر والد المقدسى ، لا جده . (المقدسى ، طبعة دار الشئون الثقافية - بغداد ص ٧) . والصواب ما اثبت بالمتن .

(١٢) قال عنها المقدسى : مدينة حصينة على البحر ببلاد الشام ، كبيرة الجامع ، وبه غابة زيتون . وتم تحصينها فى عهد (أحمد بن طولون) بعد زيارته لها . (أحسن التقاسيم ص ١٤٢) .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) السابق : ص ٣٣٥ . وأرى أن سفر المقدسى ، وترحاله الطويل مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، إلى جانب ما عرفنا عن مكانة جده ، وامتلاك والده الغلمان ، كل ذلك يجعلنى أميل إلى جعل أسرته فى مصاف الأثرياء ، خلافاً لما رآه محرر مادة (المقدسى) من أن أسرته من الطبقة المتوسطة .

(M. Miquel : AL - Muk addasi, Published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492).

(١٥) أحسن التقاسيم : ص ٥٣ .

(١٦) كذا ضبطها ياقوت بالحروف ، وقال : هـى كـورة كبـيرة واسـعة ، تشـتمل علـى مـدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل حبال طبرستان ، وأكبر ما يكون فى ولاية ملكها قصبتهـا مشهورة هى (مامغان) ، ومن مدنها المشهورة (بيار) . (معجم البلدان ٤٧٠/٤) .

(١٧) أحسن التقاسيم ص ٢٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٦١ .

(١٩) السـابق ص ٢٣ (أيـام دولـة أمـير المؤمنـين أبـى بكـر عبـد الكريـم الطـائع لله ٣٦٣ - ٣٨١هـ) فى المشرق ، وأبى منصور نزار العزيز با لله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أمـير المؤمنـين بالمغرب) .

(٢٠) وقد نص على ذلك كراتشكوفسكى فـى (تـاريخ الأدب الجغرافـى العربـى) جــ١ ص ٢٠٩ ، ود. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ٧ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A vol. 7, 1985, P. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعـارف البريطانيـة) أشـارت إلى ذلـك التـاريخ بـالميلادى فقـط (946) . وبناء على ما تقدم ، فإن تحديد الزركلى ، وكحالـة تـاريخ ميـلاد المقدسـى بــ (سنة ٣٣٦هـ) تنقصه الدقة (الأعلام ، ط٩ ، دار العلم للملايين - بـيروت ، ١٩٩٠م) ٣١٢/٥ ، ومعجم المؤلفين (ط . مؤسسة الرسالة) ٥٢/٣ .

(٢١) الأعلام ٣١٢/٥ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492.

(٢٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢١٠ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985, p. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (1000) .

(٢٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس ص ١٠ .

(٢٤) المقدسى ، للدكتور فلاح شاكر ص ٨ .

(٢٥) والشيء نفسه يمكن أن يقال رداً على أن المقدسى توقف فى ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبى الفوارس بن عضد الدولة) المتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (الكامل لابن الأثير ، ط. دار الكتب العلمية) جـ٧ ص ٤٣٦.

(٢٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York) , vol.7, 1993, p. 493.

(٢٧) أحسن التقاسيم ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢١٥ .

(٣٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص١٠ .

(٣١) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ . والملاحظ أن كلمة (نسيج) الواردة فى النص قد حرفت إلى (تسبح) ، ولم يصوبها المحقق (د. محمد مخزوم) . ومن قبل قرأها كراتشكوفسكى (تسبح)، كما ورد فى الأصل ، لكن المترجم صوبها . (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١١/١ (راجع الهامش) .

(٣٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٢ – ٣٧٣ .

(٣٣) هو كراتشكوفسكى فى كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٥/١ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ص ٢١ .

(٣٥) تمام الآية : (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . (سورة الأنعام ٦ الآية ١١) .

(٣٦) تتمة الجملة من الآية : (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . (سورة يوسف ١٢ / من الآية ١٠٩) .

(٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

(٣٨) مما أخذه على السابقين نقلهم الكثير عن كتب سبقتهم (كما هو الحال فى احتواء كتاب الجيهانى على جميع أصل ابن خرداذبه) . (راجع المزيد عن ذلك فى المصدر السابق ، والصفحة نفسها) .

(٣٩) مثل قوله عن (ابى زيد البلخى) فى أحد المواضع : أما أبو زيد ، فهو إمام فى هذا العلم ، خاصة فى إقليمه . (السابق ص ٧٣) .

(٤٠) السابق ص ١١٣ .

(٤١) السابق ٢٠٨ .

(٤٢) السابق ص ٩٣ .

(٤٣) السابق ص ٣٧٢ .

(٤٤) السابق ص١٦ - ١٧ . ويمكن مراجعة المزيد عن كثرة رحلاته ، والبلدان التى حل بها حتى نسب إليها (ص ٤٩ - ٥١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩١ -٩٢ ، ٩٥) .

(٤٥) يرى الدكتور مؤنس أن الرحلة فى ذاتها لم تكن من مواضع الفخر فى تلك العصور . ثم يستثنى قائلاً : اللهم إلا إذا كانت رحلة حج ، أو رحلة لقاء شيوخ ، وسماع منهم (تاريخ الجغرفية والجغرافيين فى الأندلس) ص ٤١٧ . وفى ص ٣٢٤ : يرى أن هذه الرحلات كانت جزءاً من ذلك النزوع العلمى ، الذى ملأ قلوب أمة العرب فى عصور النشاط والازدهار العلمى .

والحق أننى إذا كنت أوافق على الشطر الأخير من كلامه ، فإن لى تحفظاً على شطره الأول ؛ لأن تجشم مشاق الحج آنذاك بما كان يكتنف رحلاته من مخاطر جمة لم يكن - أيضاً - دافعه الفخر . والشىء نفسه يقال عن رحلات طلاب العلم ، وإذا كان بعضهم يذكر كثرة رحلاته وشيوخه ، فلأن ذلك مرتبط بوثاقة الرواية عموماً ، ورواية الحديث النبوى على وجه الخصوص ، اللهم إلا إذا وجد كذابون مدلسون ، فهذا موضوع آخر .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤٧) سوف أغفل الحديث عن (ثقافته التاريخية) ؛ لأنى سأتناولها فى مبحث خاص بها فى نهاية البحث ، حيث يتم رصد ما يتيسر لى من (المادة التاريخية التقليدية ، وغير التقليدية) فى القسم الأول من الكتاب الذى ندرسه (أحسن التقاسيم) .

(٤٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢١٤ .

(٤٩) أحسن التقاسيم ص ١٥ .

(٥٠) المصدر السابق ص١٦ .

(٥١) السابق ص١١٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً نقول : كركر فلاناً عن الشىء :دفعه ورده وكركر الشىء : أعاده مرة بعد أخرى . (اللسان ، مادة : ك . ر. ر) ٣٨٥٢/٥ ، والمعجم الوسيط (مادة : ك . ر . ك. ر) ٨١٥/٢ .

(٥٢) احسن التقاسيم ص ١٤٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً وجدت أن الهواء السجسج هو المعتدل الطيب ، والأرض السجسج لا سهلة ولا صلبة . والجمع : سجاسج (اللسان ، مادة : س. ج. س. ج) حـ٣ ص ١٩٣٩ ، و(المعجم الوسيط ، مادة) س. ج. س. ج) ٤٣٣/١.

(٥٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٨ . وديار معناها : أحد . نقول : ما بالدار ديار . قال الله (تعالى) : ﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾(سورة نوح : ٧١ الآية ٢٦) . راجع المعنى اللغوى فى (اللسان ، مادة : د . و . ر) حـ٢ ص ١٤٥٢ ، و(المعجم الوسيط) ٣١٣/١ .

(٥٤) أحسن التقاسيم ص ٩٤ .

(٥٥) راجع المصدر السابق ص٧٩ .

(٥٦) هناك شعر يحفظه ويرويه (راجع السابق ص ١٤٠) ، إلى جانب شعر نظمه فى كتابه (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) وفيها تختلف الأسماء المطلقة على المدلول الواحد (مثل : لحام ، وجزار ، وقصاب - وقطة، وهرة ، وسنور) (السابق ص ٣٩) .

(٥٨) راجع السابق ص٣٥ - ٣٩ تحت عنوان : (ذكر الأسامى واختلافها) .

(٥٩) السابق ص ٣٥ .

(٦٠) السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

(٦١) السابق ص ١٢٦ .

(٦٢) السابق ص ١٧٢ .

(٦٣) السابق ص٤٦ .

(٦٤) الحديث فى (السابق) ص ٧٦ - ٧٧ .

(٦٥) راجع فى (السابق) ص ٧٩ - ٨٠ .

(٦٦) راجع هذه الأحاديث فى (السابق) ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦٧) راجع السابق ص ٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .

(٦٨) السابق ص٤٣ .

(٦٩) السابق ص٤٠ .

(٧٠) السابق ص٤٤ - ٤٧ .

(٧١) السابق ص٧٨ ، ١٦٠ - ١٦١ .

(٧٢) كحديثه عن فرائض ، وواجبات ، وسنن الحج عند حديثه عن (مشاهد مناسك الحج). (السابق ص ٨٠) .

(٧٣) اعتمدت فى دراسة هذا القسم من ذلك المصدر على طبعة (دار إحياء التراث العربى) - بيروت ، ١٩٨٧ ، بتقديم ، وهوامش ، وفهارس : (د. محمد مخزوم) .

(٧٤) السابق ص١٥ - ١٧ .

(٧٥) السابق ص١٩ - ٧٢ .

(٧٦) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ٧٣ - ١٠٢ .

(٧٧) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٠٣ - ١٢٠ .

(٧٨) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٢١ - ١٣٢ . قال المقدسى فى تعريفه ص ١٢١ : منطقة واسطة بين العراق ، والشام ، ومنازل العرب فى الإسلام . وقال عنها ياقوت : اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة - بين الموصل والفرات - بأسرها . (معجم البلدان) ٢٨٢/١ . ويبدو أن مترجم كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) اعتمد على (ياقوت) فى تعريفه ؛ إذ قال : (أقور ، أو أثور : منطقة شمال العراق ، أى : الجزيرة) . المرجع السابق ٢١٤/١ بالهامش) .

(٧٩) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٣٣ - ١٦٤ .

(٨٠) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٦٥ - ١٨٢

(٨١) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٨٣ - ٢٠٤ (وفيه جمع بين المغرب والأندلس).

(٨٢) يمتد الكلام على هذا الإقليم (وهو بادية الشام) من ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(٨٣) بين هذه الأقسام الثلاثة كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٣/١ - ٢١٤ ، وعنه نقل - دون إحالة عليه - د. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص١١.

(٨٤) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٨٥) وهذا يدل على رغبة أصيلة لدى المقدسى فى أن يجعل كتابه على غير منوال سابقيه ، ومثالاً للدقة والأمانة العلمية ، خلافاً لنقل الجيهانى كتاب (ابن خرداذبه) ، ونقل ابن الفقيه كتاب (الجاحظ) ، وغيره . (راجع المصدر السابق ص ١٩٩) .

(٨٦) راجع السابق ص٤٩ .

(٨٧) وذلك فى رواية تتصل بأمر معاوية بن أبى سفيان حمل منبر المسجد النبوى إلى جانب المحراب كسائر المنابر ، وما ترتب على ذلك (السابق ص٨٢) .

(٨٨) فى رواية تتصل بأثر ريح الشمال والجنوب فى حياة السكان بالبصرة (السابق ص١١٢) .

(٨٩) فى روايتين تتعلق إحداهما بتماسيح مدينة الفسطاط ، والأخرى بوضع طلسم ؛ لئلا يغلب ماء البحر على ارض مصر (السابق ص ١٧٩) . والطلسمات جمع طلسم ، وهو - فى علم السحر - خطوط وأعداد ، يزعم أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ؛ لجلب محبوب ، أو دفع أذى . وهو لفظ يونانى لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجى . (المعجم الوسيط ٥٨٢/٢) .

(٩٠) فى رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المنصور على مدينة السلام ، وأجرة بعض العمال (أحسن التقاسيم ص ١٠٨) .

(٩١) عن مقادير غلة أرض السواد بالعراق (السابق ص ١١٨) .

٩٢) حول مقدار ما انفق على جامع دمشق (السابق ص ١٤٠) .

(٩٣) حول خراج اليمن ، وتقسيمها الإدارى (السابق ص ٩٨) .

(٩٤) حول خراج قنسرين ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين (السابق ص ١٦٣) .

(٩٥) حول خراج الحرمين ، واليمن ، واليمامة ، والبحرين ، وعمان (السابق ص ٩٨) .

(٩٦) حول دخل مصر (السابق ص ١٨٠) .

(٩٧) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ، ثم الحجاج ، ثم ولد العباس (السابق : الصفحة نفسها) .

(٩٨) هو أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى . من بلاد أرمينية من الثغور . كان معلم أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه ، ثم نادمهما . وكان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً، كثير الحفظ . ذكر محمد بن إسحاق النديم أنه كان حيا فى عصره (سنة ٣٧٧هـ) ، وترك كثيراً من أخلاقه لما علت سنه . (راجع ترجمته فى : الفهرست ص ٢٢٠ ، ومعجم الأدباء ٢٤٠/١٤ - ٢٤٤) . ويلاحظ أن (الشمشاطى) حرفت إلى (السميساطى) فى (الفهرست ص ٢٢٠) . والراجح ما ورد فى (معجم البلدان) جـ٣ ص ٤١١ ، حيث قال : شمشاط (وضطبها بالحروف) غير (سميساط) بمهملتين ، وإن كانت كلتاهما على الفرات ، إلا أن التى ينسب إليها هذا المؤرخ تقع فى طرف أرمينية، والأخرى من أعمال الشام .

(٩٩) للشمشاطى مؤلفات عديدة ذات طابع أدبى ، منها : (أخبار أبى تمام والمختار من شعره) ، و (أخبار أبي نواس والمختار من شعره) . (الفهرست ص ٢٢٠ ، ٢٢٨) . وقد اشار ابن النديم فى (المصدر السابق) ص ٣٢٧ ، إلى أن الشمشاطى أحد من اختصر (تاريخ الطبرى) ، وحذف أسانيده . وأرجح أن النص الذى اقتبسه المقدسى من (تاريخ الشمشاطى) هنا ، ويتعلق باستقدام المنصور ذوى الخبرة والكفاءة عند بناء بغداد، اقتبسه من (تاريخ الطبرى) بشىء من التصرف والتجميع والتنسيق ، ويمكن التحقق من ذلك بمقارنة ما ورد فى (أحسن التقاسيم) ص ١٠٨ - منقولاً عن (تاريخ الشمشاطى) - بما جاء فى (تاريخ الطبرى ، ط . دار المعارف بالقاهرة) جـ٧ ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٥٢ .

(١٠٠) حول مقدار مسيرة الدنيا (أحسن التقاسيم) ص ٦٩ .

(١٠١) حول معنى البصرة لغوياً (المصدر السابق) ص ١٠٦ .

(١٠٢) حول سؤال الخضر ملكاً من الملائكة عن ظاهرة المد والجزر . (السابق ص ٢٦) .

(١٠٣) فى رواية تدور حول نقاش دار بين المقدسى ، وهذا القاضى عن عالم بغدادى (السابق ١٠٩ - ١١٠) .

(١٠٤) حول قبر يوسف بالشام (السابق ص ٥٢ - ٥٣) .

(١٠٥) حول بناء جامع فى الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (السابق ص ١٤٣) .

(١٠٦) حول ذكاء رجل ، وصف دير شمويل بالشام لأحد الملوك وصفاً ، نفره من السيطرة عليه . (السابق ص ١٦١) .

(١٠٧) حول مكانة قرطبة ، وصفتها (السابق ص ١٩٢) .

(١٠٨) ذيل بها المصدر حديثاً مطولاً عن (المذاهب فى الأندلس) (السابق ص ١٩٥ - ١٩٦) .

(١٠٩) فى رواية تتصل بحج الخليفة المنصور ، وتوسيع المسجد الحرام بعد شراء دوره المجاورة له بمكة ، ودورأبى حنيفة فى حل إشكال فقهى وقع آنذاك . (السابق ص ٧٧ - ٧٨).

(١١٠) فى رواية عن خراج مصر ، وحوار بين المقدسى ، والمصدر الذى روى عنه حول هذا الشأن . (السابق ص ١٨٠ - ١٨١) .

(١١١) فى روايات متتابعة حول الخصاء وكيفيته لدى الروم ، وحديث عن العبيد والصقالبة بالأندلس) (السابق ص ٢٠٠) .

(١١٢) راجع هذه الروايات بأسانيدها فى (السابق) ص ٢٨ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ (بها روايتان) ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١ .

(١١٣) راجع (السابق ص ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٧٦ .

(١١٤) فى رواية حول مغارة ، ترجع إلى عهد قوم موسى ، وتعد من عجائب إيليا (السابق ١٥٩) .

(١١٥) السابق ص ١٢٩ ، ١٤٧ (روايتان) ١٤٩ ، ١٧٩ .

(١١٦) السابق ص ٦٢ .

(١١٧) السابق ص ٨٤ .

(١١٨) السابق ص ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ .

(١١٩) السابق ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس : أنها جنات) ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .

(١٢٠) السابق ص ١٢١ .

(١٢١) يحكى عن سفيان بن عيينة رواية عن تشجيع وتأييد عزم العزب الذى يريد الزواج والمريد الذى يسأل الحج وليس معه زاد ؛ لأنه حق على الله أن يعينهما (السابق ص٢٠٨).

(١٢٢) حكى لى عن بعض الزهاد (رواية عن تيسير الله الحج لمن أراد) ص ٢٠٨ .

(١٢٣) السابق ص ٢٦ .

(١٢٤) السابق ص ٩٠ .

(١٢٥) وحدثونا عن ابن عباس (رواية عن وصف الساهرة أرض القيامة) ص ١٤٧ .

(١٢٦) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٦٥ ، وقارنه بـ (المسـالك والممـالك ، طبعـة صورتها ، ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه) لابن خرداذبه ص ٨٩ .

(١٢٧) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ١٦٣ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابـن خرداذبه ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ (بترتيب ذكر البلدان الواردة) .

(١٢٨) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسـالك والممـالك) لابـن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٢٩) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (كتاب الخراج) لقدامه ابـن جعفر المنشور بقيته بعنوان : (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) فى طبعة (صورتها. ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه ، ملحقة بكتاب ابن خرداذبه فـى مجلـد واحد) ص ٢٥١ .

(١٣٠) راجع (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٣١) أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

(١٣٢) المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ص٧٥.

(١٣٣) العواصم : جمع عاصم ، وهو المانع . وهى اسـم ناحيـة ، وليـس موضـع بعينـه يسـمى (العواصم) . وهى حصون موانع بين حلب وأنطاكية أكثرها فى الجبال ، وربما دخل فـى هذا ثغور المصيصة وطرسوس . وقصبتها أنطاكية . (المسـالك والممـالك للاصطخـرى) ص ٤٦ ، و (معجم البلدان لياقوت حـ٤ ص ١٨٦) .

(١٣٤) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها . وتجدر الإشارة إلى أن (الاصطخـرى) ممـن يجمعـون بيـن (قنسرين ، والعواصـم) ، ويضيـف إليهمـا (الثغـور) ، فيقـول : (جنـد قنسرين والعواصم والثغور) . (المسالك والممالك) ص ٤٣ .

(١٣٥) قنسرين : كورة بالشام منها مدينة حلـب ، وهـى عـامرة آهلـة بالسـكان ، تقـع علـى طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات . وظلت كذلك حتى غلـب الـروم علـى مدينـة حلب سنة ٣٥١هـ ، وقتلت من كان بضواحيها ، ففر أهل قنسرين ، وتفرقوا فى البـلاد،

فعبر بعضهم الفرات ، وآخرون نقلهم سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من بقى من أهلها . (المسالك والممالك للاصطخرى ص ٤٦، ومعجم البلدان لياقوت (٤٥٨/٤) .

(١٣٦) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها .

(١٣٧) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٨٠ ، وقارنه بـ (الخراج) لقدامة بن جعفر ص٢٥١.

(١٣٨) ولعل مما يقوى هذا المنطق أن المقريزى ذكر بعض ولاة الإسكندرية فى العصر الإسلامى (مثل : محمد بن هبيرة سنة ١٩٩هـ) . (الخطط ، نشر : مكتبة الثقافة الدينية) جـ١ ص ١٧٢ ، و(معاوية بن عبد الواحد سنة ٢١٦هـ) . (والمصدر السابق ١٧٣/١ - ١٧٤) . وترى د. سيدة الكاشف أن المدن الساحلية ، وغيرها من المناطق البعيدة كان يولى عليها حاكم ، يعينه الأمير أو الخليفة مباشرة (مصر فى عصر الإخشيديين ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب) ص ١٦٩ . والظاهر أن هذا الوضع تمتعت به الإسكندرية حتى تولية أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) الأعمال الخارجة عن قصبة مصر (الفسطاط) ، ومنها الإسكندرية التى كان يتقلدها (إسحاق ابن دينار) ، ثم أقره عليها سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) (الخطط ٣١٤/١ - ٣١٥) . وأخيراً ، فإن مقدار الدخل الخاص بمصر والإسكندرية الذى نقله إلينا المقدسى عن (قدامة ابن جعفر) ، إنما يرجع - فى الأساس - إلى ما وجد من وثائق الأوضاع المالية فى الخلافة العباسية بدءاً من سنة ٢٠٤هـ /٨١٩م ، لأن الدواوين السابقة على ذلك أحرقت فى الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون (سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م) . (الخراج) لقدامة ابن جعفر ص ٢٣ - ٢٣٧ . وهذا يعنى أنها قوائم الخراج الخاصة بعصرى المأمون والمعتصم (من خلال السياق العام لكلام قدامة) . (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) للدكتور الريس (ط٥ - ١٩٨٥ ، دار التراث بالقاهرة) ص ٤٩٤ . وهذه الفترة - أيا ما كانت - سابقة على حكم ابن طولون ، فيكون للإسكندرية فيها والٍ خاص بها ، ودخل خاص بها .

(١٣٩) كما فى رواية تذكر أن من زار مسجد يونس بإقليم (أقور) سبع مرات ، فإنهن يعدلن حجة (أحسن التقاسيم) ص ١٢١ .

(١٤٠) كما فى (المصدر السابق) ص ١٢٩ (بخصوص عين يونس فى إقليم أقور ، يزعمون أن يونس خرج منها ، ويستشفى بمائها من البرص .

(١٤١) كما فى (السابق) ص ١٧٦ (عن عروس النيل فى مصر ، وأسطورة إلقاء فتاة بكر فيه ؛ ضماناً لجريانه) .

(١٤٢) مثل : سؤاله بعض المصريين فى بخارى عن خراج مصر (السابق ص ١٨٠) .

(١٤٣) كسؤاله بعض الروم عن الخصاء وكيفيته (السابق ص ٢٠٠) .

(١٤٤) مثل : عريب الخادم ، وعرض كلام عريب هذا على أحد الثقات لديه . (السابق : الصفحة نفسها) .

(١٤٥) كرحلاته إلى (مدينة زبيد باليمن) . (السابق ص ٨٥) ، ورحلته إلى عدن (ص ٩٤ - ٩٥) ، وبغداد (ص١٠٥ - ١٠٦) ، وجبل لبنان بالشام (ص ١٦٢) .

(١٤٦) مثل : تجواله بالبصرة ، يعاين حديث الناس بعضهم إلى بعض ، يقررون حالة فى بلادهم يعايشونها (حديث الرحل إلى صاحبه فى البصرة عن دور ريح الشمال فى تلطيف الجو عندهم ، وسوء حالهم فى ظل ريح الجنوب) . (السابق ص ١١٢) . وكذا ما ذكره عن مسحه بادية الشام يميناً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً (ص ٢٠٤) .

(١٤٧) مثل : جوبانه المحيط الهندى أكثر من مرة ، ومطالعة المقدسى الخرائط النظرية التى معه للتوضيح ، ومعرفة مواقع البلدان ، ومقارنتها بالخرائط العملية الموجودة مع إمام التجار (أبى على بن حازم) فى البحر ، ومجالسته ، حيث تجوب مراكبه هذا المحيط أبداً . (ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٤٨) على رأس أنواع المشاهدة ما يتصل برؤية (المشاهد الأثرية) ، تلك التى رصدها المقدسى بدقة من واقع زياراته الميدانية لأقاليم العرب ، وكأنه يضع أمام المؤرخين صورة للأماكن الأثرية ، التى تفيدهم زيارتها فى دعم كتابتهم التاريخية عن أحداث هذه البلدان . (راجع ذلك فى صفحات ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، مثل : أثر قدم إبراهيم (عليه السلام) ، ومكان مولد الرسول ، ودار خديجة ، وقبور طلحة والزبير وعلى) .

(١٤٩) وذلك فى البلدان التى لم يزرها المقدسى ، مثل : بلاد الأندلس ، التى عرضها - باختصار - مختلطة بإقليم المغرب ، معتمداً على النقل والسؤال . (ص ١٨٣) .

(١٥٠) السابق ص١٥ .

(١٥١) السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٥٢) السابق ص٤٩ .

(١٥٣) هناك غموض يعترى هذه الشخصية السياسية الجغرافية فى آن . وقد اختلف حول اسم هذا العالم ، فبينما ياقوت يسميه فى موضع بـ (أحمد بن محمد بن نصر الجيهانى) ، ويكنيه بـ (أبى عبد الله) . (معجم الأدباء) حـ٤ ص ١٩٠ ، ويسبقه إلى ذلك ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٧ ، فإن صاحب (معجم الأدباء) يعود ثانية فى حـ١٧ ص ١٥٦ - ويسميه (محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى ، ويكنيه الكنية نفسها) . وقد تبع التسمية الأولى بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) القسم الثانى ص ٦٥١ . أما كراتشكوفسكى ، ود . حسين مؤنس فقد تبعاً التسمية الأخيرة (تاريخ الأدب الجغرافى ٢١٩/١ ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٩٦ ، وإن لقبه بالجيحانى ، او الجيانى ، وهو ما انفرد به دون غيره) . والراجح - عندى - التسمية الأخيرة ؛ لمجيئها فى مصادر أخرى ، ألقت لنا بعض الأضواء على حياة هذا الرجل ، كما سنرى .

وحول التعريف بهذا الرجل ذكر بروكلمان أنه وزير (نصر بن أحمد بن نصر السامانى ٢٦١ - ٢٧٩هـ / ٨٧٤ - ٨٩٢م) . (تاريخ الأدب العربى ، القسم الثانى ص ٦٥١). واعتقد أن بروكلمان نقل ذلك عن ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٨ ، وكذلك عنه نقل ياقوت فى (معجم الأدباء) ١٩٠/٤ . ولى ملاحظتان حول هذه المعلومة : **الأولى** : أن نسب الأمير المذكور الصحيح هو (نصر أحمد بن أسد بن سامان) أول حكام الدولة السامانية (راجع تاريخ الطبرى ٥١٤/٩ ، والكامل ٥٣/٦) ، وفيات الأعيان ١٦١/٥ ، ونهاية الأرب للنويرى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) حـ٢٥ ص ٣٣١) .

والثانية : أن الجيهانى كان وزيراً للأمير نصر الثانى (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان ٣٠١ -٣٣١هـ) . وقد لعب الجيهانى دوراً مهماً فى عهد ذلك الأمير الصغير ، الذى ولى بعد مقتل والده ، وهو ابن ثمانى سنين ، فتولى أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى تدبير الدولة ، فأمضى الأمور ، وضبط المملكة ، واتفق هو وحشم والد الأمير (نصر بن أحمد) على تدبير المملكة . (معجم الأدباء ١٥٧/١٧ ، والكامل ٤٧٩/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤١- ٣٤٢) . هذا وقد ورد ذكر الجيهانى فى (أحداث سنة ٣٠٢هـ) ، عندما خلص من الأسر رجلاً يدعى (الحسين بن على) فى بخارى ، أثناء فترة الصراعات المحتدمة ؛ مما أعاد هذا الرجل إلى الطاعة (الكامل ٤٨٥/٦، ونهاية الأرب ٣٤٤/٢٥) . ولا نجد ذكراً - بعد ذلك - للجيهانى ، لا ندرى تاريخ وفاته ! غير أنى وجدت فى (معجم الأدباء) ١٩٢/٤ ، وفيما نقله عن كتاب محمد بن سليمان (فريد التاريخ فى أخبار خراسان) : أن الجيهانى كان على وزارة نوح بن منصور ، ثم صرفت عنه الوزارة فى (شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧هـ ، ووليها أبو الحسين عبد الله بن أحمد العتبى) . فلئن صح هذا الخبر ، فيكون الجيهانى توفى بعد السنة المذكورة ، لكن يحترز من ذلك بأنه لم يرد له ذكر فى فترة حكم هذا الأمير (نوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧هـ / ٩٧٦ - ٩٩٧م) ، والذى ذكر هو الوزير العتبى الذى قتل سنة ٣٧٢هـ (نهاية الأرب ٢٥ / ٣٥٩) ، بالإضافة إلى امتداد حياة الرجل - بناء على ذلك التاريخ - فترة طويلة ، خاصة أن الراجح أنه ألف كتابه (المسالك والممالك) المذكور فى الفهرست ص ١٩٨م ، ومعجم الأدباء ١٩٠/٤ - بين عامى (٢٧٩ هـ / ٨٩٢م ، ٢٩٥ / ٩٠٧م) ، بناء على صلاته بالجغرافيين الآخرين . ونقلهم عنه (مثل : ابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) . (تاريخ الأدب الجغرافى ٢٢١/١) .

(١٥٤) أحسن التقاسيم ص ١٩ - ٢٠ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(١٥٦) قال بذلك كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) جـ١ ص ٢١٠ .

(١٥٧) راجع المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٦٢ .

(١٥٨) السابق ص ١٧ .

(١٥٩) السابق ص٢٣ .

(١٦٠) السابق ص٢١ (وبها أمثلة ضربها للتوضيح) .

(١٦١) السابق ص ٢٢ (وقد علل ذلك بعلل ، نذكرها عند تناول وضوح شخصيته) .

(١٦٢) السابق : الصفحة نفسها .

(١٦٣) السابق ص٢٣ .

(١٦٤) من ذلك قوله : (وهذا مثاله وشكله ، هذا شكله ومثاله ، وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة . (راجع صفحات ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٨٣) ولعل خرائط المقدسى المشار إليها تفوق تلك الخرائط النظرية ، التى أشار إليها د. حسين مؤنس ، والموجودة لدى الخوارزمى وغيره من الرحالة الجغرافيين (كأبن حوقل) ، تلك التى كانت لمجرد التوضيح ، وبيان مواقع البلاد بالنسبة لبعضها دون تدقيق ، ولمجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ص ٢٦٧ .

(١٦٥) أبو حنيفة فقيه عراقى ، فناسب ذلك ذكر مذهبه فى (إقليم العراق) ، وقد ذكر بالفعل (راجع أحسن التقاسيم) ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٦٦) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٦٧) فهى القراءة المختارة فى ذلك الإقليم (راجع السابق) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢١١ .

(١٦٩) أحسن التقاسيم ص ٢٢ .

(١٧٠) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) السابق ص ٧٣ .

(١٧٢) السابق ص ١٣٤ .

(١٧٣) السابق ص٦٥ .

(١٧٤) السابق ص١٠٥ .

(١٧٥) السابق ص١٠٦ .

(١٧٦) السابق ص٩٤ .

(١٧٧) سورة البقرة : ٢ / من الآية ١٠٢ .

(١٧٨) أحسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(١٧٩) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٨٠) السابق ص ٤١ - ٤٢ .

(١٨١) السابق ص٩٨ .

(١٨٢) السابق ص١٩٧ .

(١٨٣) السابق ص٧٧ - ٧٨ .

(١٨٤) السابق ص ١١١ .

(١٨٥) السابق ص١٤٠ .

(١٨٦) السابق ص ١٣٩ .

(١٨٧) فى (سنن ابن ماجة ط. دار الريان) حديث ورد فى (كتاب الفتن) ، باب (افتراق الأمم) جـ٢ ص ١٣٢٢ (حديث رقم ٣٩٩٢) ، رواه بسنده إلى راشد بن سعد ، عن عوف بن مالك ، عن الرسول ﷺ ، قال : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار . وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة . والذى نفس محمد بيده ، لتفترقه أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة فى الجنة ، وثنتان وسبعون فى النار . قيل يا رسول الله ، من هم ؟ قال : الجماعة) . وعلق المحقق أن إسناد الحديث فيه مقال .

(١٨٨) أحسن التقاسيم ص ٤٥ - ٤٦ .

(١٨٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٩٠) السابق ص ١٥ - ١٦ ، ١٩٩ .

(١٩١) السابق ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ١٩٩ .

(١٩٢) السابق ص١٩ - ٢١ ، ٤٩ .

(١٩٣) من أمثلة ذلك : وصفه المحيط الهندى (ولا أحب أن أطول هذا الأصل ، وإلا ذكرت مراسى هذا البحر ، والطرق فيه) . السابق ص ٢٦) . وكذلك قوله فى (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملال وطول الكتاب ، لوصفت بقية مدائن إفريقية ، وأكثر مدائن الكور فى جميع الإسلام ، وكلنا نميل إلى الإيجاز ، ونذكر ما لا بد منه) . (السابق ص ١٨٩).

(١٩٤) وذلك فى موضع (الأشياء التى يختلف فيها أهل الأقاليم) ص ٣٩ .

(١٩٥) امتدت من (ص ١٥ - ٧٢) ، وهى ضرورية على اختلاف فصولها ، لكنها كان يمكن اختصار مادة بعضها من الداخل ، فتكون أوجز وأخصر وأعمق (مثل : توسعه فى ذكر البحار والأنهار ص ٢٤ - ٣٤ ، والباب الذى اختصره للفقهاء ، واكتفى فيه بسرد الأمصار ومدنها من ص ٥٤ - ٦٥ ، وفصل ذكر اقاليم العالم ومركز القبلة ص ٦٦ - ٧٢) . والملاحظ أن عدداً من تلك الفصول سيأتى بيان ما فيها داخل الأقاليم الجغرافية عند وصفها .

(١٩٦) من الأمثلة النادرة : إشارته السريعة الخاطفة إلى الفقيه الإمام (أبى جعفر الأزدى - ولعله يقصد الطحاوى عند تعريفه بمدنية (طحا) فى مصر . (ص ١٧١) .

(١٩٧) ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٩٨) ص ٧٤ .

(١٩٩) ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٠٠) ص ٤٣ .

(٢٠١) مثل قوله ص ٤٢ : « ولا أعف من أهل بيت المقدس ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، وعسكر مكرم ... ولا أحسن من أهل حمص ... ولا أوطأ من أهل مصر » .

(٢٠٢) قال المقدسي في الصفحة نفسها : (وليس أكثر ولا أرذل من مذكري نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ... ولا أفقر من أهل يثرب ... ولا أبخس من أهل عمان ، ولا أجهل من أهل عمان) .

(٢٠٣) ص ١٢٩ .

(٢٠٤) الصفحة السابقة نفسها .

(٢٠٥) ص ١٧٩.

(٢٠٦) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٠٧) فمثلاً : يبدى المقدسي موافقته على ما طالعه في كتاب (الطلسمات) ، حول وجود طلسمين في مصر ؛ للوقاية من خطر تماسيح النيل ، حيث يقول : ألا ترى أن التماسيح في كورة (الفسطاط) لا تضر مع عظمها وكثرتها . (أحسن التقاسيم ص ١٧٩) .

(٢٠٨) يظهر ذلك عند حديثه عن (عجائب إيليا بالشام) ، حيث المغارة العظيمة الموجودة بظاهر البلد ، تلك التي قرأ عنها في بعض الكتب ، حيث أرجع تاريخها إلى قوم موسى . قال المقدسي : وما صح لي ذلك . (المصدر السابق ص ١٥٩) .

(٢٠٩) حيث وصفهم مادحاً بقوله : (ولا أحسن من أهل حمص) ، ثم قال بعدها بقليل (ولا أحمق من أهل حمص) . (السابق ص ٤٢) . وكان الأولى أن يوضح جمال إحسانهم ، وموطن حمقهم .

(٢١٠) هذه بلدة المقدسي ؛ ولذلك أظهر كثيرا من محاسنها ، وأفرط في مدحها ، وفضلها على ما سواها ، شارحاً ومحللاً ومعللاً . فمن ذلك قوله : (لا ترى بها بخسا ولا تطفيفا، ولا شرباً ظاهراً ، ولا سكران ، ولا دور فسق سراً ولا إعلاناً ، مع تعبد وإخلاص . ولقد بلغهم أن الأمير يشرب ، فتسوروا عليه داره ، فرقوا أهل مجلسه) (السابق ص٢٢). وبلغ به الإعجاب ببلده أنه كان وهو يتحدث عن السوق العامر بمدينة (حلوان) بالعراق ، وبساتينها ، والفاكهة بها ، لا ينسى بلده ، فيعقد مقارنة بينهما لصالح بلده ، فيقول : (وبيت المقدس أكبر وأجل ، وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها) . (السابق ص ١١٠) . ويواصل في موضع آخر الحديث عن بلده ، وطيب هوائها ، فلا ترى

أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أكثر من خيراتها (السـابق ١٤٣ - ١٤٤) . ويقال في القسم الثاني من كتابه ، وهو يذكر مدينة (سرخس) من (إقليم خراسان) : بيت المقلس مثل سرخس ، غير أن بيت المقلس بلد نظيف حسـن ظريـف (السـابق ص ٢٤٦) . وبعد هذا الإغراق فـى المدح لبلـده ، إذا بـه يقـول : إلا أن لها عيوباً عـدة ، فيذكر منها ما يلى : (ثم لا ترى أقذر من حماماتهـا ، ولا أثقـل مؤنـة . قليلـة العلمـاء ، كثيرة النصارى ... لا مجلس نظـر ولا تدريس ، وقـد غلـب عليهـا النصـارى واليهـود ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس) . (السابق ص ١٤٤) .

(٢١١) السابق ص ٧٧ .

(٢١٢) السابق ص ٨٣ .

(٢١٣) السابق ص ٨٧ .

(٢١٤) السابق ص ٨٨ .

(٢١٥) السابق ص ٩٧ - ٩٨) .

(٢١٦) السابق ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢١٧) السابق ص ١٦٢ .

(٢١٨) السابق ص ١٨٠ .

(٢١٩) السابق ص٢٠١ .

(٢٢٠) الأخبار الطوال (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى) ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢٢١) تاريخ الطبرى ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢٢٢) البداية والنهاية (طبعة دار الريان للتراث) جـ٨ ص ٣٣٤ - ٣٤٩ .

(٢٢٣) تاريخه جـ٦ ص ١٩٥ .

(٢٢٤) راجع (السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م ، طبـع ونشـر : مصطفى الحلبى) ، القسم الأول ص ٤٩٥ .

(٢٢٥) راجع أحداث غزوة أحد تفصيلاً فى (المصدر السابق) ، القسم الثانى ص ٦٠ وبعدها .

(٢٢٦) حـ٨ ص١٩٨ .

(٢٢٧) البيان المغرب (ط٣ - دار الثقافة بيروت) حـ١ ص ٨٣ ، فيما ينقله عن (تاريخ الرقيق).

(٢٢٨) فى تاريخه حـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٢٩) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٠) كتبت فى (معجم البلدان) لياقوت حـ٥ ص ٤٤٢ بالقصر هكذا : وليلى ، وقال عنها: مدينة بالمغرب قرب طنجة ، دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على ناجياً من وقعة (فخ) ، وحصل بها سنة ١٧٢هـ أيام الرشيد إلى أن مات بها مسموماً - فى قصة طويلة - سنة ١٧٤هـ .

ويلاحظ أن هذا هو الاسم الصواب لتلك المدينة . أما (زويلة) الواردة فى كتاب (المقدسى) ، فغير مقصودة هنا ، ولعلها تحريف من النساخ ، لم يفطن إليه المحقق ، ولعل مطالعتنا تعريف ياقوت لها يؤكد صحة ما نقول ، فهناك (زويلة السودان) ، وتقع بين بلاد السودان وإفريقية وسط الصحراء (أول بلاد السودان) . (معجم البلدان) حـ٣ ص ١٧٩ . وهناك (زويلة المهدية) ، وهى مدينة بإفريقية ، بناها عبيد الله المهدى ، وأسكنها العامة (المصدر السابق ١٨٠/٣) . وواضح أن كلتا المدينتين غير مقصود فى هذا السياق .

(٢٣١) تاريخه حـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٣٢) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٣) أحسن التقاسيم ص١١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الطبرى ٤٢١/٧ .

(٢٣٥) ولى المعتز سنة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) .

(٢٣٦) راجع أخباره فى (تاريخ الطبرى) جـ٩ ص ٣٩١ - ٤٥٦ .

(٢٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .

(٢٣٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ط . دار القلم - بيروت) ص ٤٠٥ .

(٢٤٠) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤١) تاريخ الخلفاء ص ٤١٩ .

(٢٤٢) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٣١ .

(٢٤٤) أحسن التقاسيم ص ١١٨ .

(٢٤٥) تاريخ الطبرى ١٧٣/٨ .

(٢٤٦) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٧) راجع (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٣٧٩/٦ .

(١٤٨) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١١٧) ، وتاريخ الطبرى ٣٧١/٩ .

(٢٤٩) المصدر السابق ٤٣٧/٩ .

(٢٥٠) السابق ٥١٤/٩ .

(٢٥١) السابق ٥١٥/٩ .

(٢٥٢) معلوم أن أولاد بويه ثلاثة : الأكبر (ابو الحسن عماد الدولة على بن بويه) ، والأوسط (ركن الدولة الحسن بن بويه) ، وهو والد عضد الدولة المشهور ، والأصغر أبو الحسن أحمد فى حكم بلاد فارس (٣٢٠-٣٣٨هـ/٩٣٢ - ٩٤٦م) . (راجع ترجمته فى : الكامل ٢٣٠/٧ ، ووفيات الأعيان ٣٩٩/٣ ، والنجوم ٣٤٣/٣) . أما معز الدولة الذى ولى العراق ، فقدم بغداد سنة ٣٣٤هـ ، توفى سنة ٣٥٦هـ ، وعهد لولده (بختيار) من بعده . وكان يحكم إلى جانب العراق - الأهواز - وهو عم عضد الدولة .

له ترجمة فى تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤٠٧ ، ووفيات الأعيان ١/١٧٤ - ١٧٦ ، والنجوم الزاهرة ٤/١٦ (وفيه حرفت كنيته من أبى الحسين إلى ابى الحسن) .

(٢٥٣) هو أبو منصور بن معز الدولة . ملك العراق بعد وفاة أبيه ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وكانت بينه وبين ابن عمه (عضد الدولة) منازعات ، حتى قتل فى إحدى معاركه أمامه بعد فترة إمارة ، امتدت أحد عشر عاماً وشهوراً ، سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . (راجع تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤١٠ ، والكامل ٧/٣٧٨ ، والنجوم ٤/١٣٣ - ١٣٤) .

(٢٥٤) هو فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى . ولى سنة ٣٦٧هـ ، وتوفى ٣٧٢هـ بالعراق . (وفيات الأعيان ٤/٥٠ - ٥٥) .

(٢٥٥) الكامل ٧/٤٣٦ .

(٢٥٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٥٧) المصدر السابق ١١١ .

(٢٥٨) كتاب (المقدسى) للدكتور فلاح شاكر ص ١٣٤ .

(٢٥٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٦٠) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢٦١) أحسن التقاسيم ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢٦٢) السابق ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٢٦٣) السابق ١٧٧ .

(٢٦٤) السابق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٦٥) السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦٦) السابق ص ١١١ .

(٢٦٧) السابق ص١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢٦٨) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٠٣ - ١٢٧ .

(٢٦٩) أحسن التقاسيم ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢٧٠) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢٧١) السابق ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢٧٢) السابق ص١٣٩ - ١٤٠ .

(٢٧٣) السابق ص١٦٩ .

(٢٧٤) السابق ص ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٩٧ .

(٢٧٥) السابق ١٦٧ ، وكتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢٧٦) أحسن التقاسيم ٧١ - ٧٢ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٨٠ - ١٨١ .

(٢٧٧) المصدر السابق ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .

(٢٧٨) السابق ص٩٣ - ٩٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ . وراجع (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٥٧ - ١٦١ (وما يقابل المكاييل والأوزان الآن ص ١٦٢ - ١٦٧) . وراجع ما يتصل بالنقود ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢٧٩) أحسن التقاسيم ص ٨٤ ، ١١٢ .

(٢٨٠) السابق ص ١٥٧ ، ١٩٧ .

(٢٨١) السابق ص١٦٨- ١٦٩ (الدور فى الفسطاط اربع طبقات وخمس طبقات ويسكن الدار نحومائتى نفس ، والناس كالجراد ، هكذا رآهم الحسن بن أحمد القرمطى ، فهاله ما رأى ، فقيل له : هؤلاء نظارة فقط ، وما لم يخرج أكثرهم) .

(٢٨٢) السابق ص٩٧ (جفاء أهل مكة ، وظرف أهل اليمن ، وتطفيف وتخسير وفسق أهل عمان ، ٩٩ (نحافة وقناعة سكان شبه الجزيرة العربية ، وأكتفاؤهم بالخفيف من الثياب)، ص ١٦٩ (أهل مصر وخوفهم من القحط ، وتربصهم البلاء ، وإشرافهم على الجلاء ؛ خوف انقطاع النهر) .

(٢٨٣) السابق ص١١٥ ، وعن الحمامات راجع ص ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٧ .

(٢٨٤) السابق ص ١٥٦ .

(٢٨٥) السابق ص ٩٤ ، ١٩٧ .

(٢٨٦) السابق ٩٤ ، ٩٥ (زينات فوق المنازل ، ونصب للقباب ، وتزيين للأسواق) .

(٢٨٧) السابق ١٦٩ .

(٢٨٨) السابق ص٤٤- ٤٦ ، ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٨٩) السابق ص ٤٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٩٧ .

(٢٩٠) السابق ص٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ .

(٢٩١) السابق ص ١١٢ .

(٢٩٢) السابق ص ١٧٤ .

(٢٩٣) السابق ص ٩٠ - ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ .

(٢٩٤) السابق ص ١٥١ .

(٢٩٥) السابق ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٩٦) حـ٣/١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٤ ، حـ٤ /١٧١ ، ٥١٦ ، ٥/١٩٦ ، ٣٢٦ . ويلاحظ أنه سمى كتاب المقدسى (أخبار بلدان الإسلام) . ونقل عنه فى (معجم الأدباء) ٨٦/٣ ، وسماه (كتاب البلدان) . وتجدر الإشارة إلى أن د. حسين مونس ذكر أن كتاب الروض المعطار) للحميرى حافل بالنقل عن المقدسى وغيره ، لكن صاحبه لم يكن يصرح بمصادره . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ٥٣٨ .

(٢٩٧) الحضارة الإسلامية فى ق ٤ هـ ، لآدم متز (من الترجمة العربية - طبعة ١٩٤١) حـ٢ ص ٤ .

(٢٩٨) المرجع السابق ص ٧ .

مصادر ومراجع البحث(*)

* **القرآن الكريم :**

- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** : لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر البناء المقدسى (المتوفى أواخر ق ٤هـ) . دار إحياء التراث العربى - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م . وضع مقدمته ، وهوامشه ، وفهارسه : : د. محمد مخزوم .

- **الأخبار الطوال** : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) . سلسلة (تراثنا) . نشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت . تحقيق : عبد المنعم عامر . مراجعة : د. جمال الدين الشيال .

- **الأعلام** : لخير الدين الزركلى ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٠م .

- **الأنساب** : الإمام أبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ) . الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع دار الجنان - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . تقديم ، وتعليق : عبد الله عمر البارودى .

- **البداية والنهاية** : أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ . دقق أصوله، وحققه : د. أحمد ملحم ، وآخرون .

(*) القرآن الكريم هو المصدر الأول ، ويوضع على رأس القوائم . ويتم ترتيب المصادر والمراجع معاً ترتيباً هجائياً حسب عنوا الكتاب ، مع إسقاط (ال) من الترتيب ، ويتم إفراد المراجع الأجنبية وحدها فى نهاية المصادر والمراجع العربية .

- **البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب** : لابن عذارى المراكشى (توفى حوالى نهاية ق ٧هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة - بيروت ، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢) ، ١٩٨٣م . تحقيق ، ومراجعة : ج . س . كولان ، أ. ليفى بروفنسال .

- **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** : تأليف : كراتشوفسكى . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م . ترجمة إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم .

- **تاريخ الأدب العربى** : لكارل بروكلمان . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .نقل الكتاب إلى العربية : أ . د. عبد الحليم النجار ، وآخرون . الإشراف على الترجمة العربية : أ. د. محمود فهمى حجازى .

- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس** : ، للدكتور حسين مؤنس . الطبعة الثانية ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦م .

- **تاريخ الخلفاء** : لجلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) الطبعة الأولى ، دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م . حققه ، وقدم له ، وخرج آياته ، قاسم الشماعى الرفاعى ، ومحمد العثمانى .

- **تاريخ الرسل والملوك** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- **تكملة تاريخ الطبرى** : لمحمد بن عبد الملك الهمذانى (ت ٥٢١هـ) . الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة (نشر ضمن ذيول تاريخ الطبرى فى جـ١١ منه)، ١٩٨٢ م . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى** : لآدم متز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادى أبو ريدة .

- **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** : للدكتور محمد ضياء الدين الريس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، ١٩٨٥م .

- **سنن ابن ماجة** : للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥هـ)، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، د. ت . حقق نصوصه ، ورقم كتبه ، وأبوابه، وأحاديثه ، وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقى .

- **السيرة النبوية** : لأبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى (ت ٢١٨هـ) . الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . حققها ، وضبطها وشرحها ، ووضع فهارسها : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

- **الفهرست** : لأبى الفرج محمد بن ابى يعقوب إسحاق المعروف بـ (ابن النديم) (ت حوالى سنة ٣٧٧هـ) . الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، د. ت .

- **الكامل فى التاريخ** : لأبى الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م . راجعه وصححه : د. محمد يوسف الدقاق .

- **كشف الظنون** : لحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) . طبعة : دار العلوم الحديثة - بيروت ، د. ت.

- **لسان العرب** : لجمال الدين بن منظور (ت ٧١١هـ) . نشر : دار المعارف بمصر ، د. ت. تحقيق : نخبة من العاملين بدار المعارف .

- **المسالك والممالك** : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بـ (ابن خرداذبه) المتوفى حوالى (٣٠٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته . ونشرته :مكتبة الثقافة الدينية) د. ت .

- **المسالك والممالك** : لإبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى (توفى فى النصف الأول من ق٤ هـ) سلسلة (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى . مراجعة : محمد شفيق غربال .

- **مصر فى عصر الإخشيديين** : للدكتوره سيدة إسماعيل كاشف . نشر فى سلسلة (تاريخ المصريين برقم ٢٩) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

- **معجم الأدباء** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الثالثة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م .

- **معجم البلدان** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى .

- **معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية** : لعمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

- **المعجم الوسيط** : إعداد ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م .

- **المقدسى** : للدكتور فلاح شاكر أسود . سلسلة (نوابغ الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، دار الشئون الثقافية العامة بالعراق - بغداد ١٩٨٨م .

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** : لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) ، الطبعة الثانية . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧م .

- نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة) لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى (ت ٣٢٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته ، ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية فى نفس مجلد كتاب ابن خرداذبه) د. ت .

- **نهاية الأرب فى فنون الأدب** : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ) ، الجزء الخامس والعشرون ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م . تحقيق جابر عبد العال الحينى ، مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى .

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** : لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) . دار صادر - بيروت ، د. ت . حققه : د. إحسان عباس .

1 - M. Miquel : AL - Mukaddasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol.7, 1993.

2 - Maqdisi, al, published in the new Encyclopaedia Britanniica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985.

المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السِّلَفى
فى تأليف كتابة « معجم السَّفر »

د. هشام عطية عطية أحمد(*)

زخرت الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل بالعديد من العلماء ورجال الفكر الذين أثروا تراثها الحضارى فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، أفنوا أعمارهم المديدة فى مجال البحث والدراسة المتعمقة . ولم يدخروا وسعاً فى سبيل تحصيل العلم وتقديمه لطالبيه .

وجدير بنا ونحن نقتفى آثار أولئك السلف الصالح ، ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم . أن نكون أوفياء لهم ، فنقدرهم حق قدرهم ، ونحيى بالدراسة ذكراهم ونعرف الأجيال بنتاجهم ومكانتهم ، وما أسهموا به فى خدمة تاريخنا الإسلامى .

ومن بين أولئك الأعلام :

الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى . أحد الشخصيات البارزة التى أسهمت بجهد وافر فى مجال علم التاريخ خلال القرن السادس الهجرى .

وكتاب « معجم السفر » ، الذى نحن بصدد الحديث عنه يعد واحداً من أهم وأبرز الكتب التى قام السلفى بتأليفها فى مجال علم تاريخ الرجال «أو ما اصطلح على تعريفة بين جماعة المؤرخين » بتاريخ السير والأعلام .

وسوف تتركز دراستى - بمشيئة الله تعالى وعونه - فى هذا البحث فى بيان المنهج التاريخى الذى سلكه السلفى فى تأليف كتابة « معجم السفر » ، وقد مهدت لذلك بالحديث عن حياة السلفى وطلبه للعلم بصورة موجزة ، ثم توثيقة

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة .

وعدالته من قبل علماء الجرح والتعديل الذين أرخوا لحياته ، ثم توضيح مكانته التاريخية ، مع عرض موجز لجهوده العلمية فى هذا الميدان ، ثم تطرقت للحديث عن عدة مسائل هامة مرتبطة أشد الارتباط بمنهجه ، منها : نسبة الكتاب إليه ، وبيان الكيفية التى وصل بها إلينا فى صورته الحالية . وأخيرا عرضت لمنهجه فى تأليف الكتاب ، وغير ذلك من مسائل جاءت مبسوطة فى ثنايا البحث .

السلفى – حياته – طلبه للعلم :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة (١) الأصبهانى . وكان مولده بـ « جرواءان »(٢) سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) وقد أوردت المصادر ما يؤيد صحة هذا التاريخ على لسان السلفى نفسه، حيث كان دائما يردد« أنا أذكر قتل نظام الملك الوزير (٣) الذى وقف المدرسة النظامية ببغداد فى سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وكان عمرى عشر سنين » (٤) كذلك كان السلفى يحكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وما فى وجهه شعره وأنه كان ابن سبع عشرة سنة (٥).

واللقب الذى اشتهر به منذ ذلك الحين ، وأصبح علما عليه وحده ، هو «السلفى» بكسر السين وفتح اللاّم ـ نسبة إلى لقب جد جده « إبراهيم » الذى كان يطلق عليه اسم سلفة(٦) . وإذا انتقلنا إلى بيئة السلفى نرى أن والده محمداً كان رجلاً صالحاً من العلماء المتصوفين المشهورين بالثقة ، وصفه ابن كثير بقوله « أبو أحمد كان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير » (٧) .

وتربى السلفى فى كنف أبيه منذ صباه ثم ارتحل لطلب العلم وعمره أقل من عشرين عاما . ومن يتتبع رحلته فى هذا المجال يندهش لهذه العزيمة التى امتاز بها والتى لا تعرف الكلل ولا تقف عند مطمح ، ذلك أنه جاب الكثير من البلاد طولا

وعرضا للقاء المشايخ أصحاب الأسانيد العالية ، ببغداد والحجاز والشام ، وسمع الكثير ببلدان المشرق الإسلامى وغيرها ، حتى صار طالبا للعلم من الطراز النادر . ويكفى ما قاله الذهبى عنه « وبقى فى الرحلة بضع عشرة سنة ، وسمع مالا يوصف كثرة »(٨) .

ولاشك فى أن هذه الرحلة الواسعة أكسبت السلفى علما غزيرا ومعرفة واسعة ، فأتقن علوما كثيرة من بينها : علم القراءات والحديث والفقه على المذهب الشافعى ، وتقويم البلدان ، والتاريخ ، والأدب واللغة (٩) .

واستقر به المقام أخيرا بمدينة الإسكندرية ، وذلك فى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) فاستوطنها بضعا وستين سنة ، ينشر فيها العلم ، حتى توفى بها سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م) وما خرج منها سوى مرة واحدة إلى القاهرة للأخذ عن كبار العلماء فيها (١٠).

وقد ذاعت شهرة السلفى بالإسكندرية ، واكتسب تقدير أهلها وحبهم ، حتى علا قدره ونبه ذكره ، وأفاد بعلمه خير إفادة ، فكان لايكل ولايمل من تحصيل العلم وإفادة طلابه . ولعل خير أمثلة على ذلك ما قاله عنه المؤرخون الثقات . فقد وصفه الذهبى بقوله : « ومن شدة انشغاله بالعلم يروى عنه أنه قال: لى ستون سنه بالإسكندرية ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غرفة يجلس فيها » (١١) .

ويقول عنه فى موضوع آخر « وكان مكبا على الكتابة والاشتغال بالراوية»(١٢) وذكره اليافعى بقوله : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكبا على الاشتغال والمطالعة والنسخ » (١٣).

واتخذ السلفى من « المدرسة العادلية » التى بناها له الأمير « أبو الحسن على ابن السلار » بالإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) (١٤) مكانا للتدريس وإفادة طلاب العلم . وقد أنشئت هذه المدرسة بهدف نشر المذهب السنى ، يقول ابن خلكان عن منشئها « وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ السلفى فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية »(١٥) .

ومن العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة : القراءات ، والحديث ، والفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى (١٦) :

• أخلاق السلفى ـ عدالته وسعة علمه ـ مذهبه :

كان للسلفى ـ رحمه الله ـ شخصية متميزة جعلت الكثير يثق فيه ويحترمه ويجله ، فقد كان حليما متواضعا يألف الناس ويألفونه ، ويقبل على الجميع بالتلطف معهم ، والإخلاص لهم ، يقول عنه الذهبى « وكان حليما متحملا لجفوة الغرباء »(١٧)، ويصفه الصفدى بقوله « لا يكاد تبدو منه جفوة فى حق أحد وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » (١٨).

ومن الآداب التى التزم السلفى بها عند جلوسه لتعليم الحديث أو إلقاء درس من الدروس ، أنه كان ، يجلس من أول المجلس إلى آخره لا يبصق ، ولا يتنخم ، ولا يشرب ، ولا يتورك فى جلوسه ، ولا يبدو له قدم ، وإن بدت غطاها(١٩) . وإذا نظرنا إلى عدالته وسعه علمه ، وما قيل فى شأنه من قبل المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ، نجد أن هناك شبه إجماع بينهم على الثقة به وبعلمه ، وبمدى تحريه وضبطه لما ينقل .

وها هم أولا أبرز العلماء الذين تحدثوا عنه :

قال عنه ابن الآبار الاندلسى « تفرد [أى السلفى] فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل»(٢٠) . وقال عنه ابن خلكان « أحد الحفاظ المكثرين .... ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » (٢١) . ووصفه الذهبى بقوله : « كان السلفى جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعرفهم بقوانين الراوية والتحديث ، جمع بين علو الإسناد وعلو الانتقاء وبذلك تفرد عن أبناء جنسه » .

كذلك وصفه الصفدى ، وصفا جامعا ، كشف لنا فيه عن عالم قلما يجود الزمان بمثله فقال : «كان (السلفى) إماما مقرئا مجودا محدثا حافظا جبهذا ، فقيها مفننا ، نحويا ماهرا ، لغويا محققا ، ثقة فيما ينقله ، حجة ثبتا » (٢٣).

وذكره ابن الجزرى فقال عنه « كان السلفى أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم »(٢٤)

وأخيرا يقول عنه السيوطى « كان إماما حافظا متقننا ، ناقدا ، ثبتا ، دينا خيرا ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته ..... وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الراوية »(٢٥) .

هذه أشهر الروايات التى وصف بها السلفى من علماء ثقات ، وعلى الرغم من بعض المبالغات التى نلمسها فى بعض الألفاظ التى قيلت فيها ، إلا أنها جاءت مجمعة على أنه كان ثقة فى رواياته متحريا ناقدا صاحب ورع وتدين امتد به العمر حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسنادا .

أما عن مذهب السلفى وعقيدته ، فقد اشتهر بأنه كان سنى المذهب حسن الاعتقاد متقنا للفقه على المذهب الشافعى ، وشيخه فى هذا المجال هو « الكيا الهراسى » البغدادى(٢٦) وكان السلفى دائما ما يعتز بانتسابه إلى مذهب الإمام الشافعى ــ رحمه الله تعالى ــ وقد سجل ذلك عن طريق بعض الآبيات التى يقول فيها :

إمَامى الشافعى وحين أفتى ... بمذهبه المهذب طال عيشى

وإنى لا أبالى بانفرادى ... وبقوة حجتى فى ألف جيش(٢٧)

ولم يكن السلفى متشددا فى مذهبه ، بل كان ذا عقليه متفتحة لا يعميها التعصب ، وآية ذلك أننا نراه ينقل فى كتابه بعض الأشعار عن مدح المذهب المالكى وإمامه ، منها رواه مسنداً إلى " ابن العسال " بقوله :

أيا من غدا جاهلا ناسكا ... إن أحببت أن لا ترى هالكا

فأم إمام الهدى مالكا ... ولا تك مذهبه تاركا

فمذهبه ناشر من كـ ... ـفن لمن كان مذهبه فى جهله قد دفن(٢٨)

ونراه أيضا يعلق بعض الأشعار الحسنه عن أناس اشتهروا بالتشيع ، ويصرح بذلك ، فيقول مثلا عن " أبى الوفاء صادق بن عبد الله " قاضى الإسكندرية أنشدنى لنفسه :

العلم فرع طيب أصله ... لا شك والعقل له أصل

فارجع إلى العقل وخل الهوى ... فما لك العقل له الفضل

ويترجم له فيقول : أبو الوفاء هذا كان من أهل الوفاء حسن العشرة عارفا بالأحكام .... وكان إسماعيلى المذهب " (٢٩) كذلك بلغ من عدم تعصب السلفى وحسن دينه وحياده ، أن كاتب الزمخشرى (٣٠) وهو معتزلى المعتقد يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته (٣١).

مكانته التاريخية :

كان للسلفى ميل كبير لدراسة التاريخ وروايته وتدوينـه ، والتصنيـف فيـه ، خاصة علم الرجال أو ما اصطلح على تسميته « بتاريخ السير والإعلام » ، لما لهذا اللون من التأليف مـن صلـة وثيقـة بعلـم الحديـث الشريف الـذى كـان السـلفى متخصصا فيه ، وكرس حياته لخدمته ودراسته .

وسوف نتناول بشىء من التفصيل هذه الجوانب التاريخية من حيـاة السـلفى حتى يمكننا الوقوف على مدى إسهاماته ومكانته فى هذا المجال .

وأول ما نلحظه فى تنفيذ هذا المنهاج هو روايته لكتب الأقدمين المشـهورين بالثقة فى تدوين التاريخ الإسلامى أمثال ، المؤرخين : « ابن هشام »« وابـن عبـد الحكم » فى كتابيها « السيرة النبوية » ، « وفتوح مصر وأخبارها ».

أما عن السيرة النبوية لابن هشام فإن رواية السلفى لهذا الكتـاب قـد لاقـت شهرة كبيرة فى أكثر من بلد (٣٢) وآية ذلك أننا نجد بعض الطلاب الذيـن سمعـوه منه وقرأوه عليه . يحدثون بروايته (٣٣) وبما نسخوه عن الأصل المكتوب بخـط يـده فى البلاد التى رحلوا إليها ومنها مكة والشام (٣٤) ويعنى ذلـك أن الكتـاب محـاط بأكبر قدر من التثبت والتحرى ، مـادام منقـولا عـن طريـق السـلفى الـذى اشتهر بالصدق والعدالة ، وهذه شهادة تحسب له .

أما عن روايته لكتاب فتوح مصر وأخبارها ــ للمؤرخ « ابن عبد الحكم » الذى يعد أبرز وأهم وثيقة تاريخية عن الفتح الإسلامى لمصـر وقيـام دولـة الإسـلام فيها فنجدها (أى رواية السلفى) مصدرة فى الصفحـة الأولى مـن الكتـاب (٣٥) بإسناد متصل بدءا من شيخه « أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى » وانتهـاء بعلى ابن الحسن المعروف بابن قديد الذى يعتبر أخر من تلقى كتاب فتوح مصر مباشـرة كما دون عن صاحبه الأصيل ابن عبد الحكم (٣٦) .

وقد اتضح من خلال هذا الإسناد أن « السلفى » هو الراوى الأخير ، الذى وصلنا عن طريقه كتاب « فتوح مصر وأخبارها » بنصه الحالى ، فهو أخر حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم مدون الراوية وصاحبها(٣٧) .

ومع ما اشتهر به السلفى من حفظ وتحقيق وعدالة ، فضلا عن تعمقه فى مجال الجرح والتعديل ، فإننى أرجح الرأى القائل : بالاطمئنان والثقة إلى أن كتاب فتوح مصر بنصه الحالى مطبوع بطابع عميق من التثبت والصحة والضبط مع خلوه من أى دس أو لبس (٣٨) .

وأزيد على ذلك بقولى : أننا مدينون لهذا الرجل العظيم (السلفى) بالفضل ، إذ لو لا أن قيده الله تعالى لهذا العمل ، لكان من الجائز جدا أن تحوم الشبهات وتتدخل الاساطير فى أقدم وأنفس وثيقة وصلتنا عن الفتح الإسلامى لمصر .

ومن الكتب التاريخية التى رواها السلفى أيضا : كتاب « فضائل مصر وبيت المقدس والشام » للمؤرخ عمر بن يوسف الكندى (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م)(٣٩) كذلك من مجهوداته المشكورة وإسهاماته فى علم التاريخ ، مختصراته لبعض الكتب المشهورة مثل « مختصر كتاب تاريخ بخارى » لمحمد بن أحمد البخارى (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) (٤٠) .

« وكتاب تاريخ طرابلس » لأبى الحسن على بن عبد الله الطرابلسى (ت٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) وذكره السلفى فى كتابه « معجم السفر » بقوله : «أبو الحسن هذا كان من بين الصلاح ... وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف لطرابلس تواريخ وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربته وحدثنى به » (٤١) .

وإلى جانب ذلك قام السلفى بانتقاء بعض المصنفات من كتب التاريخ ، وتحقيقها والتعليق عليها والتدريس منها . من أشهرها : كتاب « الإرشاد إلى معرفة علماء الحديث والبلاد » لأبى يعلى الخليل بن عبد ا لله القزوينى (ت٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م) (٤٢) .

• أما عن أهم الكتب التاريخية التى قام السلفى بتألفيها فهى على النحو التالى :

« معجم أصبهان » أو « المشيخة الإصبهانية » وهذا المعجم عبارة عن تراجم جمعها السلفى عن شيوخه بمدينة أصبهان وهم يزيدون على ستمائة شيخ . يقول الذهبى : « وله معجم لمشيخة أصبهان فى مجلد أزيد من ستمائة شيخ »(٤٣) ووصفه السبكى بقوله : « وعمل معجما حافلا لشيوخه الإصبهانيين »(٤٤) وهذا الكتاب مفيد لدارسى تاريخ الحركة الأدبية والفكرية لمدينة أصبهان خلال القرن الخامس الهجرى.

« معجم بغداد » أو « المشيخة البغدادية » قام السلفى بتأليفه لشيوخه الذين أخذ عنهم ببغداد ، وأورد ذكره ضمن كتابه « معجم السفر » (٤٥) ومعجم بغداد لاغنى عنه للمشتغلين بتاريخ الحركة الفكرية ببغداد فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

• أما أخر هذه المعاجم وأهمها وأشهرها ذكراً فهو « كتاب معجم السفر» الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وقد ذكره السخاوى ضمن كتابه «الإعلان بالتوبيخ » (٤٦) وسوف اقتصر على ذلك فى الإشارة إليه ، كى أخصه بمزيد من التفصيل بعد قليل .

ولم تقف مجهودات السلفى فى التأليف التاريخى عند هذا الحد ، بل ترك لنا عددا أخر من المؤلفات عبارة عن تراجم مفردة - لبعض العلماء الذين تأثر بهم - واصطلح على تعريفها « بالسير الذاتية » من أشهرها :

• كتاب : « ترجمة حياة محمد بن أحمد الأبيوردى » المعروف بأبى المظفر(٤٨) .

• ترجمة : « حياة أبى نعيم الأصبهانى » قال عنه الذهبى قد جمع ... السلفى أخبار أبى نعيم وذكر من حدثه عنهم وهم نحو ثمانين رجلا (٤٩) .

وبعد فهذه هى أبرز إسهامات السلفى فى ميدان علم التاريخ ، ما بين رواية لكتب المؤرخين الأقدمين المشهورين بالثقة ، ومختصرات لبعض الكتب وانتقاء المستغرب منهما وتحقيقه ، ثم مؤلفاته القيمة فى مجال علم الرجال أو السير والإعلام الذى كان فارسه المجلى خلال القرن السادس الهجرى .

والآن يأتى دور الحديث عن أهم وأبرز الكتب التى ألفها ، وهو كتاب «معجم السفر» .

نسبة الكتاب إلى السلفى :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب « معجم السفر » إلى السلفى ، فقد أجمع أكثر من مؤرخ موثوق به على نسبته إليه . من بينهم :

« ابن خلكان » الذى أشار إليه فى كتابه « وفيات الأعيان » فى أكثر من موضع نقل فيه عن السلفى (٥٠) .

وها هو ذا أحد الأمثلة :

يقول ابن خلكان فى ترجمته لأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن القابسى « وذكر الحافظ السلفى فى « معجم السفر » أن شخصا قال فى مجلس القابسى وهو بالقيروان .... »(٥١) .

وبمقارنة ذلك المثال على ما ورد بالنسخة المطبوعة لكتاب «معجم السفر»، والتى اعتمدت عليها هذه الدراسة وجدت أنهما متطابقتان تماما مما يوضح أن الكتاب للسلفى (٥٢) .

وهناك أيضا ما ذكره « الذهبى » فى كتابه « تذكرة الحفاظ » بقوله : « وله (أى للسلفى) معجم لباقى البلاد سماه « معجم السفر »(٥٣) بالإضافة إلى ما أورده فى كتابه سير اعلام النبلاء بقوله « وقد جمعوا له من جزازة وتعاليقه " معجم السفر "فى مجلد كبير »(٥٤) .

وأخيرا يؤكد السخاوى على نسبة الكتاب للسلفى ، ليس هذا فحسب بل نراه يصنف كتابه ضمن أهم المؤلفات التاريخية فى التراجم تحت باب« الرواة المعتمدون أو المصنفون » ، يقول السخاوى « ومعجم السفر . للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد »(٥٥) . وفى باب « المعاجم والمشيخة » يؤكد السخاوى مرة أخرى على ذلك بقوله : « ... ومنهم السلفى له ... معجم السفر »(٥٦) . وعلاوة على هذه المصادر ، فأن الكتاب الذى بين أيدينا نشر عن نسخ خطية معترف بها فى أكثر من خزانة لكتب التراث فى أنحاء العالم ، منها نسخة محفوظة فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، وهى التى اعتمدها المحقق فى طبع الكتاب (٥٧).

- **هل « معجم السفر » هو ذاته معجم الشعراء ؟**

ذكر « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن للسلفى معجما بعنوان « معجم الشعراء » وقد نقل ذلك عن ياقوت الحموى من كتابه الشهير « إرشاد الأريب أو معجم الأدباء » (٥٨) .

وهذا المعجم المذكور لم أجد له شبيها بهذا الاسم ضمن المصادر التى اطلعت عليها سوى فى كتاب « معجم الأدباء » فالمشهور والمتواتر فى المصادر التاريخية الأخرى أن للسلفى ثلاثة معاجم فقط هى : معجم أصبهان ، ومعجم بغداد ، ومعجم السفر (٥٩) .

فكيف انفرد إذا ياقوت الحموى بذكر هذا المعجم دون سواه من المصادر التاريخية الأخرى ؟

وللإجابة نقول : لقد اتضح من خلال المقارنة بين ما صرح به ياقوت فى معجم الأدباء بالنقل من معجم الشعراء وبين ما دونه السلفى بكتاب « معجم السفر » أن ما نقله ياقوت هو ذاته ما وجد مدونا « بمعجم السفر » دون أدنى تبديل أو تغيير (٦٠) وعلى سبيل المثال :

ذكر ياقوت فى ترجمة « الحسن بن أحمد بن على الفارسى » ما نصه : «قرأت فى معجم الشعراء للسلفى : أنشدنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى بديار مصر قال : أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف النحوى لنفسه بالأندلس فى كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى :

أضع الكرى لتحفظ الإيضاح وصل الغدو لفهمه برواح

إلى أخر الأبيات (٦١) .

ونص ما ذكر موجود بتمامه فى كتاب « معجم السفر » المطبوع الذى بين أيدينا ص ٣٩ ــ ٤٠ .

وغير ذلك فهناك أكثر من مثال يتمشى مع هذا النمط (٦٢) .

وإزاء ذلك فإننى أرجح احتمالاً واحداً وهو : أن كتاب معجم الشعراء الذى انفرد بذكره ياقوت هو نفسه كتاب « معجم السفر »

ومما يجعلنى أرجح هذا الاحتمال عدة أمور :

أولها : أن ياقوت هو الوحيد من بين جميع المصادر التى اطلعت عليها هو الذى نسب هذا الكتاب للسلفى .

ثانيها : أن ما نقله هو ذاته ما وجد فى « معجم السفر » .

ثالثها : أن الاسم الأخير للكتاب وهو « معجم السفر » هو الذى ظل مشهوراً وتناقله الخلف عن السلف حتى يومنا هذا .

وبناء على ما تقدم فإن ياقوت قد جانبه الصواب فى تحديد الاسم الأصلى للكتاب بيد أنه من باب الإنصاف أن نذكر أن كتاب « معجم السفر » قد ضمنه صاحبه السلفى الكثير من الأشعار ، حتى أنه يخيل للقارئ أن كل من التقى بهم السلفى وجمعهم فى معجمه هذا من الشعراء (٦٣) .

ويبدو أن كارل بروكلمان ، اعتمد على ما نقله ياقوت دون تمحيص أو تحليل . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا الصدد وهى : أن أحد المستشرقين ذكر ـ فى مقال له نقل فيه بعض الأخبار الخاصة بمسلمى صقلية عن كتاب « معجم السفر » ــ أن كارل بروكلمان لم يصنف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى « معجم السفر » من بين مؤلفات السلفى التى ذكرها (٦٤) .

ويعلق على ذلك فى موضع آخر فيقول « ربما جهل بروكلمان وجوده » (٦٥) .

والحقيقة أن هذا المستشرق يشترك مع بروكلمان فى عدم الإحاطة بهـذا الكتـاب « معجم الشعراء » ، و بالتالى فإنه لم يدرك أن معجم الشعراء ما هو إلا « معجم السفر » .

• كيف وصل إلينا كتاب « معجم السفر » ؟ :

ورد فى صدر الصحيفة الأولى من مخطوطة « معجم السفر » المحفوظـة فـى مكتبة عارف حكمت والمعتمـدة لـدى المحقـق النص الآتـى : « بسـم ا لله الرحمـن الرحيـم ، الحمـد لله على آلائـه وصلواتـه على محمـد خـاتم أنبيائـه ، وعلـى آلـه وأصحابه وأصفيائه وسلم كثيرا وبعد ، فإن جزازات من معجم السفر وقعت بخـط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى رضى عنه فبيضتها ورتبتها كما يجب ، وا لله أسأل النفع بذلك إنه رحيم كريم » (٦٦) .

ويتضح من هذا النص عدة أمور على جـانب كبير مـن الأهميـة : أفصلهـا على النحو التالى :

أولا : أن كلمة « جِزَازَات » الواردة جمع جِزَازَة من كل شئ ما قطـع منـه فهى مأخوذة من جزَّ بمعنى قطع (٦٧) . وغاية ما نستطيع أن نفهمه مـن ذلـك أن كلمة « جزازات » عبارة عن قطع من الورق أشبه بمسودات أو صحـائف صغـيرة تكتب لأول مرة ثم تنقح وتحرر وتبيض (٦٨) ومعنى هذا أن السـلفى – رحمـه ا لله – اتبع هذه الطريقة فـى تدويـن كتابـه ، فكـان يسـجل مـا يسـمعه أو يعرفـه مـن تعليقات – على عدة مراحل بما يشبه الكشف المتدرج – فى بطاقات أو صحائف، على أن يعاود تنظيمها وضبطها فـى مواضعهـا ، وهـذه الطريقـة تتطلـب أن يـترك المؤلف فراغات واضحة بمسوداته لما قد يضيفه من معلومات طارئة أو متجددة(٦٩) وهذا ما وجدناه متبعـا فـى كتـاب « معجـم السـفر » فالكثـير مـن الـتراجم التـى أوردها السلفى جاءت ناقصة وبها فراغات واضحة . وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول السلفى : « أنشدنا أبو محمد بن توهيب الوراق لنفسه .... » (٧٠) ثم نرى بعد ذلك فراغا ولا نجد شعرا لابن توهيب . وعلى هذا يمكننا قياس الكثير من التراجم والأخبار التى وردت فى المعجم (٧١) .

وهناك أيضا سبب آخر جعل الكتاب به ثغرات كبيرة لم تكتمل ـ بناء على الطريقة التى اتبعها السلفى - وهو : أن مجموعات كبيرة من التعليقات التى دونها عن شيوخه كان قد تركها وديعة فى بعض البلاد التى زارها أثناء رحلته ، على أمل أن يهيئ الله له إحضارها بطريقة أو بأخرى . غير أن هذا الأمل لم يتحقق ، ولم يمهله القدر فى إحضارها ووضعها فى كتابه ، ولذلك جاءت معظم ترجماته فى « معجم السفر » ناقصة .

ويمكننا أن نتبين هذا من خلال الإشارات الكثيرة التى أوردها فى ثنايا كتابه والتى تفيد أيضا أن هذه المجموعات كانت ذات قيمة كبيرة لديه .

وها هى ذى بعض النماذج :

يقول السلفى فى ترجمته للفقيه شريف بن فياض « وقرأت عليه أحاديث.... وهى مودعة فى جملة ما أودعته بثغر آمد » (٧٢) .

وفى ترجمته « لشفاء بن عبد الجبار » يقول :« وما كتبته عنه فى جملة ما خلفته بثغر سلماس مودعا » (٧٣) .

وفى ترجمة عبد الله بن الحسين يقول :« وما كتبته عنه ففى جملة الأجزاء المودعة بسلماس أوصلها الله تعالى إلى بكرمه » (٧٤) .

وذكر فى ترجمته « لـ عبد الله بن أبى نصر الشيرازى » « وعلقت عنه من حكايات الشيوخ وهى كلها فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس جمعها الله على قبل الممات بفضله وكرمه » (٧٥).

وفى ترجمة « على بن السند » يقول : « ولم أظفر الآن بما كتبته عنه فهو بثغر آمد مع فوائد ديار بكر مودع سهل الله وصول الكل إلىّ »(٧٦) .

ولا أطيل بذكر هذه الأمثلة العديدة(٧٧) وحسبى أن يكون فيما أوردته بيانا على أن الكثير من أجزاء هذا الكتاب لم تدون ، والتى تركت معها ثغرة كبيرة جعلت الكتاب يبدو ناقصا من نواحى كثيرة (٧٨) .

وهذه النقطة تحيلنا إلى تساؤل على جانب كبير من الأهمية ، وهو : متى انتهى السلفى من تدوين كتابه ؟

والإجابة على هذا التساؤل تبدو عسيرة بعض الشئ ، لأن آخر تاريخ صرح به السلفى فى معجمه كان سنة ٥٦٣ هـ(٧٩) مما يعنى أنه وقف فى تدوين كتابه عند هذا التاريخ .

بيد أن ذلك الحكم يؤخذ بتحفظ ، لأن السلفى توفى سنه ٥٧٦ هـ . ومن المستبعد أن يظل ثلاثة عشرة سنة لا يدون فيها شيئا عن شيوخه سواء الذين كانوا بالإسكندرية أو الوافدين عليها ، خاصة بعد ما عرفنا من المصادر أنه ظل متمتعا بالصحة والحواس السليمة ودقة الملاحظة حتى آخر ليلة من وفاته . ويؤكد ذلك الذهبى بقوله : « وحدث ليلة موته ، وهو يرد اللحن الخفى على القارئ ، وصلى الصبح ومات فجأة » (٨٠) .

وهذا يجعلنى أعتقد أن السلفى لم يتوقف فى كتابه عند سنة ٥٦٣ هـ . ولعل ما يقوى هذا الاعتقاد ويرجحه أنه أورد تراجم فى كتابه « معجم السفر » لبعض الرجال الذين عاصرهم وقابلهم عاشوا بعد هذا التاريخ بمدة . وقد وجدنا تاريخ وفاتهم مدون فى المصادر الأخرى ، منهم على سبيل المثال :

« اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى الأندلسى»(ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)(٨١) و «عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى اليابس»(ت٥٧٢هـ/١١٧٦م)(٨٢) و « أبو الطاهر إسماعيل بن عوف » ، (ت ٥٨١هـ ١١٨٥ م) (٨٣) .

والذى يمكن أن نستخلصه أخيراً بعد هذا العرض هو : أن السلفى جمع أجزاء كثيرة من مادة كتابه ، ولكنه لم يتمها على الوجه الأمثل الذى أراده هو

وأردناه نحن ، بل ظل نمو جمعه للمادة العلميـة يطرد مـع الأيـام لم يصـل فيهـا إلى نهاية محددة تنتهى بتاريخ معين . و لم يمهله القدر ليدون ما جمعه فى كتـاب خـاص بذاته مرتب ومبوب عن طريقه هو ، بل ظلت مادة كتابه علـى هيئـة مسـودات أو صحائف أو ما أطلق عليه « جزازات » إلى أن هيأ الله تعالى مـن يقـوم مـن بعـده بجمعها وترتيبها ثم نسخها فى شكل كتاب .

ومن هنا نصل إلى « ثـانى الأمـور » المتعلقـة بمـا ورد فـى صـدر الصحيفـة الأولى من المخطوط الذى طبع عنه الكتاب الذى بين أيدينـا . وهـذا الأمـر متعلـق باسم الناسخ الذى قام بتبييض وترتيب هذه الجزازات .

وبما أن النص لا يشير إلى اسم الناسخ ، فقد وجدنـا مـا يدلنـا عليـه ، وهـو السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » . يقول السـخاوى « ومعجـم السـفر ، للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد بخط محمد بن المنذرى ، قال عن أبيـه الزكـى : أنه وقع له بخط السلفى فى جزازات ، كل ترجمة فى جزازة ، فبيضها ورتبها كمـا تجئ لا كما يجب ، وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » (٨٤).

وحلقة الاتصال الأولى كما تبدو من هذا النص شملت الزكى المنذرى بصفته الجامع الأصلى لمسودات السلفى ، والقائم بترتيبهـا . أمـا الحلقـة الثانيـة فهـى ابنـه محمد الذى أوكل إليه المنذرى مهمة نسخ الكتاب . ، ويفسر ذلك قوله « فَبَيَّضَهـا ورَتَّبها كما تجئ لا كما يجب « بالكسرة المشددة فى حرف اليـاء فـى (بيضهـا) والتاء فى (رتَّبها) ومع أن هاتين الكلمتين لم يضبطا بالشكل فى النص الـوارد إلا أن ذلك يتمشى مع سياق الجملـة، فضـلا عـن أنـه يتفـق مـع مـا ورد فـى صـدر الصحيفة الأولى من المخطوط فى قوله « فبيضتها ورتبتها كما تجئ لا كما يجب» بلفظ المتكلم على لسان محمد بن المنذرى ناسخ المخطوط كما بين السخاوى .

ولعل ما يفسر قول المنذرى الوارد فى النص « كما تجئ لا كما يجب » أنـه أضاف إلى جانب ترتيبه لمسودات تراجم السلفى بعض القول والإشـارات ، فـأراد بذلك أن يضع قاعدة لابنه « محمد » يسير عليها عند نسخ الكتاب فلا يشذ عنها.

وربما يكون هذا ما قصده السخاوى من قوله عن المنذرى « وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » .

بيد أن الشئ الذى يحسب للمنذرى فى نقوله وإشاراته التى أوردها فى معجم السفر ، أنه أضاف نصوصا بأكملها ، من المرجح أنها ضاعت من أصول السلفى ، وعثر هو عليها مدونه بخطوط أصحابها . ليس هذا فحسب بل كان ينبه القارئ بين ما كتبه السلفى بخطه ، وبين ما كتبه غيره له . وفى كل هذه المواضع كان المنذرى يصرح باسمه ، فإذا ما كان الكلام للسلفى بعد ذلك أبانه بقوله «قال الحافظ» أو « رأيت بخط السلفى » كى يفطن القارئ بين هذا وذاك فلا يحدث التباسا ، والأمثلة على ذلك قليلة فى « معجم السفر » (٨٥) مما يعنى أن مداخلات المنذرى كانت بغرض حفظ تراث السلفى وإثباته .

كذلك يحسب « للمنذرى » ترتيبه وتنسيقه للكثير من الورقات التى قام السلفى بتعليقها ولم يضعها فى مظانها . وكان « المنذرى » ينص على ذلك صراحة مكتفيا ببعض العبارات مثل « وفى ورقة أخرى » (٨٦) و « بخطه يعنى السلفى يقول » (٨٧) و « قال السلفى فى رقعة أخرى » (٨٨) وهكذا .

وإزاء ذلك فنحن أمام حقيقتين : الأولى : أن المنذرى هو الجامع الأصلى لمسودات « معجم السفر » وصاحب الترتيبات والإضافات التى فيه ، والثانية : أن ابنه محمداً هو الناسخ الذى يمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة توصيل الكتاب إلينا .

فمن هو إذا المنذرى ، وما مدى توثيقه وعدالته ، وكيف استطاع الحصول على مسودات كتاب « معجم السفر » ؟ ومن هو ابنه محمد ، وما مدى عدالته ؟

ولاريب فى أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تعيننا كثيرا على الاطمئنان والتثبت من أصول الكتاب ، وبأنه دون فعلا عن صاحبه السلفى .

أما عن المنذرى : فهو : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله الشهير «بزكى الدين المنذرى» أصله من الشام ، وولد بمصر سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥م ،

ونشأ وتوفى بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، أى أنه مصرى المولد والدار والوفاة. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر وانقطع بهما مدة عشرين سنة، وكان من المتبحرين فى علم الحديث على اختلاف فنونه ، وله اليد الطولى فى علم اللغة والفقه والتاريخ (٨٩) .

وعن توثيقه وعدالته ، فقد قال فيه ابن خلكان « الحافظ زكى الدين .... محدث مصر فى زمانه » (٩٠) .

ووصفه ابن كثير بقوله « الإمام العلامة ... سمع الكثير ورحل وطلب ، وعنى بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه ... وكان ثقة حجة متحريا زاهداً»(٩١).

وذكره ابن تغرى بردى فقال : « الإمام الحافظ الحجة ، سمع الكثير ، ورحل وكتب وصنف وخرج وأملى وحدث بالكثير ... وهو أحد الحفاظ المشهورين »(٩٢).

وأخيرا يصفه السيوطى بقوله « الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام ... كان عديم النظر فى علم الحديث .... إماما حجة ، بارعا فى الفقه والعربية والقراءات ورعا متبحراً » (٩٣) .

إذن كان المنذرى آيه عصره فى الحفظ والتثبت وحجية القول ، وفى ذلك ما يرفع من قيمة ما دونه من كتاب «معجم السفر» ويطبعه بطابع عميق من الصحة .

أما عن كيفية حصوله على مسودات كتاب « معجم السفر » فقد ثبت تاريخيا استحالة أن يكون أخذها من السلفى مباشرة ، لأنه لم يتقابل معه أصلا . والسبب بسيط وهو : أن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمنذرى ولد سنة ٥٨١هـ أى أن السلفى توفى و لم يكن المنذرى قد ولد بعد .

ولم يبق أمامنا إزاء ذلك إلا احتمالين :

أما الأول : فهو ما ذكرته المصادر من أن السلفى كانت لديه مكتبة ضخمة حوت كل تراثه ومدوناته وغيرهما من نفائس الكتب ، لدرجة أن وصفها الذهبى

بقوله « قل ما اجتمع لعالم مثلها فى الدنيا » (٩٤) ولكن الشىء المؤسف أن هذه المكتبة تلف أكثرها بعد وفاته ، ويصور لنا ذلك المنذرى (٩٥) بقوله : وكان عنده (أى السلفى) خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة البلد (الإسكندرية) فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها »(٩٦) .

وما نستطيع تفسيره من هذا النص هو : أن مكتبة السلفى ظلت مغلقة حينا من الدهر بعد وفاته ربما حتى زمن المنذرى ، وبأمر من سلطان الدولة أو حاكم الإسكندرية مثلا تم فتحها للتصرف فى محتوياتها . وكان المنذرى حاضرا هذا المشهد ، وبطريقة أو بأخرى وقعت فى يده هذه المسودات فجمعها ودونها . وهذا الاحتمال بعيد فيما اعتقد .

وأما الاحتمال الثانى الذى ارجحه فهو أن يكون تراث السلفى هذا انتقل بعد وفاته إلى ابنته الوحيدة « خديجة » التى نشأت فى كنفه وتعلمت منه الحديث وروته عنه بالإسكندرية ، وتوفيت سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (٩٧). ولكى تحفظ « خديجة » هذا التراث لأبيها رأت أن تجيز لطلاب العلم النبهاء فيدونوه ويحفظوه ثم تتناقله الأجيال جيلا بعد جيل حتى يصبح أثرا خالدا . ويؤيد هذا التصور أن المنذرى كان أحد الطلاب الذين اجازتهم خديجة ، وقد أكد بنفسه على ذلك بقوله « ولنا منها إجازة ، كما مدحها بـ « الشيخة الأصيلة »(٩٨).

لهذا فإنه من المرجح أن تكون خديجة هى التى أعطت المنذرى مسودات «معجم السفر» وأجازت له تدوينها وحفظها وهى تعى تماما أنها ستكون يد أمينة لأن المنذرى ـ كما بينا ـ هو من هو فى علمه وفهمه وتحريه وزهده .

أما عن إجابة الشق الثانى من الأسئلة الخاصة « بمحمد بن المنذرى » ناسخ كتاب « معجم السفر » فما نعلمه من أمر حياته أنه ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م (٩٩) وقام أبوه المنذرى باصطحابه إلى العلماء الأفاضل للسماع عليهم ، ثم أكب على طلب العلم بنفسه فرحل وسمع بدمشق وحلب ، حتى وافته المنية وهو شاب فى سنة (٦٤٣ وقيل ٦٤٤ هـ) (١٢٤٥ - ١٢٤٦) (١٠٠) .

وعلى الرغم من تلك الفترة القصيرة التى عاشها « محمد بن المنذرى » إلا أنه أظهر فيها نبوغا وفطانة وفضلا . وقد دلنا على ذلك تلك الأسطر القليلة التى وصفه فيها بعض المؤرخين :

فقد قال فيه الذهبى : « الحافظ الزكى ... أحد الشباب الفضلاء .... كتب الكثير .... ولو عاش لساد » (١٠١) .

ووصفه الصفدى بقوله : «الحافظ المتقن ... كان ذكياً فطناً حافظا»(١٠٢).

نستخلص من هذا : أن شخصية محمد بن المنذرى كانت على شاكلة أبيه من الأخلاق الحسنه والذكاء والإتقان والحفظ . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على نقاء سريرته والثقة به وبعلمه مما يجعلنا نطمئن إلى الاعتقاد بأن ما نسخه من كتاب « معجم السفر » على أعلى قدر من التثبت والضبط .

وثمة تساؤل أخير ينبغى أن نعالجه فى هذا الموضوع . وهو : هل كتاب «معجم السفر» الذى بين أيدينا تم نشره مباشرة عن النسخة التى كتبها محمد بن المنذرى بخطه ، أم أن هناك حلقه أخيرة فى سلسلة توصيل الكتاب ؟

وللإجابة أقول : بعد الإطلاع على خاتمة كتاب « معجم السفر » وجدنا عبارتين تفيدان أن هناك ناسخ أخير كتب تلك النسخة التى خطها محمد بن المنذرى ، وعنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا .

العبارة الأولى « آخر ما وجد من معجم السفر » بخط الإمام الحافظ أبى طاهر الأصبهانى فى جزازات . « ويبدو أنها عبارة المنذرى » « التى خطها بقلمه ابنه محمد»(١٠٣).

أما العبارة الثانية : فهى كلمة الفراغ من الناسخ الأخير للمخطوط ونصها « فرغ من نسخه العبد الفقير إلى ربه الجواد « عبد الحفيظ بن المرحوم محمد صالح حماد » يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شوال سنة١٢٣٩هـ»(١٠٤).

وبناء على ذلك فإن « عبد الحفيظ » هذا يكون آخر حلقات الاتصال فى سلسلة نسبة سياق الكتاب إلى مؤلفة الأصيل السلفى .

بالإطلاع على المصادر التى تحت يدى لم أعثر لهذا الناسخ على ترجمة ، وكل ما استطعنا معرفته « فى ضوء النص السابق » أنه كان موجودا عام١٢٣٩هـ ، وهى سنه انتهائه من كتابة « معجم السفر » ، فهو إذًا من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

وحتى يمكننى التأكد من نزاهة وأمانة هذا الناسخ ، للتحقق من صحة أصول الكتاب ، لم يكن أمامى إلا التعرف على أسلوب السلفى ذاته فى « معجم السفر » وهل هو يتفق مع ذات الأسلوب الذى اشتهر به فى أعمال أخرى له أم لا ؟ ثم مقارنة ذلك على أساليب وصيغ كتاب العصر الذى عاش فيه السلفى ، وفى هذه الحالة إما أن يجعلنا الناسخ مرتبطين بأصول وجذور الكتاب كما دون عن صاحبه الأصيل ، وأما أن يخرجنا عن هذا الإطار .

والمطلع على أسلوب السلفى فى معجمه هذا يلحظ بوضوح أنه يغلب عليه طبع المحدثين ، فهو لا يلقى بالاً للأناقة اللفظية أو الجمال الفنى بقدر ما يعطى من الحرص على سلامة السند ، وصحة الرواية ودقة التاريخ وضبط الأسماء .

فأسلوبه سهل بيِّن يعتمد الألفاظ الدقيقة المؤدية للمعنى المراد بلا تعقيد ولا إبهام ، بالإضافة إلى أن أسلوبه يتسم بالزهد والتواضع ونزاهة النفس والإيجاز الذى يتحقق به التيسير على القارئ فيصل إليه ببساطه وعدم تكلف لدرجة أننا نجد فى بعض عباراته بعض الأساليب التى تصل إلى مستوى لغة العامة .

وإليك بعض النماذج :

فمن أساليبه التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام وتؤدى إلى المعنى المراد قوله : «المهذب هذا كان مهذبا كاسمه فى العربية وحسن الصحبة » (١٠٥) و«مفرج هذا كان كفيفا وفقيها عفيفا» (١٠٦) ومن أساليبه التى تتسم بالزهد والتواضع :

نقتطف هذه العبارات : فيقول مثلا فى ختام تراجمه التى يوردها عن شيوخه وأصحابه « رحمه الله ـ والله أعلم ـ عفا الله عنا وعنه ـ رحمه الله وإيانا ـ والله تعالى يوفقنا ويحلنا دار كرامته ـ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته » وهكذا(١٠٧) .

ومن أساليبه التى تصل إلى مستوى لغة العامة قوله : « ابن خير هذا كان معجونا من الخير » (١٠٨) أو « وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء»(١٠٩) .

وتتجلى صفه المروءة والتواضع فى أسلوبه ، فى أنه لم يثبت فى كتابه أية قصيدة أو مقطوعة قيلت فى مدحه ، مع أنها كانت كثيرة ، وإنما كان يكتفى - أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذى يمتدحه ـ بقوله «له فىَّ غير قصيدة» و « له فىَّ قصائد جمة » « وقد مدحنى بغير قصيدة » (١١٠) إلى غير ذلك من أمثلة.

وبالكشف عن درجة هذا الأسلوب ومستواه فى أعمال السلفى الأخرى أدركنا الكثير من نواحى الاتفاق بين الأسلوبين . وها هو ذا مثال : من طلب الإجازة التى كتبها بخطه إلى « الزمخشرى » كى يجيز له مسموعاته وما ألفه فى فنون العلم نلمس فيها تواضع السلفى فى مخاطبة العلماء ، وأسلوبه السهل اليسير ، وكثير من الصفات التى تجتمع مع أسلوبه فى معجمه ـ ونقتطف من تلك الإجازة العبارات التالية : يقول السلفى « إن رأى الشيخ الأجل العالم أدام الله توفيقه أن يجيز جميع مسموعاته وإجازاته ومروياته .... لأحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصبهانى ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب ... وإن تمم إنعامه أبيات قصار ومقطوعات مستفادة من الحكم والأمثال .... والشرط فى كل هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله .... ويعلم وفقه الله ـ أنه وقع إلينا كتاب من « يعقوب ابن شرين الجندى ... والحاجة داعية إلى تعرف اسمه ونسبه وضبطه » (١١١) .

كذلك اتضح لنا بعد قياس أسلوب السلفى فى « معجم السفر » على كتابه « معجم بغداد » الكثير من نواح الاتفاق بين الأسلوبين ، ففى الأول نراه

معنيًا برواية ما سمعه عن شيوخه من أحـاديث متصلـة الإسـناد إلى قائلهـا ، إلا أنـه يستطرد بين الحين والحين إلى ذكـر حادثـه طريفـة أو نـادرة أو أبيـات مـن الشعر مسندة أيضا إلى قائلها وهذا ما وجدناه متبعا فى أسلوبه « بمعجم بغداد »(١١٢) .

وأعتقد أن فى هذه الأمثلة التى أوردتها كفاء لما أردت بيانه عن هذه النقطة.

نأتى بعد ذلك إلى مقارنة هذا الأسلوب مع أساليب وصيـغ كتـاب القرنـين الخامس والسادس للهجرة حيث كان السلفى موجوداً .

والمحصلة التـى استطعنا أن نخـرج بهـا فـى النهايـة أن أسـلوب السـلفى فـى «معجم السفر» والصيغ التى استخدمها فى كتابته متفقه أيما اتفـاق مـع الأسـاليب التى كان يستخدمها كتاب هذا العصر ويصوغون فى قالبها كتبهم المتخصصة التى تدور حول رجال الحديث وعلومهم وتوضيح أخبارهم وإيراد الحكايات والأشعار عنهم مع ذكر أنسابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ..... الـخ .

ومـن أمثـال هـؤلاء الكتـاب « الإمـام المحـدث عبـد الكريـم السـمعانى » (ت٥٦٢ هـ) وكتابه الشهير « الأنساب » وابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) وكتابه « غوامض الأسماء المبهمة الواقعة فى متون الأحاديث المسندة » والحـافظ أبـو بكـر الحازمى (ت ٥٨٤هـ) وكتابه « عجالة المبتـدئ وفضالـة المنتهـى فـى النسـب » وغير هؤلاء كثيرون ممن يزخر بهم تراثنا الإسلامى حتى وقتنا الحاضر .

وأساليب هؤلاء الكتاب فـى الغـالب الأعـم ، أسـاليب محدثـين يتبـين منهـا الحرص على الأسانيد ، والكشف عن أحوال الـرواة ، والاعتنـاء بمعرفـة شيوخهم وتلاميذهم ، والتمييز بين الخبيث والطيب وبين المجروح والمعدل منهم . وكل ذلك بأسلوب سهل من غير تكلف ولا تعقيد(١١٣) .

وأخيراً، وبعد هذا العرض لأسلوب السلفى وبيان درجتـه ومستواه وقياسـه على أسلوبه فى أعماله الأخرى ، وعلى أسـاليب الكتابـة التـى كـانت سـائدة فـى عصره نقرر حقيقتين :

أولا هما : أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب « معجم السفر » الـذى بـين أيدينـا هو لمؤلفه السلفى وذلك عن طريق الأدلة التى بيناها .

ثانيهما : أن الناسخ الأخير للكتاب وهو « عبد الحفيظ بن محمد صالح حماد ـ الذى لم نعثر له على ترجمة فى المصادر التى تحت أيدينا ـ كان أمينا فى مـا نقلـه . إلينـا عن السلفى من أصول كتابه « معجم السفر»وهذا يجعلنا نطمئـن إلى أنـه لم يخرجنا عن أصل صورته الأولى . ولعل الشئ الذى يؤكد نزاهته أيضا هو : أنـه لم يتدخل فى أصول الكتاب ألا فى حدود ضيقة كإبراز كلمـة مثـلا غير واضحـة فى الأصل الذى كان ينسخ عنه ، أو تصحيح كلمة تحتمـل معنيين مختلفين وهكذا. وكان ينص على ذلك صراحة فى هامش النسخة التـى طبـع عنهـا هذا الكتاب، وقد أورد لنا المحقق بعض الأمثلة التى تشير إلى هذا(١١٤).

وإذا كان الفضل ينسب بادئ الأمر فـى جمـع شتات هـذا السفر التـاريخى القيم ــ إلى عبد العظيم المنذرى ، ويليه ابنه محمد الناسخ الأصلي للكتاب . فـإننى أرى أن هذا الرجل « عبد الحفيظ بـن محمـد صـالح » لا يقـل فضـلا عنهمـا لأنـه حافظ على ما دوناه رغم الفارق الزمنى الهائل بينهما وبينه ، وبذلك وصل الكتاب إلينا فى صورته الحالية التى بين أيدينا مما جعلنا مرتبطين بأصوله وجذوره .

* أهم محتويات الكتاب :

كتاب « معجم السفر » يضم بين دفيته تراجم حياة شيوخ السلفى ورفاقـه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم وسمع منهم خـلال رحلتـه الطويلـة التـى طاف فيها الكثير من بلـدان المشرق الإسلامى ، والذيـن عـاش بينهـم مـن أهـالى الإسكندرية وعلمائها منذ أن استقر فيها حتى وفاته ، ويشتمل الكتاب أيضا علـى تراجم لأعداد من شيوخ القاهرة الذين التقى بهم السلفى وسمع عليهم .

كذلك يتضمن الكتاب تراجم لأعداد غفيرة من العلماء المغاربة والأندلسيين وغيرهما ، من الذين وفدوا على الإسكندرية والتقوا فيها بالسلفى ، سواء فى بيتـه

أم مدرسته ، فضلا عن أن الكتاب يتضمن الكثير من الأخبار والحكايات والحكم التى فيها الكثير من العبر والفضائل ، وغير ذلك من معلومات هامة عن الحركة الفكرية والعلمية خلال القرن السادس الهجرى ، فى الإسكندرية بصفة خاصة ، وبلدان المشرق الإسلامى بصفة عامة .

الخصائص المتعلقة بمنهج السلفى فى تأليف كتابه " معجم السفر " .

وقد رأيت أن أبدأ بالحديث عن الغرض من تأليف الكتاب ثم بيان مصادر السلفى التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه . وأخيراً نعالج مسألة المنهج الذى سلكه فى عرضه التاريخى .

* الغرض من تأليف الكتاب :

كان من عادة العلماء فى كل فن أن يقدموا لمصنفاتهم بمقدمات يشرحون فيها مقاصدهم وأغراضهم التى دعتهم إلى التأليف ، حتى ينيروا السبل أمام القارئين ليكونوا على بينة وإدراك عما بداخل هذه المؤلفات . ومن هنا تصبح المقدمة جزءاً مكملا لكل كتاب .

وكتاب « معجم السفر » الذى بين أيدينا جاء خاليا من أى تقديم(١١٥) نستطيع من خلاله التعرف على دواعى ومقاصد مؤلفه . ولعلنا نلتمس للسلفى العذر فى ذلك لأنه لم يكمل كتابه على النحو الذى أراده _ كما بينا آنفا _ فكيف إذا يضع له مقدمة ! ؟

لهذا كان البحث فى ثنايا الكتاب وقراءة موضوعاته وقضاياه المختلفة هو الطريق الأمثل لبيان ذلك .

وبعد بحث وتدقيق ، هدانا الله أخيراً إلى أن الغرض الأساسى والهدف الواضح الذى سعى السلفى من أجله لتأليف كتابه هو : « خدمة السنة النبوية »: فى جميع مجالاتها المتمثلة فى إيضاح الصحيح والضعيف من الأحاديث ، وأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً ، مع إفراد تراجم خاصة لرجال عصره تحوى معلومات وافية

ودقيقة توضح حقيقة الأشخاص ، بما لهم وما عليهم من غير ظلم أو مجاملة فى ثناء لا يستحقوه .

والمتتبع لكتاب « معجم السفر » يلحظ هذه الغاية بدقة ووضوح ، فقد حوى الكتاب على ما يقرب من مائتين وخمسة وثلاثين حديثا نبويا رواها السلفى عن شيوخه(١١٦)، مفردا تراجم عن كل واحدا منهم ، بالإضافة إلى أن هناك شواهد أخرى فى الكتاب ترجح ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد وتقويه ، من أبرزها: تلك الأشعار والحكايات الصالحة التى يوردها على لسان أصحابها والتى تدل على حماسته وتأثره وحبه لسنة النبى ﷺ والرغبة الصادقة لديه فى خدمة دينه العظيم - الدين الإسلامى . وإليك بعض النماذج من الشعر والحكايات الهادفة التى تدخل فى إطار غايته الأساسية من تأليف كتابه :

فمن الشعر : تلك القصيدة التى أوردها فى مدح النبى ﷺ « على لسان أبى الفضل جعفر بن الطيب الصقلى » جاء فيها :

يَا سَّيدَ الرُّسُلِ الكِرَا ... مِ وَمنْ أَتىَ بالمُعْجِزَاتِ
لَو لَمْ يَكُن لكَ غَيْر مَا ... أُوتِيتَ من حَسَنِ الّصفاتِ
لَقَهَرْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ ... وَعَلَوْتَ فَوْقَ النَّيرّاتِ
لَكَ هَيْبَةٌ وجَلاَلَةٌ ... سَارَت إلى كُلِّ الجِهَاتِ
ومودة تلقاك من ... كل العيون الناظرات
صَلّى الإلَهُ عَلَيكَ مَا ... قَطَرَتْ دُمُوعُ الجَارِيَاتِ(١٧٧)

ومن صريح ما أورده السلفى فى تمجيد السنة النبوية المطهرة ، تلك الحكاية التى سمعها من « أبى العز نصرون بن فتوح » حيث يقول « أى السلفى » سمعت نصرون يقول : « مرضت مرضه أشفيت منها على الموت وبعت فيها كتبا أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، فذكرت ذلك بعد أفاقتى

من مرضى لأبى القاسم بن القطاع (١٨٨) فغضب عليَّ غضباً شديداً وقال : كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ، هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره و لم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسى ومن الحاضرين وندمت غاية الندم»(١٩٩).

وإلى جانب ذلك فقد ضمن السلفى كتابه الكثير من الأخبار عن المتصوفين الحقيقيين ، وذكر الحكايات ذات العظة والعبرة عنهم ، التى تدعو إلى مكارم الأخلاق والصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم(١٢٠) والسلفى بذلك يفتح أكثر من نافذة لكى توصله إلى هدفه المنشود وهو خدمة السنة النبوية ، وليكن التصوف الحقيقى وأخبار رجاله أحد هذه النوافذ التى توصله إلى غرضه السامى والنبيل .

وإضافة إلى ما ذكر : فإن ثمة شئ جدير بالتسجيل فى هذا الصدد ، وهو . أن تلك الغاية التى ارتضيناها من وراء تأليف هذا المعجم نراها تتمشى بوضوح مع مذهب السلفى الذى كان يدين به وهو : المذهب السنى.

مصادر السلفى فى « معجم السفر » :

اتخذ السلفى لنفسه منهجاً خاصاً فى ذكر مصادره ربما اختلف عن الطريقة التى سلكها المؤلفون السابقون له أو الخالفون من بعده .

فالمصادر التى استقى منها مادته الخبرية ، تعتمد على المصادر المباشرة التى تقوم على المقابلة والمشافهة والأخذ المباشر عن ألسنة الرواة . وقد التزم السلفى بذلك التزاما شديداً فلم يجمع مادة كتابه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ،

و لم يسجل ترجمة دون أن يكون قد قابل صاحبها وتحدث معه وكتب إليه ، ليس من بينهم ترجمة لعالم من الذين ماتوا قبله .

والصيغ التى وردت فى الكتاب واستخدمها السلفى فى التلقى تكاد تجمع على ذلك ، وهى : إما : (سمعت فلانا) أو (اخبرنى) أو (أنشدنى) ، أو (حدثنى) أو (رأيت فلانا وقال لى) وهكذا تطالعنا هذه الصيغ فى كل صفحات الكتاب .

وهذه المصادر التى تلقى عنها مادته العلمية : كثيرة بشكل ملحوظ حيث يبلغ عددها على وجه التقريب - ٧٩٤- مصدرا الغالبية العظمى منها لشيوخ وعلماء عاشوا بالإسكندرية ، فهم إما من أهلها أو من بلاد أخرى نزلوا بها واتخذوها مقر إقامة دائمة ، وما عدا ذلك لعلماء من بغداد والحجاز أو غيرهما من البلاد ، أخذ عنهم السلفى وسمع منهم ببلادهم أو أثناء عبورهم بالإسكندرية .

ولو أردنا التحدث عن جميع هذه المصادر لا تسع بنا المدى ، وابتعدنا بعض الشئ عن مقصدنا ، لذلك سوف نكتفى بالحديث الموجز عن أشهرهم ذكراً وأكثرهم مساهمة فى إعداد المادة العلمية ، وعليهم كان اعتماد السلفى فى تدوين معلوماته ثم نعقب بالحديث عن بعض الرواة المشهورين الذين اكتفى السلفى بإيراد القليل من الأخبار عنهم ، ثم نعرض للقلة غير المشهورة من الرواة الذين أخذ عنهم ، وأخيرا نعرض لبعض المصادر المباشرة التى تجاهل السلفى ذكرها .

*** أما عن الفريق الأول فمن أبرز أفراده :**

- « أبو الكرم خميس بن على الحوزى » (ت ٥١٠هـ / ١١١٦ م) :

وينسب إلى قرية حَوْز بمدينة واسط (١٢١) وهو من الرجال الذين عثرنا لهم على ذكر وصدى طيبين فى المصادر ، فمن أشهر ما قيل عنه : أنه كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفى شيوخه كثرة ، وكان معلما لم يزل يعرف فضله ومؤدبا كل متأدب . أنار بواسط لأهلها كل ليل من الجهل (١٢٢) .

وعلاوة على ذلك فقد خصه السلفى بترجمة فى كتابه « معجم السفر » . تحمل هذه المعانى وتبين درجة اعتماده عليه فقال : « علقت عنه فوائد ، وسألته عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبته فى جزء ضخم هو عندى (١٢٣) وقد أملى على نسبه ... ومولده سنة (٤٤٧هـ) والله تعالى يرحمه وإيانا إذا صرنا إلى ما صار إليه ، فقد كان إتقانه ممن يعول عليه » (١٢٤) .

و« خميس بن على » هذا من أكثر شيوخ السلفى الذين اعتمد عليهم فى السؤال عن أحوال الرواة، فعليه كان معول السلفى الأساسي في تدوين معلوماته - فقد أخذ عنه بطريق مباشر فى حوالى اثنى عشر موضعاً . مصرحاً باسمه فى جميعها (١٢٥) .

- و « أبو صادق مرشد بن يحيى المدينى المصرى » (ت٥١٧هـ / ١١٢٣م) كان من المحدثين المنفردين بعلو الإسناد بمصر ، مشهوراً بالثقة والصلاح والخير، يقول عنه السيوطى « كان أسند من بقى بمصر » (١٢٦) .

وأبو صادق هذا سافر إليه السلفى خصيصا من الإسكندرية للأخذ عنه وعن طبقته خلال رحلته الوحيدة التى قام بها إلى القاهرة (١٢٧) ومن خلال تتبعنا لـ«معجم السفر» وجدنا أن أبا صادق كان له أثر كبير فيه ، إذ أفاد منه السلفى فى كثير من التراجم التى جمعها عن شيوخ مصر الذين التقى بهم فى مجالس أبى صادق . وقد ذكرها السلفى فى كتابه حوالى أربعة عشر مرة (١٢٨) .

- و« أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى »(١٢٩) (ت٥٢٠هـ /١١٢٦م).

كان إماما عالما زاهدا ، فقيها على المذهب المالكى ، عنده تواضع وتقشف راضيا من الدنيا باليسير(١٣٠) ولد سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) بالأندلس ورحل إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م) واستقر به المقام بالإسكندرية فقطنها حتى وفاته دفن بها (١٣١) ويكفى لتوضيح مكانتة ما قاله عنه ابن تغرى بردى « وفضله مشهور لايحتاج إلى بيان » (١٣٢) ومن خلال ما ورد فى « معجم السفر »

نستطيع أن نتعرف على أن السلفى قابل الطرطوشى بالإسكندرية ، وكان يحضر مجالس علمه ، التى استفاد منها فى بعض نقوله التى صرح بها فى معجمه (١٣٣)

* أما عن الفريق الثانى فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء كثيرون ، وقد استطعنا من خلال تتبعهم فى كتب التراث الأخرى أن نتعرف على أصالتهم والثقة بهم ، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال :

- « أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق المقرئ » المعروف بابن الفحام (ت٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) ، قال عنه السلفى « من كبار القراء .... وكان حافظاً صدوقاً متقناً عالماً كبير السن » (١٣٤) .

وما قاله عنه المؤرخون لا يختلف عن هذه المعانى بل يؤكد عليها ويبين مدى الصدق بها فقد قال فيه ابن تغرى بردى : « كان من كبار شيوخ القراء سكن الإسكندرية وقصده الناس من النواحى لعلو إسناده وإتقانه » . (١٣٥)

وقال عنه السيوطى « إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية علواً ومعرفة وروى عنه السلفى » (١٣٦) .

- كذلك صرح السلفى بالرواية عن « أبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى الإسكندرانى » المحدث المعروف بابن الحطاب (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) ، وذكره فى بعض مواضع من كتابه تفيد بالسماع منه ومقابلته ، والإستخبار عن أحوال بعض الرواة (١٣٧) .

وأبو عبد الله هذا من الرجال المشهورين والرواة المعروفين الذين وقفنا لهم على ذكر حسن فى المصادر ، فهو مسند الديار المصرية فى وقته . وشيخ الإسكندرية وأحد عدولها المبرزين فى علم الحديث ، وقد ذكره السيوطى فى جملة المحدثين المنفردين بعلو الإسناد (١٣٨) .

وما أورده السلفى عن هذين العالمين يمكننا قياسه على معظم مصادره المباشرة أو رجاله الذين روى عنهم فى هذا الباب حيث أنهم معروفين من قبيل ابن الفحام ، وابن الحطاب السابق ذكرهما (١٣٩) .

*** وأما عن الفريق الثالث فى ترتيب مصادر السلفى :**

فهؤلاء يختلفون عن سابقيهم من حيث الشهرة والمعرفة ، ربما لأنهم كانوا من عامة الناس أو أرباب المهن الأخرى . ومع ذلك قابلهم السلفى وسمع منهم لما رأى أن هناك فائدة مرجوة من ذكرهم وتدوين أخبارهم فعلى سبيل المثال : تراه أى « السلفى » يكتب عن أحد الأشخاص ويدعى : « وجيه الدين بن شبل بن ذى القرنين » فيقول : عنه « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمه لالعلو سنده ولا علمه » (١٤٠) .

ويقول عن « وهيب بن مترف بن مهيوف » الذى انشد السلفى شعر بمدينة تَدْمُرَ - « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه وللموضع كذلك » (١٤١).

كذلك يورد لنا السلفى شعرا عن شخص اسمه « على بن عبد المعطى » كانت له صَبْوَة ثم تاب على يديه ، ويقول عنه « كان يحفظ من الشعر كثيرا وصحب الشعراء وكان من أذكى البرية .... وكانت له صبوة ثم تاب على يدى ويجلب إلى واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » (١٤٢) .

*** أما عن الفريق الرابع والأخير من مصادر السلفى المباشرة التى تجاهل ذكرها :**

فقد وجدنا أنه فى بعض الأحيان يترك تعيين الشيخ أو المصدر المباشر الذى أبلغه عن أحوال بعض الرواة فيقول مثلا عن « أبى محمد عبد الرحمن الدونى » «

وبلغنا أنه توفى سنة .... » (١٤٣) ويقول عن « أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل » « بلغنا أن أبا المحاسن أملى بآمل وقتل بعد فراغه من الإملاء (ت٥٠٢هـ)(١٤٤) ونلمس شبيه ذلك بعض العبارات مثل « وقد بلغنى بعد خروجى من مصر » و « ثم قال لى من أثق به » و « توفى سنة .... على ما حكاه لى من أثق به من أهل المغرب » (١٤٥) .

والظاهر من هذه الأخبار القليلة ، أن السلفى قد استقاها من مصادر مباشرة، مجهولة لنا معروفة عنده . وذلك الشئ يؤخذ بتحفظ لأنه بعد مقارنة إحدى هذه الروايات - بالمصادر التاريخية الاخرى - وأخص منها ما تعلق بوفاة أبي المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل « الذى ذكر السلفى موته سنة ٥٠٢ هـ قد ثبت أن هذه الرواية لها شاهد ، فقد أوردها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٩٩ نقلا عن السلفى بل وأكد صحتها عن طريق ما اعتمد عليه من مصادر أخرى .

ولعل ذلك يدعونا إلى نفى الشبهة عن السلفى فى التدليس فى رواياته ، ويرشدنا إلى الباعث الذى دفعه إلى عدم ذكر اسماء الذين روى عنهم تلك النصوص القليلة ، فربما كان الباعث هو ميله إلى عدم الإكثار من ذكر رواته ، وربما كان هؤلاء الرواة أو بعضهم ثقة لا يقلون عمن صرح بأسمائهم ، وهذا فى رأيى هو الأقرب إلى الصواب .

وأخيراً ، وبعد دراسة هذه المصادر : فأن الانطباع الذى خرجت به هو : أن السلفى قد تعمد ، وبدون مواربة ، أن يكون لكتابه مصادر واضحة محددة يستمد منها نصوصه ويؤسس عليها بناء معجمه ، باعتباره كتاباً عماده وأساسه الرواية المباشرة بطريق المشافهة والمقابلة . وغنى عن البيان أن سلوك هذا السبيل فى التصنيف التاريخى يضفى على الكتاب الاحترام اللائق ويزيد من قيمته العلمية ،

ومن ثم يصبح الكتاب محل تقدير لدى كـل مـن يطلـع عليـه ، ويصـير بعـد ذلـك مصدراً يعتمد عليه الباحثون ، ليس هذا فحسب بل إن ما يزيد من قيمتـه أن تـأتى رواياته وأخباره عن مؤرخ ثقة حافظ ، أجمع المؤرخون على عدالتـه وصدقـه كمـا بينا سالفا .

* منهج السلفى فى العرض التاريخى :

وصل إلينا كتاب « معجم السفر » مرتبا حسب حـروف الهجـاء ، بمراعـاة الحرف الأول فقط من كل إسم ، دونما النظر إلى ترتيب باقى الحروف . ففى باب الهمزة مثلا لم يراع فى الترتيب الحرف الثانى من بعد الهمزة أو ما هو أقرب اليها .

وهكذا يمكننا قياس ذلك على باقى التراجم التى تبدأ بحرف الباء إلى آخره . ولهذا لم يكن ترتيب الكتاب كما ينبغى .

والحقيقة أن السلفى - رحمه الله - برئ من هذا الترتيب الذى حـل بكتابـه لأنه - كما أوضحت سابقا - كتبه على شكل « جزازات » فى بـادئ الأمـر و لم يتمه على الوجه الأمثل . لهذا فإن المسئول أمامنـا عـن ترتيـب الكتـاب علـى هـذا النحو هو : الزكى عبد العظيم المنذرى كما ذكر السخاوى .

والمتتبع لمنهج السلفى فى عرضه التاريخى ، فإن أول ما يلحظه بوضوح هـو: التزامه الشديد بالإسناد المتصل لكل من ينقل عنهم بـدءاً مـن راوى الخبر مباشـرة ووصولاً إلى الشاهد الحقيقى للواقعة ، سواء أكـانت حديثـا نبويـا أو حكايـة ، أو شعراً .

وأغلب أسانيده تأتى بصيغة التحديث والإخبار والسـماع مثـل « حدثنـا - أخبرنا- سمعت » خاصة فـى الأحـاديث النبويـة ، واذا كـان المروى شعرا يقـول «أُنشدنى - أنشدنا» .

وهذا اللون من التأليف له صلة وثيقة بعلم الحديث الذى يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر . ولا عجب فى ذلك فقد كان السلفى ذاته محدثا قبل أن يكون مؤرخا ، ومن هنا تأتى أهمية كتابته للتاريخ كعلم يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر أيضا . لذا فإن السلفى كان يكتب التاريخ عن دراية ووعى بنظرة الفاحص المدقق .

وعلى الرغم من أن أغلب روايات السلفى جاءت مسندة إلى الشاهد الحقيقى للحدث ، فقد شذ عن ذلك فى حالات قليلة ، تاركا العهدة على الراوى.

فعلى سبيل المثال : يقول : « أنشدنى عبد الله بن قاسم قال : أنشدنى أبو عبد الله التونسى بمكة ، ولم يسم قائله » (١٤٦) .

وفى موضع آخر يقول « أنشدنى قيس بن غالب .... وقد أنشدنى قبل قيس غيره ببغداد ولم يذكر أحد منهما قائله » (١٤٧) .

والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو : أن السلفى لم يكن يترك الأمر على علته هكذا ، بل كان فى بعض هذه الحالات يسعى جاهدا وراء المعلومة حتى يعرف قائلها الأصلى عن طريق رواة آخرين ، ومثال ذلك قوله : « أخبرنى أبو القاسم عمر بن الحسين - أخبرنى أبى الحسين ، أخبرنى أبى عمر أنه قال عمن تقدمه :

بُنَىَّ إن البِرَّ شَئٌ هَيِّنٌ   وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ

ثم يرد السلفى معقبا على هذا الشعر بقوله « هذا الكلام لخالد بن صفوان ويورد إسناداً آخر يتصل بخالد بن صفوان هذا »(١٤٨) . وينهج السلفى فى تأليف معجمه منهجا لا يكاد يشذ عنه فهو يبدأ بما رواه له صاحب الترجمة من حديث أو شعر أو حادثة أو نادرة من النوادر ثم يعقب ذلك بترجمة له قد تطول أو تقصر(١٤٩).

وعناصر الترجمة عنده تتكون - فى أغلب الأحوال - من سياق اسم المترجم له ونسبه ولقبه وبلده وشيوخه ، والزمن والمكان الذى تمت فيه المقابلة بين السلفى وبينه والسؤال عن سنه أو ميلاده ، وتحديد سنة الوفاة إن أمكن ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلا للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيرا ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التى تتشابه مع غيرها(١٥٠) .

ولعل فى تفصيل هذه الأمور وغيرها ما يعيننا على بيان وتفسير هذا المنهج والصفات العامة التى انفرد بها السلفى وميزت كتابه عن غيره من المؤلفات فى هذا المجال وهى على النحو التالى :

* **أولاً** : كان السلفى يدقق فى أمور معينة ، منها ما هو خاص بالمكان الذى التقى فيه بالراوى والسماع منه كأن يقول مثلا « سمعت القاضى أبا بكر عتيق .... بالإسكندرية » أو « أخبرنى أبو عبد الله محمد .... بدمشق » (١٥١) .

ومنها ما هو خاص بالرواية فكان يحدد حتى لا يختلط الأمر أن هذا الشعر مثلا (للقاضى فلان) أو (للشاعر الفلانى) وذلك بقوله « لنفسه » ، واذا كانت الرواية لغيره أوضحها بإسناد يتصل إلى الشاهد الحقيقى ، وهذه السمات نجدها واضحة تمام الوضوح فى جميع صفحات كتابه .

أيضا من الأمور التى دقق فيها السلفى ، التحديد التاريخى لمن ينقل عنهم ، فكان يحرص على تسجيل تواريخ ميلادهم معتمداً على ذلك بصيغة السؤال بنفسه كأن يقول « وسألته عن مولده » أو ما يذكره له صاحب الترجمة بصيغة « ذكر لى مولده » أو « قال لى » أو « سمعته يقول » (١٥٢) .

وفى بعض الأحيان نراه يسأل المترجم له عن مولده فيمتنع كما حدث مع «عبد الملك بن على» يقول عنه السلفى « وسألته عن مولده فامتنع من ذكره»(١٥٣)

وفى مناسبات قليلة يذكر مكان ميلاد المترجم له ولايحدد السنة (١٥٤) كذلك حرص السلفى على تسجيل تاريخ الوفيات فى معظم تراجمه (١٥٥) .

* **ثانيا :** من الأمور الرئيسية التى سار عليها السلفى فى منهجه ، الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافى وأعنى بذلك ضبطه لأسماء الأماكن وتحديد مواقعها بدقة، والمطلع على الكتاب يندهش إلى حد الإعجاب لكثرة البلاد التى أوردها ، إلى درجة يمكن معها وصف كتابه - فوق ما تميز به - بأنه معجماً للبلدان (١٥٦) .

وقد استطاع السلفى أن يكتسب هذه الخبرة عن طريق رحلاته العلمية الكثيرة التى طاف فيها المئات من المدن والقرى ، فرأى أماكنها بعينه . وسمع نطق أسمائها بأذنه ، وبسؤال من يترجم لهم عن الأماكن التى ينتسبون اليها ، عرف أسماء بلدانهم وحدد أسماء مدنهم وقراهم .

كذلك يستفاد مما ذكره فى معجمه أنه كان يصاحب العلماء الذين لهم معرفة وخبرة ودراية بالأماكن ، ومن المرجح أنه قد استفاد منهم فى تحديد الكثير من البلاد التى أوردها ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو الحسن على النهاوندى المعروف بالأشترى « يقول عنه السلفى » سمعته .... بهمذان وهو من المعروفين المشهورين وممن لم يكن له نظير فى وقته فى معرفة المنازل التى بين الكوفة ومكة... ولا يعرف أحد طريق البادية مثله ، وبه يضرب المثل فى جملة مسافرى الحجاز ومقديمهم ، وقد سافر إلى الشام ... ودخل خراسان ووصل إلى غزنة»(١٥٧) .

أما عن المنهج الذى سلكه السلفى فى ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها ، فقد كان يذكر اسم المدينة أو البلد بعد أن يذكر اسم من يترجم له أو فى نهاية ترجمته ، ولعل فى ذكر هذه الأمثلة المختارة التى نعرضها من نص « معجم السفر » ما يغنى عن جميعه ، فمن ذلك قول السلفى :

« ضياء هذا رجل صالح ... وسمعته يقول حطين قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع بن نون » .

« ظافر هذا من أهل رشيد مدينة من مضافات الإسكندرية » .

« ابن الصُغْدِى هذا من بيت العلم ... ونسبته مستفادة من الصُغْدى ومع الصَعْدى وصَعْدَة مدينة باليمن » .

« حدثنى عبد الله بن محمد ... الفَلِيشى ... وفَلِيشْ قرية من قرى لُرْقَة بشرق الأندلس » .

« عبد الحميد هذا سألته عن مولده ، فقال ولدت ... بمدينة بَلَغَى بشرق الأندلس » (١٥٨) .

* ثالثا : من الأمور المتميزة أيضا التى استطعنا أن نتبينها من منهج السلفى ، وتكاد تطالعنا فى كل صفحة من صفحات معجمه ، النقد لكل من دون عنهم . وبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان ثقة ، ويضعف من كان ضعيفا مبينا السبب وعلته ، ومكانة روايته ومدى صحتها . كل ذلك من غير مجاملة لأحد .

وكلماته التى يستخدمها فى النقد عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات مدلول واضح يبدو فيها بارز الشخصية ، واضح الرأى قوى الاستدلال .

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

« أبو البركات هذا من أهل العفاف قليل الرواية والسماع » .

« عبد الكريم هذا ... كان مائلا إلى الخير ، وشعره فى غاية الجودة » .

« عبد الرازق هذا ... أخرج إلّى كتابا بخط جده من تأليفه ... وليس فيه سماع وقال أخبرنى به أبى عن أبيه عن جده ، والعهدة فى ذلك عليه ، وكان ظاهر الصلاح محموداً عند أهل بلده »

« أبو البركات هذا ... تغير بأخره ودخل فيما لايرضى عفا الله عنه » .

« أبو الحسن هذا كان من أهل الأدب والفقه وكانت دعاويه أكثر من علمه » .

« أبو الحسين هذا كان من فقهاء المالكية ....وكان غيره أوثق منه »(١٥٩).

* **رابعا** : ضبط أسماء الأشخاص بالشكل ، وذكر الأسماء التى قد تتشابه معها فى النسبة .

ومن الشواهد على ذلك قوله :

« ابن هَرَّاش » : ربما قيل فى ابن الهراش بالتعريف فيذكر حينئذ مع إلكيا الهراس».

« ابن حرَّان » : وإن قيل فى ابن حران هذا الحرانى فيستفاد أيضا فى بابه .

« ابن ثُنيَّة » : وثنية فى نسبه مستفاد يذكر مع بُنَيه وبتنه ، ونَبِيْه وغيرهم .

« ابن تاكُرات » : وربما قيل تاجُرات بالجيم بدلا من الكاف فيستفاد حينئذ ويذكر مع « جواب » و « خوات » وغيرهما (١٦٠) إلى غير ذلك من الأمثلة.

* **خامسا** : كذلك من أهم وأبرز الأمور التى تبيناها فى منهج السلفى ، التجديد فى عرض المادة التاريخية وليس التجديد هنا سوى اعتماده المقابلة والسماع شرطا أساسيا لكل من ترجم لهم ، فالكتاب رغم ضخامته وكثرة عدد أشخاص لم نجد فيه ترجمة واحدة منقولة من كتاب أوهى لشخص لم يقابله ، وهذا يخالف منهج الكثير من كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم فى تدوين الأخبار على المصادر غير المباشرة أو الأخذ من كتب السابقين أو المعاصرين لهم .

* أثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين :

المادة العلمية التى قدمها إلينا السلفى فى كتابه والتى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وبينا منهجه المتميز فيها تعد من أنفس المصادر التاريخية التى قدمت إلينا صورة صادقة ودقيقة عن رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ويكفى الحافظ السلفى فخراً فى هذا المجال أن تراجمه للرجال والأخبار التى دونها عنهم وسجلها فى كتابه بتحر واضح وشمول ودقة ، ظلت موردا ومعينا لا

ينضب ، ومرجعاً أصيلاً يعتز به الخالفون من بعده ، ويستعينون بما كتبه فى مؤلفاتهم سواء ، التاريخية أو الجغرافية أو الأدبية ، بل أكثر من هذا أن معظمهم اتخذ ما كتبه السلفى حجة دونها ما سواها وحكماً فصلا عند تعارض الأقوال أو اختلاف الروايات التى كتبوها فى مصنفاتهم .

ويتضح هذا وذاك فى بعض النماذج التى اخترناها من نقول بعض المؤرخين اللاحقين عن السلفى ، لنرى كيف انتفع هؤلاء بجهده المتمثل فى «معجم السفر».

* ونبدأ هذه النماذج بذكر ما اقتبسه «ياقوت الحموى» (ت٦٢٦هـ) وذلك فى كتابيه الشهيرين « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » .

وقد اعتمد ياقوت على السلفى فى هذين الكتابين اعتماداً كبيراً دون غيره من المؤرخين ، فنراه فى كتابه الأول « معجم البلدان » ينقل عنه أكثر من مائة مرة متفرقة فى أجزائه الخمسة (١٦١) ورغم أنه كان يصرح باسم السلفى فى كل موضع من هذه المواضع ، إلا أنه يؤخذ عليه عدم ذكره له ولكتابه «معجم السفر» ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته والتى ذكرها فى مقدمة كتابه «معجم البلدان » (١٦٢) .

واليك نموذجا من اقتباسات ياقوت :

يقول ياقوت عن تعريف بليده « زَرَنْد » بالجزء رقم (٣) ص ١٣٨من كتابه معجم البلدان : قال السلفى : « أنشدنى القاضى أبو العميد بن أحمد بن على الجرجانى بمأمونية زرند فى مدرسته ، وهى بين الرى وساوة » .

وقرين هذا النموذج فى كتاب « معجم السفر » ص - ١٨٨.

أما عن كتاب « معجم الأدباء » فقد نقل فيه ياقوت أيضا الكثير من النصوص عن السلفى مصرحاً بالأخذ عنه ، ولكن جانبه الصواب فى تحديد اسم الكتاب الذى نقل منه فبدلاً من أن يذكر « معجم السفر » صرح باسم آخر هو «معجم الشعراء»«وقد فصلنا القول فى هذه المسألة مما سبق من هذا البحث»(١٦٣) .

وهذا نموذج لما اخترناه من كتاب « **معجم الأدباء** » :

يقول ياقوت فى ترجمة « عثمان بن على السرقوسى النحوى » بالجزء رقم(٣) ص ٤٨٨ - ٤٨٩ من كتابه .

قال السلفى « كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقد قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصرحلقه للأقراء وانتفع به ولا زمنى مدة مقامى بمصر وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ كأبى صادق والفراء الموصلى وآخرين ».

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

* أما المؤرخ التالى من الذين انتفعوا بجهود السلفى فى « معجم السفر » فهو : « **جمال الدين على بن يوسف القفطى** » (ت ٦٤٦هـ) فى كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » الذى نقل فيه عن السلفى قدراً كبيراً من نصوصه بلغت على وجه التقريب ثلاثة وعشرين صفحة(١٦٣) وقد اخترنا منها النص التالى :

يقول القفطى فى كتابه جـ٤ ص ٤٣ أنبانا أبو طاهر السلفى فى أجازته العامة « أنشدنا أبو الحسن يونس بن يحيى بن سلامة الحصكفى التاجر بديار مصر قال : أنشدنى أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بميافارقين لنفسه :

والله لو كانت الدنيا بأجمعها   تبقى علينا يأتى رزقها رغداً

ما كان من حق حر أن يذل لها   فكيف وهى متاع يضمحل غداً

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ص ٤٥٩ - ٦٤٠.

والحقيقة التى يجب أن تذكر فى هذا المقام هى : أن القفطى من خلال نقوله هذه ينقل ترجمات كاملة من معجم السفر(١٦٥) ، مما يوضح الأثر البارز للسلفى

فى كتابه وثمة شيء آخر وهو : أنه نقل عن السلفى فى بعض المواضع دون أن يصرح بذلك(١٦٦) .

* كذلك من المؤرخين اللاحقين الذين أفادوا من « معجم السفر » المؤرخ الشهير « **ابن خلكان** » (ت ٦٨١هـ) فى كتابه « وفيات الإعيان وأنباء أبناء الزمان » .

وبعد الإطلاع على هذا الكتاب المذكور وجدت أن ابن خلكان صرح فيه بالنقل عن السلفى فى الكثير من المواضع . ليس هذا فحسب ، بل اتخذ ما كتبه السلفى حجة وحكماً فصلاً دون ما عداه من الكتب التاريخية الأخرى وذلك فى بعض المواضع .

ولكن ما يؤخذ على ابن خلكان أنه أضاف إلى بعض نقوله التى أخذها عبارات من عنده لم يصرح بها السلفى ، مما يوضح عدم دقته فى النقل .

وفيما يلى سوف أقدم نموذجاً عن كل موضع من المواضع السالفة التىنقل فيها:

١ - نموذج لما صرح فيه بالنقل عن السلفى : وذلك فى الجزء رقم (١) ص١٦١ من كتابه وفيات الأعيان « ترجمة القاضى الرشيد بن الزبير » .

قال عنه السلفى « ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ثم قتل ظلماً وعدواناً فى المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحمه الله وقرين هذا النموذج فى «معجم السفر» ص٥٨.

٢ - نموذج لما نقله عن السلفى واتخذه حجة دون ما عداه من الكتب الأخرى : قال ابن خلكان فى جـ٧ ص١٤٦ عندما اختلفت الأقوال فى تاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة « قال شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد فى كتابه الذى وسمه بـ « سيرة صلاح

الدين » أنهم دخلوا مصر فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقول الأول (فخرجوا من دمشق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر فى رجب من نفس السنة) أصح ، لأن الحافظ أبا طاهر السلفى ذكر فى « معجم السفر » أن الضرغام بن سوار قتل فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وأنه كان فى أول وصولهم - والحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيماً فى البلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به وقرين ما ذكره عن السلفى نجده فى « معجم السفر » ص١٢٨ .

٣ - نموذج لما نقله ابن خلكان وأضاف إليه عبارات لم يصرح بها السلفى:

قال ابن خلكان فى جـ٣ ص ١٩٩ ، بصدد حديثه عن ابى المحاسن الرويانى: « قال الحافظ أبو طاهر السلفى : بلغنا أن أبا المحاسن الرويانى أملى بمدينة آمل ، وقتل بعد فراغه من الإملاء (بسبب التعصب فى الدين) فى المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ».

وقرين هذه الترجمة نجدها فى « معجم السفر » ص ١٨٣ بيد أن العبارة التى بين القوسين لم يذكرها السلفى ولم يصرح بها .

كانت هذه أبرز النقول التى دونت من كتاب « معجم السفر » ، ولعلنا بهذا نكون قد وقفنا على أثر السلفى الواضح فى مصنفات هؤلاء المؤرخين الذين جاءوا من بعده . ولو اتسع بنا المقام أكثر من ذلك لأفردت غير هؤلاء الكثيرين ممن انتفعوا بهذا العمل الرائد لذا فليس أمامى سوى أن أجملهم على النحو الآتى : مبينا أمام كل منهم اسم الكتاب الذى استرشد فيه بالمادة العلمية لكتاب « معجم السفر » .

- « المنذرى » فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » .

- « الذهبى » فى كتابيه « العبر » و « تذكرة الحفاظ » .

- « ابن حجر العسقلانى » فى كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » .

- « السخاوى » فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .

- « السيوطى » فى كتابه « بغية الوعاة » .

- « ابن العماد الحنبلى » فى كتابه « شذرات الذهب » .

وهكذا لبث كتاب « معجم السفر » على مر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى الإسلام بعامة ، فعرفوا له قيمته وانتقعوا به على أكمل وجه ، ووثقوا به مصنفاتهم .

الهوامش

(١) سلفة : ضبطها ابن خلكان وبين معناها بقوله : ونسبته (أى سلفة) إلى جده إبراهيم سلفة - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفى آخره الهاء - وهو لفظ أعجمى الأصل فيه (سلبه) بالباء فأبدلت بالفاء ، ومعناه بالعربى ثلاث شفاه لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ١ ص ١٠٧ دار صادر بيروت د. ت . وانظر فى هذا المعنى ابن كثير البداية والنهاية مجلد ٦ جـ١٢ ص ٣٢٨ تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الريان للتراث القاهرة ط١ ١٩٨٨م . ويقول د. السيد يعقوب بكر مترجم كتاب تاريخ الأدب العربى لكارل برو كلمان عن هذا اللفظ (سلية) بأنه مركب من « سه أى ثلاثة + لب أى شفة » فى الفارسية جـ٦ ص ٢٤٨ هامش (١) دار المعارف القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

(٢) جرواءن : محلة بأصبهان ويقال لها بالأعجمية « كرواءان » ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٢ ص ١٣٠ دار صادر بيروت د. ت .

(٣) نظام الملك : هو أبو على الحسن بن على الطوسى ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧م بقرية من نواحى طوس عمل فى بداية حياته فى دواوين الدولة الغزنوية بخراسان ، فلما أفل نجمهم انتقل إل خدمة السلاجقة ، واتخذه الب أرسلان سلطان السلاجقة وزيراً له ثم عينه ابن ملكشاه فى المنصب نفسه إلى أن قتل سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ٩ ص ٦٤ دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند ط١ ١٩٤٠م .

(٤) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٧ تحقيق بشار عواد معروف ، ومحيى هلال سرحان ، مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ٦ ص ٣٣ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٨م .

(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت د . ت ، السبكى : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٧ .

(٧) البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٧٦ .

(٨) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٩) انظر الفقرة الخاصة بأقوال المؤرخين فى عدالته وسعة علمه ، ص ٣ .

(١٠) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ ، الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢، اعتناء محمد يوسف نجم ، ألمانيا ط٢ ١٩٨٢ : الزركلى : الأعـلام جـ١ ص ٢١٥ ، دار العلم للملايين ببيروت ط٥ ١٩٨٠م .

(١١) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٢ ، الصفدى : الوافى جـ٨ ص ٣٥٢ .

(١٢) سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢١ .

(١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان جـ٣ ص ٤٠٤ ، مؤسسة الأعلمـى بيروت ط٢ ١٩٧٠م .

(١٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ٣ ص ١٩٨ ، تحقيـق د. محمـد حلمى محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣ .

(١٥) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣١٧ .

(١٧) سير اعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٤ .

(١٨) الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٤ ، وانظر أيضاً السبكى : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٧.

(١٩) الصفدى : المرجع السابق والجزء والصفحة .

(٢٠) المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى ص ٥١ ، بجريط ١٨٨٥م .

(٢١) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(٢٢) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠١ .

(٢٣) الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢ .

(٢٤) غاية النهاية فى طبقات القراء جـ١ ص١٠٢ ، نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلميـة بيروت ١٩٨٢ .

(٢٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ١ ص ٣٥٤ ، د. ت .

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢ ، وإلكيا الهراس هو : على بن محمد بن على ، تفقه ببلده ببغداد ، ورحل فى طلب العلم وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكان بارعاً فى الفقه الشافعى وأصوله ، وأماماً قوى البحث دقيق النظر . ومن أشهر مؤلفاته « شفاء المسترشدين » وتوفى سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ص ٢٨٨ ، دمشق ١٩٢٨م ، ابن هداية : طبقات الشافعية ص ١٩١ ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ط٣ ١٩٨٢ .

(٢٧) البلوى : ألف يا للألبا جـ٢ ص ٢٩٤ القاهرة ١٨٧٠م .

(٢٨) السلفى : معجم السفر ص ٢٢٣ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م ، وهذه النسخة من معجم السفر هى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .

(٢٩) السلفى : معجم السفر ص ١٢٣ .

(٣٠) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، كان أماماً كبيراً فى التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان تشد إليه الرحال فى فنونه ، وكان معتزلى الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد أحداً واستأذن عليه فى الدخول : يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب . وتوفى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص ١٦٨ - ١٧٣ .

(٣١) المصدر السابق جـ٥ ص ١٧٠ .

(٣٢) معجم السفر ص ٢٨٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣ ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م .

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٣٧) محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ص ١٤ ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١م .

(٣٨) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣٩) حسن عبد الحميد : الحافظ أبو طاهر السلفى ص ٢١١ ، بيروت ط١ ١٩٧٧م .

(٤٠) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٥٢ ، تحقيق وتعليق فرانز وروزنتال ، ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

(٤١) معجم السفر ص ٢٧٢ ، السخاوى : الإعلان ص ٢٦٧ .

(٤٢) السلفى : الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز ص ٣٩ ، تعليق محمد خير البقاعى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .

(٤٣) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٤٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ٤ ص ٤٤.

(٤٥) ص ١١٣ ، ومعجم بغداد توجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٧٩ ، أدب .

(٤٦) ص ٢٢٤ .

(٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٥١٢ .

(٤٨) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧٨ .

(٤٩) تذكرة الحفاظ جـ٣ ص ١٠٩٣ ، السخاوى : الإعلان ص ٣٧٠ .

(٥٠) انظر المبحث الخاص بأثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين فى هذه الدراسة .

(٥١) وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٢٠ .

(٥٢) معجم السفر ص ٢٣٠ ، قارن ما ورد فى هذه الصفحة بما ذكره ابن خلكان فى الجزء والصفحة السابقة .

(٥٣) جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٥٤) جـ٢١ ص ١٦ .

(٥٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٥٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

(٥٧) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٣ .

(٥٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى حـ٦ ص ٢٤٩ .

(٥٩) سبق الحديث عن هذه المعاجم فى هذا البحث .

(٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث .

(٦١) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب حـ٢ ص ٤٢١ ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٦٢) انظر المصدر السابق حـ٣ ص ٢٢٧ ، وقارن بمعجم السفر ص ٨٦ - ٨٧ ، وللمزيد انظر المبحث الخاص بأثرالسلفى فى من جاء بعده من المؤرخين ، آخر هذه الدراسة .

(٦٣) انظر على سبيل المثال : ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وهكذا إلى آخر الكتاب مع تفاوت بسيط بين الصفحات .

(٦٤) أميرنو ريزتيانو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر مجلد ٣ ص ٤٩ هامش(١) مجلة كلية الآداب عين شمس ، عدد يناير ١٩٥٥م .

(٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٦٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص٨ ، بيد أن هذا النص سقط من طبعة الكتاب ولم يرد منه سوى الجزء الأخير الذى يبتدى بعبارة « محمد الأصبهانى » إلى آخره ، المصدر نفسه ص١٣ .

(٦٧) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ص ٦٤٩ مادة حزء ، بيورت ط٢ ١٩٨٧م .

(٦٨) المعجم الوجيز ص ٣٢٧ ، القاهرة ١٩٩٠م .

(٦٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون حـ٣ ص ٦٢ ، دار العلم للملايين بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٧٠) معجم السفر ص ٢١٩ .

(٧١) انظر على سبيل المثال - معجم السفر صفحات ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨، ٤٣٩ ، ٤٥٦ .

(٧٢) معجم السفر ص ١١٣ - ١١٤ .

(٧٣) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٧٥) المصدر السابق ص١٤٦ .

(٧٦) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

(٧٧) للمزيد انظر معجم السفر : صفحات ١٥٤ - ٢٤٧ - ٢٧٤ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦، ٣١٩ ، ٣٣٢، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٧، ٤٠١ .

(٧٨) يحدونا الأمل فى العثور على هذه الأجزاء الهامة من معجم السفر فى القريب العاجل أن شاء الله تعالى حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذه الوثيقة الهامة على النحو الأمثل.

(٧٩) ورد هذا التاريخ فى ثلاثة تراجم فقط بمعجم السفر ، انظر ص ٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ .

(٨٠) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ .

(٨١) معجم السفر ص ٤٦٤ ، ابن الجزرى : غاية النهاية جـ١ ص ٤٣ .

(٨٢) معجم السفر ص ١٦٨ ، الذهبى : العبر جـ٣ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٨٠ القاهرة د. ت.

(٨٣) معجم السفر ص ٤٦٤ ، الذهبى : سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، العبر جـ٣ ص ٨١ .

(٨٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٨٥) انظر ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(٨٦) انظر معجم السفر ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .

(٨٧) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٨٨) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٠) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٦ .

(٩١) البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٩٢) النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ .

(٩٣) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٤) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٧ .

(٩٥) وهو : المنذرى جامع مسودات « معجم السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه .

(٩٦) نقلاً عن الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ ، سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٨ .

(٩٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، بيروت ط٢ ١٩٨١م منصور بن سليم : ذيل مشتبه الأسماء والنسب ورقة ٢٥ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

(٩٨) التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ .

(٩٩) الذهبى : سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، الصفدى الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٠٠) الذهبى : المصدر السابق جـ٢٣ ص ٢١٩ ، الصفدى : المصدر السابق جـ٣ ص ٢٦٥.

(١٠١) سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٢) الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠٣) معجم السفر ص ٤٦٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ .

(١٠٥) ، (١٠٦) المصدر نفسه ص ٣٧٩ .

(١٠٧) المصدر نفسه ص٤٧ ، ٨٨ ، ٣٨٥ ، ٤٢٠ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

(١٠٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(١٠٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

(١١٠) انظر المصدر نفسه الأمثلة بترتيب الصفحات ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ .

(١١١) استجازة السلفى الأولى من الزمخشرى مجلد ٢٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ى ، تحقيق د. بهيجة الحسنى ، مجلد المجمع العلمى العراقى بغداد ١٩٧٣م.

(١١٢) انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٣٩ وقارنها بمعجم بغداد : ورقة ٤٦ - ٤٧ .

(١١٣) انظر على سبيل المثال : السمعانى : كتاب الأنساب جـ١ ص ١٨ - ١٩ تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ، ١٩٨٨م .

(١١٤) انظر معجم السفر : ص ٧٩ هامش (٣) ، ٩٢ هامش (٢) ، ٩٤ هامش (١) (٢) ، ١١٣ هامش (١) ، ١٥٨ هامش (٢) ، ٢٦٠ هامش (٤) ، ٣٥٤ هامش (٢) .

(١١٥) كذلك لم يقدم له المحقق ، اللهم إلا بعض شذرات تتعلق بتعريف كلمة «معجم» اصطلاحاً مع نبذة مختصرة عن حياة المؤلف « السلفى » ، معجم السفر ص ٤ - ٧ .

(١١٦) انظر فهرس الأحاديث بمعجم السفر ص ٤٧٤ - ٤٩٣ .

(١١٧) معجم السفر ص ١٧٦ .

(١١٨) وهو : على بن جعفر بن على الصقلى المعروف بابن القطاع ، أحد العلماء المبرزين فى علم اللغة والنحو ، وله فى علم المعانى والشعر حظ كبير ، وكان موجوداً بصقلية حوالى سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، القفطى : إنباه الرواة على إنباه النحاه ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم ، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ١٩٨٦م ، وابن القطاع هذا أورد عنه السلفى الكثير من الأخبار عن تلاميذه - انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٥٨٢ .

(١١٩) معجم السفر ص ٤٠٣ .

(١٢٠) انظر على سبيل المثال المصدر نفسه ص ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧١ ، ٣٥٩ .

(١٢١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٢ ص ٣١٨ .

(١٢٢) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص٣١٨.

(١٢٣) لعل السلفى يقصد بذلك كتابه « معجم السفر » .

(١٢٤) ص ٨٠ .

(١٢٥) الأمثلة على ذلك ص ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ .

(١٢٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٤ .

(١٢٧) صرح السلفى فى معجمه أكثر من مرة بأخبار هذه الرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات من عمره ، مكث خلالها بالقاهرة من سنة ٥١٥ إلى ٥١٧ هـ انظر ص ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ص ٧٩ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ٢٣٦ ، ٤١٦ .

(١٢٩) الطرطوشى : نسبة إلى طرطوشة وهى مدينة بالأندلس تقع بالشرق من قرطبة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٤ ص ٣٠ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ٤ ص ٢٦٢ .

(١٣١) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(١٣٢) النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) انظر ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

(١٣٤) معجم السفر ص ١٧٥ .

(١٣٥) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٢٥ .

(١٣٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٩٥ .

(١٣٧) انظر على سبيل المثال ص ١٤٠ ، ١٦٩، ٣٤٠ .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ٥ ص ٢٤٧ .

(١٣٩) انظر على سبيل المثال : ترجمة « أبو المحاسن الرويانى » بمعجم السفر ص ١٨٣ - ١٨٤ وقرينها بكتاب وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(١٤٠) معجم السفر ص ٤٣٤ .

(١٤١) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .

(١٤٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .

(١٤٣) المصدر نفسه ص١٧٩ .

(١٤٤) المصدر نفسه ص١٨٣ .

(١٤٥) المصدر نفسه والعبارات الثلاث على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : ١٩٦ ، ٢٦٠، ١٤٩ .

(١٤٦) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(١٤٧) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(١٤٨) المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(١٤٩) أمثلة ذلك فى معجم السفر ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٩ .

(١٥٠) انظر على سبيل المثال ترجمة « على بن المشرف الأنماطى » معجم السفر ص ٢٩٩ .

(١٥١) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، ٣٤٨ .

(١٥٢) هذه العبارات نطالعها بكثرة فى معظم صفحات الكتاب ، والأمثلة على ذلك ص ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٥٣ .

(١٥٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ .

(١٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(١٥٥) انظر على سبيل المثال ص ٢٤٧ ، ٢٩٨ .

(١٥٦) من ضمن خطة الباحث - أن شاء الله تعالى - عمل معجم للبلدان التى وردت بمعجم السفر وذلك فى القريب العاجل .

(١٥٧) معجم السفر ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٥٨) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ .

(١٥٩) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٤٤٦ .

(١٦٠) انظر هذه الأمثلة ، بترتيب صفحاتها كالتالى : ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ .

(١٦١) لا يتسع المقام لذكر كل هذه المواضع : واحيل من يريد الإطلاع عليها إلى الأجزاء الخمسة من كتاب معجم البلدان وقرائنها فى كتاب معجم السفر .

(١٦٢) انظر ص ١٠ - ١٢ .

(١٦٣) انظر ص ٨ - ٩ .

(١٦٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١ ص ١٠٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ وجـ٢ ص ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٩٠ ، وجـ ٣ ص ٥٢ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، جـ٤ ص ٤٣ .

(١٦٥) انظر على سبيل المثال جـ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، جـ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٦٦) مثال ذلك فى انباه الرواة جـ٢ ص١١٥ ، وقرينه فى معجم السفر ص ١٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأبار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) .

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى بجريط ١٨٨٥م .

البلوى : يوسف بن أحمد (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) .

- ألف با للألبا جـ٢ القاهرة ١٨٧٠م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د. ت .

ابن الجزرى : شمس الدين محمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م) .

- غاية النهاية فى طبقات القراء جزأن نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢م .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ دائرة المعرف العثمانية بحيدر إباد الدكن - الهند - ط١ ، ١٩٤٠م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سبعة أجزاء تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت د. ت.

الذهبى : محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

- سير أعلام النبلاء جزء ٢١ ، ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف ، محيى هلال سرحان مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤م .

- تذكرة الحفاظ جزء ٤ دار الكتب العلمية بيروت د. ت.

السبكى : أبو النصر عبد الوهاب (ت٧٧١هـ / ١٣٦٢م) .

- طبقات الشافعية الكبرى جزء ٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٨م .

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) .

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تحقيق وتعليق فرانز روز نثال ترجمة د. صالح أحمد العلى دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

السلفى : أبو الطاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) .

- معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودى دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .
- معجم بغداد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٧٩ أدب .
- الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز تعليق محمد خير البقاعى دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .
- استجازة السلفى الأولى من الزمخشرى تحقيق د. بهيجة الحسنى مجلة المجمع العلمى العراقى بغداد مجلد ٢٣ ، ١٩٧٣م .

ابن سليم : وجيه الدين منصور (ت ٦٧٣هـ/١١٦٦م) .

- ذيل مشتبه الأسماء والنسب مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

السمعانى : عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ / ١٠٥م) .

- كتاب الانتساب جزء (١) تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ١٩٨٨م.

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جزء (١) د. ت.

الصفدى : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

- الوافى بالوفيات جزء ٨ اعتناء محمد يوسف نجم ألمانيا ط٢ ، ١٩٨٢م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٦٧م) .

- فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح دار التعاون للطبع والنشر القاهرة١٩٧٤.

ابن عساكر : أبو القاسم على (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) .

- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى دمشق ١٩٢٨م.

الفيروز آبادى : مجد الدين محمد (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م) .

- القاموس المحيط بيروت ط٢ ١٩٨٧م .

القفطى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .

- أنباه الرواة على انباه النحاة أجزءا ١ : ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ، ١٩٨٦م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

- البداية والنهاية ١٤ جزء تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون دار الريان للتراث ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨م .

المقريزى : تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جزء ٣ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣م .

المنذرى : زكى الدين عبد العظيم (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

- التكملة لوفيات النقلة أجزاء ١ : ٤ تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ، ١٩٨١م .

ابن هداية : أبو بكر الحسينى (ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م) .

- طبقات الشافعية تحقيق عادل نويهض بيروت ط٣ ، ١٩٨٣ م .

اليافعى : أبو محمد عبد الله (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان جـ٣ مؤسسة الأعلمى بيروت ط٢ ، ١٩٧٠م .

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .

- معجم البلدان خمسة أجزاء دار صادر بيروت د. ت .
- معجم الأدباء أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب « خمسة أجزاء دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩١م .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة :

بروكلمان : كارل :

- تايخ الأدب العربى جزء ٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر دار المعارف . القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

ريز تيانو : اميرنو .

- أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر مجلة كلية الآداب عين شمس مجلد ٣ عدد يناير ١٩٥٥م .

الزركلى : خير الدين .

- الاعلام جزء (١) دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م .

صالح : حسن عبد الحميد (دكتور) .

- الحافظ أبو طاهر بيروت ط١ ، ١٩٧٧م .

عنان : محمد عبد الله .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى القاهرة ١٩٩١م .

مصطفى : شاكر .

- التاريخ العربى والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٩٠م .

عمران سبته
كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتى

د . كمال عنانه إسماعيل(*)

نظرة عامة حول تاريخ سبته منذ خضوعها للمسلمين حتى سقوطها فى أيدى البرتغاليين :

سبته بفتح السين وسكون الباء مدينة ساحلية قديمة(١) ، من مدن المغرب الأقصى . وتحتل سبته موقعاً استراتيجياً يتحكم فى مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الغرب . وهذا الوضع الجغرافى جعل اتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الذى تقوم على أرضه . ولهذا قدر لسبته منذ بداية الحكم العربى فى بلاد المغرب أن تلعب دوراً رئيسياً فى شئون الأندلس إذ كانت على صلة وثيقة ومستمرة به بحيث أصبحت مدينة عربية ذات طابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها وفى وضعها السياسى(٢) .

والواقع إن قرب مدينة سبته من الشاطىء الأندلسى جعل تاريخها على مر العصور مرتبطاً بتاريخ الأندلس ، فمن سبته كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العدوة المغربية إلى الأندلس . وقد نجح الأمويين بالأندلس فى السيطرة على مدينة سبته التى كان يحكمها يوليان(٣) . واتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمى فى القرن ٤ هـ/١٠م زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر(٤) . كما استولى عليها الحموديون حكام مالقة زمن ملوك الطوائف فى القرن ٥هـ/١١م(٥). ولقد تعرضت سبته فى عصر الطوائف لنفس ما تعرضت له سائر بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية فانتهز سقوط البراغواطى(٦) . فرصة تدهور أوضاع الحموديين ، وأعلن استقلاله بسبته ، مكوناً دولة من دول الطوائف العديدة التى ظهرت فى بلاد المغرب والأندلس فى تلك الفترة(٧) .

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة الأسكندرية .

وقد دخل سقوط البراغواطى فى صراع مع المرابطين انتهى بدخول سبته فى طاعة المرابطين على يد المعز بن يوسف بن تاشفين(٨) . ولم تبق سبته طويلاً في يد المرابطين حيث خضعت للموحدين على أثر مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين فأعلن أهل سبته طاعتهم لعبد المؤمن بن على عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥ م (٩).

وكان أن ظلت سبته خاضعة للموحدين حتى وفاه الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حيث أعلن واليها اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، وأعلن بيعته للأمير الحفصى أبى زكريا يحيى عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م ، وبذلك صارت سبته تابعه للحفصيين(١٠) إلى أن استقلت بها أسرة أندلسية تعرف ببنى العزفى فى القرن ٧هـ/١٣م(١١) . وفى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبته ، ونقل بنى العزفى إلى غرناطة حيث بقوا هناك إلى أن عاود المرينيون استخلاص سبته من يد النصريين سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م على أثر ثورة داخلية بالمدينة . وفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م عاد يحيى بن أبى طالب العزفى والياً على سبته من قبل السلطان المرينى أبى سعيد(١٢). وأخيراً سقطت سبته في أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م نتيجة الصراع عل السلطة بين أبناء البيت المرينى ، وكذلك المنازعات بين بنى مرين وبنى عبد الواحد أصحاب تلمسان(١٣) وفى عام ١٥٨٠م آلت سبته إلى أسبانيا عندما ضم ملك أسبانيا فيلب الثانى البرتغال إلى مملكته . ومازالت سبته فى أيدى الأسبان إلى الآن(١٤) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن مدينة سبته اشتهرت على مر العهود الإسلامية كدار للعلم والعلماء ، ويكفى أنها أنجبت من العلماء القاضى عياض بن موسى السبتى ، والشريف الإدريسى . وقد أورد صاحب كتاب بلغة الأمنية أسماء سبعة وأربعين رجلاً وامرأة واحدة من علماء سبته من القرن ٨هـ/١٤م . فى مختلف الفنون والعلوم(١٥) . نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى الذى كان

يتولى التدريس والقراءة بمسجد القفال(١٦) وأبو القاسم بن عمران الحضرمى نـاظر خزانة الجامع الأعظم(١٧) . وأبـو محمـد قاسـم بـن أبـى حجـه الأنصـارى أستاذ المدرسة الجديدة(١٨) . والطبيبة الشهيرة عائشة ابنة الشيخ الكـاتـب أبـى عبـد الله ابن الجيار المحتسب بسبته(١٩) .

وفى ضوء الثبت المفصل لمعالم مدينة سبته الذى زودنا به الأنصـارى يتضح أن مدينة سبته ظلت حتى أوائل القرن ٩هـ/١٥م تنعم بالرخاء والازدهار والعمـران إلى أن سقطت المدينـة فـى أيـدى البرتغـاليين عـام ٨١٨هـ / ١٤١٥م فتعرضـت لأعمـال السلب والنهب ونزح عنها معظم سكانها وتلاشت الآن معظم معالمها التـى سنحاول كشف النقاب عنها من خلال ما دونه الأنصارى عن أثار تلك المدينة ومعالمها .

نبذه عن الكتاب ومؤلفه :

الواقع أننا لا نعرف شيئا عن مؤلف كتاب اختصار الأخبار سوى أنـه كـان من أبناء سبته حيث عرف نفسه فى مقدمة الكتاب بأنه محمد بن القاسم بن محمـد ابن محمد بن أحمد عن بن عبد الملك الأنصارى السبتى الدار والنشأة والمولد(٢٠) . وسوى ما ذكر من أن أبا العباس بن أبى الخير الأنصارى جده من قبـل الأم . وأن أبا العباس الدقاق من أصهار سلفه(٢١) .

وفى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور أن أصل هـذا السـلف مـن قريـة بحوز سبته تسمى بزبج ، لأنه يسميها قريتنا عندما يذكرها ، حيث كانت لهم بهـا أملاك ثم انتقلوا منها إلى سبته حيث تملكوا بعض العقارات(٢٢) .

وقد أشار الأنصارى فى كتابه اختصار الأخبار إلى ثلاثة كتب الأول بعنوان « بغيه السامع » وقد ذكر صراحة أنه من تأليفه(٢٣) . والكتاب الثانى يسمى الأعلام. ورغم أنه لم يشر صراحة إلى أنه من تأليفه إلا أنه يحيل عليـه كثيراً فـى كتابـه اختصـار الأخبار، كقوله «حسبما استوعبنا وصفه فى الأعلام» . وبسـطنا القـول فـى الأعـلام وبالغنا فى وصفه فى الأعلام(٢٤) . مما يدل على أن كتاب الأعلام أيضاً من تأليفه .

أما الكتاب الثالث فعنوانه الكواكب الوقادة(٢٥) ، وربما كان من تأليفه أيضاً .

الكتـــاب :

أما عن كتاب اختصار الأخبـار موضـوع الدراسـة فـإن النظـرة المتأنيـة فـى محتويات هذا الكتاب تجعلنا نضعه بـين كتـب الخطـط ، التـى تعـالج عمـران المـدن وتعين فى رسم خرائطها الطبوغرافية .

وتبرز أهمية الكتاب وقيمته فى أن مؤلفه كان من أبناء سبته ، وأنـه استقى معلوماته من خلال المعاينة والمشاهدة الشخصية ، بحيث لا يديـن لأحـد بشـئ مـن معلوماته الغزيرة وأوصافه الدقيقة لمختلف مظاهر عمران سبته . ففى هذا الكتـاب ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن مدينة سبته ، لا سيما ما يتعلق بعمـران المدينة فى عصرها الإسلامى . ومن هنا تتأكد قيمته وأهميته من حيث إنـه زودنـا بصورة واضحة لعمرانها الإســلامى قبـل أن يحتلهـا البرتغـاليون ويتحـول مظهرهـا الإسلامى إلى تراث أسبانى برتغالى .

• وتجدر الإشارة إلى أننى لست أول من عنى بكتـاب اختصـار الأخبـار ، فقد نشره لأول مرة الأستاذ ليفى بروفنسال عام ١٩٣١م بمجلة هيسبريس ثم أعيد طبعه بتطوان سنة ١٩٤٠م(٢٦) اعتماداً علـى نسـخة كـانت فـى حـوزة آل بنونـه بتطوان ، كما نشر هذا النـص أيضـاً الأسـتاذ محمـد بـن تـاويت سـنة ١٩٥٨ فـى العددين الثالث والرابع من مجلة تطوان . وفى سنة ١٩٦٢م قام الأسـتاذ خواكـين بالبين بترجمة هذا النص إلى اللغة الأسـبانية ، ونشـر الترجمـة بمجلـة الأندلـس تحـت عنوان وصف سبته فى القرن ١٥م(٢٧) .

وأخيراً نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فى الرباط سنة ١٩٨٣م .

ورغم أهمية كل هذه النشـرات التـى صـدرت لهـذا النـص ، إلا أن جهـود الناشرين اقتصرت على مقابلة نصوص الكتـاب ، وإبـراز مـا بينهـا مـن اختلافـات بسيطة مع إبداء بعض الملاحظات والتعليقـات حـول الشـخصيات التـى اسـتفدت منها فى دراستى ، لاسيما ، ما نشـره كـل مـن الأسـتاذين خواكـين بـالبين وعبـد الوهاب بن منصور .

وهكذا تحدد عملى الذى يهدف على خلاف كل النشرات سالفة الذكر- إلى إبراز قيمة كتاب اختصار الأخبار فى رسم صورة واضحة لعمران سبته الإسلامية فى ضوء مقابلة ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية فى الفترة الطويلة التى سبقت تأليف هذا الكتاب ، وما استجد من أبحاث فى الفترة التى تلت تأليفه والتى تقدر بنحو ستة قرون إلا قليلاً .

التخطيط العام لمدينة سبته الإسلامية وأهم المظاهر العمرانية فى ضوء وصف الأنصارى :

الواقع إن دراسة العمران فى مدينة سبته ومحاولة رسم صورة واضحة لها فى العصر الإسلامى من حيث تخطيطها ومظاهر عمرانها الاجتماعى والاقتصادى يتسم بالصعوبة . ذلك أن تلك المدينة فقدت طابعها كمدينة إسلامية منذ أن احتلها البرتغاليون فى عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م حيث تبدل مظهر المدينة ، ولم يبق الآن من الفن المعمارى الإسلامى ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر ، إذ أن معظم تراثها المشاهد الآن هو تراث أسبانى برتغالى حل محل التراث المعمارى الإسلامى. ولذا فإننا نجد حاجة ملحة إلى إلقاء الضوء حول عظمة التراث المعمارى المندرس بمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

أولاً : النطاق المسور للمدينة :

(أ) الأسوار :

تعد الأسوار من أهم المنشآت العسكرية التى تميزت بها المدن الإسلامية . وتؤدى الأسوار إلى جانب وظيفتها الحربية فى حماية المدينة من أى عدوان خارجى، وظيفة اجتماعية ، وهى تحديد النطاق العمرانى الآهل بالسكان(٢٨) .

ولما كانت مدينة سبته-بفضل موقعها الاستراتيجى- تعتمد فى الدفاع عن نفسها على البحر المتوسط الذى يدور بها شمالاً وجنوباً وشرقاً(٢٩) مشكلاً خندقاً طبيعياً مانعا يكفل حمايتها ، ويتيح لعمرانها المرتفع التحكم فى الدفاع عنها، بحيث

أصبحت على حد تعبير ياقوت الحموى « ضاربة فى البحر داخلة كدخـول كـف على زند »(٣٠) .

وهكذا نرى أن المنطقة الوحيدة التى تحتاج إلى حماية هى الجهة الغربيـة(٣١). ولذلك استلزم الأمر إحاطتها بسور يحميها من هذه الجهة بحيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصانتها .

وللأسف أن الأنصارى لم يزدنا بأية معلومـات عـن هـذا السور . غير أن البكرى أكد على أن المدينة كـانت مسورة بسـور محكـم البنـاء بنـاه عبـد الرحمن الناصر(٣٢) ، وذلـك عندمـا اقتحـم مدينـة سبته وأقـام الدعـوة الأمويـة بهـا عـام ٣١٩هـ/٩٣١م . وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله (وقد عمل النـاصر على تحصين تلك المدينة فشكها بالرجال وأتقنها بالبنيان وبنـى سـورها بـالكذان(٣٣) . وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده)(٣٤) .

وقد تهدم هذا السور وأعيد بناؤه فـى عهـد البرتغـاليون ، وبذلـك اختفـت معالمه الإسلامية باستثناء بعض أجزاء شوهتها أعمـال التجديـد والترميمـات التى ألحقت بها منذ أن سقطت سبته فى أيدى البرتغاليين(٣٥) . ولم يعـد باقيـاً الآن من السور سوى برج مربع(٣٦) نسبه الأستاذ تراس إلى عصر الدولـة الأمويـة ، وبالتحديد لعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، على أساس أن البرج مبنى بقطـع ضخمة وغير منتظمة من الحجارة على نظام أديـه وشـناوى ومثـل هـذا النظـام وكذلك مادة البناء كانت من أكثر مواد البناء شـيوعاً فـى بـلاد الأندلـس فـى عصـر الخلافـة علـى حـين نـدر استخدام هـذا النـوع مـن الحجـارة فـى بـلاد المغرب(٣٧) .

هذا عن السور الغربى لمدينة سبته ، أمـا عـن النظـام الدفـاعى لبقيـة أجـزاء المدينة الشمالية والشرقية والجنوبية فلا تظفر فى وصف الأنصارى أيضاً بأية إشـارة تتعلق بما كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى تلك الجهات .

وفى ظل هذا الصمت من قبل الأنصارى ، نتسأل هل ظلت تلـك الجهات تعتمد فى تحصينها على البحر المتوسط كخط الدفاع الأول عن المدينـة . أم أنهـا كانت مسورة هى الأخرى بأسوار لحمايتها؟

ومع أن ما وصلنـا فـى المصـادر العربيـة عـن أسـوار سبته وتحصينهـا يعتـبر شحيحاً للغاية ، بحيث لا تعين بشكل كاف على دراستنا التحليلية لهذه الأسـوار ، ولا تتضمن أية تفاصيل عن موقعها ، إلا أننا نستطيع مـن هـذه المـادة الهزيلـة التـى زودنا بها مؤرخو العرب وجغرافيهم أن نجيب على التساؤل السابق . فنقول بـأن الجهة الشرقية من المدينة كانت محاطة بسور بناه المنصور محمد بن أبى عامر عندمـا شرع فى بناء قصبة أو مدينة جديدة فى الجهة الشرقية من مدينة سبته فـوق جبـل الميناء(٣٨) والتى عزم على نقل سكانها إليها . ولكنه توفى قبل أن يتم مشروعه . وفى ذلك تشير المصادر العربية فتقول (وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبـير يسـمى جبل الميناء . وقد كان محمد بن أبى عامر أمر أن يبنـى لهـذا الجبـل مدينـة ويتصـل إليها أهل سبته ، فبنى سورها ، ومات، ولم يتم ما أراد . والسـور بـاق إلى وقتنـا هذا كأنه بنى بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضـه . ومـن غريـب مـا فـى ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها ومبنية بالزيت عوضاً من المـاء . وكـان غرضه إتمام عمله على هذا ، لولا الإنفاق الكثير فإن البنـاء بـالزيت أصلـب وأبقـى مع مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله)(٣٩) .

وإلى الشمال الشرقى من هذا السور الذى بناه المنصور بن أبى عـامر ، أقـام أبو القاسم العزفى سوراً آخر ، حيث أشار ابـن أبـى زرع فـى سياق حديثـه عـن أحداث عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى أن أبـا بكـر أبـى قاسـم العزفىبنـى فـى السـنة المذكورة سور سبته بجانب المنارة . وقيل بل كان ذلك فى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهو الأصح(٤٠) .

وفـى ضـوء الإشـارة السـابقة نسـتدل علـى أن الجهــة الشـمالية الشـرقية مـن مدينـة سبته حيـث كـانت تقـع المنـارة أو النـاظور-كمـا هـو موضـح فـى

الخرائط التى تبين مواقع المدينة ومعالمها الإسلامية(٤١) - ظلت بدون سور إلى أن دعت الضرورة أبا القاسم العزفى أن يطوق هذه الجهة بسور لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وتوضح المخططات التى وضعت لأسوار سبته قبل تهدمها ، أن السور الشرقى كان يمتد شمالاً ثم يتجه شرقاً فى شكل زاوية قائمة إلى المنطقة المعروفة بجبل المينا ، حتى يصل إلى باب المينا ، ثم يواصل سيره صعوداً إلى أن يصل أقصى ارتفاع له عند الربوة التى يوجد بها مسجد المقبرة(٤٢) .

أما عن الجهة الجنوبية فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تبين الوضع الذى كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى هذه الجهة ، إلا أن أحد الباحثين أكد بأن الجهة الجنوبية من المدينة والتى كان يحيط بها بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى ، كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامى(٤٣). وقد استند فى ذلك على المخططات التى وضعت لمدينة سبته فى القرن ١٥م ، والتى نرى فيها بوضوح جزءاً من سور إسلامى قد فتح فيه باب يعرف بباب مضرب الشبكة أو باب الزلاقه ، يتقدمه برج يعرف ببرج الماء(٤٤) . كما نلاحظ أيضاً من خلال أحد هذه المخططات أن مدينة سبته كانت محاطة تقريباً بأسوار تبدأ من الجهة الشمالية الشرقية وتمتد مارة ببابين فى السور الشرقى المشار إليهما برقمى٢،٣ لتصل إلى أقصى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة(٤٥) . ونخرج من ذلك بنتيجة هامة وهى أن الجهة الجنوبية من المدينة كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع إلى العصر الإسلامى ، أقيم لحماية تلك الجهة التى كان يتركز فيها أهم أحياء سبته ومراكزها العمرانية ، مثل الجامع والمدرسة الجديدة والقيسارية .

وأما عن الجهة الشمالية من المدينة ، فكانت فيما يبدو هى الجهة الوحيدة غير المسورة ، حيث اعتمدت فى حمايتها بشكل رئيسى على بحر الرملة فى الطرف الشمالى من المدينة . ويؤكد ذلك ، المخططات التى وضعت للمدينة ، والتى لا نرى فيها أية آثار لأسوار تطوق المدينة من هذه الجهة(٤٦) . كما أكد الأستاذ

كارلوس جوثاليث على هذه الحقيقة بقوله أن المسلمين لم يقيموا أسوار حول هـذا القطاع الممتد بطول بحر الرملة فى شمال المدينـة ، ويدلـل علـى ذلـك بـأن جيـوش البرتغاليين عندما فكرت فى غزو المدينة دارت حولها ثم استقر رأى قائد الأسـطول البرتغالى على أن يكون غزوها من الجهة الشمالية المطلة علـى بحـر الرملـة ، حيـث إنهـا الجهـة الوحيـدة التـى يسـهل الوصـول منهـا إلى داخـل المدينـة لأنهـا غـير مسورة(٤٧) .

وفى تصورى أن إحجام أهل سبته عـن تسـوير الجهـة الشـمالية مـن المدينـة يرجع إلى أن التوسع العمرانى فى العصر الإسلامى لمدينة سـبته-وفقـاً لمـا نـراه فـى الخرائط التى توضح مواقع المدينة ومعالمها-كـان مركـزاً بصفـة أساسـية فـى ثلاثـة قطاعات رئيسية ، هى القطاع الشرقى حيث كانت المدينة التـى شـرع فـى بنائهـا المنصور بن أبى عامر . والقطاعان الجنوبى والغربى حيث كـان يضمـان بداخلهمـا كافة المراكز العمرانية للمدينة الدينية والمدنيـة والاقتصاديـة ، والتـى سـوف نشـير إليها بعد ذلك فى دراستنا لمراكز المدينة العمرانية .

وبهذا نكون قد أوضحنا فى ضوء المصادر العربية والمخططات التى وضعت للمدينة ، الشكل الذى كان عليه النطاق المسور لمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

والواقع أن تتبع ذلك النطـاق فـى الوقـت الحـالى أمـر بـالغ الصعوبـة ، لأن معظم أسوار المدينة قد تهدم واختفى فى جملة ما أختفى من آثارها الإسلامية التـى كانت تزهو بهـا فـى العصـر الإسلامى . ومـا تبقـى مـن تلـك الأسوار تعرض للسقوط وتحول إلى أسوار درست عبر السنين . وهـذا مـا تبينـه المخططـات التـى أعدت لسبته منذ القرن ١٥م وحتى بداية القرن ١٩م(٤٨) .

(ب) أبواب المدينة :

أحصى الأنصارى عدد أبواب سبته فى العصر الإسـلامى بـ ٥٠ (خمسين باباً)(٤٩) . ونظراً لاندثار معظم هذه الأبواب فمن الصعب تحديد مواقعها ، وتتبـع

أسمائها التى أطلقت عليها عبر حقب التاريخ الإسلامى لمدينة سبته . كما أن الأنصارى نفسه لم يذكر من أسماء تلك الأبواب سوى تسعة أبواب ، وهى حسب ترتيب ذكره لها .

أولاً : الأبواب ذات الطابع الحربى :

١ - الباب الأحمر :

أورد الأنصارى ذكر هذا الباب بمناسبة حديثه عن أحد مقابر سبته بقوله (ومن أشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة(٥٠) . وكانوا رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم أهل علم وصلاح ودين)(٥١) .

ويبدو أن هذا الباب كان ينفتح فى سور المدينة الجنوبى ، المعروف بسور البحر لإطلاله على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى . ويؤكد ذلك ما ذكره الأنصارى فى موضع آخر عن مقبرة أخرى من مقابر المدينة بقوله : (وبمقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله عمر بن مسعود والعكس المعروف بابن الكنغر)(٥٢) .

وبإمعان النظر فى هذا النص والنص السابق ، يمكن الاستدلال على أن الباب الأحمر كان يقع داخل النطاق المسور الجنوبى لمدينة سبته ، بحيث يفضى من الجهة الجنوبية إلى خارج المدينة ، ومن الجهة الشمالية إلى داخلها ، فيصبح موضع مضرب الشبكة بقبورها خارج السور من الداخل وفقاً لما ورد فى نص الأنصارى.

٢ - باب فاس :

كان يقع هذا الباب فى القطاع الغربى من سور المدينة(٥٣) الذى يطوق منطقة أفراك Afrag(٥٤) على مقربة من أحد زوايا المدينة التى شيدها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن(٥٥) . وقد أشار الأنصارى إلى اسم هذا الباب وموقعه ومشيده فى أكثر من موضع . فمرة يذكره بمناسبة حديثه عن زوايا مدينة سبته

بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى أنشأها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك)(٥٦) .

ومرة أخرى يشير إليه بمناسبة حديثه عن أبواب المدينة ، فيؤكد أنه كان أحد أكبر أبواب قصبة أفراك ، وفى هذا الصدد يقول (وأبواب أفراك ثلاثة أكبرها باب فاس الذى وضعه السلطان أبو الحسن المرينى ، بانيه على شكل باب السبع من فاس الجديد كرسى مملكته وعلى مثاله)(٥٧) ومرة ثالثة يشير الأنصارى إلى هذا الباب فيقول (وبخارج باب فاس من أبواب أفراك المذكور سبقتان سبقة(٥٨) من ألف باع ومائتين وسبقة من ألف باع)(٥٩) .

وإذا فحصنا بقايا هذا الباب التى لا تزال قائمة بين أسوار حديثة بنيت فى العهد البرتغالى(٦٠) نلاحظ أنه كان يحظى بمظهر الحصانة والفخامة التى تتجلى فى ضخامة واجهته التى يتوسطها فتحة متسعة يكتنفها من الخارج على الجانبين بروزان أو كتفان يبدوان من ضخامتها أشبه ببرجين مبنيين بقطع حجرية منتظمة الشكل . أما بنية جدران الباب ، فتشير بقاياه إلى أنه كان مشيداً بالدبش والآجر المصقول والمنتظم فى صفوفه .

ويقارن الأستاذ بافون مالدونادو بين هذا الباب وبين غيره من الأبواب الموحدية ، فيؤكد أنه كان مطابقاً فى تصميمه لبعض الأبواب الموحدية ذوات المداخل المستقيمة المقسمة إلى ثلاثة ممرات متتابعة فى خط محورى(٦١) . ويذكر بأن هناك تطوراً واضحاً طرأ على نظام العمارة الحربية المغربية ، بتأثير من الأندلس. فنظام هذا الباب يعد امتداداً للتقاليد الموحدية وتطوراً لما وصلت إليه العمارة الحربية فى عصر بنى نصر من حيث تطبيق فكرة نظام التقسيم الثلاثى المدرج فى تتابع(٦٢) الذى طبق على نحو رائع فى العديد من أبواب غرناطة لاسيما باب السلاح(٦٣) والعدل(٦٤) .

وبوجه عام يعد باب فاس رغم تهدم أجزاء كثيرة منه الوحيد بين أبواب المدينة الذى لا يزال فى حالة أقرب ما تكون إلى حالته الأصلية فلولا آثار هذا

الباب ما كنا قد عرفنا شيئاً عن أبواب سبته الإسلامية التى تهدمت فى جملتها ، وأقيم مكانها أبواب حديثة .

٣ - الباب الجديد أو الأعظم :

كان يقع هذا الباب فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة على مقربة أيضاً من قصبتها(٦٥) . وكان يمثل حلقة الوصل بين مدينة سبته وربضها الخارجى، حيث يقع على مشارف الطريق المؤدى إلى ذلك الربض(٦٦) .

ويصف الأنصارى هذا الباب بقوله (وعدد الأبواب خمسون باباً ، منها الباب الأعظم الشهير الضخم ، والهيكل الذى لا يلقى له نظير ، المعروف بالباب الجديد . هذا الباب من مفردات سبته، ومن آثار الملوك بها اكتنفته قلهره(٦٧) ، عظيمة البناء هائلة المنظر ، سامية فى الجو ، قد استقلت على عشرة قباب وأربعة عشر قوساً . وبابه الأوسط بين قلهرتين ثنتين بارزتين من القلهرة العظمى . والباب فى اتساعه والارتفاع قد أربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية . وقوسه وفياصله قد أحكم بناؤها بالكذان بأعجب صفة وأبدع واتقان(٦٨) .

ويبدو من وصف الأنصارى لهذا الباب وأسلوب بناءه أنه كان أكبر أبواب سبته الحربية ،وأكثرها فخامة وضخامة ، وبذلك صحت تسميته بالباب الأعظم . كما يفهم أيضاً من وصف الأنصارى لهذا الباب بأنه كان يتألف من فتحتين إحداهما تؤدى إلى خارج المدينة ، وكان يكتنفها برجين بارزين عن البرج الذى يحمى الفتحة التى تؤدى إلى داخل المدينة .

وإذا كان وصف الأنصارى السابق لهذا الباب هو الشاهد الوحيد لما كان عليه فى العصر الإسلامى ، إذ اختفى فى الوقت الحاضر بين أطلال المدينة بحيث لا نستطيع التعرف على شكله المعمارى ونظامه التخطيطى ، فإن الأستاذ كارلوس جوثابلس استطاع أن يرسم صورة تقريبية افتراضية لهذا الباب(٦٩) من خلال بعض بقاياه التى تم الكشف عنها ، فضلاً عن الرواية البرتغالية التى دونها المؤرخ البرتغالى

جوميث ايانيش دى ازورارا ، Gomez Ennes de Azurara والتى تحكى قصة غزو البرتغاليين لمدينة سبته على يد الملك البرتغالى خوان الأول . وقد اعتمد الأستاذ كارلوس على الأحداث التاريخية التى ساقها ازورارا والتى تؤكد أن جيوش البرتغاليين قد دخلت مدينة سبته عبر باب مكون من ثلاثة مداخل(٧٠) تتصل فيما بينها عن طريق ممر منكسر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام متتابعة ، يقطعها ساحتان أو رحبتان(٧١) يشغلها غرف مقبية ، يفصلها فى مراحل أو مسافات منتظمة جدران بها فتحات معقودة تؤلف فيما بينها ممرات جانبية بها شرفات صغيرة، تمكن المدافعين عن الباب من قذف العدو بالسهام والمواد الملتهبة(٧٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ تراس نسب هذا الباب إلى بداية القرن ٦هـ/١٢م(٧٣) ، وقيّمه بأنه كان من نوع الاستحكامات الضخمة التى تمتاز بقيمتها العظيمة فى الدفاع عن المدن ، لاشتمالها على العديد من النقاط الدفاعية، مثل الممر متعدد الانكسار ، والأبراج الضخمة التى تحيط بفتحة الباب . ومثل هذا النوع من الأبواب فى رأى تراس يماثل الأبواب المرابطية وأبواب عصر بنى مرين ، وإن كان ارتفاعه الهائل يجعله قريب الشبه بأبواب عصر بنى نصر فى القرن ٨هـ/١٤م (٧٤) .

ثانياً : الأبواب ذات الطابع المدنى :

يقتصر استخدام هذا النوع من الأبواب على أوقات السلم ، فليس لها أية قيمة حربية وتنحصر وظيفتها فى تسهيل مهمة الاتصال بين العمران الداخلى للمدينة من حيث إفساح الطريق أمام المارة أو القوافل التجارية ، أو لتصريف مياه الأمطار . ويستدل من أسماء أبواب سبته ذات الطابع المدنى التى زودنا بها الأنصارى أن بعضها كان يتسمى عادة باسم المنطقة المؤدية إليها مثل باب الفرج(٧٥) وباب المينا(٧٦) وباب الزلاقة(٧٧) أو بأسماء أصحاب الحرفة التى يزوالها سكان تلك المنطقة مثل باب المشاطين(٧٨) وباب الحلويين(٧٩) وباب الحلفاويين(٨٠) وباب القصابين(٨١) .

ومن أهم ما أمدنا به الأنصارى أيضاً من معلومات عن أبـواب مدينـة سبته ذات الطابع المدنى ، ذكره لخمسة أبواب كـانت تنفتـح فـى سـور الربـض الـبرانى الذى هدمه السلطان أبو سعيد(٨٢) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستطيع أن نقرر حقيقة مـا ذكـره العلامـة ليفـى بروفنسال بأنه قد تنمو خارج هـذه الأبـواب (أى أبـواب المدينـة بنوعيهـا الحربـى والمدنى) . أرباض تزدهر عبر مرور السنين ، وتنتهى بالاندماج فى المدينة ، فيبنى سور جديد أوسع يضم هذه الأرباض فتصبح بدورها حومات ، وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن وقد يهدم الباب بعد انعدام سـبب وجـوده ، وقـد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، ولكن الأسماء تظل باقية(٨٣) .

ثانياً : أرباض سبته فى نص الأنصارى

المقصود بالربض البؤرة العمرانية أو الضاحية التى تقع خارج أسوار المدينة ، والتى تنشأ غالباً نتيجة اتساع العمران داخل نطـاق المدينـة ، وفيضـه إلى خارجهـا بعد تسويرها . وفى بعض الأحيان تطلق لفظة ربض خطئاً على الأحياء الداخليـة الواقعة داخل النطاق المسور للمدينة ، حتى ولو كانت قريبة جدا من مركز المدينـة العمرانى ، وليست كما تعنى هذه الكلمـات فـى معناهـا المتعـارف عليـه وهـو أن الربض يكون خارج النطاق المسور للمدينة وليس بداخله .

وقد فسر الأستاذ توريس بلباس هذا اللبس فى استعمال كلمـة ربـض هـذه فى غير موضعها بأن هذه الكلمة - وهى كلمة حى أو حارة- تطلق بصفـة عامـة علىالمواضع المبهمة غير المحددة بحدود معينة ولذلك نشأ الخلط بين كل منهما(٨٤).

وعن أرباض مدينة سبته يقول الأنصارى (وعدد الأرباض فى الحقيقة ستة: الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد ، والربض الـبرانى حيـث الحـارة(٨٥) والكسـابون(٨٦) الذى هد سوره السلطان أبو سعيد المرينى من حافة (٨٧) الغد إلى مضرب الشبكة)(٨٨) .

ويكشف نص الأنصارى عن حقيقة ما ذكرناه آنفاً من أن لفظة ربض كانت أعم وأشمل من كلمة حبى ، وأن هناك خلطاً بين الاصطلاحين بحيث أصبحت كلمة ربض تطلق على الأحياء الداخلية . ومن أمثلة ذلك الخلط ما ذكره الأنصارى عن الربض البرانى تميزًا له عن الأرباض الداخلية المتصلة بالبلد .

ويفهم من نص الأنصارى أيضاً أن الربض البرانى كان محاطاً بسور لحمايته من الأخطار الخارجية ، ويبدو أن هذا السور قد فقد أهميته بمرور الزمن بعد اتساع النطاق العمرانى للمدينة واندماج الربض داخل المدينة ، وهو الأمر الذى دعى السلطان أبا الحسن إلى هدم السور المذكور حسبما نص على ذلك الأنصارى.

وللأسف ليس فى إمكاننا أن نعرف على وجه التحديد مواقع الأرباض الستة التى أشار إليها الأنصارى وأسماءها ، وإن كان قد ذكر فى أكثر من موضوع فى ثنايا وصفه لمعالم مدينة سبته اسم ربضين هما : الربض الأسفل والربط الأوسط ، فضلاً عن الربض البرانى سالف الذكر . ويستدل من اسم الربضين الأولين (الأسفل والأوسط) على وجود ربض ثالث علوى لم يذكره الأنصارى ، لعله ربض زكلو الذى ورد ذكره فى المدونات البرتغالية فى سياق عرضها لسقوط سبته فى أيدى البرتغاليين(٨٩) وبذلك يكتمل عدد الأرباض الثلاثة المتصلة بالبلد التى حسب نص الأنصارى كانت عامرة بالمنشآت ، لاسيما الأسواق ، حيث كان يوجد بها وحدها ٣٢ (اثنان وثلاثون سوقاً) . من مجموع ١٧٤ (مائة وأربعة وسبعين سوقاً) وهو عدد أسواق المدينة كلها(٩٠) .

وإذا كان الأنصارى لم يشر إلى مواقع الأرباض الستة التى ذكرها ، ولم يزودنا بأية تفاصيل عنها ، فإن أحد المصادر البرتغالية عوضتنا عما أغفل الأنصارى بشأن مواقع تلك الأرباض ، حيث أمكن الأستاذ كارلوس جونابلس أن يرسم صورة تقريبية لمواقع الأرباض الثلاثة التى أشار إليها الأنصارى من خلال رواية المؤرخ البرتغالى ازورارا Azurara فمن خلال الوصف التفصيلى الدقيق لأحداث

المعارك التى دارت بين البرتغاليين وأهل سبته داخل تلك الأرباض ، استنتج بأن تلك الأرباض كانت تقع فى القطاع الأوسط من المدينة ، والمحصور بين سورين يمتدان شرقاً وغرباً ، ويصل بينهما سور أوسط يفصل بينهما ، ويحدد النطاق العمرانى للأرباض الثلاثة(٩١) . وكان ينفتح فى السور الشرقى بابان الأول مشار إليه فى المخطط الذى وضعه جوثابلس برقم (٢) ، ويعرف بالباب العلوى والثانى مشار إليه برقم (٣) ويعرف بالباب السفلى ، ومن هذين البابين حسب رواية ازورارا دخلت جيوش البرتغاليين إلى أرباض المدينة الثلاثة(٩٢) .

وقد أشاد الأنصارى باتساع عمران أرباض سبته ، وكثرة مبانيها الجنائزية التى كانت لها مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، لما تضمه من قبور العلماء والفقهاء . فيذكر بأنه كان فى الربض السفلى قبر الشيخ الفقيه الحافظ أبى الربيع سليمان بن سبع العجيسى(٩٣) مؤلف شفاء الصدور(٩٤) .

وفى الربض الأوسط كانت توجد مقبرة الشريعة ومن أشهر مقابرها قبر الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله القرمونى من أهل سبته ، وقبر الفقيه القاضى أبى الحسن ، وقبر الإمام الصوفى أبى محمد عبد الجليل الأوسى الأندلس(٩٥) .

كذلك يشير الأنصارى إلى وجود العديد من المبانى الدينية ، والأسواق التجارية ، والصناعية ، بتلك الأرباض ، مثل خزانة جامع الربض الأسفل(٩٦) ، وسوق العطارين(٩٧) فضلاً عن مصليات الأرباض التى كانت تقع فى أرض عظيمة الاتساع(٩٨) .

ثم يوضح الأنصارى بعد ذلك أن تلك الأرباض كان يفصلها عن بعضها البعض حفائر(٩٩) مثل الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى ، والحفير بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين(١٠٠) إلى مضرب الشبكة ، والحفير الهائل المعروف بالسهاج(١٠١) الفاصل بين الأرباض والمدينة(١٠٢) .

ثالثاً : الأزقة :

من الثابت أن معظم الشوارع الرئيسية بمدن المغرب الإسلامى تمتاز بضيقها وتعرجها وتتفرع من تلك الشوارع شبكه من الأزقة والدروب والزنقات بعضها نافذ ومعظمها غير نافذ(١٠٣) .

وقد أخبرنا الأنصارى بأن عدد أزقة مدينة سبته كان ٢٥٠ (مائتا زقاق وخمسون)(١٠٤) . كما حفظ لنا العديد من أسماء تلك الأزقة المندثرة . مثل زقاق ابن عيسى(١٠٥) وبنى العزفى ، وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار ، وزقاق أبى عبد الله القاضى الزاهد من أشياخ القاضى عياض . وزقاق ابن يربوع(١٠٦) . وزقاق العزفى أبى العباس وزقاق أبى على ابن الشراك وأبى القاسم ابن الشاط(١٠٧) وزقاق خطاب(١٠٨) .

وفى ضوء ما ذكره الأنصارى من أسماء أزقة سبته يتضح أن معظمها كان يحمل اسم أعلام الأسرات التى كانت تعيش فيها واسم شخصية هامة . كما أن بعضها يحمل اسم المنطقة التى تقع بجوارها أو يوجد فيها أو يؤدى إليها الزقاق مثل زقاق الخندق الكبير الذى يعرف فى القديم بخندق المين(١٠٩) ويعرف الآن بخندق الدجاج(١١٠) .

ويضيف الأنصارى أن كل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب ، وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات إلى غير ذلك (١١١) .

وفى الفقرة السابقة إشارة إلى الأمور المتعلقة بالتحكم فى تلك الأزقة وتوفير الآمان لسكانها عن طريق حراس لها يسمون بالدرابين(١١٢) .

ويفهم مما ذكره الأنصارى عن أزقة سبته أن بعضها كان من الاتساع بحيث كان يضم العديد من المنشآت مثل القصور والحمامات(١١٣) والأفران(١١٤) .

أما عن شوارع سبته الإسلامية فلم يرد فى نص الأنصارى أى ذكر لها غير أن الدراسات الطبوغرافية الحديثة المعتمدة على المصادر الأسبانية والبرتغالية المتعلقة

باسترداد المدينة أكدت على أن بعض شوارع سبته كانت موجودة على هيأتها فى العصر الإسلامى ، واحتفظت بأسمائها العربية بعد الاسترداد البرتغالى للمدينة وتوزيع عقاراتها على النصارى البرتغاليين . ومن أهم تلك الشوارع ، الشارع الكبير الذى كان يخترق الجهة الشرقية من المدينة والمعروف الآن باسم شارع Sanjurjo(١١٥) ، ومن هذا الشارع كان يتفرع زقاق أبى عيسى المعروف الآن باسم الطريق الأعظم Gran via (١١٦) والذى كان يقسم المدينة إلى قسمين أو شطرين حسب نص الأنصارى(١١٧) .

وفضلاً عن هذا الشارع كانت تشتمل المدينة على شارعين متعامدين يؤلفان محوري المدينة ، أحدهما كان يطلق عليه شارع العطارين والمعروف حالياً باسم شارع خاودينس Calle jaudenes (١١٨) والآخر كان يسمى بشارع الموثقين أى كتاب الوثائق Calle de los Notarior(١١٩) والمعروف حالياً باسم شارع سان اودنيا Calle de O'donnell(١٢٠) .

ويفيد الباحث كارلوس جوثابلس بأن هذين الشارعين كانا يخترقان القطاع الشمالى الشرقى من المدينة ، ويمتدان إلى مسجدها الجامع ومدرستها المعروفة بالمدرسة الجديدة(١٢١) . وكانت المنطقة التى يشقها الشارعان المذكوران من أهم أحياء المدينة إذ تضم العديد من المنشآت الدينية والمدنية الملتفة حول مسجد المدينة الجامع والذى تتفرع من ساحته الحارات والدروب المؤدية إلى معظم أحياء المدينة(١٢٢) .

رابعاً : المراكز العمرانية بمدينة سبته :

١ - المراكز الدينية :

كانت مدينة سبته فى العصر الإسلامى تضم عدداً من المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ، بحيث شكلت تلك المنشآت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية لمدينة سبته الإسلامية ، تدل عليه الإحصاءات التى أوردها الأنصارى لتلك المنشآت . وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت الدينية حسب ترتيب ذكر الأنصارى لها .

- المساجد :

يصور لنا الأنصارى أهمية المساجد وكثرتها بمدينة سبته بقوله (وعدد المساجد ألف مسجد . وأعظم هذه المساجد وأشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق . بلاطاته اثنان وعشرون بلاطاً وبقبلتها شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص ، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجارى القسائم والميازيب من الرصاص كذلك . ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة(١٢٣). وتميز عن سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم والبناء المرتفع السمك ، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل(١٢٤) . وبه صحنان ، أحد الصحنين أكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان ، وصومعته قديمة من عمل الأوائل)(١٢٥) .

ومن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات على النص السابق ما يلى :

١ - أنه على الرغم من مغالاة الأنصارى فى تقدير أعداد مساجد سبته فإن ذلك يبين مدى كثرتها . ويمكن تحديد العدد الضخم الذى ذكره الأنصارى لمساجد سبته بأنه يشمل المصليات الملحقة بالمنازل العامة .

٢ - لم يشر الأنصارى إلى موقع الجامع بالنسبة لعمران سبته أو الأصل الذى أقيم عليه ، ولا إلى تاريخ تشييده . وعلى الرغم من ذلك نستطيع بفضل الإشارات التاريخية المقتضبة التى أمكن استخلاصها من المصادر العربية والمدونات المسيحية الأسبانية والبرتغالية ، أن نجيب عما أغفل ذكره الأنصارى . فالنسبة لموقع الجامع فأغلب الظن أنه كان يقع فى وسط المدينة(١٢٦) فى نفس الموضع الذى تشغله الكاتدرائية الحالية على مقربة من البحر . ويؤكد هذا الافتراض إشارة أحد المدونات البرتغالية الخاصة بالاسترداد البرتغالى للمدينة فى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م . وفى ذلك يقول المؤرخ البرتغالى جوميث ايانيس دى ازورارا (وفى اليوم الثالث والعشرين من

شهر أغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر فى يوم الأحد التالى٢٥/٨/١٤١٥م وجرى فى ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة حسب رغبتهم فرساناً) .

ويضيف أزورارا أن المسجد المذكور كان مفروشاً بالحصير وفقاً لما هو متبع فى عادة المسلمين من فرش أرضية مساجدهم بنبات الحلفا . وأنه عندما تم استرداد المدينة والاستيلاء على المسجد لم ينزع هذا الحصير وإنما أضيف إليه حصير جديد فوق الحصير القديم (١٢٧) .

أما عن أصل البقعة التى أقيم عليها جامع سبته فكان موضعه الأول كنيسة بيزنطية ، هدمها فيما يبدو الفاتحون المسلمون ، وأقاموا على أرضها مسجدهم الجامع . ونستند فى ذلك على نص رواه البكرى فى ذكر مدينة سبته نصه (ومدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول . وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر آويات مع ضفة البحر القبلى فى فناءٍ إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع)(١٢٨) .

وأما عن تاريخ جامع سبته فيكتنفه الغموض . ولعل قلة ما أورده مؤرخو العرب عن هذا الجامع كان سبباً فى أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ أو أسماء العرفاء الذين أشرفوا على بنائه . ومع ذلك فمن الممكن أن نضع تاريخاً تقريباً لهذا الجامع بفضل نص أورده الأستاذ خواكين بالبين جاء فيه أن الخشنى صاحب كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذى عاش السنوات الأولى من حياته فى القيروان ، كان قد خرج منها إلى الأندلس ، وفى طريقه إلى الأندلس مر على سبته فى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م وفيها تعلم أصول الفقه وشارك فى تصحيح اتجاه قبلة مسجد سبته التى كانت منحرفة عن الاتجاه الصحيح(١٢٩) . ومعنى ذلك أنه شرع فى تشييد هذا الجامع فى التاريخ المشار إليه أو قبله بقليل .

ويبدو أن جامع سبته ظـل موضـع اهتمـام الأمـراء والخلفـاء الذيـن تنـاولوه بالزيادة والتعديل على مر العهود ، حيث أن سنة ٤٨٤هـ/١٠٨٧م تسـجل تـاريخ قيام الأمير يوسف بن تاشفين بالزيادة فى جامع سبته . وفى ذلك يقول صـاحب كتاب الحلل الموشية (ولما كان سنة ٤٨٤هـ تحـرك يوسـف بـن تاشـفين إلى سبته لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملـوك الطوائـف وحصـار بلادهـم . وفى أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبته والزيادة فيه . فـزاد فيـه حتـى أشرف على البحر وبنى البلاط الأعظم منه)(١٣٠) .

وقد أورد ابن عذارى نص أخر أشار فيه إلى الزيادة المذكورة بقولـه (وكـان يوسف بن تاشفين أمر القاضى محمد بن عيسى ببنيان جـامع سبته وزاد فيـه حتـى أشرف على البحر وكان بنيانه عام واحد وتسعين)(١٣١) .

ومن الملاحظ أن ابن عذارى لم يكمل تاريخ البناء حيـث أشـار إلى التـاريخ المذكور (٩١) ضمن حوادث عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م . والراجـح أن تـاريخ هـذه الزيادة حسب نـص ابن عـذارى كـانت سنة ٤٩١هــ/١٠٩٧م على أسـاس أن يوسف بن تاشفين توفى فى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م(١٣٢) .

وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين فى تحديـد تـاريخ الزيـادة المذكـورة فإن الذى لاشك فيه أنها تمت فى عهد يوسف بن تاشفين ، وأنها نفذت من الجهة الجنوبية أى من جهة جدار القبلة حيث كان يطل الجامع من هذه الجهـة على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى كما أن الأمير يوسف بن تاشـفين هـو الـذى أقام البلاط الأوسط الضخم المرتفع السمك حسب وصف الأنصارى(١٣٣) أو الأعظـم كما يسميه صاحب الحلل الموشية(١٣٤) .

ويفهم من وصف الأنصارى للبلاط الأوسط بمسـجد سبته أنه كـان أكـبر بلاطات الجامع وأكثرها ارتفاعاً ، وأن هذه ميزة مـيزت جـامع سبته عـن جوامـع بلاد المغـرب كلهـا . والحقيقـة غير ذلـك ، لأن ظـاهرة ارتفـاع البـلاط الأوسـط واتساعه عن بقية البلاطات تمثلت فى العديد من المساجد المغربيـة والأندلسية قبـل

جامع سبته ، مثل جامع القيروان والزيتونة وقرطبة . كما طبقت أيضاً فى قصور عصر الخلافة التى تتبع فى تخطيطها نظام البلاطات . وعلى هذا فإن تلك الظاهرة تعد من الظواهر الهامة التى تميزت بها أغلب عمائر المغرب والأندلس الدينية والمدنية بحيث أصبحت الطابع المميز لتخطيط تلك المنشآت(١٣٥) . وتجدر الإشارة إلى أن جامع سبته قد تعرض لزيادة أخرى على يد القاضى عياض(١٣٦) وذلك فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م(١٣٧) .

وتصمت المصادر العربية خلال القرون الثلاثة التالية وحتى سقوط مدينة سبته فى أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م عن ذكر شىء عن هذا الجامع بحيث يعد وصف الأنصارى سالف الذكر هو الشاهد الوحيد لما كان عليه جامع سبته بعد احتلالها بنحو سبع سنوات (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) . وهو تاريخ تأليف الأنصارى لكتابه موضوع الدراسة والذى أكد فيه بأن بلاطات الجامع قد بلغت اثنتين وعشرين بلاطة(١٣٨) .

ولا يجب أن نترك ماذكره الأنصارى دون مناقشة ، لأن الرقم الذى أورده بشأن عدد بلاطات الجامع مبالغ فيه . وأغلب الظن أن هذا الرقم يمثل عدد الأساكيب الممتدة بعرض الجامع وليس عدد البلاطات أو الأروقة الطولية ، لأنه لو صح هذا الرقم (٢٢ بلاطة) لأصبح الجامع ، عميقاً جداً(١٣٩) . كما أن البكرى الذى وصف الجامع فى عصر المرابطين ، وهو العصر التى تمت فيه زيادة كل من الأمير يوسف بن تاشفين والقاضى عياض أشار بأن الجامع كان يتألف من خمس بلاطات فقط(١٤٠) . ومهما بلغ عدد البلاطات التى أضيفت للجامع فيما بعد فمن المستبعد أن يصل عددها إلى أثنين وعشرين بلاطة . لاسيما وأن هناك مساجد أخرى فى بلاد المغرب والأندلس تعرضت لزيادات عديدة على مدار عهود متباينة. ومع ذلك لم يصل عدد بلاطاتها إلى هذا العدد الذى ذكره الأنصارى . ومثال ذلك جامع القيروان أكبر المساجد الجامعة الباقية وأعظمها مظهراً ، كان يتألف بعد أن بلغ منتهاه من سبع عشرة بلاطة تمتد على عشرة أساكيب(١٤١) وكذلك

جامع الزيتونة الذى بلغ عدد بلاطاته (١٥) خمس عشرة بلاطة(١٤٢) وأيضاً جامع قرطبة الذى على الرغم من عظم مساحته لم تزد عدد بلاطاته عن ١٩ تسع عشرة بلاطة(١٤٣) .

مساجد أخرى جامعة وغير جامعة بمدينة سبته :

وإلى جانب جامع سبته الكبير كان يوجد بالمدينة جامعان آخران هما مسجد زكلو أكبر مساجد سبته بعد المسجد الأعظم حيث كان يتألف من سبع بلاطات ، وقد بناه أبو القاسم العزفى صاحب سبته(١٤٤) وجامع التبانين الذى كانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وكان يقع فى ربض المدينة السفلى(١٤٥) .

ونضيف إلى تلك المساجد الجامعة عدد آخر من المساجد غير الجامعة التى كانت تزخر بها مدينة سبته فى العصر الإسلامى ، والتى اندثرت شأن مساجدها الجامعة و لم يعد لها أى أثر و لم يرد بشأنها أية إشارات لافى المصادر أو فى المدونات المسيحية ، وإن كان الأنصارى قد زودنا بأسماء بعضها مثل مسجد الحلفاويين(١٤٦) ومسجد المحلة(١٤٧) ومسجد القفال(١٤٨) .

- المصليات :

أشار الأنصارى إلى توافر المصليات خارج أسوار مدينة سبته ، حيث بلغ عددها ستة مصليات(١٤٩) وقد دلت أوصاف الأنصارى لتلك المصليات على حسن تصرف المعمار ، وإقامة نماذج منها مختلفة عن بعضها البعض ، بسبب اختلاف مساحتها وموقعها ووظيفتها . فالمصلى الكبير أو مصلى المدينة أتاح موقعه المتميز خارج أسوار المدينة فى مساحة واسعة فرصة استخدامه كمصلى للعيدين جرياً على سنة الرسول فى إقامة الصلاة فى أماكن واسعة خارج المدينة(١٥٠) . كما أعطى هذا الموقع المتميز لهذا المصلى المتمثل حسب وصف الأنصارى فى أنه يقع فى موضع منقطع وسط البحر(١٥١) ميزة أمنية بحيث أوجبت الضرورة فى أوقات الحصار والفتن استخدامه للصلاة ، لما يتوفر فيه من

شروط أمنية قد لا تتوفر فى غيره من المساجد والجوامع التى كانت تتركز فى قلب المدينة(١٥٢) . ويتجلى أيضاً أثر الموقع والوظيفة فى اختيار مصليات سبته فى المصلى الملكى الذى كان خاصاً بسكان القصر الملكى (أفراك) من الأمراء والسلاطين وما يتبع هؤلاء من جنود وحراس(١٥٣) وفى تخصيص بقيه مصليات سبته حسب ما نص عليه الأنصارى لأهل الأرباض والقصبه(١٥٤) .

- المدارس :

بعد ما كانت جوامع سبته ومساجدها تؤدى مهمتها فى خدمة الدين والعلم صارت المدارس تبنى للمشاركة فى القيام بهذه المهمة . والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الوافدين على سبته للتعلم على أساتذتها(١٥٥) فقد كانت مدينة سبته منذ القرن ٥هـ/١١م مركزاً مرموقاً للدراسات العربية الفقهية والطبية بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها ، وهى العناصر التى تزايد عددها منذ أوائل القرن ٧هـ/١٣م .

وتزخر كتب التراجم بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين من أبناء سبته من أصول أندلسية(١٥٦) .

ويمكن أن نستنتج من النصوص التاريخية أهمية مدينة سبته كمركز إشعاع ثقافى حيث أكد ذلك وصف البكرى لها فى قوله (إنها لم تزل دار علم)(١٥٧) كما يؤكده ابن الخطيب فى قوله (بأنها بصره علوم اللسان وخزانة كتب العلوم)(١٥٨) . وكذلك يبين المقرى المناظرات الأدبية التى كانت تجرى بين علماء سبته كالمناظرة التى جرت حول استعمال (ماذا) بين النحوى الشهير أبى الحسن ابن أبى الربيع وبين الأديب مالك ابن المرحل(١٥٩) .

ويكفى دليلاً على مكانة سبته العلمية أن الباعث على كتابة رسالة الشقندى فى فضائل أهل الأندلس كان الجدل الذى وقع فى مجلس صاحب سبته أبى يحيى ابن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب(١٦٠) .

ويذكر الأنصارى مدرستين شهيرتين بسبته هما مدرسة الشيخ المحدث على الشارى الغافقى السبتى(١٦١) والمدرسة الجديدة التى ابتناها السلطان المرينى أبو الحسن(١٦٢) .

و لم يصرح الأنصارى بآية تفاصيل عن المدرسة الأولى التى بناها أبو الحسن الشارى ، على حين أفاض بعض الشىء فى وصف المدرسة الجديدة التى بناها أبو الحسن المرينى بقوله (والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان أبو الحسن المرينى مخلد الآثار الدالة على شماخة الملك وعلو المقدار)(١٦٣) .

وفى موضع آخر يشيد الأنصارى بميضأة تلك المدرسة بقوله (وأبدعها صناعة وأحكمها بناء ميضأة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبير(١٦٤) وفى كل منها نقير من الرخام(١٦٥) يصب فيها ميزاب من النحاس ، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر ، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج(١٦٦) الملون . وقبتها مؤلفة(١٦٧) ومن بعض صنائعها نوّر البابونج(١٦٨) يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة يجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب) (١٦٩).

ووفقاً لما أوردته الوثائق البرتغالية الخاصة بسقوط مدينة سبته فى أيدى البرتغاليين فإن هذه المدرسة تحولت بعد الاسترداد مباشرة إلى دير ، وأنه قد أطلق عليها بعد تنصيرها اسم مصلى سنتياجو ermita de santiago(١٧٠) .

وفى عام ١٥٦٠م أقيم فى المدرسة مصلى آخر يبعد عن الأول الذى كان قد أقيم فى وسط المدرسة(١٧١) وقد ظلت المدرسة رغم تحويلها إلى عدة أديرة ومصليات مسيحية محتفظة بصورتها التى كانت عليها فى العصر الإسلامى ، حيث ورد ذكرها فى الأدب البرتغالى عام ١٦٤٨م (بأنها بناء عظيم من عمل المسلمين يضم ١٠ (عشرة) أعمدة من الرخام الأبيض ، قواعدها من الرخام الأسود وجدرانها منقوشة بزخارف رائعة . ولا يزال يتوج مدخلها - حتى بعد

تحويلها إلى دير - لوحتان من الرخام تتضمنان نقوشاً كتابية بـالخط العربى نصهـا «الحمد لله. تم بحمـد الله هـذا البنـاء رجـاء ثـواب الله بـأمر مـن أبـى عنـان سنة ٧٤٧هـ»(١٧٢) .

وإذا نظرنا إلى نهاية هذا النص الـذى نقلـه الكـاتب الأسبانى مسـكرنيلاس Mascarenilas عن أحد المدونات البرتغالية ، يتضح أن ما ورد يشوبه الخلط والخطأ، حيث ذكرت الرواية أن السلطان أبا عنان هو الـذى شيد المدرسـة الجديـدة على أساس أن ذلك مسجلاً بنقش كتابى كـان لا يـزال يتـوج مدخلهـا حتـى منتصـف القرن ١٧م . وهذا يتعارض مع ما ذكره الأنصارى الذى أكد بأن المدرسة من بناء السلطان أبى الحسن . ويؤكد صحة ما ذكره الأنصـارى أن التـاريخ المسـجل فـى النص الكتابى لا يقع فى فترة حكم السلطان أبى عنان الذى كان قد ثار على أبيـه أبى الحسن بتلمسان عام ٧٤٩هـ واستولى على المغرب الأقصـى(١٧٣) ، فـى حـين يقع التاريخ المذكور ٧٤٧هـ فى النص الكتابى فى فترة حكم أبى الحسـن . وعلـى هذا فمـن المؤكـد أن هـذه المدرسـة قـد شـيدت فـى عهـد السـلطان أبـى الحسـن واستكملت فى عهد ابنه أبى عنان الذى ربما حاول طمـس أعمـال أبيـه . لاسيما وأنه قد ثار عليه فأزال اسم أبيه ووضع مكانه اسمه دون أن يغير التاريخ الأصلى.

وفى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، تم تجديد المدرسة بما فيهـا من أديرة ومصليات . ومع ذلك لم تمـس التغيرات المتواليـة جوهـر البنـاء . ويقـرر ذلك وصف Carrea de Franca أحد كتاب القرن الثـامن عشـر الميـلادى لهـا بقولـه (بأنها كانت عبارة عن قاعـة مقسـمة إلى ثلاثـة أروقـة تقـوم علـى عمـد وتيجـان وقواعد من الرخام والحجارة السوداء) . كما وصف محرابها بأنه (ظل قائماً علـى حاله لم يحدث فيه شيء سوى أنهم جعلوا عليه صليباً)(١٧٤) .

مما سبق ذكره يتبـين مـدى إسـهام أعمـال الإضافـات والـترميم والهـدم فـى تشويه المدرسة الإسلامية وطمس معالمها التى تحتـاج مـن أجـل الكشـف عنهـا إلى دراسات مبنية على حفائر علمية . وهذا أمر يصعب تحقيقـه بعـد أن أقيـم مكانهـا

الآن مبنى حديث عبارة عن ثكنات للجند . ومن هنا فإن تصورنا لنظام المدرسة التخطيطى يبدو صعباً . ومع ذلك فقد قام الأستاذ كارلوس جوثالبس Carlos Gozalbes بوضع رسم افتراضى لتلك المدرسة(١٧٥) اعتمد فيه على أوصاف بعض الكتاب والرحالة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . فضلاً عن بعض الرسوم التوضيحية التى سجلتها الخرائط القديمة للمدرسة بعد تحويلها إلى دير أو مصلى كنسى .

وقد اعتمد الأستاذ كارلوس فى نظريته الافتراضية لتخطيط أو منظور المدرسة على تجريدها من كل الملحقات غير الإسلامية ، بحيث يبقى منها عناصر المدرسة الأصلية التى رجح أنها كانت تتألف من قاعة مكونة من ثلاثة أروقة عمودية على جدار المحراب الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية من القاعة ، ويغطى الأروقة الثلاثة أسقف هرمية مسنمة تمتد من الغرب إلى الشرق . وتطل القاعة على بهو يتوسطه صهريج ، ويكتنف هذا البهو من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية سقائف معقودة تشغلها حجرات لإقامة الطلبة . وخلف السقيفة الجنوبية توجد قاعة كبيرة للوضوء والاغتسال مغطاه بقبة نصف أسطوانية.

أما المئذنة فكانت تتوج الجهة الشمالية من المدرسة . وكان ارتفاعها حوالى ٢٥م وكانت تتكون من طابقين الأول مربع الشكل ينفتح فيه على مستويين نوافذ توأمية فى المستوى الأول من أسفل ومفردة فى المستوى الثانى من أعلى.

أما الطابق الثانى من أعلى فكان أصغر من الطابق الأول وهو على شكل مثمن يعلوه سقف أو خربوش مسنم.

ويضيف الأستاذ كارلوس بأن أبواب المدرسة كانت تنفتح فى جهتيها الشرقية والغربية(١٧٦) .

الأربطة والزوايا :

من المنشآت الدينية بمدينة سبته الأربطة[١٧٧] والزوايا[١٧٨] فمع شيوع وانتشار التصوف بتلك المدينة التى تكون فيها تفكير صوفى لم تنطفئ شعلته من سبته إلا بانتهاء السيادة الإسلامية عليها[١٧٩] .

أقيمت العديد من الربط والزوايا كمساكن للفقراء والزهاد والغرباء . وكان يتولى إنشاء تلك الربط والزوايا الحكام والأثرياء من أهل سبته . ويشيد الأنصارى بكثرة ما شيد بمدينة سبته من تلك الربط والزوايا بقوله(وعدد الروابط والزوايا سبع وأربعون زاوية ورابطة محازية للبحر من جانب الجنوب والشمال داخل المدينة والأرباض وخارجاً عنها. أضخمها بناء وأعظمها هيكلاً الرابطة المعروفة برابطة الصيد ، مربعة الشكل قائمة فى الهواء على اثنى عشر عموداً منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد . والأربعة الباقية مبنية بالأجور تحت معاقد أركان القبة ، ولكل عمود منها خمسة أركان واستدارت بها ثمانية عشر سرجباً[١٨٠] فى أربع بلاطات وبابها مبنى بالكذان[١٨١] المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها)[١٨٢] .

وفى النص السابق عدة أمور هامة منها تحديده لمواقع ربط سبته على سواحلها الشمالية والجنوبية . وفى ذلك تأكيد لصفة تلك الربط ودورها فى حماية السواحل والثغور كنقاط حصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد ، تقوم بالدفاع عن المدينة فى المواقع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة يرسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر ، حيث كانت تزود هذه الربط بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح بأن يرى الواحد منها الآخر ويمكن إرسال إشارات الإنذار من رباط إلى آخر بواسطة النار أو الدخان.

وهكذا نلاحظ أن ربط سبته لم يكن مقصود إقامتها فقط على السواحل وإنما داخل المدينة ، وفى الأرباض ، وذلك على غرار الربط الداخلية التى أقيمت على حدود مصر الجنوبية . ويتضمن النص السابق أيضاً صورة تقريبية لعمارة

الرباط ساعدت فى الكشف عن تخطيطه المربع ، ودلت فـى وضـوح على فخامة بنائه وسعة مساحته وتباين ألوان أعمدته وتنوع ألوان بناته ما بين الرخـام والأجـر المستخدم فى صنع الأعمدة وحجر الكذان المستخدم فى تشييد بابه.

ومع أن الأنصارى أكد استخدام القبـة كوسيلة مـن وسـائل تغطيـة ربـاط الصيد سـالف الذكـر ، إلا أنـه لم يحـدد الشـكل الـذى اتخذتـه هـذه القبـة . وفى تصورى أنها كانت من نوع القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى شاع اسـتخدامها على نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس منذ ابتكارها فى زيادة الحكـم المستنصر بجامع فرجة وجامع قرطبة وعلى نطاق واسع فـى معظـم عمـائر المغـرب والأندلس . ويدعونى إلى إبداء هذا الرأى ما نستقيه من وصـف الأنصـارى الـذى أشار فيه إلى عقود ونوافذ القبة ، فربما قصد بالمعاقد والأركان هو أشكال الضلوع التى تتكون من خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة تحمل هذه العقود التى يستند عليها غطاء القبة، وذلك على غرار قبة المحراب بجامع قرطبة التـى تقـوم علـى أثنـى عشر عموداً محاطاً بركائز فى قاعدة القبة تحمل رؤوس الضلـوع التـى تتكـون مـن أنصاف دوائر متقاطعة . كما أن كلمة شـرجباً تشـير إلى أن ضلـوع القبـة كـانت تترك فراغاً تنفتح فيه بقاعدة القبة ثمان عشرة طاقة مشبكة تشبه النوافـذ أو القنـاطر المدفوعة على عمد مندمجة فى ركائز قاعدة القبة .

ويذكر الأنصارى رباطاً آخر بسبته دون أن يوضح اسمه ، كان مجاوراً لرباط الصيد سالف الذكر ، ووصفه بأنه كان يضم فى وسـطه قـبر جاريـة لأحـد أمـراء الموحدين(١٨٣) . كما يذكر المقرى أن أبا الفضـل عيـاض بـن موسـى بـن عيـاض السـبتى - وكـان مـن قضـاة سـبته - قـد بنـى بجبـل المينـا رباطـا يعـرف بربـاط العباد(١٨٤) .

- الزوايا :

أما عن زوايا سبته التى تقابل فى المشرق الخانقاوات ، فقد حفظ الأنصارى اسم واحدة منها فقط وهى الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان أبو عنـان بـن أبـى

الحسن خارج باب فاس لنزول الغرباء . ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم . ثم ينتقل الأنصارى إلى وصف عمارة تلك الزاوية فيشير إلى عظمة بنائها و كثرة زخارفها وتعدد مساكنها وروعة صومعتها(١٨٥) .

– ثانياً المراكز الاجتماعية :

المقصود بالمركز الاجتماعى القطاع العمرانى الذى تتركز فيه منشآت المدينة ذات السمة الاجتماعية مثل دور الإمارة ودور العامة والخاصة والحمامات والقناطر أو السواقى .

– دار إمارة سبته :

الواقع أن دراسة دار إمارة سبته وقصورها الملكية تعد من الأمور الصعبة للغاية ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة نخص بالذكر منها اختفاء تلك المنشآت ، كما أن الأنصارى وكذلك بقية المصادر العربية لا تتضمن أى وصف لها ، وتكاد تقتصر معلوماتنا عن دار إمارة سبته على ما ذكره البكرى فى سياق حديثه عن المدينة بقوله (ودار الإمارة فى جوفى المدينة وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه المدينة قاطعاً إلى أخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة فى الجانب الغربى منها)(١٨٦).

وأهم ما نستنتجه من هذا الوصف تحديده بشكل واضح لموقع دار الإمارة فى الجهة الشمالية من المدينة . كما يستشف منه مدى اتساع تلك الدار بحيث بلغ طولها من جهة سور المدينة الغربى خمسة أميال.

– قصر قصبة سبته (أفراك) :

من الجدير بالذكر أن أى بلد فى المغرب الإسلامى حين يصل إلى درجة معينة من النمو ويتحول إلى مدينة وتصبح هذه المدينة قصبة إقليم(١٨٧) ، وبالتالى تصبح مقراً للعامل أو الأمير صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لابد منها لتيسير النظم المديرة لشئون الحياة الاجتماعية فى المدينة . وكان ممثلو السلطة

المركزية يقيمون عادة إلى جوار العامل أو الأمير القائم بولاية المدينة في موقع يسهل منه الدفاع عن المدينة في حالة تعرضها لأى عدوان خارجي ، ويتمثل ذلك في قصبة المدينة أو حصنها المنيع . وفي داخل هذه القصبة كان يوجد القصر الملكي حيث مقر الإدارة والحكم(١٨٨) .

وكان لسبته قصبة أو كما يسميها الأنصارى وبعض المؤرخين المغاربة أفراك(١٨٩).

ويبدو أن هذه القصبة أقيمت في نفس موضع دار الإمارة القديم التي أشار إليها البكرى ، وذلك بعد أن تطور عمران سبته في عهد بنى مرين وأصبحت قصبة إقليم . ويستدل على ذلك من إشارة ابن خلدون إلى أن السلطان أبا سعيد المرينى هو الذى أمر ببناء البلد المسمى أفراك على سبته سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م(١٩٠) .

وباستثناء تلك الإشارة لا تتضمن المصادر العربية أى وصف لها كما أن منطقة القصبة المعروفة بأفراك اختفت الآن ، وذلك بعد حوالى عشرة سنوات من سقوط مدينة سبته في أيدى البرتغاليين (١٥٤٠-١٥٥٠م)(١٩١) .

ولعل اندثار هذه القصبة ٩٤٧هـ - ٩٥٧هـ كان من أهم الأسباب التى أدت إلى عدم اهتمام المؤرخين العرب بها ، لاسيما الأنصارى الذى لم يزودنا للأسف بأية تفاصيل عن موقعها أو نظامها التخطيطى . وإن كان الأستاذ كارلوس جوثابلس قد وفق بفضل دراسته لطبوغرافية مدينة سبته التى اعتمد فيها على بعض الخرائط والصور في تحديد الشكل الذى كانت عليه قصبة سبته بما في ذلك القصر الملكى الذى كان يتخذه حاكم سبته مقراً لولايته . فذكر أن قصبة سبته المعروفة بأفراك ، والتى أطلق عليها أسماء أخرى مثل المنصورة(١٩٢) . كانت تقع في القطاع الشمالى الغربى للمدينة(١٩٣) وأنها كانت تتخذ شكلاً مستطيلاً ضلعه الغربى ، يؤلف جزءاً من أسوار حفير السهاج(١٩٤). وكان يدعم هذا الضلع أو السور الغربى من القصبة أربعة أبراج أوسطها أكبرها ، حيث أقيم هذا

البرج فوق برج آخر قديم أصغر منه ، وسقف هذا البرج مسنم . وكـان يتوسطه باب مقبى يفضى إلى خارج المدينة . ومن خلال هذا الباب كان يمكن الدخول إلى القصبة والخروج منها دون الحاجة إلى اجتياز المدينة(١٩٥) .

أما السور الشرقى للقصبة الموازى للسور الغربى فكان يدعمه ثلاثة أبراج(١٩٦) أوسطها أصغرها ، وهو البرج المعروف ببرج سابق Torre Sabek الذى ذكره البكرى . وأكد على أنه كان يفتح به باب يدخل منه إلى دار الإمارة(١٩٧).

وفى ضوء إشارة البكرى السابقة والدراسات الحديثة التى أجريت حول منطقة القصبة يتأكد صحة ما أشرت إليه سابقاً من أن القصبة وقصرها أقيمت فى نفس موضع دار الإمام القديم.

ويضيف الأستاذ كارلوس جوثابلس أن الضلعين الشمالى والجنوبى كان يطوقهما سورين يمتدان طولاً من الشمال إلى الجنوب . وأن هذين السورين كانا يضمان بداخلهما ساحة القصر ، ويفصلان فى ذات الوقت منطقة القصبة عن أرباض المدينة الخارجية.

وهكذا يتضح من خلال الدراسة التى قام بها كارلوس جوثابلس أن منطقة القصبة كانت تنقسم إلى قسمين : قسم شمالى شرقى يضم بداخله مبنى القصبة أو الحصن . وقسم جنوبى غربى كان يضم القصر وساحته(١٩٨) . كما كان يضم وفقاً لما ذكره الأنصارى مسجداً كان يصلى فيه السلطان أبو الحسن بجيشه وحمام ودار للإشراف على دار السكة(١٩٩) .

– الدور :

لم يصلنا أى أثر لدور سبته الإسلامية التى تعد واحدة من أهم المنشآت المعمارية فى المركز العمرانى الاجتماعى . كما أن أخبار تلك الدور فى المصادر العربية يكتنفها الغموض بحيث لا نستطيع التعرف على المظاهر العامة لبنائها أو نظامها التخطيطى. وكل ما وصلنا من أخبار عن دور سبته الإسلامية يكاد يقتصر على ما زودنا به الأنصارى من إشارات متناثرة عن بعض دور المدينة دون أن يذكر أى وصف لها.

وأهم ما نستنتجه من هذه الإشارات عن هذه الدور هو أن المدينة كانت تكتظ بالدور الموزعة حول مسجدها الجامع ، وفى الطرق الرئيسية والدروب والأزقة والزنقات والحارات ، بحيث يبلغ عددها ما يزيد عن ٤٠ ألف دار(٢٠٠) .

وتتميز معظم هذه الدور باشتمالها على حمام ومصلى لتأدية الصلوات الخمس(٢٠١) .

كما تتميز جميعاً بأنها لا تخلو من المياه الجارية التى تعتبر من ضرورات الحياة المنزلية . وكانت جميع دور سبته الخاصة والعامة تتصل بشبكة من الأنابيب والقنوات لجلب المياه من الأودية والأنهار والآبار ، بحيث كانت مساكن سبته بمياهها العذبة الدائمة على حد تعبير الأنصارى (لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء حيثما كانت بأقطار المدينة) (٢٠٢) .

وبالإضافة إلى دور الخاصة والعامة كانت تقوم فى بعض الدروب والحارات التجارية مصريات وعليات(٢٠٣) وهى عبارة عن دور صغيرة للغاية تتكون من طابق واحد أو من غرفة واحدة تعلو فى الغالب حانوتاً أو مصنعاً أو فندقًا . وكان أهل المغرب والأندلس يكرونها للتجار الغرباء أو للعزاب من القومة والخدم . وفى بعض الأحيان كان أرباب الحرف يتخذونها لمزاولة صناعتهم فقط ، إذ كانوا يبيتون فى مساكن أخرى(٢٠٤) . وذلك بعكس ما كان معروفاً عند الصناع فى المشرق الإسلامى حيث كانت المصانع والورش تقام فى الطابق الأرضى فى حين كانوا يبيتون مع أسرهم بالغرف العليا التى تعرف فى المشرق بالعليات وفى بلاد المغرب بالمصريات(٢٠٥) .

وقد طبعت دور سبته بطابعها الاقتصادى ، فكانت تشتمل بعض دور الصناع على غرفة أو محل أو ورشة تزاول فيها أى صنعة من الصناعات التى كان يزاولها صاحب الدار . ويستدل على وجود مثل هذا النوع من الدور من خلال

إشارة الأنصارى إلى ورش التجارة المخصصة لعمل القسى بقوله (وعدد المنجرات المعدة لعمل القسى أربعون منها عشرون بمنازل المسلمين والصناع كبنى القنطرى وبنى العاقل وبنى ابن غالب وغيرهم)[٢٠٦].

- الحمامات :

أشار الأنصارى إلى كثرة حمامات سبته بقوله (وعدد الحمامات العامة المبررة للناس اثنان وعشرون حماماً)[٢٠٧] . كما أمدنا بأسماء بعضها ، وبصورة واضحة عن بعض المظاهر العامة لبنائها ، فيذكر أن من بينها (حمام القائد وهو أبو على ناصح الذى كان بناؤه على يده. وهذا الحمام بلغ الغاية فى الكبر يسع المئين[٢٠٨] من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على أعمدة الرخام مفروش بالواحة الساطعة البياض . والمسلخ[٢٠٩] متسع الساحة له بابان اثنان ، وسقفه قبه مؤلفة[٢١٠] متقنة على أربع حنيات . وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض . وفى وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور[٢١١] من الرخام يصعد الماء فى حوض السارية إلى أن يفور فى الطيفور ، وفيضه يملأ الصهريج . ومن الحمامات ذات الرخام سواه بسبته حمام ابن عيسى ، وحمام اليانشتى وحمام عبود بناحية الميناء ، وهو نظير حمام القائد فى الفخامة والهيكل ، وبمسالخها طيافير من الرخام على سوار مجوفة أيضاً فى وسط الصهريج على نحو ما وصفناه . وبالقصبة عشرة حمامات سوى العدد المذكور أبدعها حمام القصر . وبكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل)[٢١٢].

وفى ضوء النص السابق والمطول للأنصارى عن حمامات سبته الإسلامية يتضح ما يلى :

أولاً : أن الحمامات كانت تشكل عنصراً من أهم عناصر عمارة المنافع العامة أو منشآت المركز الاجتماعى ، حيث اكتظت بها شوارع وأحياء المدينة فى

شكل حمامات عامة ، كما حفلت بها بعض المنشآت كقصبة المدينة وقصرها ، وكذلك شيد معظمها داخل المنازل.

ثانياً : ساعد النص فى الكشف عن مدى فخامة بناء حمامات سبته وسعة مساحتها ومدى العناية بتكسية أرضيتها بألواح الرخام . كذلك أمدنا النص بصورة واضحة عن نظامها التخطيطى حيث أنها كانت من النوع الذى يتألف من أربع قاعات رئيسية مقباه [٢١٣] . وقد ركز الأنصارى بشكل أساسى على قاعة المسلخ فبين حدودها المتسعة وسقفها المقبى بقبة تقوم على أربع حنايا ركنية . ويستدل من وصفه لها بأنها كانت تعتمد فى تخطيطها على وجود فراغ مركزى أو صحن يتوسطه صهريج للمياه.

ويتجلى الاهتمام بتجميل هذه القاعة فى أنها كانت مزودة بحوض كبير يتوسطه فسقية ، وذلك على غرار الفساقى التى كانت تتوسط مسالخ حمامات المغرب والأندلس والتى بلغت أوج ازدهارها فى حمامات قصور الحمراء[٢١٤] .

- المنشآت المائية :

تعتبر عذوبة الماء من السمات التى تميز مدينة عن أخرى . ويمكننا أن نستنتج من النصوص المختلفة وروايات الجغرافيين أن مدينة سبته لم تكن تفتقر إلى الماء العذب منذ أقدم العصور . ويؤكد ذلك وصف ابن حوقل لها فى قوله (إن ماء سبته من داخلها يستخرج من آبارها كما أن فى خارجها أيضا آباراً كثيرة عذبة الماء)[٢١٥] .

وقد تنوعت أساليب تغذية مدينة سبته بالمياه . فالبكرى يقول (إن حمامات سبته يجلب إليها الماء على الظهر من البحر) . ويضيف فى موضوع آخر بأن الماء يجلب فى قناة من نهراويات على بعد ثلاثة أميال من المدينة على ضفة البحر القبلى إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع[٢١٦] .

كذلك يشير الإدريسى إلى وجود (عين ماء لاتجف البته بأعلى الجبل فى وسط المدينة)(٢١٧) . وتشير الروايات التاريخية إلى مدى عناية حكام سبته بجلب الماء العذب إلى المدينة . ومن هذه الروايات ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار من أن ثالث خلفاء الموحدين أبا يعقوب المنصورى أمر سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بجلب الماء من قرية بليونش التى تبعد عنها بنحو (٦) ستة أميال وذلك فى قناة تحت الأرض غير أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م(٢١٨) .

وقد اكتسب أهل سبته خبرة عظيمة فى استغلال مائها العذب استغلالاً حسناً حيث أنشئت بها أنواع أخرى من المنشآت المائية ، وهى السقايات التى تساعد على خزن الماء العذب لسقاية الناس والحيوانات ومد كافة مرافق المدينة بمصادر دائمة للمياه . وقد أشار الأنصارى إلى تلك السقايات بشىء من التفاصيل بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة ووضعاً السقاية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول . وبازاء باب الشوائين من أبواب الجامع ذات الأنابيب(٢١٩) النحاسية والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق . ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور ، الذى ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفى المذكور ، وخلده أثراً غريباً بعده رحمه الله . صهريجان مشتركان يمد إحداهما الآخر وقد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكمله . ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل ببئر معينة قريبة التناول طيبة الماء عليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل(٢٢٠) وربما تبلغ الثمانين(٢٢١).

وفى ضوء الوصف السابق يتضح أن السقايات التى ذكرها الأنصارى كانت عبارة عن صهاريج ضخمة شيدت بنظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ بحيث كان يجرى توزيع الماء بتلك الصهاريج المعبر عنها بالسقايات بحيل هندسية

دقيقة . ويتجلى ذلك فى إشارة الأنصارى إلى أسلوب من الأساليب التى يمكن بها تكثير مياه السقاية عن طريق جعل السقاية الواحدة تتكون من صهريجين متجاورين يمد أحدهما الآخر بالمياه . وهذه الطريقة استخدمت بكثرة فى حفر معظم آبار مدن الغرب الإسلامية لاسيما مدينة مجريط أو مدريد العربية . كما انتشرت فى الفسطاط فكرة حفر الآبار المتجاورة المتصلة ببعضها مع اختلاف مستوياتها بهدف تكثير الماء المستمد من جوف الأرض(٢٢٢).

ثالثاً – المراكز الاقتصادية بمدينة سبته :

إن أهل سبته بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس توفرت لديهم إمكانيات اقتصادية هائلة ساعدت على ازدهارها التجارى والصناعى . ففى مجال التجارة عبر الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذا الازدهار فيما كتبوه عن سبته . فابن سعيد المغربى يشبه سبته بمدينة الإسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة(٢٢٣) . كما يذكر ابن الخطيب فى سياق وصفه للمدينة (أنها كانت محط قوافل العصير (زيت الزيتون)والحرير والكتان)(٢٢٤) ويتبين من رحلة ابن جبير أن سبته كانت نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية إلى المشرق(٢٢٥) .

ويبدو أن التجارة بين سبته وجنوة كانت نشطة ، وأن ثراء سبته من التجارة أطمع فيها الجنويين. ويستدل على ذلك مما ذكره ابن عذارى من أن الجنويين حاولوا الاستيلاء على سبته بالخديعة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٤م ولكنهم فشلوا وانتهبت أموالهم التى فى فنادقهم ، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبته الجنويين عما فقدوه(٢٢٦). ويستدل أيضاً مما رواه المقرى على أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلى سبته طرائف السلع . ويوضح ذلك قصة القائد أبى السرور صاحب ديوان سبته الذى أنعم على الأديب النحوى أبى عمران موسى الطريانى بتحف مما كان فى الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبته(٢٢٧) .

هذا ويشير ابن بطوطه إلى أن التجار السبتيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع الصين وبلاد السودان الغربى . ففى أثناء وجوده بمدينة قنجنفو بالصين قابل تاجراً من سبته وهو قوام الدين السبتى كان قد وصل إلى الصين وفيها عظم شأنه واكتسب الأموال الطائلة وبعد ذلك ببضع سنوات قابل ابن بطوطه أخا هذا التاجر السبتى من السودان الغربى(٢٢٨) .

ونتيجة لهذا الازدهار التجارى الذى نعمت به مدينة سبته غزت أسواق مرسيليا الدراهم السبتية ، فكان تجار مرسيليا عن طريق وكلائهم من اليهود فى سبته يبيعون عملات عربية فى مونبليه(٢٢٩).

أما بالنسبة للصناعة التى تعتبر من أهم مصادر الثروة الاقتصادية لسبته فقد عرف أهل سبته كيف يفيدون من ثروة مياهها من المرجان الجيد الذى أمد المدينة بفائض من الإنتاج ، فكانت تصدره إلى الأندلس والمشرق والهند ، وذلك بعد تجهيزه تجارياً على هيئة قطع صغيرة تصنع منه الأوانى الطريفة(٢٣٠) .

وقد امتدح الأدريسى مرجان سبته وأشار إلى شهرتها فى إنتاجه وصناعته وتصديره بقوله (ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبته سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد)(٢٣١) .

وهكذا أدى الازدهار التجارى والصناعى الذى نعمت به مدينة سبته إلى العناية بتشييد العديد من المنشآت التجارية والصناعية بحيث شغلت تلك المنشآت أكبر مراكز المدينة العمرانية التى وصلتنا أخبار عنها . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نطالع ما سجله الأنصارى من أوصاف لتلك المنشآت على النحو التالى :

١ - الأسواق :

المقصود بالأسواق الأماكن التى تتجمع فيها الحوانيت والمتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف . ولم تكن أسواق مدن الغرب الإسلامى تقام فى موضع معين من المدينة ولكنها تتوزع فى عدة مواضع داخل المدينة وخارجها .

وتتنوع الأسواق بأنواع السلع التى تباع فيها من ذلك سوق العطارين وسوق النحاسين وسوق البزازين[٢٣٢].

وقد أشار الأنصارى إلى أسواق سبته الإسلامية وتعدد مواضعها وتنوعها حسب أنواع السلع التى كانت تباع فيها بقوله : (وعدد الأسواق (١٧٤) مائة وأربعة وسبعون سوقاً تخص منها المدينة بمائة واثنين وأربعين سوقاً. والأرباض الثلاثة باثنين وثلاثين.ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم[٢٣٣].وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم . والقيسارية خلف ذلك . ومن أسواق المأكول والمطعوم والفواكه والأدم ، وغير ذلك السوق الكبير . وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقى من المدينة . ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية[٢٣٤] القوية الصبع العجيبة الصنعة الخاصة بسبته دون غيرها سوق السقاطين[٢٣٥] . ما أدراق ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب)[٢٣٦] .

– القيسارية :

تعد القيساريات من أهم المؤسسات التجارية فى المركز العمرانى الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام . وكلمة قيسارية هى تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية Kaisareie وتعنى السوق القيصرى . وكان يباع فى القيساريات أفخر أنواع السلع التى يندر وجودها فى الأسواق الأخرى[٢٣٧] .

وقد أشار الأنصارى إلى أن قيسارية سبته كانت تقع بجوار مسجدها الجامع وبالتحديد خلف هذا الجامع[٢٣٨] . ويرجع أحد الباحثين أن تلك القيسارية كانت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدرسة سبتة المعروفة بالمدرسة الجديدة . وأنها ظلت تحتفظ بعد حركة استرداد المدينة بنفس الموضع الذى كانت تقوم به فى العصر الإسلامى إلى أن تهدمت فى العصر الحديث وأقيم مكانها فندق يعرف بـ Hotel Muralla . ويضيف أنه من الصعب أن تحدد بدقة حدود قيسارية سبته ، ولكن يبدو أنها كانت تمتد فى شارع واحد معلق من جهته الجنوبية بواسطة برج يعرف اليوم ببرج كمبانيا Torre de la compana[٢٣٩] .

وفى رأى الأستاذ خواكين بالبين أن قيسارية سبته كانت تقع بالقرب من سوق سبته الحالى وبالتحديد فى الموضع الذى يقوم عليه الآن مبنى بنك أسبانيا حيث كان يشغل هذا الموضع وفقاً لوثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م شارع كبير كان يعرف بشارع القصر الأسقفى . ومن هذا الشارع كانت تتفرع عدة أزقة منها زقاق مسدود كان يعرف بزقاق القيسارية(٢٤٠).

• الحوانيت والتربيعات التجارية :

كانت أحياء سبته التجارية تزخر بالعديد من الحوانيت التى كانت تتسمى باسم السلعة التى تباع فيها أو بأسماء أصحابها . وقد أحصى الأنصارى حوانيت سبته بـ ٢٤ ألف حانوت (أربعة وعشرون ألفاً).

وعلى الرغم مما فى هذا الرقم من مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل على أن الحوانيت التجارية كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية التجارية لمدينة سبته.

- التربيعات :

يقصد بالتربيعات حى أو سوق تجارى مربع أو دائرى أو مستقيم تتجمع فيه الحوانيت التجارية ويتخذ تكوين هذه المربعات أو التربيعات هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التى تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع(٢٤١) .

وقد كانت هذه التربيعات من المنشآت التجارية الهامة بمدينة سبته الإسلامية ويؤكد ذلك وصف الأنصارى لها بقوله (وعدد التربيعات المعلومة للحرارين والقزازين خاصة إذ هناك تربيعات غيرها داخلات فى حكم الأسواق إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة(٢٤٢) من أول المدينة

إلى أخرها أعظمها التربيعة التى بأسفل زقاق خطاب سامية فى الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفى صحنها مسجد)(٢٤٣) .

ويبدو أن مثل هذه التربيعات كانت تمثل امتداداً لحوانيت قيسارية سبته فى الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الأعظم الذى كانت تشغله قيسارية المدينة الرئيسية ، والتى يمكن أن تطلق عليها قيساريات الأزقة . ويرجح ذلك وصف ليو الأفريقى لمصطلح قيساريات الأزقة التى انتشرت فى مدن الغرب الإسلامى على أنه شبكة الأزقة التى تتفرع على جوانبها الحوانيت(٢٤٤) . كما يدعم هذا الاستنتاج ما ورد فى وثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م تشيران إلى وجود زنقات بمدينة سبته كانت تسمى بزنقات القيسارية(٢٤٥) .

• الفنادق :

تعتبر الفنادق من أهم المؤسسات التجارية فى المركز الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام وهى تقابل فى بلاد المغرب والأندلس الخان فى المشرق الإسلامى(٢٤٦) .

وتمتاز الفنادق بأنها تجمع بين الصفة الاقتصادية التجارية والاجتماعية فلم تكن وظيفتها مقصورة على إيواء المسافرين من التجار الغرباء فحسب بل كانت سوقاً لبيع السلع بالجملة(٢٤٧) .

ويشير الأنصارى إلى توفر عدد كبير من الفنادق فى مدينة سبته فيذكر أنه كان بها ٣٦٠ فندقاً(٢٤٨) .

ورغم ما فى هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يتأكد لنا مما سبق أن أشرنا إليه أن مدينة سبته كانت محطاً للتجار من مختلف الأنحاء ، الأمر الذى دعا إلى توفير هذا العدد الهائل من الفنادق لإقامتهم بل وتخصيص أكبر هذه الفنادق وهو الفندق الكبير فقط لحفظ المنتجات الزراعية(٢٤٩) .

ويستدل مما ذكره الأنصارى عن فنادق سبته بأنها كانت تمتاز فى جملتها بالضخامة وتعدد طوابقها وبيوتها المخصصة لإقامة التجار[٢٥٠] . فضلاً عن العناية بتجميلها بالنقوش الجصية وأعمال النجارة ، إذ تعرض الأنصارى لذكر أحد التفصيلات التى تتعلق بأعمال الزخرفة فى فندق الوهرانى ، والتى أشار إليها بقوله (وأبدعها صفة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظير)[٢٥١] .

• المنشآت الصناعية :

من الملامح الرئيسية لمدينة سبته أنها ذات طابع صناعى تجارى ، ولذلك كثرت بها المنشآت الصناعية التى شكلت جانباً هاماً فى تكوينها المعمارى . ومن أمثلة تلك المنشآت التى ذكرها الأنصارى.

• المقاصر (٢٥٢) :

كانت الصباغة من الصناعات الشهيرة بمدينة سبته الإسلامية حيث أحصى الأنصارى الأماكن المعدة لتلك الصناعة بـ ٢٥مقصراً وحدد لنا موقعها بقوله (وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب . ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا يتكلف بحملها بالغداة والعشى مؤنه كما فى سائر البلاد)[٢٥٣] .

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، إذ يوضح لنا مدى شهرة سبته فى صناعة المنسوجات على أساس أن صباغتها من العمليات الأساسية فى تلك الصناعة . كما يدلنا على أن تلك المقاصر أو المصابغ كانت تقع فى أطراف المدينة بالقرب من أسوارها وأبوابها وأبراجها . وواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن حرفة الصباغة تستلزم وجود ورشها أو مقاصرها خارج أبواب المدينة حتى لاتؤذى السكان ، فضلاً عما توفره أبراج الأسوار من حماية للمنسوجات المعدة للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم

للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم وقوعها داخل أبراج المدينة ، وبذلك توفرت فى تلك المصابغ كافة الشروط المناسبة لتفى بالغرض من إنشائها .حيث كان الأمان شرطاً أساسياً فى إقامة تلك المقاصر[٢٥٤] كما أوجبت الضرورة الوظيفية إقامة المقاصر الغزلية بمدينة سبته البالغ عددها ١٩ (تسعة عشر مقصراً) عند مجرى مائى حيث تم توزيع تلك المقاصر على ستة أماكن تتوفر فيها المياه ، منها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين[٢٥٥] . ويعكس ذلك بوضوح تعريف مصطلح القالة بأنه كان يطلق بالمغرب فى القديم على بعض الأسوار التى يجرى فوقها الماء داخل قواديس[٢٥٦] .

• المنجرات :

المقصود بالمنجرات المكان الذى ينجر فيه الخشب والعود . وكان يطلق خاصة على دور صناعة السفن بالمراسى ودور صناعة السلاح بها وبغيرها . وقد يطلق تجاوزاً على المكان الذى يجلس به جباة الأموال وولاة الأحكام[٢٥٧] . ومعظم تلك المنجرات كان معداً لصناعة القسى[٢٥٨] التى اشتهرت سبته بصنعتها معتمدة فى ذلك على ما لديها من مواد خام ، وأبدى صناعية ماهرة وقد أشار الأنصارىإلى تلك المنجرات المعدة لصناعة القسى وأحصاها بـ ٤٠ منجرة بقى منها فى زمانه ١٥ (خمس عشر منجرة) . كما أشار إلى أشهر الشخصيات المتخصصة فى هذه الصناعة منذ القدم مثل الشيخ أبو عبد الله محمد الحسنى . والشيخ أبو عبد الله محمد عبد الله المعروف بالعقدة ، وكان متقدماً فى هذه الصناعة فى زمانه ، فضلاً عن الشيخ أبى الحسن العبادى الذى اشتهربكثرة أدواته ومتعلقاته التى كانت تعينه على اتقان هذه الصنعة[٢٥٩] .

• المضارب والمصايد :

المقصود بالمضارب المكان الذى تضرب فيه شباك صيد الأسماك من البحر فى عامية المغرب والأندلس . وهذه الكلمة العربية -مضربة أو المضربة- بقيت فى اللغة الأسبانية بهذا الشكل Almadraba [٢٦٠] .

أما عن المصايد فيقول (وعدد ما وقفنا عليه من المصـايد سـوى مـا لم نقـف عليه مئتان واثنتان وتسعة وتسعون مصيداً) (٢٦٢) .

وإذا كان النص قد أورد فيه الأنصارى أرقاماً مغالى فيها بالنسبة لعـدد تلـك المضارب والمصايد ، إلا أنها تـدل فـى وضـوح علـى أن تلـك المنشـآت الصناعية الخاصة بصناعة أدوات الصيد كـانت مـن الصناعـات الزاهـرة بمدينـة سبته . وقـد ساعد على هذا الازدهار تعدد مواقع مصايد الأسمـاك علـى امتـداد سـواحل سبته على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، حيث اشتهرت تلك السـواحل بثرائهـا فـى الأحياء البحرية لاسـيما المرجـان(٢٦٣) . فضـلاً عـن تعـدد أنـواع أسماكهـا إلى أن بلغت نحو مائة نوع(٢٦٤) .

المطامير :

ومن المنشآت الاقتصادية بمدينة سبته المطامير أى الأهراء تحت الأرض والتـى كانت تستخدم كمستودعات لطمر القمح وخزن الغلال . مـن أجـل تصديـره أو استهلاكه محلياً.

وقد أحصى الأنصارى مطامير سبته بأربعين ألفاً – ٤٠ ألف –وأشـاد بقدرتهـا فـى المحافظة على ما كان يحفظ بها من القمح بقوله(يمكث الزرع فى هذه المطامـير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير ، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية)(٢٦٥).

ويبدو أن العناية بإنشاء تلك المطامير ترجع إلىأن أحواز سبته كـانت فقيرة ووعرة ، مما جعل المدينة تعانى دائماً من قلة الحبوب(٢٦٦). وإن كانت قد توافرت بها الخضروات والفواكه حيث كان بسبته من البسـاتين والأجنـة مـا يقـوم بأهلهـا وفقاً لما ذكره ابن حوقل(٢٦٧).

• ديار الإشراف المالى(٢٦٨) :

كان لسياسة حكام سبته فى مراقبة نشاطها التجارى والصنـاعى أثرهـا الواضـح فـى تطور هذه المدينة وازدياد عمرانها ، حيث اهتم هؤلاء الحكـام بإنشـاء دور للإشـراف المـالى

لعبت دوراً هاماً فى تنظيم الشئون الاقتصادية والتجارية ، وأثرت تأثيراً واضحاً فى المحافظة على المنشآت التجارية والصناعية.

ويحدثنا الأنصارى عن دور الإشراف المالى بمدينة سبته فيقول إنها أربعة وهى دار الإشراف على عمال الديوان(٢٦٩) . ودار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة ودار الإشراف على شد الأمتعة وحلها (الجمارك) وهى المعروفة بالقاعة(٢٧٠)حيث تجارة العطر)(٢٧١) .

• المقابر :

الواقع أن ما ورد فى المصادر العربية عن مقابر سبته يعد شحيحاً . ولكن بفضل ما زودنا به الأنصارى عن تلك المقابر نستطيع أن نحدد على نحو مؤكد وجود نوعين من المقابر الإسلامية بمدينة سبته. أحدهما . مقابر الأولياء الصالحين والعلماء والفقهاء ، والآخر مقابر العامة.

(أ) مقابر الأولياء الصالحين أو المزارات المباركة :·

اتخذت المنطقة الممتدة بسفح جبل الميناء شرقى مدينة سبته(٢٧٢) نواة لإقامة قبور الأشخاص المشهود لهم بالورع والتقوى من الأولياء الصالحين من أهل سبته. وكان لتلك القبور مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، فكانوا يقصدونها للزيارة والتبرك . وقد أحصى الأنصارى بعض تلك المقابر بـ٨٢(اثنين وثمانين قبراً). فضلاً عن بعض المزارات التى تضم قبور عديدة ليست بداخلة فى هذا العدد(٢٧٣).

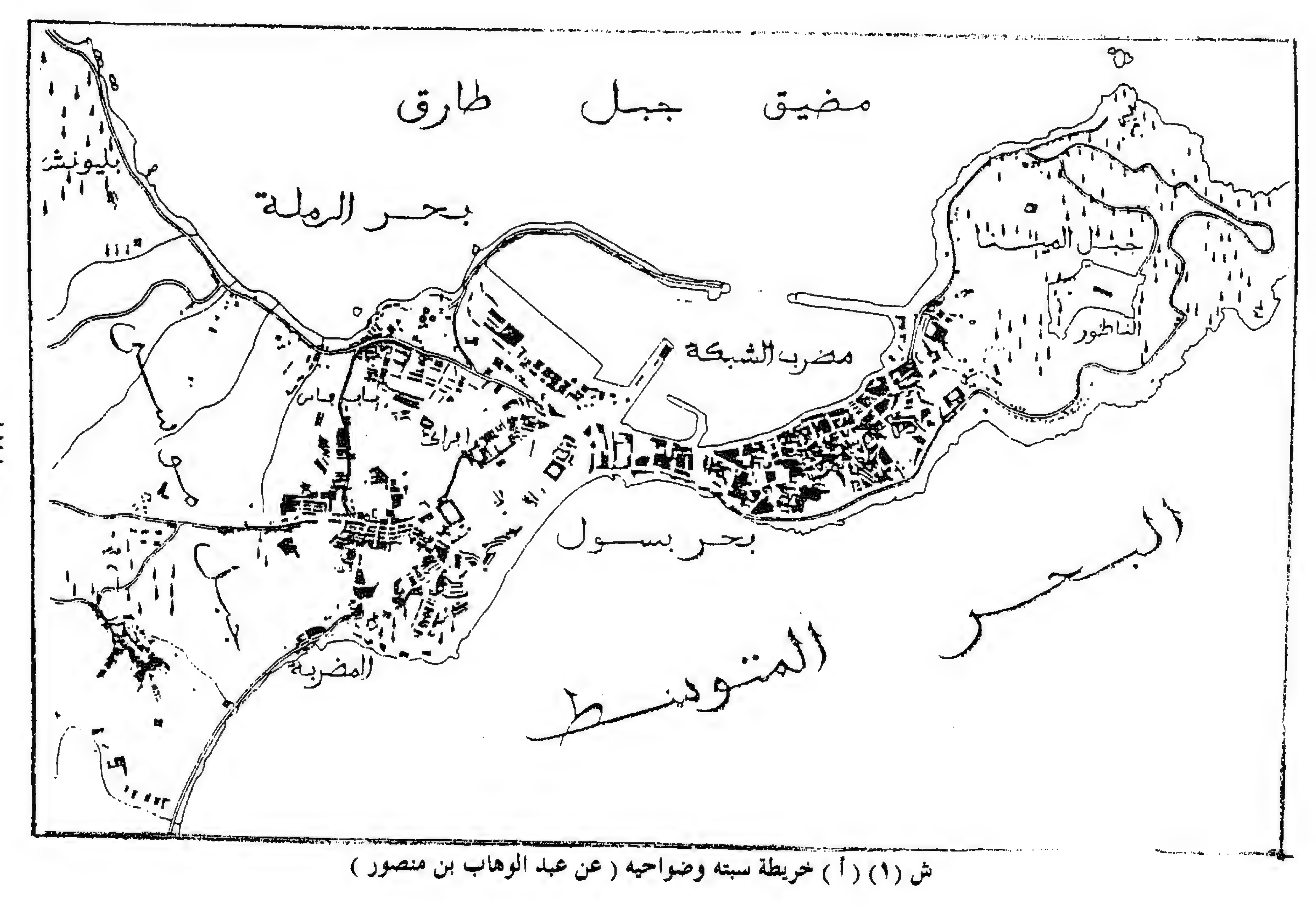
وتتجلى أهمية نص الأنصارى الخاص بوصف تلك المقابر فى أنه زودنا بأسماء من دفن بهذه المقابر من أهل العلم والفقهاء الصالحين ، بحيث يعد ما سجله عنها من أسماء من دفن بها سجلاً وافياً ودليلاً كاملاً لمعظم كبار أعلام سبته فى مختلف الفنون والعلوم . وأهم المزارات أو مقابر الصالحين التى وصفها الأنصارى مقبرة التوته من الميناء بشرقى المدينة وفيها قبر الولى أبى ذرعه وهو مزار مشهور . وأبى ذرعه هذا

هو الذى أدخل القرآن الكريم إلى المغرب (٢٧٤) والدعاء عند قبره مستجاب على حد قول الأنصارى (٢٧٥). ومن مزارات سبته الشهيرة أيضاً المقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء ، وفيها كان يوجد قبر الشيخ الأستاذ العلامة المصنف أمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأموى العثمانى الأشبيلى نزيل سبته(٢٧٦) ومقبرة المنارة(٢٧٧) ومقبرة الحافة(٢٧٨) ومقبرة مسجد المحلة(٢٧٩) ومقبرة الشريعة بالربض الأوسط(٢٨٠) .

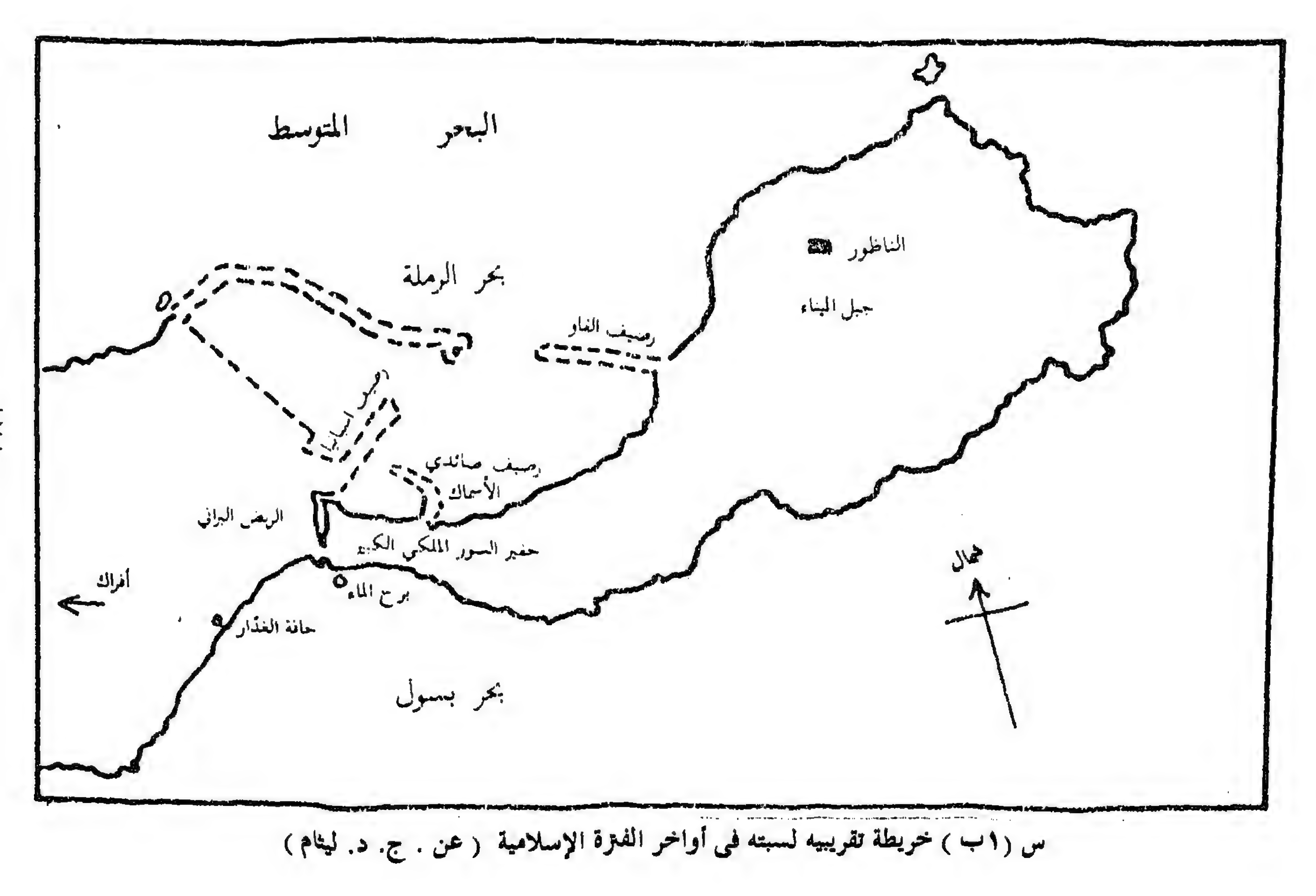
(ب) مقابر العامة :

أما مقابر العامة فقد أحصاها الأنصارى بـ١٣ ثلاث عشرة ، موزعة بداخل المدينة وخارجها ، منها مقبرة المنارة . ومقبرة البلد القديم ومقبرة الحارة ومقبرة مضرب الشبكة ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية(٢٨١).

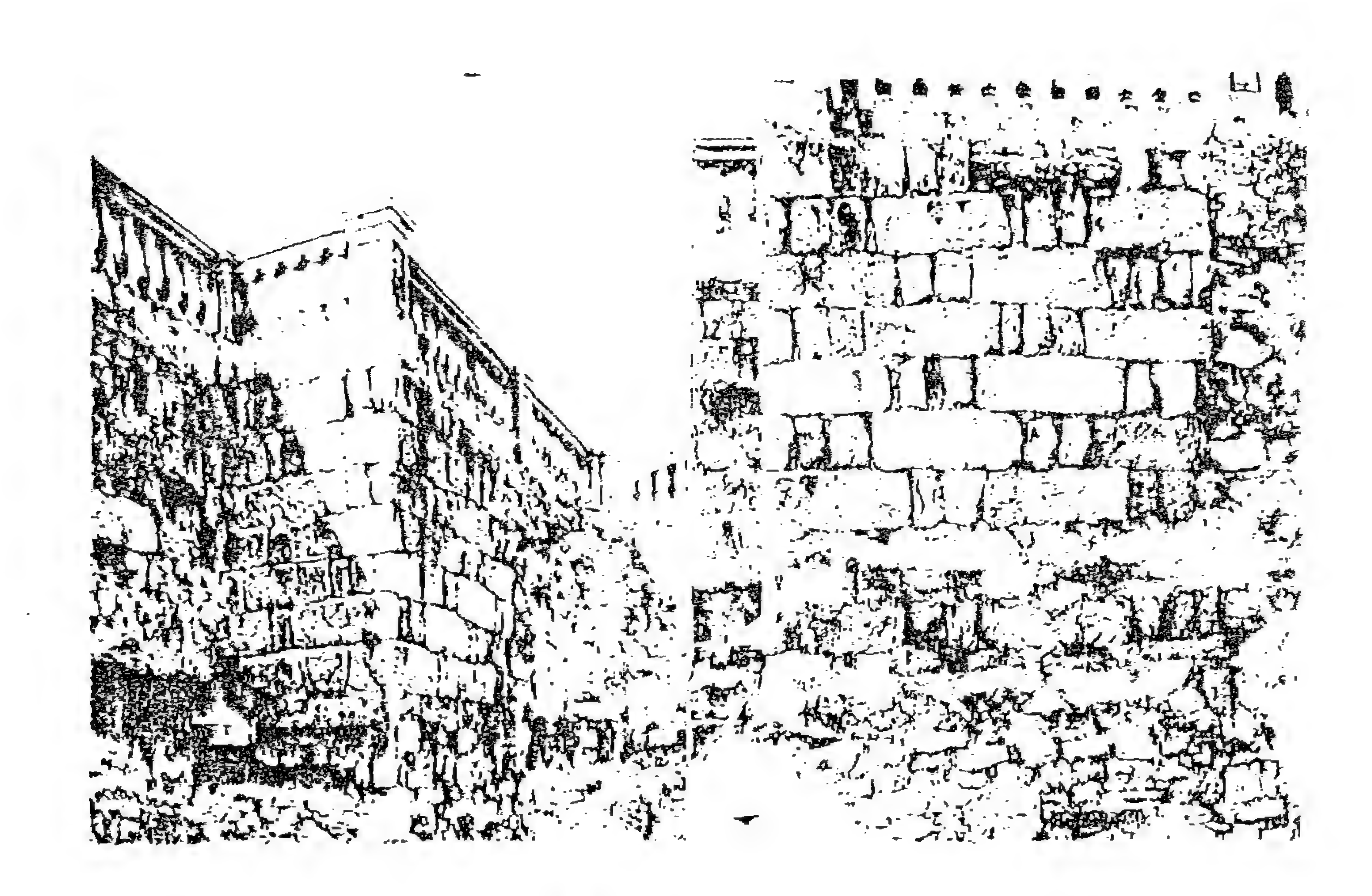
و لم يزودنا الأنصارى فى وصفه لتلك المقابر بأسماء من دفن بها . ومرجع ذلك أنها كانت على عكس مقابر الفقهاء والأولياء الصالحين ، كان يدفن بها عامة الناس من غير المشاهير .



ش (١) (أ) خريطة سبته وضواحيه (عن عبد الوهاب بن منصور)

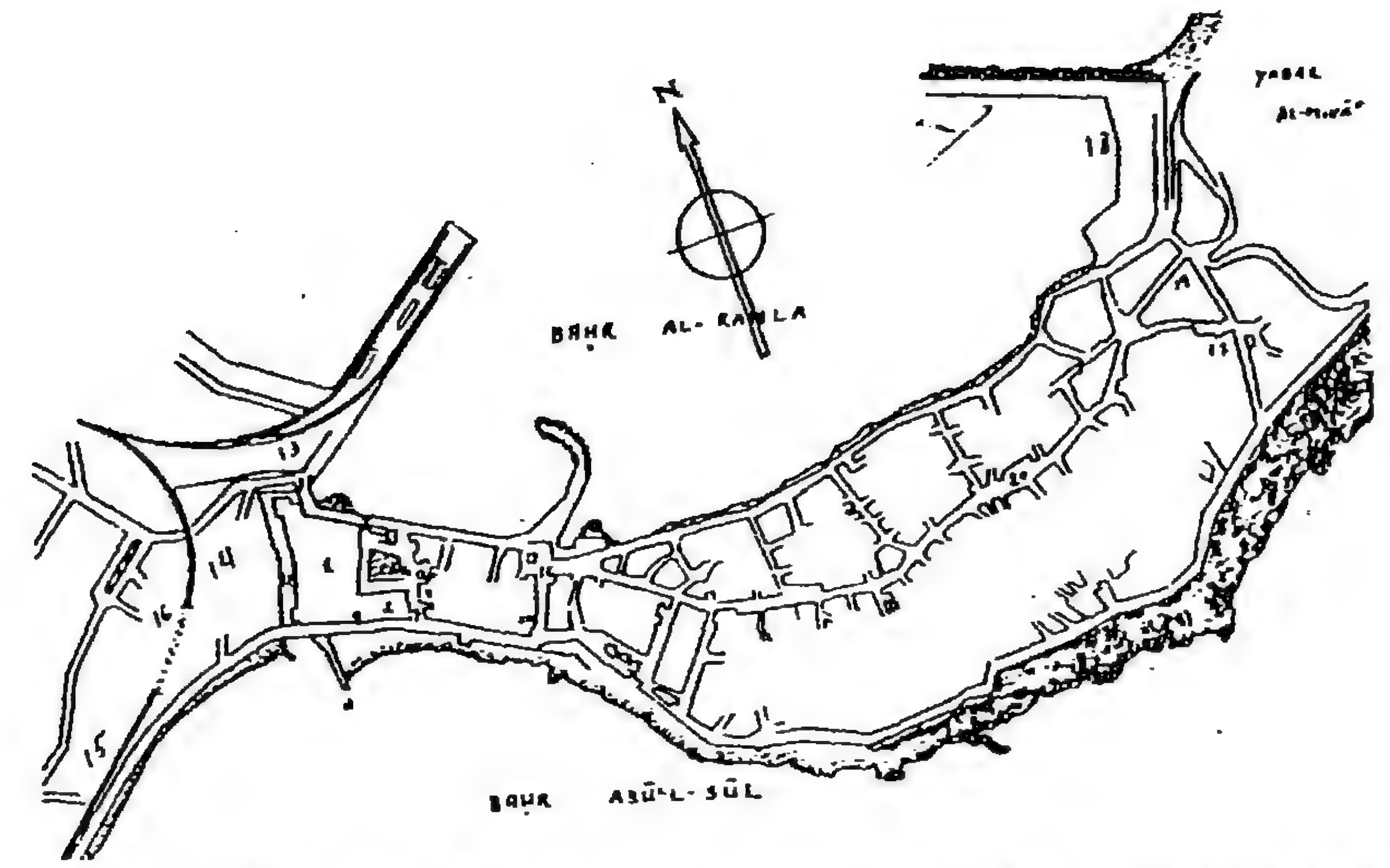


س (١ب) خريطة تقريبيه لسبته فى أواخر الفترة الإسلامية (عن . ج. د. ليثام)



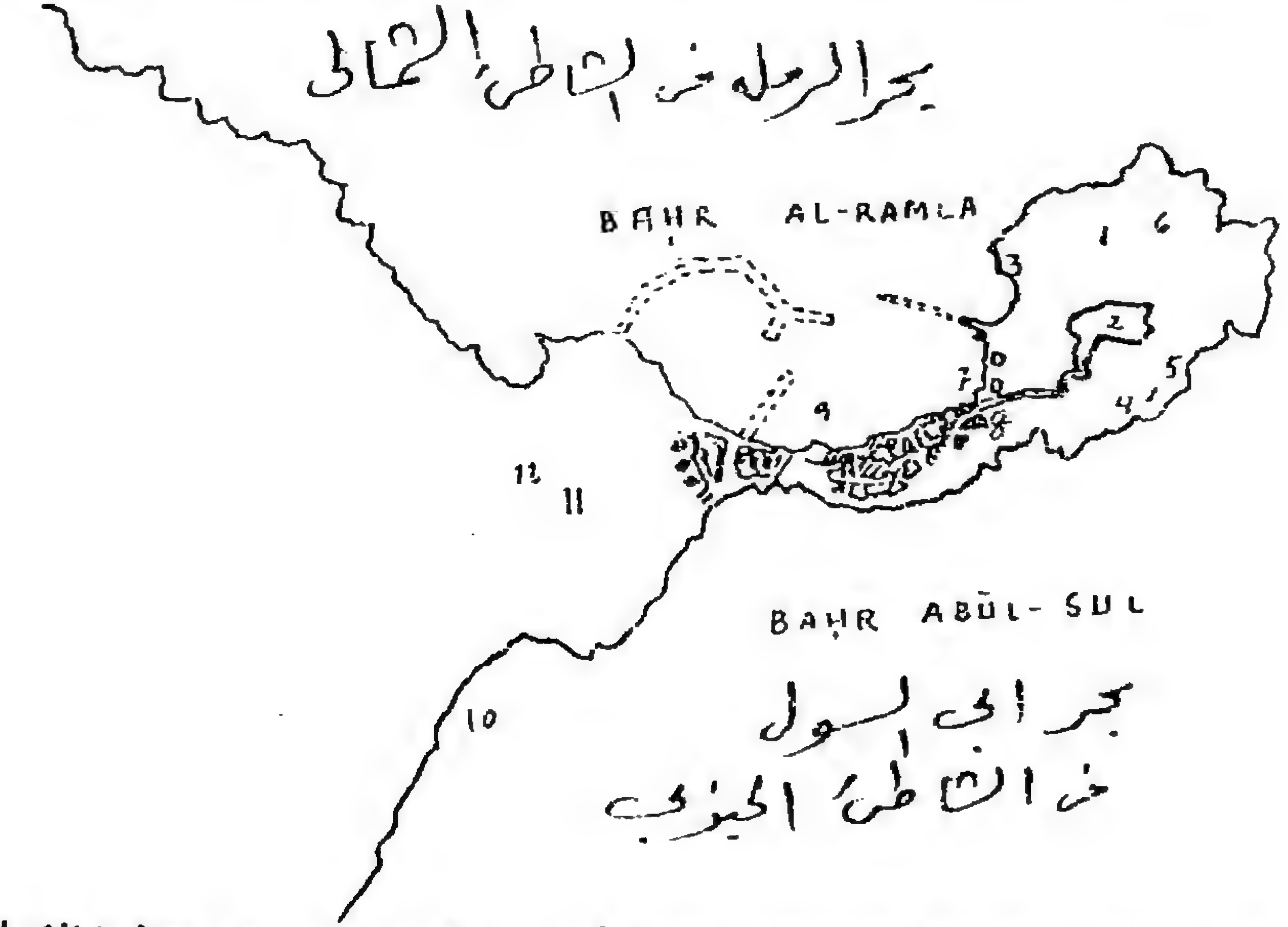
شكل (٢)

أحد أبراج السور الشمالى لمدينة سبته (عن تراس)



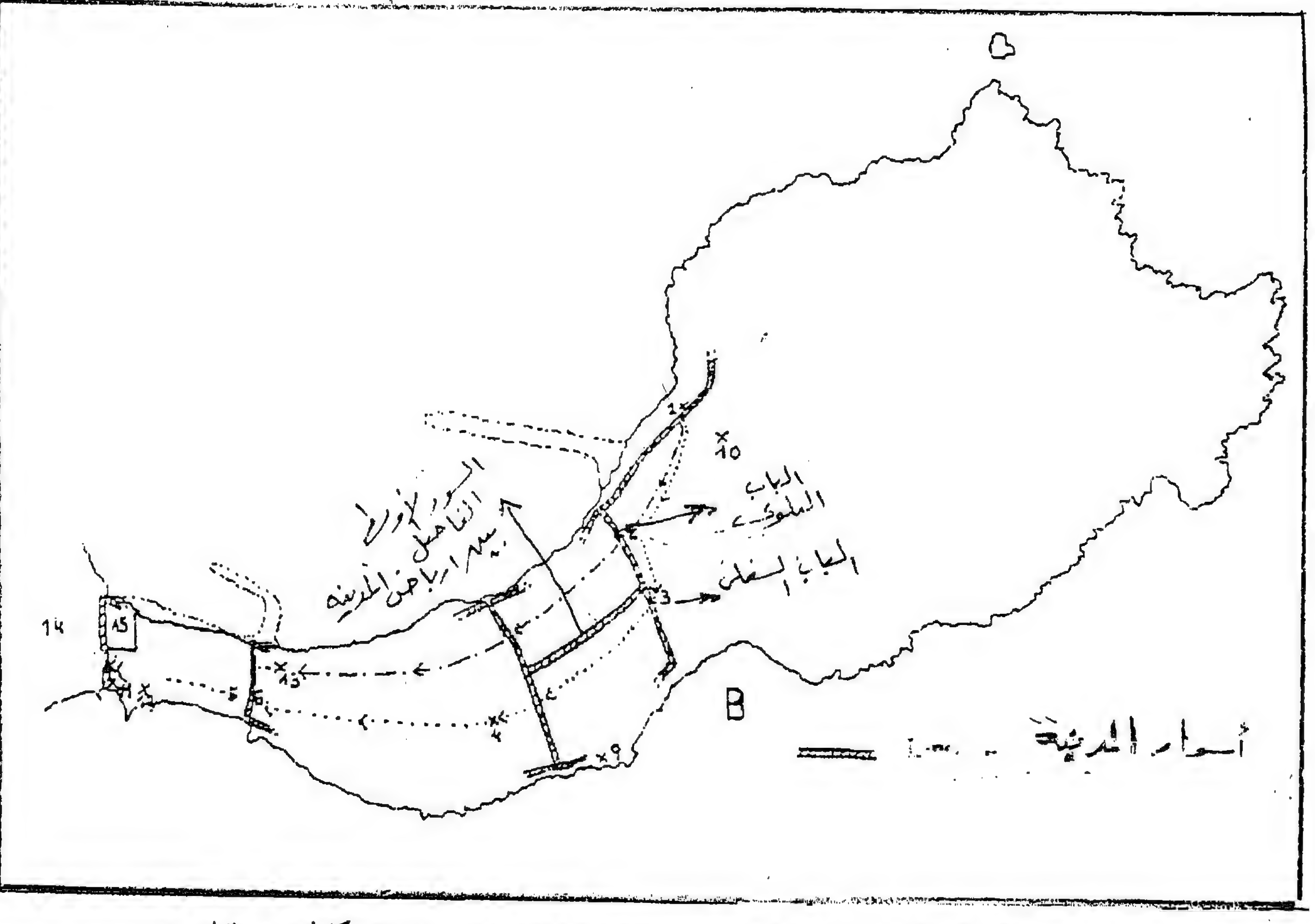
(شكل ٣أ) (عن خواكين بالبين) خريطة توضيحيه لمواقع مدينة سبته ومعالمها الإسلامية

(١) القصر ، (٢) الجامــع ، (٣) المدرسة الجديدة ، (٤) سـوق العطـارين ، (٥) المسجــد ، (٦) سماط العدول ، (٧) القيساريه ، (٨) الباب لأعظـم ، (٩) بـاب الزلاقـة ، (١٠) باباالقصـابين ، (١١) برج للماء ، (١٢) حفير الماج ، (١٣) القصابون ، (١٤) الربض البرانى، (١٥) حافة القدر (الكدار) (١٦) حفير، (١٧) مسجد المقبرة ، (١٨) الميناء ، (١٩) باب الميناء ، (٢٠) زقاق ابن عيسى.



شكل (٣ب) (عن خواكين بالبين) خريطة أخرى لمواقع مدينة سبته و معالمها الإسلامية

(١) الناضــور ، (٢) القصبــــه ، (٣) دار الصناعـة ، (٤) ربـاط أبـى العبـاس ، (٥) المصلـــى ، (٦) المقـــبرة ، (٧) حفـير أو حفـرة المختـار ، (٨) عرقـوب ، (٩) مضرب الشبكة ، (١٠) مضضرب أويات ، (١١) أفراك ، (١٢) باب فاس.



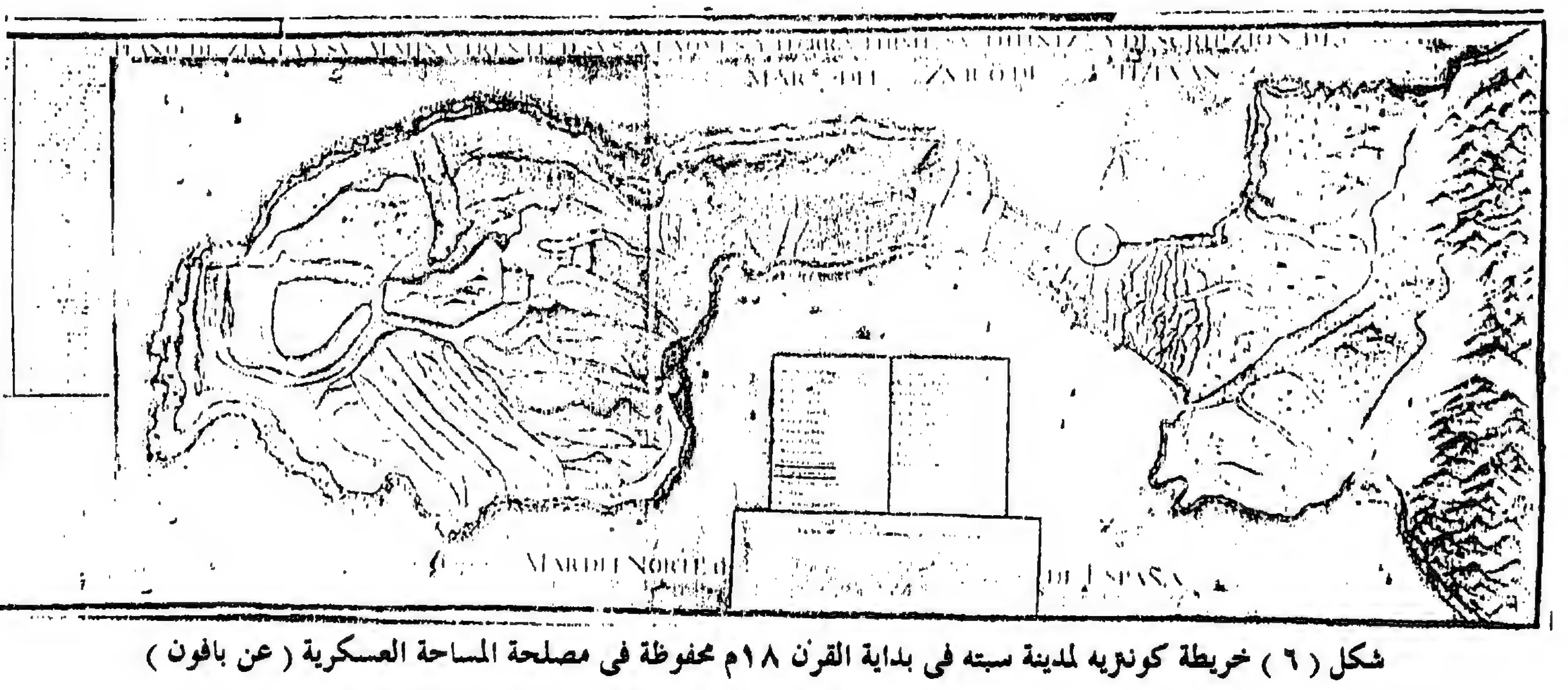
شكل (٤) رسم كروكي لأسوار سبته من خلال الرسوم التخطيطية القديمة للمدينة (عن كارلوس جوثابلس)



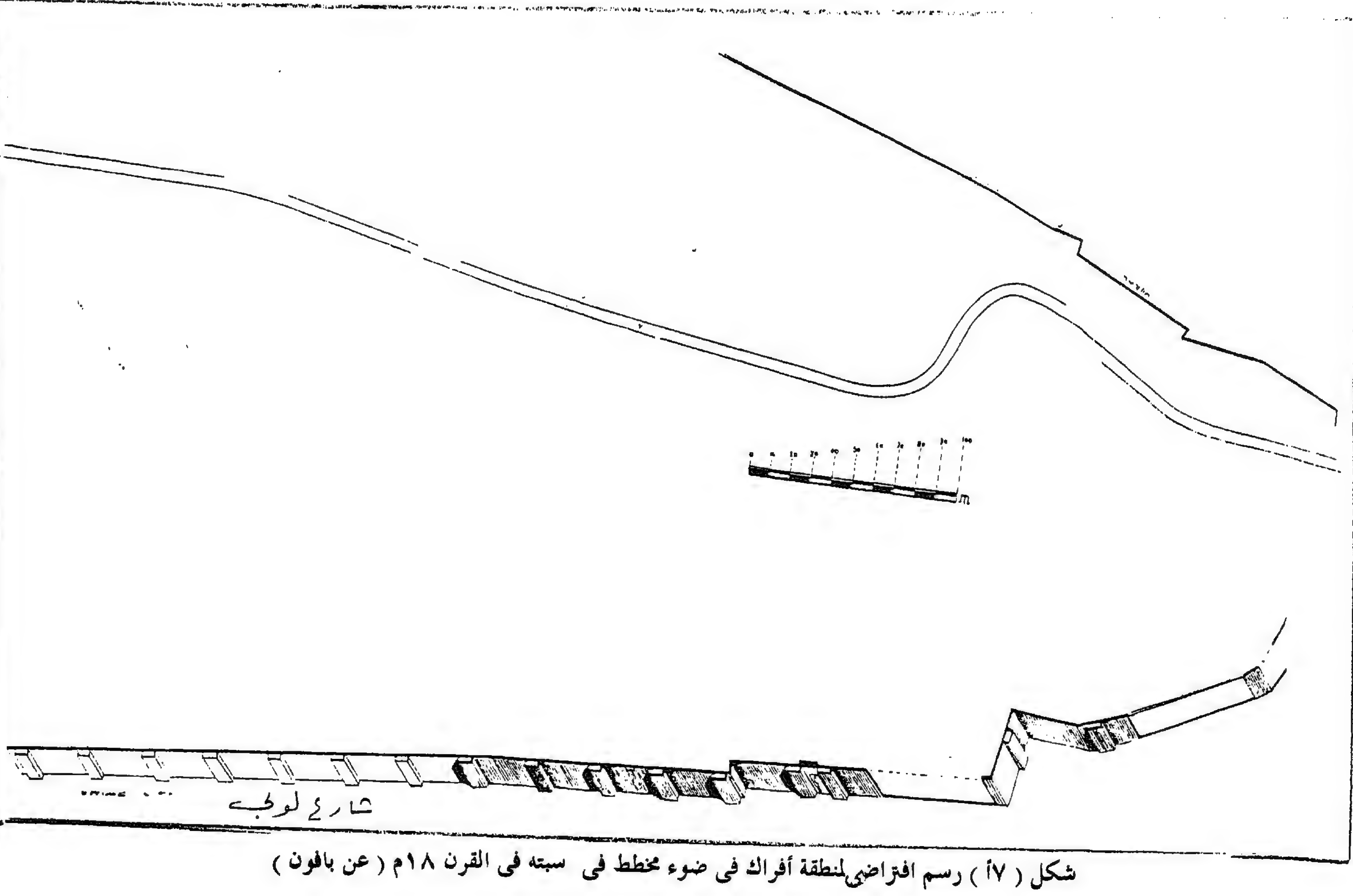
شكل (٥)

الجانب الغربى لمدينة سبته كما وردت صورته فى مصدر برتغالى مؤرخ بالقرن ١١هـ/١٧م

(عن أمين توفيق الطيبى)



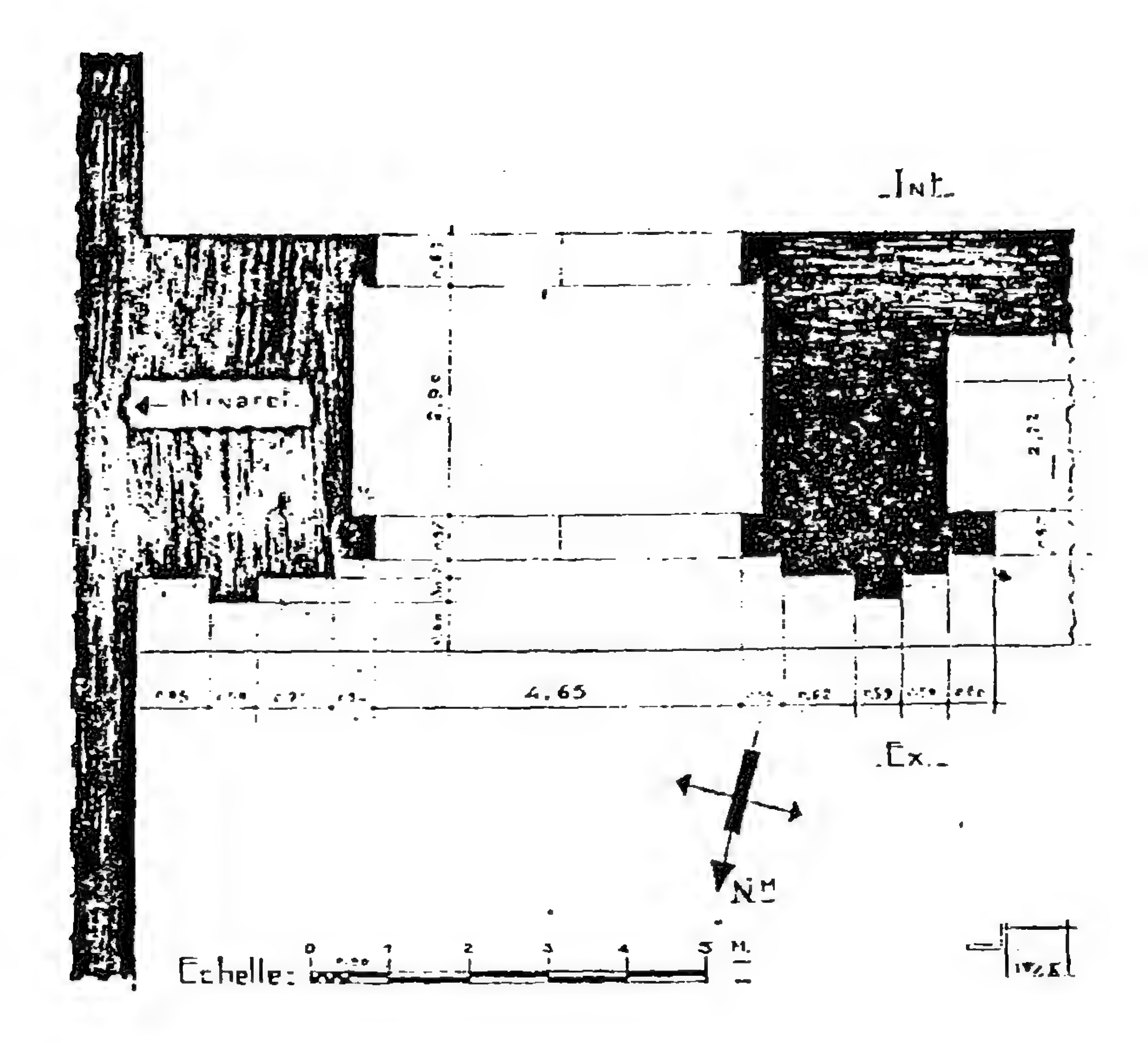
شكل (٦) خريطة كونتريه لمدينة سبته فى بداية القرن ١٨م محفوظة فى مصلحة المساحة العسكرية (عن بافون)



شكل (٧أ) رسم افتراضي لمنطقة أفراك في ضوء مخطط في سبته في القرن ١٨م (عن بافون)

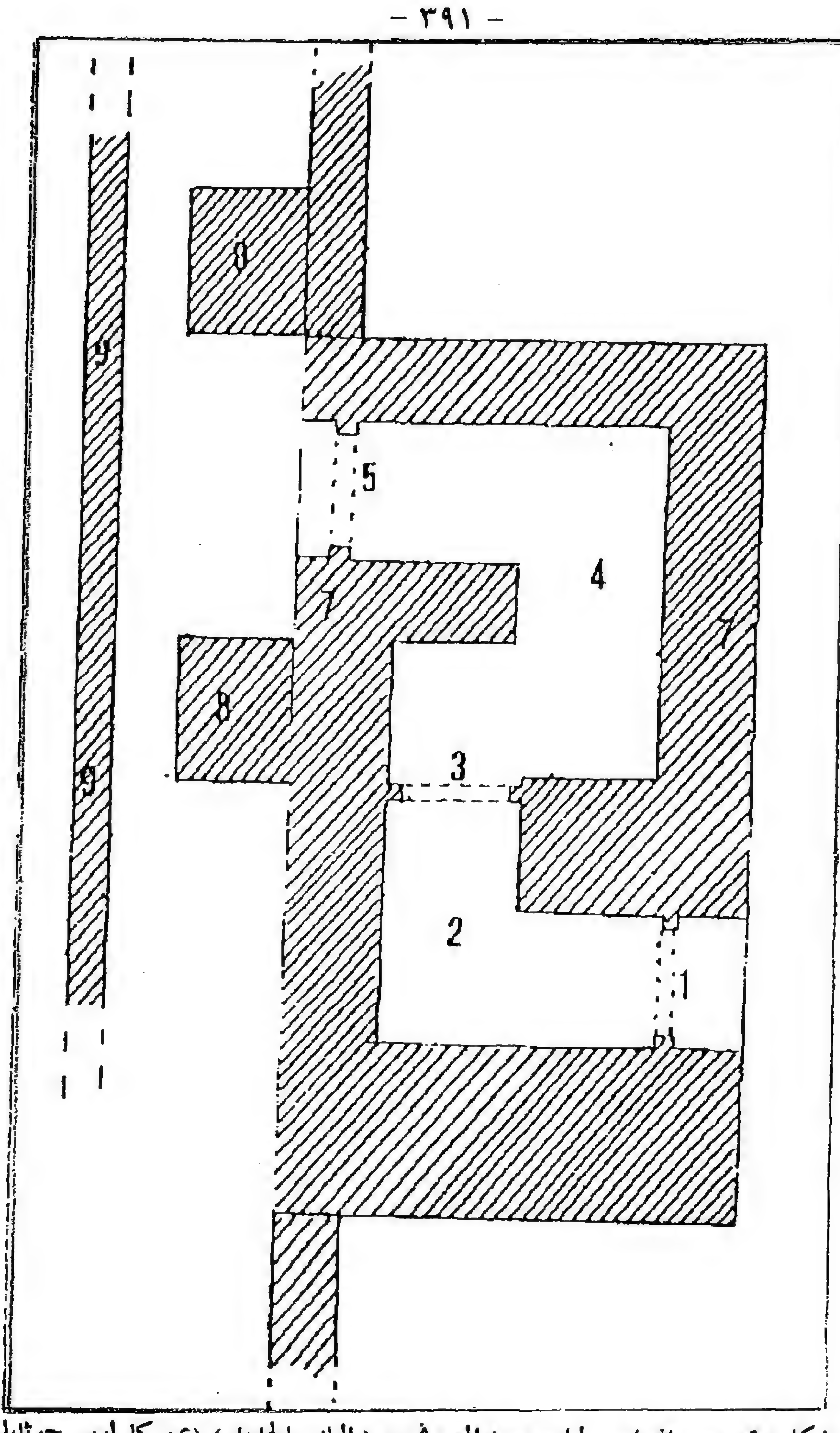


شكل (٧ب) خريطة كونتريه لمنطقة أفراك (عن بافون)

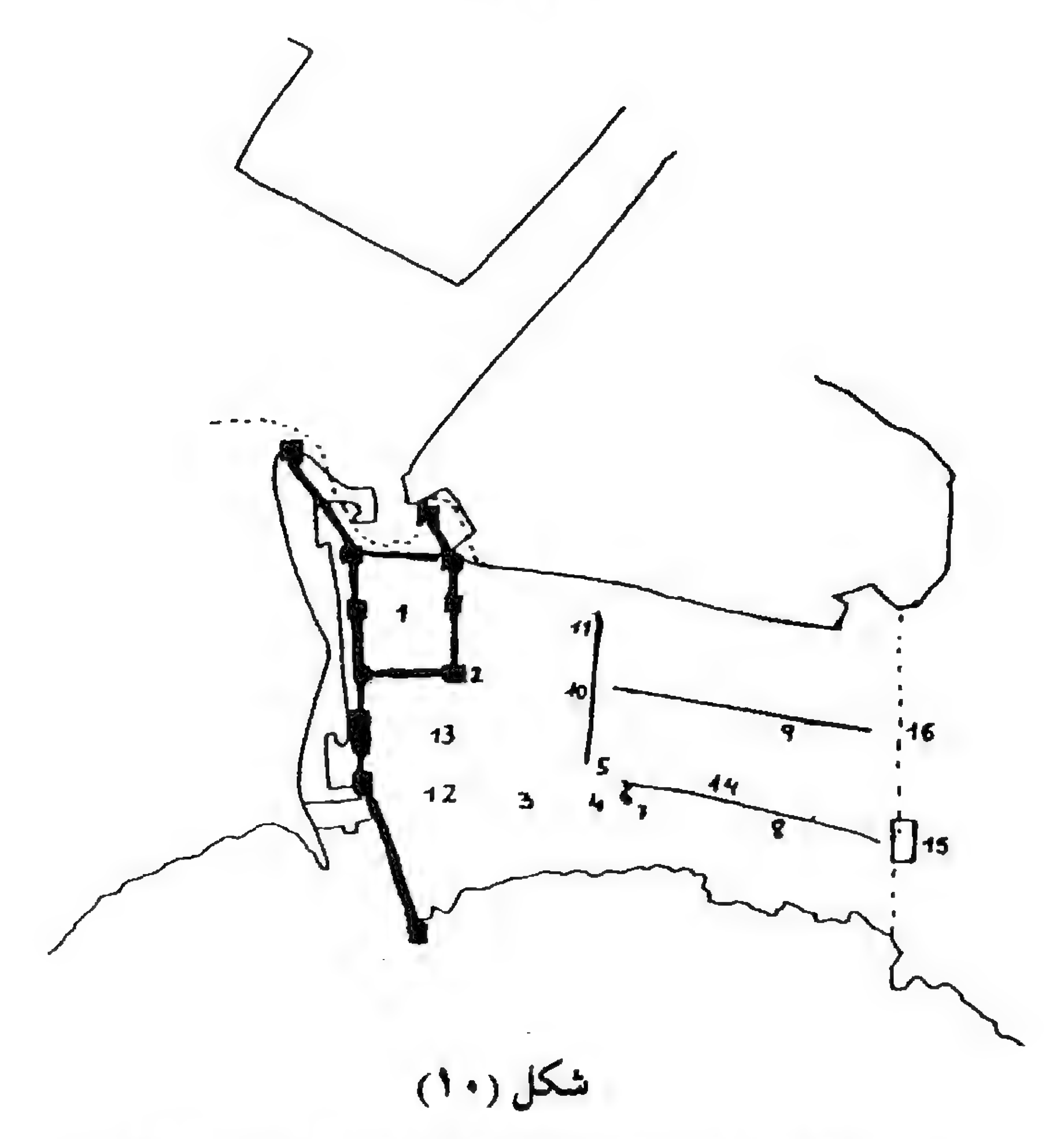


شكل (٨)

رسم تخطيطي لباب مسجد حسان بالرباط (عن بافون)



شكل (٩) رسم افتراضى لباب سبته المعروف بـ (الباب الجديد) (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٠)

رسم تخطيطي لمركز سبته العمرانية (عن كارلوس جوثابلس)

١ - القصبة أو القلعة .

٢ - برج الحراسة .

٣ - المسجد الجامع .

٤ - حمام القائد .

٥ - المدرسة الجديدة .

٦ - نافورة .

٧ - حباب .

٨ - سوق العطارين الموجود الآن بشارع خاودينس) .

٩ - شارع ابن عيسى (المعروف الآن بالشارع الأعظم) .

١٠ - شارع الموثقين (المعروف ان بشارع سان اودنيا)

١١ - مسجد الموثقين .

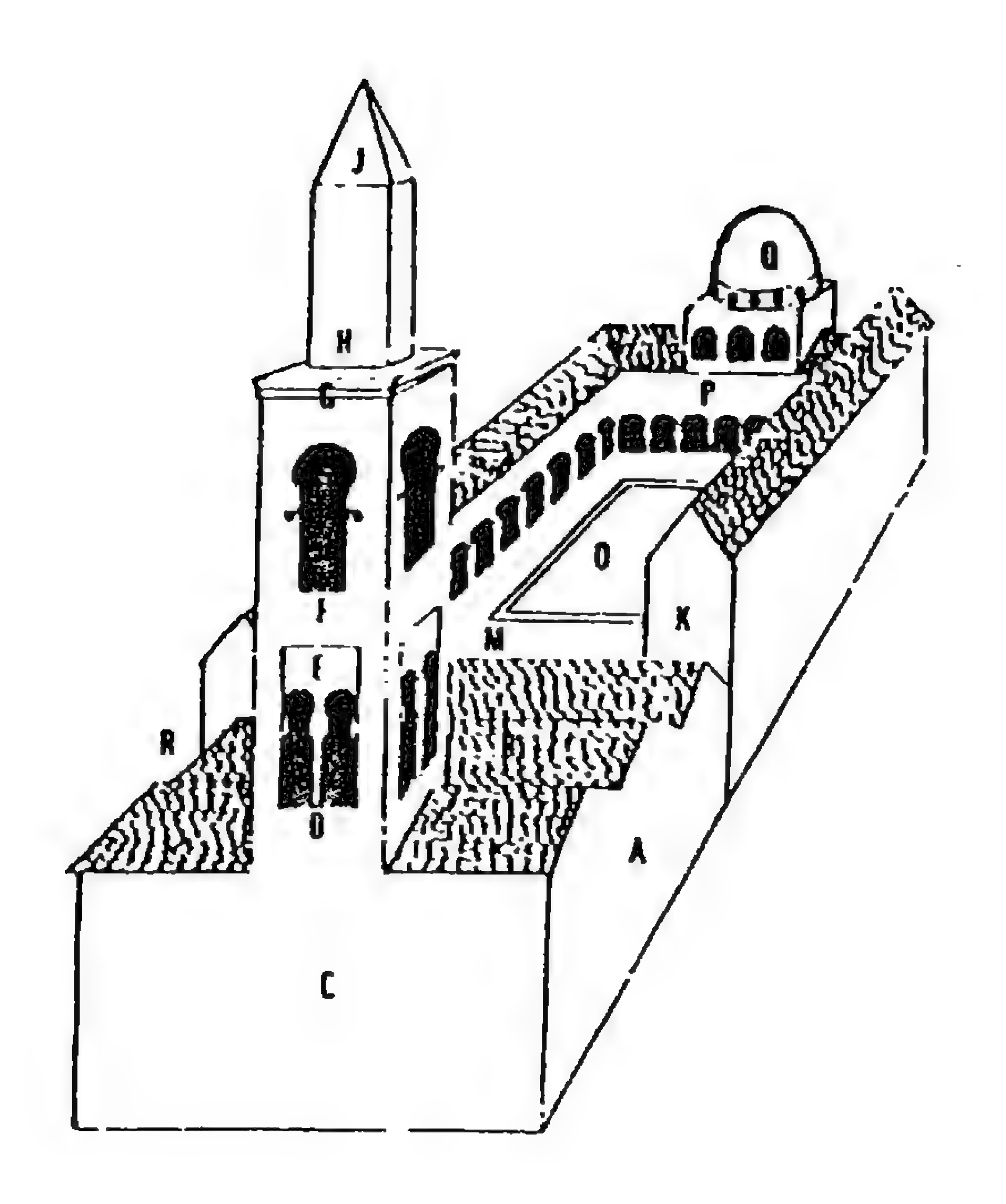
١٢ - القيسارية .

١٣ - سوق السقاطين .

١٤ - دابة الأشراف الأدارى .

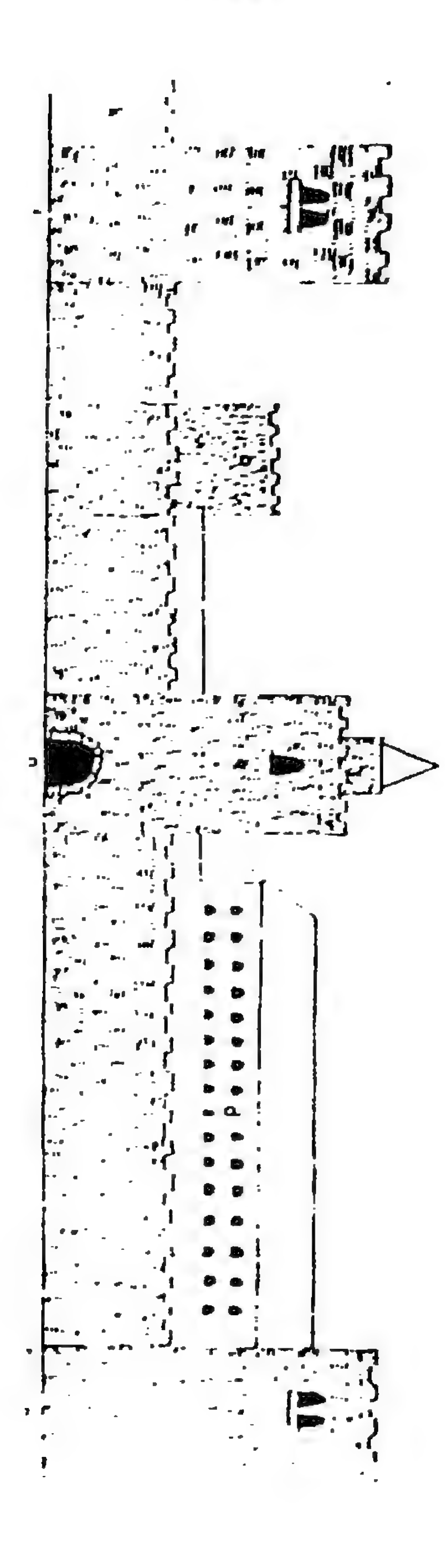
١٥ - منطقة الجمرك .

١٦ - باب الريض الأوسط .



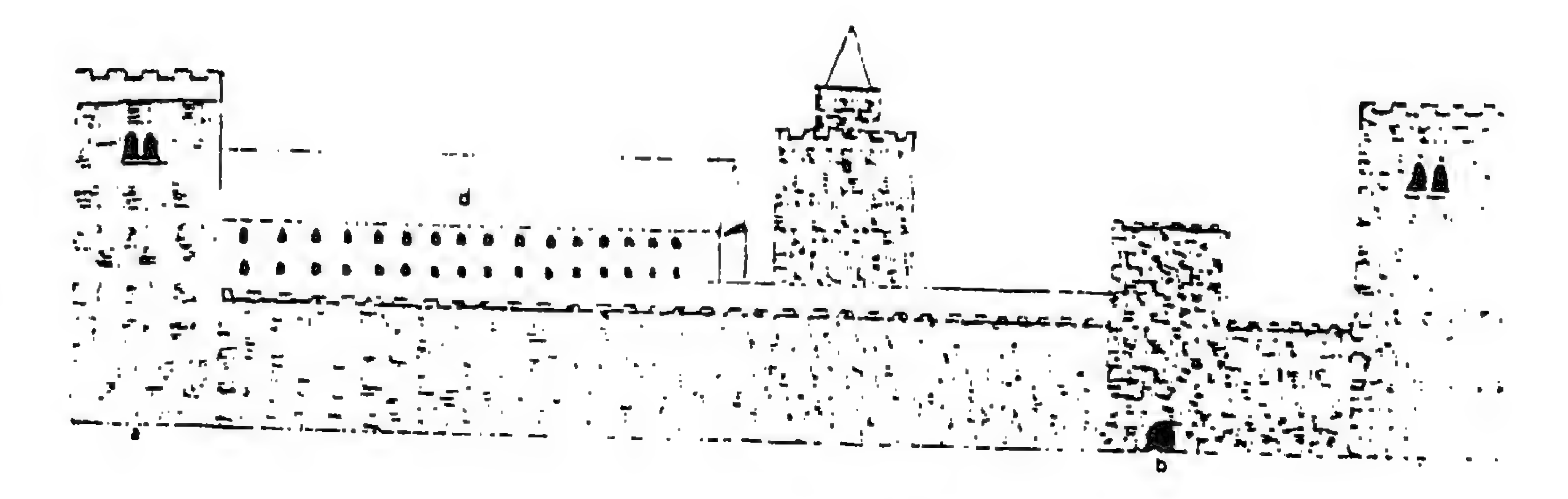
شكل (١١)

رسم افتراضي للمدرسة الجديدة بمدينة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



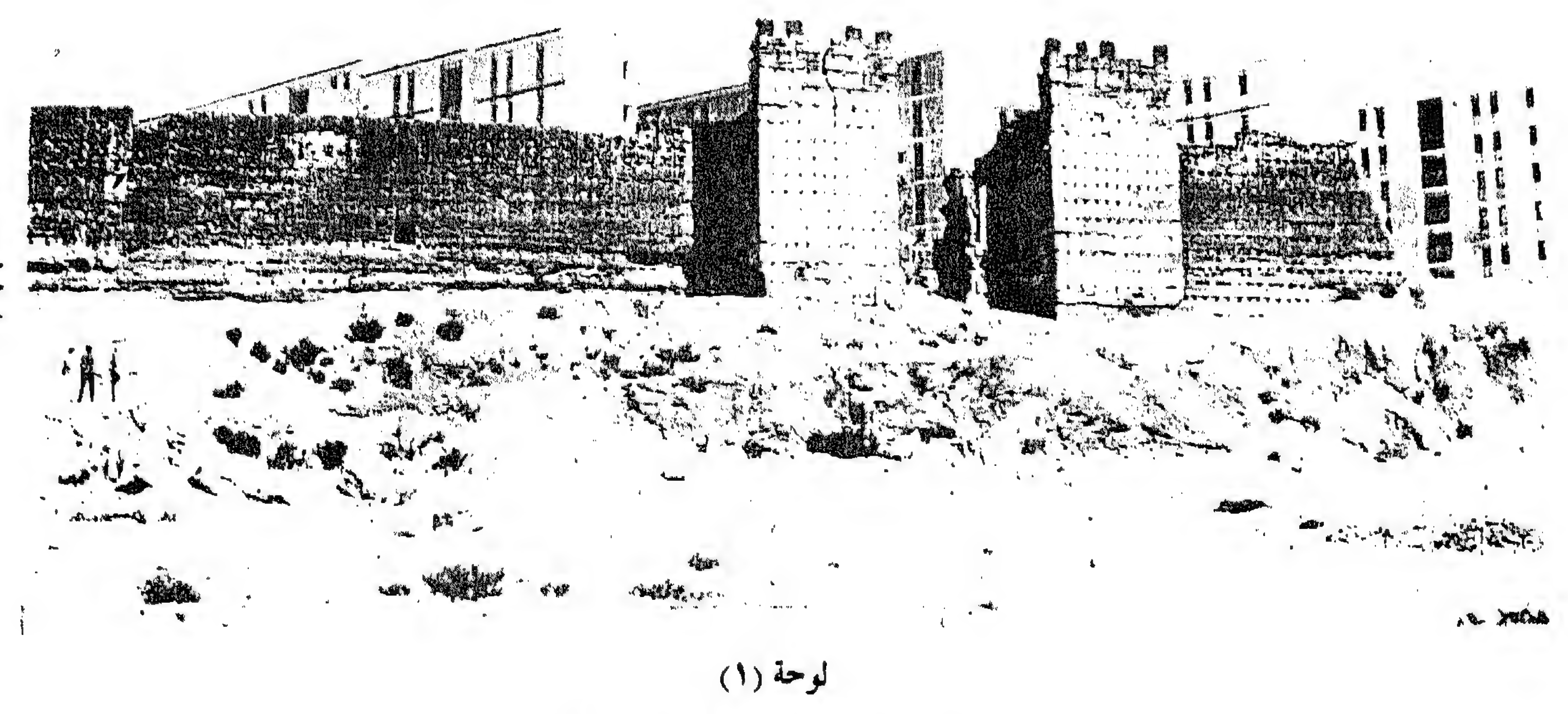
شكل (١٢)

رسم افتراضي للسور الغربي لقصبة سبتة (عن كارلوس جوثاليس)



شكل (١٣)

رسم افتراضى للسور الشرقى لقصبة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



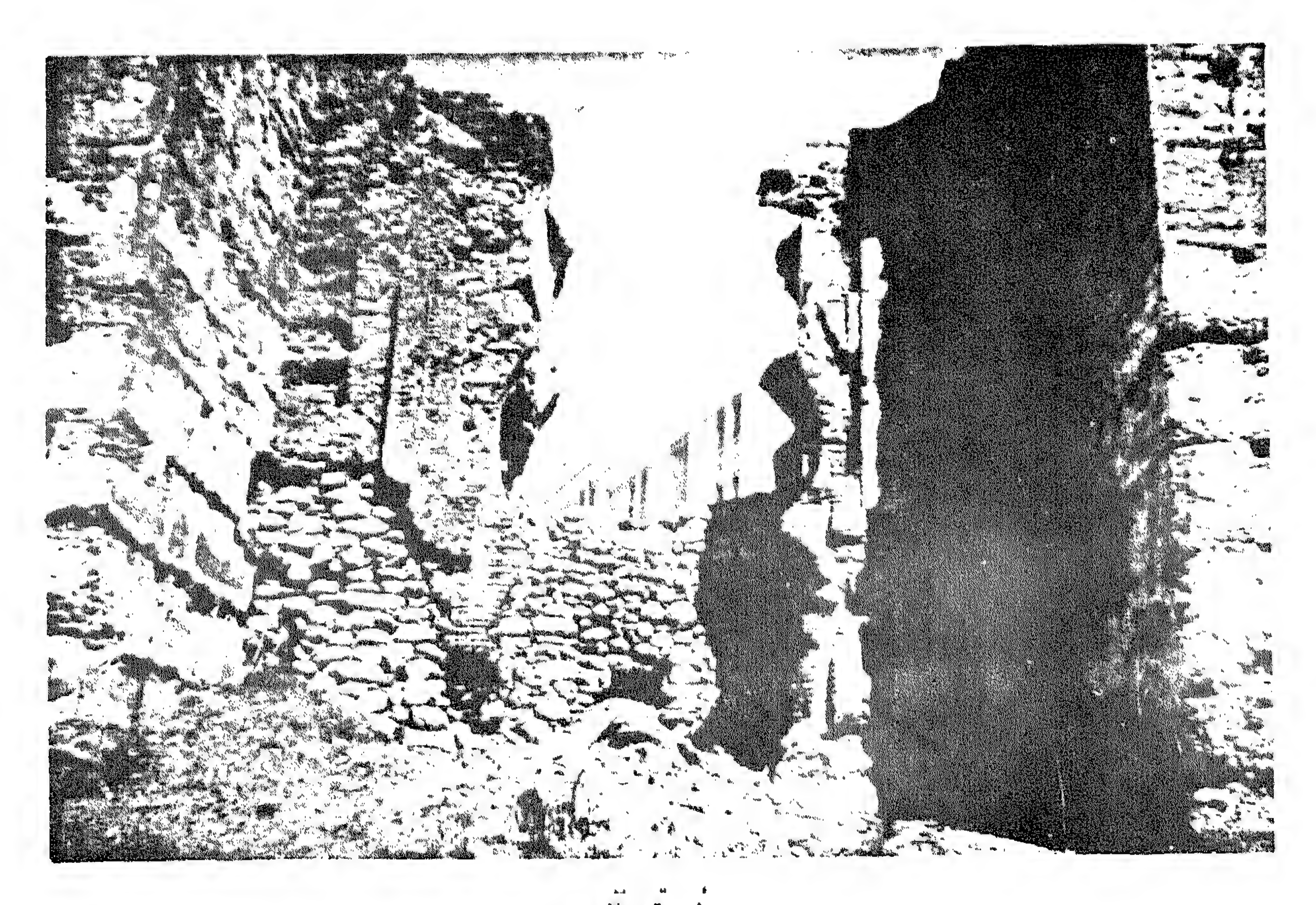
لوحة (١)

باب فاس بمدينة سبته (عن بافون)



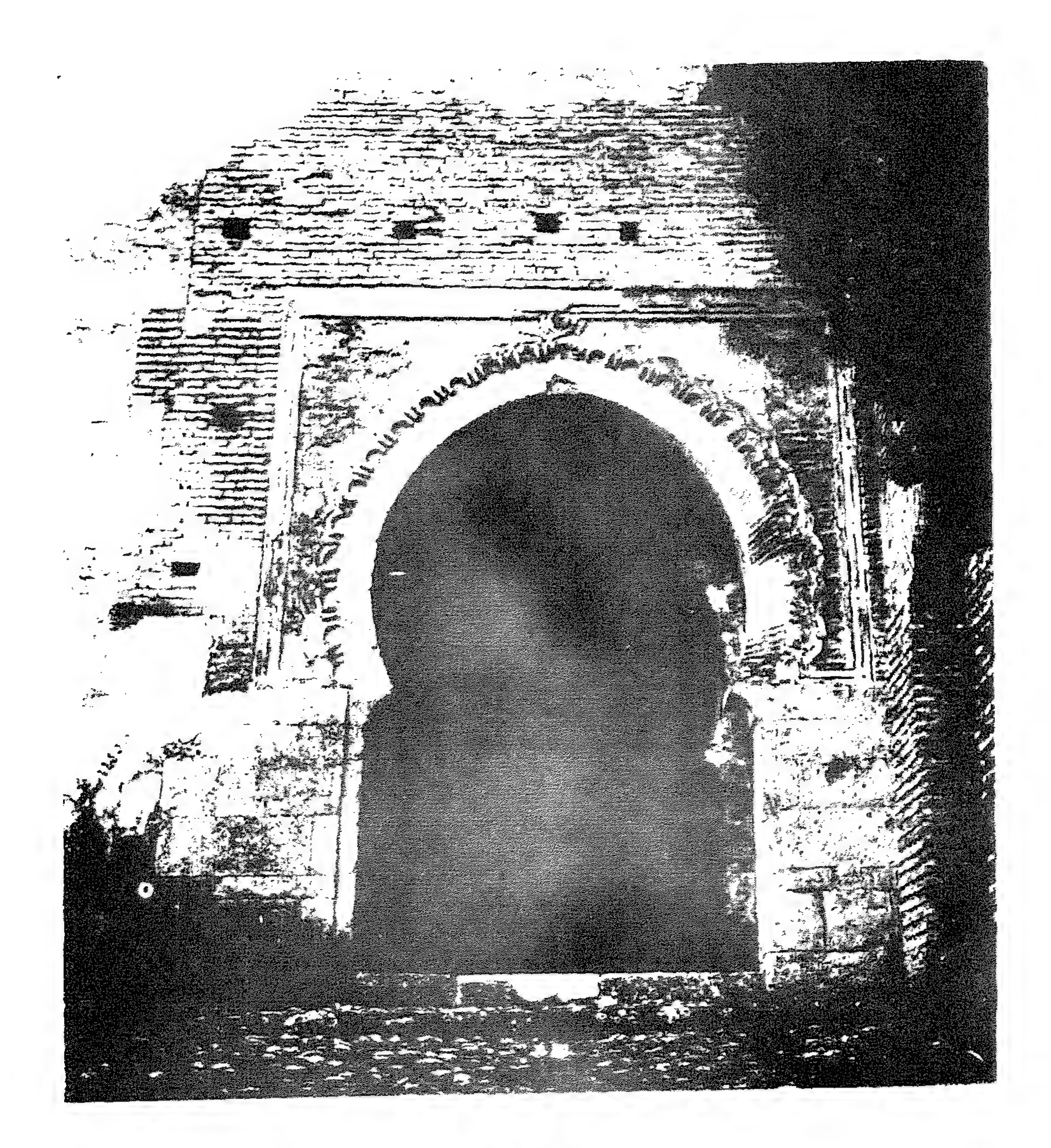
لوحة (٢أ)

بقايا باب فاس بمدينة سبته (عن بافون)



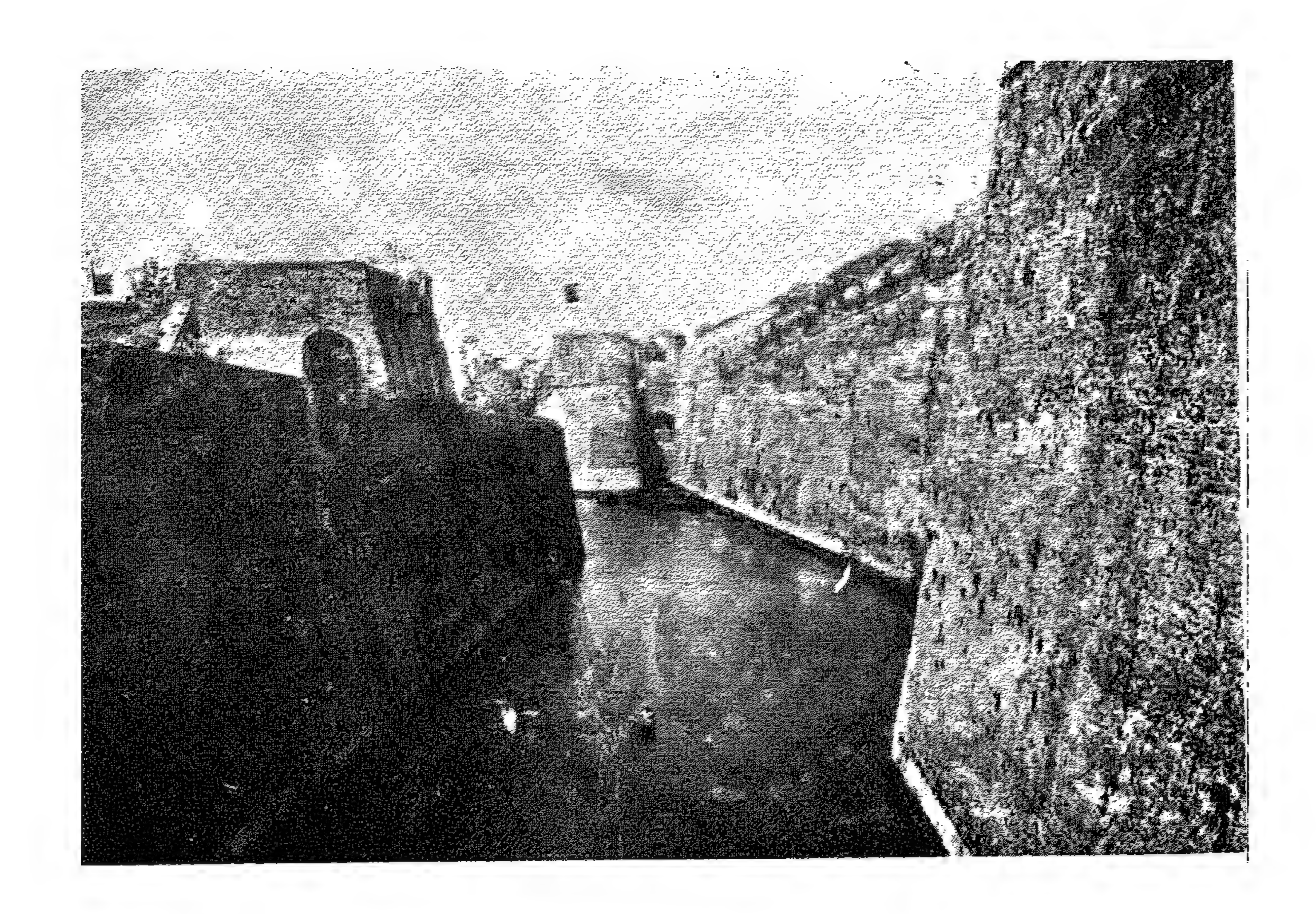
لوحة (٢ ب)

بقايا باب فاس بمدينة سبته (عن بافون)



لوحة (٣)

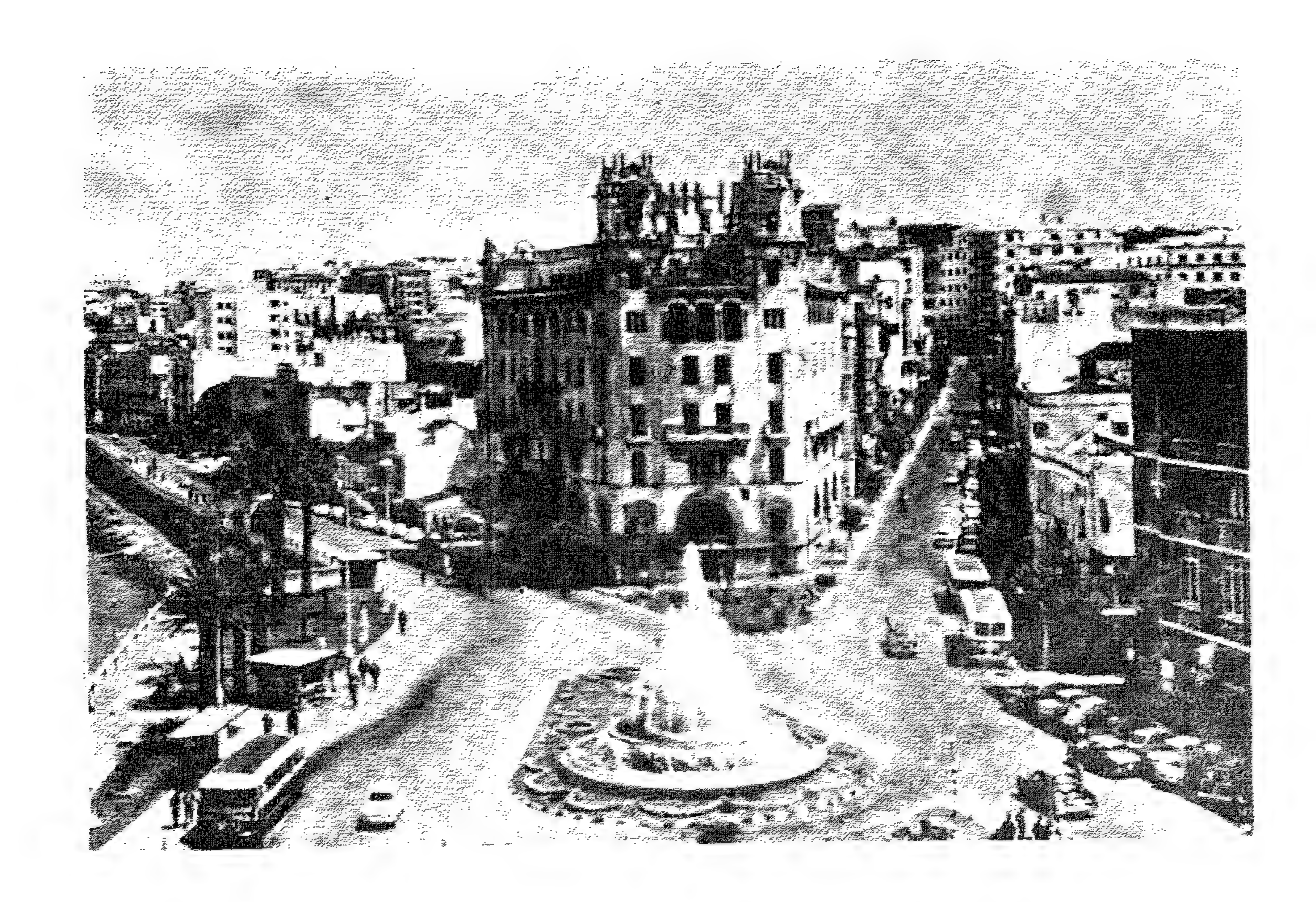
باب السلاح بغرناطة (عن بافون)



لوحة (٥)

بقايا حصون أسبانية وبرتغالية مواجهة للمغرب يفصلها بحرابى السول

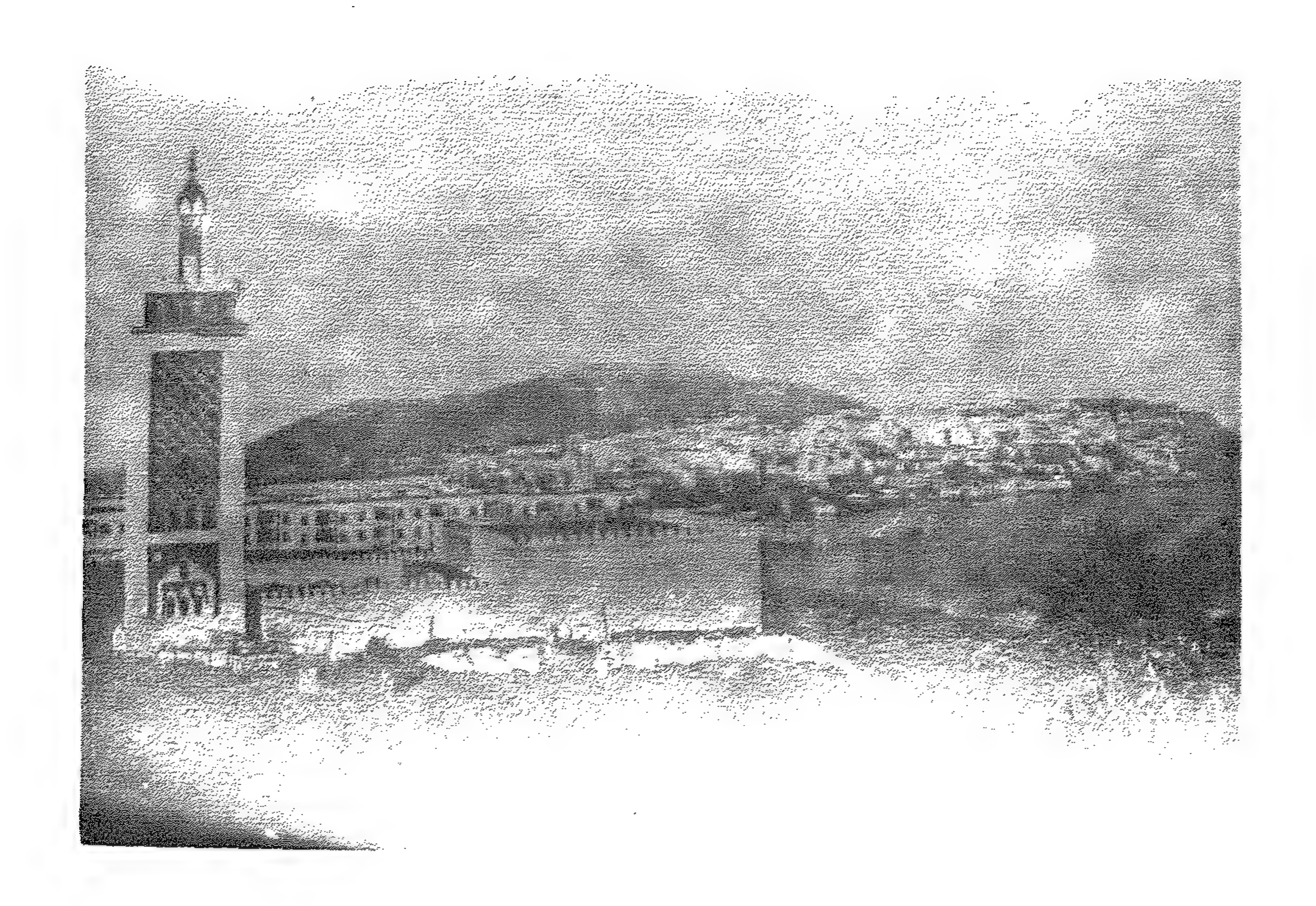
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٤)

أحد شوارع سبته المعروف بالشارع الكبير والى اليمن

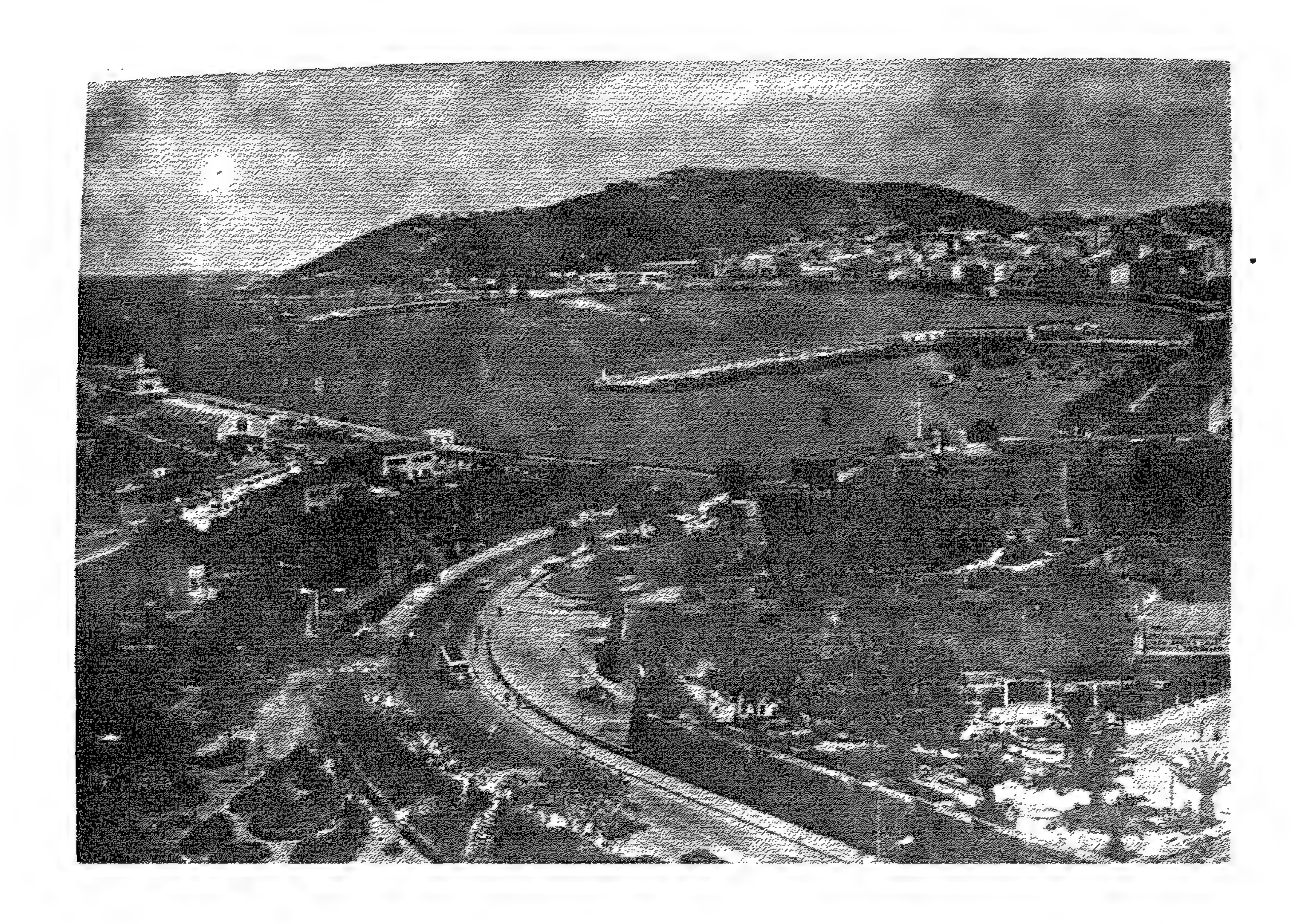
كان يوجد زقاق ابن عيسى (عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٦)

مسجد حديث يمثل الأثر الإسلامى الوحيد بمدينة سبته

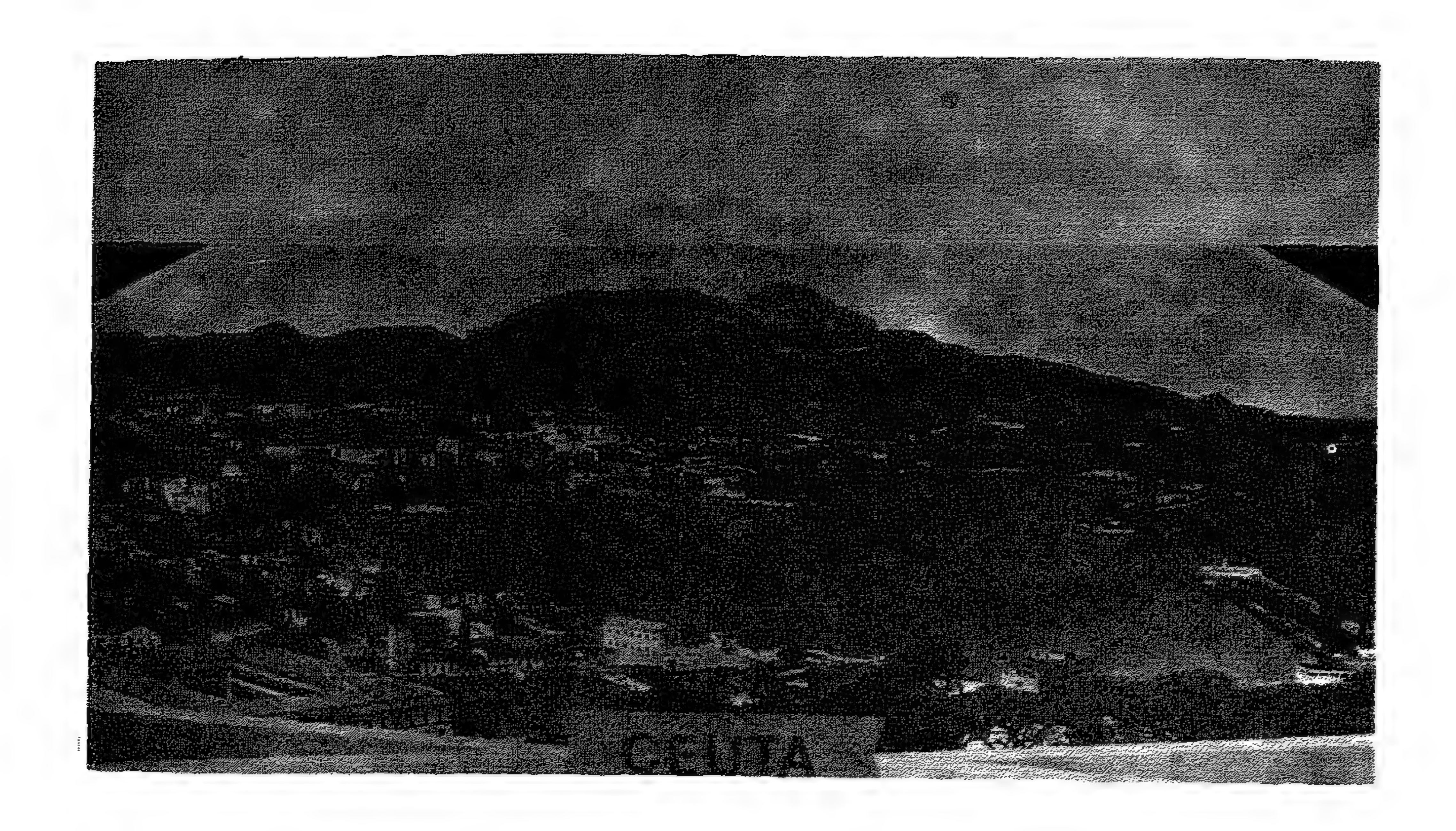
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٧)

منظر عام سبته

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٨)

منظر آخر لمدينة سبته وفى الخلفية يظهر جبل طارق

(عن عبد الوهاب بن منصور)

الهوامش

(١) راجع البكرى (عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك . مكتبة المثنى بغداد (مصور من طبعة دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ م .) ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى أن مدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم وبقايا كنائس وحمامات .

وكذلك راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار . نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة الإسكندرية ١٩٥٨. ص ١٣٧ ، الحميرى (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم): الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق . د. إحسان عباس. بيروت . ١٩٨٤. ص ٣٠٣.

وقد اختلف المؤرخون حول تفسير اسم مدينة سبته فالبكرى والإدريسى يذكران بأنها سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم (راجع البكرى : المصدر السابق . ص ١٠٣) ، كذلك راجع الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ . جـ٢. ص ٥٢٨ .

أما المقرى فيذكر نقلاً عن ابن سعيد بأن سبته سميت بهذا الاسم نسبه إلى سبت بن تافث ابن نوح) : المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق د. إحسان عباس . بيروت ١٩٨٨. جـ١. ص ١٢٥. ويفيد ليو الأفريقى بأن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيسطاس ، وسماها البرتغاليون سوتبة : ليو الأفريقى (الحسن ابن محمد الوزان الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية د. محمد حجى ، د. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر دار الغرب الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٣.جـ١. ص ٣١٦. وفى رأى أحد الباحثين أن اسم سبته مشتق من الكلمة اللاتينية (سبتوم أو سبقوم) Septum بمعنى سبعة لأن سبته كما يذكر الأدريسى ، عبارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض . (راجع الإدريسى . المصدر السابق . جـ٢. ص ٥٢٨ ، كذلك راجع . رضوان البارودى . التاريخ السياسى لمدينة سبته منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . فصلة من المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٩. ص ٣٥ - ٣٦ حاشية (١).

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (بجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادى . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ . ص١٠١ . هامش (١).

(٣) عندما سيطرت جيوش الدولة البيزنطية على مدينة سبته قام جستنيان بتحصينها عام ٥٣٥م. ومنذ ذلك التاريخ وولاة الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم يليان الكونت فى أواسط القرن السابع الميلادى ، والمشهور أنه كان مغربياً من قبيلة غمارة التى استمرت صاحبة هذه الجهات حتى فى العصر الإسلامى (راجع محمد ابن تاويت . تاريخ سبته . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى. ١٩٨٢. (ص١٤ – ١٥) . وقد لعب يوليان دوراً هاماً فى تحريض العرب على فتح الأندلس حيث اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة وطلب منه فتح الأندلس . (راجع السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة. إسكندرية ١٩٩٧. ص ٦٦– ٦٧ كذلك راجع . أحمد مختار العبادى . فى تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية بدون تاريخ . ص ٥٤ – ٥٥) .

(٤) بعد فتح المسلمين للأندلس عن طريق سبته ساعدتهم الظروف فى ضم هذه المدينة إلى دائرة نفوذهم . وقد خضعت سبته لحكم قبيله غمارة وزعيمها ماجكس أوما حكن .كما كانت من المدن التى ولاها الإمام محمد بن ادريس الثانى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م .
ولمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة راجع : سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ المغرب العربى : نشر منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٩٠.جـ٢.ص١١٠-١١ ، كذلك جـ٣ ص٢١١،٢٣٤ ، رضوان البارودى المرجع السابق . ص٣٩-٤٠ .

(٥) كان سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قد عين على بن حمود على سبته عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م . مكافأة له على انضمامه معه فى صراعه ضد الخليفة الأموى هشام المؤيد : ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . القسم الثانى . الخاص بأسبانيا الإسلامية . تحقيق أ. ليفى بروفنسال. بيروت. ١٩٥٦.ص١١٩ ولمزيد من التفاصيل راجع (سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق . جـ٣.ص٥٠٦،٥٠٨ .

(٦) عن سقوط البراغواطي وكيف قدر له أن يظهر في هذه الفترة من تاريخ سبته . راجع البكري . المصدر السابق . ص١٣٤-١٤١ ، ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله محمد). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق .ج.س. كولان أ. ليفي بروفنسال بيروت ١٩٨٣. جـ١ . ص٢٢٣-١٣٨، سعد زغلول. المرجع السابق . جـ٣ . ص ٥٠٨-٥٠٩، رضوان البارودى. المرجع السابق. ص ٥٧-٦٠.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته خلال فترة حكم سقوط البراغواطي . راجع . ابن بسام. المصدر السابق. م٢.ق٢.ص٦٥٨-٦٦٠، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة بولاق. ١٨٢٤. جـ١. ص١٥٧ رضوان البارودى : المرجع السابق ص ٦٠-٦٥.

(٨) راجع : ابن أبي زرع : الأنيس المطرب : ص٩٣. حيث الإشارة إلى أنه بمجرد دخول سبته في طاعة المرابطين خرج إليها يوسف بن تاشفين «فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود».

(٩) ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . تحقيق كل من محمد ابراهيم الكتاني ، محمد ابن تاويت ، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة . بيروت. ١٩٨٥ص ٢٤-٢٦، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته على عهد الموحدين راجع ابن خلدون. العبر . جـ٦ ص٢٣٥. محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٥-٧٦.

(١٠) عن تاريخ سبته في عهد الحفصيين راجع : أمين توفيق الطيبي. بنو العزفي أصحاب سبته بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ مدينة سبته الإسلامية. طرابلس. بدون تاريخ . ص ٦٨-٧٦، محمد بن تاويت. تاريخ سبته . ص١٠٨-١٠٩.

(١١) يبدأ تاريخ ابن العزفي بفقيه سبتي هو أبو العباس أحمد العزفي الذى يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيهاً وعالماً ومحدثاً وقاضياً ، وقد أعلن سلطانه على سبته واستقل بها عن الحفصيين ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م وظل يحكمها حوالى ثلاثين سنة إلى أن توفى عام ٦٧٧هـ /١٢٦٨م، ولمزيد من التفاصيل عن الظروف التى ساعدت أبا العباس أحمد في السيطرة على مدينة سبته ومدى حب وتقدير أهلها له راجع . ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . ص٣٩٧ - ٣٩٩ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١١٠ -١١٣ .

(١٢) أمين توفيق الطيبي . النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبتة- ص٤٦ - ٤٧ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١٣٤ وما بعدها.

(١٣) نفس المرجع ص ٤٧- ٤٨ ، كذلك راجع :

جوليان شارل أندرى : تاريخ أفريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزالى والبشير بن سلامة : تونس ١٩٧٨ ص ٢٤٩.

(١٤) أمين توفيق الطيبى : احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية (مقدماته ودوافعه ونتائجه) . (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته) ص ١٣٧ .

(١٥) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب . تحقيق : عبد الوهاب المنصورى . الرباط ١٩٨٤ .

(١٦) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية . ص٢٣ حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م. وكان موضع أقرانه بمسجد القفال وكان يدير ظهره إلى جوار القبلة من بعد صلاه الصبح ويمشى دوله أثر دوله فى الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس.

(١٧) نفس المصدر . ص٣١ -٣٢ . حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وكان يحمل صحيح البخارى عن الحجار وهو سند عادل متصل السماع لانظير له فى المغرب .

(١٨) نفس المصدر. ص٤٤ - ٤٥ . حيث الإشارة إلى وفاته عام ٨٠٢هـ/١٤٠٠م وإلى أنه كان فقيهاً محدثاً حسابياً مشاركاً فى أصول الدين والنحو والتاريخ وكان متودداً للطلبة حسن التعليم والإلقاء .

(١٩) نفس المصدر : ص٥٥ - ٥٦ . حيث الإشارة إلى أنها قرأت الطب على صهرها الشيخ أبى عبد الله الشريشى ونبغت فيه .وكانت عارفة بالطب والعقاقير كما كان لها رباع تفتلها عهدت بتوقيفها فى وجوه البروسبيل الخيرات .

(٢٠) الأنصارى : اختصار الأخبار. نشر بروفنسال. ص١

(٢١) المصدر السابق . ص٣ .

(٢٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الطبعة الثانية . الرباط . ١٩٨٣ ص٧ .

(٢٣) المصدر السابق نشر بروفنسال . ص٩ . حيث الإشارة إلى أنـه استوعب وصـف جـامع سبته وذكر ما ينبغي أن يذكر من تاريخ وخبر في بغية السامع من تأليفنا .

(٢٤) نفس المصدر . ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

(٢٥) نفس المصدر . ص٢ .

(٢٦) يظن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . أن الكتاب طبع بعد طبعة تطوان طبعتـين أخريـن إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط ولكنه لم يشر إلى سنة الطبع ولا إلىاسم الناشـر راجـع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص٨ .

(27) Joaquin Valve Bermejo : Descripcion de cetua Musulmana. En el siglo XV;, Alandalus vol, XXVII. Madrid 1912.

(٢٨) كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى . رسالة ماجيستير (غير منشورة) إسكندرية ١٩٨٩ . ص ٦٣ .

(٢٩) شكل رقم (١) .

(٣٠) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) معجم البلدان . دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥. ص ١٨٣ .

(٣١) حبت الطبيعة مدينة سبته موقعاً استراتيجياً جعلها من أمنع مدن الغرب الإسلامى . فهى تقع على برزخ يصل اليابسة فىالغرب بشبه جزيرة الميناء فى المشرق . وتطل على البحـر المتوسط من الشرق ويكتنفها خليجان أحدهما فى الشمال والثانى فى الجنوب بحيث لايمكن الوصول إليها براً إلا من الغرب . (راجع مؤلـف مجهـول الاستبصار . ص ١٣٧ حيث الإشارة إلى أن البحر قد أحاط بها (أى بسبته) شرقاً وجنوباً وقبله وليـس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه .

(٣٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب . ص ١٠٣ .

(٣٣) الكذان : أو كـدان نـوع مـن الحجـارة البيضـاء يستعمل فـى تشييد الجـدران وتبليـط الأرضيات . وقد شاع استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغـرب والأندلس منـذ عصر الدولة الأموية (عبد الرحمن غالب . موسوعة العمارة الإسلامية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ . ص ٢٠٤ .

(35) Carlos Gozalbes cravioto: ceuta Hispano portugesa (instituto de estudios ceuties):, cetua, 1993. p.p 93-94.

(٣٦) شكل رقم ٢ .

(37) Henri Terrasse: un vestige des fortifications omeiyades: Alandalus. v, XXVII. Fasc I. 1992. p, 245.

(٣٨) شكل رقم (١) أ ، ب .

(٣٩) الإدريسى : نزهة المشتاق جـ٢ ص ٥٢٨ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار . ص ٣٠٣ .

(٤٠) ابن أبى زرع : (أبو الحسن بن عبد الفاسى) : الزخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية. منشورات دار المنصور للطباعة . الرباط . ١٩٧٢ ص ٨٠ .

(٤١) شكل رقم (١) أ ، ب ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٢) شكل رقم (٤) ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(43) Carlos Gozalbes : op .cit, p.p . 195-198 .

(٤٤) شكل رقم (٣) أ .

(٤٥) شكل ٤ .

(٤٦) شكل رقم (٣) أ ، ب ، شكل رقم (٤) .

(47) Carlos Gozalbes: op cit, p.p 193-194 .

(٤٨) شكل رقم (٥ ، ٦) ، شكل رقم (١) أ ، ب شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٩) الأنصارى اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ٢٠ .

(٥٠) تقع هذه الروضة عند رابطة الفصيل ، وكانت تضم ثلاثين مقبرة دفن فيها كل أفراد أسرة الأشراف الحسينين الذين أتوا إلى سبته من صقلية ، وهناك صاهروا بنى العزفى أمراء سبته وبعد أسرة بنى العزفى نفوا إلى أسبانيا وظلوا تحت الحكم المسيحى إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد فعادوا إلى سبته واستقروا بها .

Joaquin vallva : opcit, p, 411. Not46.

(٥١) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٧ .

(٥٢) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٦ ، وكذلك راجع نشره محمد بن تاويت حيث الإشارة إلى أنه الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات أبى عبد الله محمد بن مسعود المكى المعروف بابن الكنغر .

(٥٣) شكل رقم (٣) ب .

(٥٤) كلمة أفراك أو أفراق تعنى الحصن أو القصبة التى كان يوجد بهـا قصـر الحـاكم . وفيـه كانت تدار شئون المدينة والإقليم حيث كان يقيم السـلطان وحراسـه وحاشيته (راجـع الأنصارى . نشرة بروفنسال ص٢٢) حيث الإشارة إلى أن منطقة أفراك كانت مخصصـة لسكن الأمراء والأحناد وغيرهم . وفى موضع آخر يشير الأنصـارى إلى أن أفـراك المدينـة كانت تمثل القصر الملوكى الذى أعده بنى مرين هناك لنزولهم. (الأنصارى . ص٢٠) . كذلك راجع ابن الحاج النميرى (فيض العباب وإفاضة قدح الآداب فى الحركة السـعيدة إلى قسطنطينة والزاب . (تحقيق محمد بن شقرون . الرباط ١٩٨٤ . ص٦٤-٦٧ .

(٥٥) هـو السلطان فـارس المكنـى بـابى عنـان والملقـب بـالمتوكل علـى الله ولـد عـام ٧٢٩هـ/١٣٢٨ م بفـاس وثـار على أبيـه أى الحسن بتلمسـان علم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م واستولى علـى المغـرب الأقصـى وكـان محباً للعلـوم ومغرماً بالبنـاء وقـد توفـى فـى عـام ٧٥٩هـ/١٣٥٧ م بعد أن حكـم سـبع سـنين وتسـعة أشـهر (ولمزيـد مـن التفـاصيل عنـه راجع: مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبـار المراكشـية . نشـر غلـوس . ربـاط الفتح ١٩٣٦ . ص ١٥٠ (كذلك راجع أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : روضة النسـرين فى دولة بنى مرين . مطبوعـات القصـر الملكـى . الرباط ١٩٦٢ ص ٢٧-٢٨ ، لسـان الدين بن الخطيب : نفاضة الجراب من غلالة الاغتراب) تحقيق أحمد مختـار العبـادى ومراجعـة عبد العزيز الأهوانى . دار الكتب العربية بالقاهرة . بدون تاريخ) . ص ٧٤ حاشية (٥) .

(٥٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٥٧) نفسه : ص ٢١ .

(٥٨) المقصود بالسبقة المسافة المحددة لرمـى السـهم (ج.س لثيـام موقـع سبته الاسـتراتيجى ووسائل الدفاع عنها فى أواخر الفترة الإسلامية . بحث ضمن كتاب دراسات فى تـاريخ سبته : ص ٣٤١ حاشية ٧٥ .

(٥٩) الأنصارى : المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) لوحة ١ ، ٢ .

(٦١) شكل رقم (٨) .

(٦٢) يطلق على هذا الأسلوب فى المصطلح الأسبانى اسم escalo de Los tres plano que integran el alzado التقسيم الثلاثى المتتابع والمقصـود تقسـيم الامتـداد الأفقـى

والرأسى لواجهات الأبواب إلى ثلاثة فواصل متساوية ثم تجزئة القسم المركـزى المصمت بنفس الطريقة ، بحيث يتمكن المعمار من تحديد اتساع وارتفاع فتحة المدخل من خلال تقسيم الاتساع الكلى للواجهة ، بحيث يكون ارتفاع فتحة الباب فى الغالب تساوى ربع الاتساع الكلى للواجهة . وقد طبق هذا النظام على نحو رائع فـى أبـواب قصـر قمـارش بالحمراء Antonio Fernadez puertas : La fachada del palacio de comares Granada McMLXXX, p. 34 وكذلك راجع كمال عنـانى إسماعيل عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . رسالة دكتوراة غير منشورة إسـكندرية ١٩٩٥ . ص ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦٣) لوحه رقم (٣) .

(64) Pavon Maldonado : opcit, p, 75.

(٦٥) شكل رقم (٣) أ .

(66) Carlos Gozalbes Cravioto : ceuta Hispano Protuguesa, p, 199.

(٦٧) قلهرات جمعها قلهرات Calahorra بمعنى قلعـة أو بـرج القلعـة - راجـع . Doz R supplement aux diccionnaires arabes, Tom, II leiden. Paris 1972. p. 401. وتعنى الكلمة فى اللغة الأسبانية القلعة الحرة أو البرج البرانى.

(٦٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠-٢١ .

(٦٩) شكل رقم (٩) .

(٧٠) شكل رقم (٤) حيث الإشـارة إلى المدخـل الأول برقـم (١) والمدخـل الثـانى برقـم (٢) والمدخل الثالث برقم (٥) .

(٧١) شكل رقم (٩) حيث الإشارة فى الرسم الافتراضى للبـاب إلى هـاتين السـاحتين برقمـى ٤، ٥ .

(72) Carlos Gozalbes: ceuto Hispano portuguesa p. 199.

(٧٣) أشار الأستاذ خواكين بالبين نقلاً عن الأستاذ أويثى ميراند فى - كتابه التاريخ السياسـى للموحدين بأن هذا الباب قـد أمـر بتشـييده أبـو العـلاء إدريـس ابـن السـلطان الموحـدى يوسف ابن عبد المؤمن عندما كان حاكماً على مدينة سبته وذلك فى الفترة من ٥٩٩هـ- إلى ٦١٨هـ. (راجع :

Joaquin vallve : Decripcion de ceuta en el siglo XV, p. 430. Not . 96.

(74) Henri Terrasse les Monuments de ceuta d'apres la Description D'Al-Ansari : Al-Alandalus : VXXVII, 1962 p, 444.

(٧٥) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال ص١ .

(٧٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٩) ويقع هذا الباب فى القطاع الشمالى من المدينة ويبدو من موقعه أنه كان يستعمل لتحصيل رسم خاص نظير المرور من خلاله Carlos Gozalbes : op .cit, 196 وربما يدعم هذا الظن أن سبته اشتهرت فى ميدان التجارة براً وبحراً بحيث احتلت مكان الصدارة بين موانى شمال أفريقيا وأصبحت محط رحلات المراكب من جنوة إلى أسبانيا وفرنسا. (امين توفيق الطيبى : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص ٤٩) .

(٧٧) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢٨ حيث الإشارة إلى أن هذا الباب كان أحد أبواب بحر أبى السول وكان يقع أمام ميضأة جامع سبته . وبمطالعة الخريطة الموضحة لمعالم مدينة سبته ، يتضح أن هذا الباب كان يقع فى القطاع الجنوبى من المدينة (شكل رقم (٣) أ ، (رقم ٩) . ويبدو أن الهدف من إقامة هذا الباب هو تصريف مياه الأمطار المتدفقة فى هذه المنطقة لتنحدر نحو بحر أبى السول حتى لا تكتسح مياه الأمطار المنشآت التى كانت قائمة فى تلك المنطقة لاسيما جامع المدينة . وكان يتقدم هذا الباب برج يعرف ببرج الماء، شيده السلطان المرينى أبو الحسن ، بهدف التحكم فى حركة المراكب التى كان تحط فى ساحل سبته الجنوبى (راجع ابن مرزوق (محمد التلمسانى) المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن : الجزائر ١٩٨١ . ص٣٩٩ .

(٧٨) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢١ .

(٧٩) نفس المصدر ص٢٢ .

(٨٠) نفس المصدر ص٢٥ .

(٨١) شكل رقم (٣ أ (رقم ١٠) وتجدر الإشارة إلى أن موقع هذا الباب خارج المدينة يتفق مع ما جرت عليه العادة فى معظم مدن الغرب الإسلامى حيث كان القصابون أو اللحامون (الجزارون أو باعة اللحوم) يشترون الدواب حية من تجار المدينة ثم يسوقونها إلى مذابح تقع خارجها ، ثم تحمل إلى حوانيت القصابين بالسوق (السقطى) (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد) كتاب آداب الحسبة نشر كولان وليفى بروفنسال . باريس ١٩٣١ . ص٩٠) وكانت حوانيت القصابين فى سبته تقع بالقرب من الباب المذكور ،

فكان ذلك سبباً فى أن يطلق اسمهم على الحى الذى كان يرتبط بذلك الباب عبر طريق يصل بينهم (شكل رقم (٣ أ - رقم ١٣) .

(٨٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٨٣) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى آداب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادى . المطبعة الأميرية ١٩٥١ . ص٨٩ .

(84)Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanas Pulibicado Por instituto Hispano arabe de cultura Madrid. Sin Fecha V.I. p, 179.
Torres Balbas : aspectos de la ciudades Hispano Musulmanas : Revista del instituto Egipcio de Estudios islamicos en Madrid Vol, II, Madrid. 1954. p 92.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٧٨-٧٩.

(٨٥) الحارة فى اللغة محلة متصلة المنازل تدل على معنى الحومة (أى الحى) فى عرف أهل المغرب . أما فى العامية المغربية فتدل على حفير تلقى فيه جيف الدواب ، يكون بعيداً عن المدن حتى لا تؤذى السكان (الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٣ هامش ٨٧ .

(٨٦) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة (الكسابون) فمنهم من يرى بأن صحتها الكناسون (الأنصارى: اختصار الأخبار نشرة محمد بن تاويت . ص٥٨ هامش ٥٧) بينما يرى الأستاذ خواكين بالبين أن المقصود بالكسابين هم رعاة البقر ، والقصابون أى باعة اللحوم (الجزارون) . ودليله على ذلك أنه ورد فى المدونات المسيحية ما يشير إلى أنه كان يوجد فى هذا الموضع حظيرة مسورة للمواشى ، يشغل مكانها الآن رصيف يعرف برصيف أسبانيا ، حيث ترسو عبارات أو مراكب الجزيرة الخضراء . Joaquin Vallve: opcit, p. 429 No T . 93. (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (١٣) حيث الإشارة إلى مكان القصابين .

(٨٧) شكل رقم (٣) أ رقم (١٥) حيث الإشارة إلى موضع حافة الغدر .

(٨٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٢٠ ، كذلك راجع شكل رقم (٣) وشكل رقم (١) أ ، ب .

(89) Carlos Gozalbes : ceuta Hispano Portuguesa, p. 195.

(٩٠) الأنصارى . ص١٤ .

(٩١) شكل رقم (٤) .

(٩٢) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 195 - 196.

(٩٣) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

(٩٤) هذا الكتاب فى فضل النبى ﷺ وفضل صحابته . ويقال إنه أقدم مؤلف مغربى معروف إلى الآن . ويوجد منه الجزء الثانى محفوظاً بالخزانة الحسنية تحت رقم ٥٧٣٣ وكان فى ملك عبد العزيز بن أبى بكر بن عبد الكبير الفرديسى . (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص٢٢ . حاشية (٣١) .

(٩٥) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

وعن ترجمات شخصيات العلماء وأصحاب تلك المقابر راجع ص٢٣ من نشرة عبد الوهاب بن منصور .

(٩٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٩٧) نفس المصدر ص ١٤ (شكل رقم ((١٠) رقم (٨)) .

(٩٨) نفس المصدر ص٢٢ وكذلك راجع شكل رقم ((١٠) حيث ورد فى المخطط الخاص بمراكز عمران مدينة سبته أن منطقة الأرباض الثلاثة الداخلية كانت تضم أيضاً مسجداً يعرف بمسجد الموثقين Mezquita de lo Notarios (رقم ١٠) نسبة إلى موضع يعرف بسماط العدول الموثقين القريب من سوق العطارين (الأنصارى : ص١٤) . كما ورد فى المخطط ما يشير إلى وجود المدرسة الجديدة (رقم ٥) وحمام القائد (رقم ٤) وباب الربض الأسود (رقم ١٦) فى تلك المنطقة .

(٩٩) جمع حفير وهو الخندق ، وينطق به عوام المغرب مبريراً (١ حفير) راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦ . هامش (٩٨) .

(١٠٠) جمع شطاب وصانع الشطابة أى المكنسة (راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦. هامش ٩٨ .

(١٠١) يبدو أن تلك السلسلة من الحفائر قد أقيمت بصورة رئيسية لدرء أى هجوم قد يقع من ناحية الغرب فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو الربض البرنى ، وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب بل أيضاً حفيراً يحيط بها وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البرانى عن بقية سبته . (ج.د.

ليثام . موقع سبته الاستراتيجى . ترجمة أمين توفيق الطيبى « بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص٢٧ .

(١٠٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢١ .

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل عن سمات شوارع مدن المغرب الإسلامى ونظامها التخطيطى راجع Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 93 - Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanes. V,I p.p 327 - 328 p. 335 p, 340.

(١٠٤) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٢ .

(١٠٥) هو محمد بن عيسى بن حسين التميمى السبتى ويكنى ابا عبد الله ، وكان من أهل العلم والفضل وتولى القضاء بسبته وبفاس أيضاً . وقد توفى فى سنة ثلاث أو أربع وخمسمائة وقيل فى سنة « خمسة » وخمسمائة « وكان مولده سنة » ثمان وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال . (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة «نشر الدار المصرية» للتأليف والترجمة . « القاهرة » ١٩٦٦ . جـ٢ . ص٦٠٥ ترجمة رقم ١٣٢٧) . (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (٢٠) ، شكل رقم (١٠ رقم (٩) .

(١٠٦) هو إبراهيم بن أبى العيش بن يربوع السبتى ويكنى أبا إسحاق ، وكان من فقهاء سبته فى القرن الخامس الهجرى . وقد توفى فى سنة ٤٣٠هـ (ثلاثين وأربعمائة) وهو ابن ثمان وسبعين سنة وقيل أنه توفى سنة ٤٣٣هـ (سنه ثلاث وثلاثين وأربعمائة) . راجع ابن بشكوال جـ١ نفس المصدر . ص١٠١ ترجمة رقم (٢٣٠) .

(١٠٧) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٣ . أما أبو القاسم بن الشاط فقد ولد بمدينة سبته عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م وتوفى بنفس المدينة عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م . (راجع ترجمته فى Joaquin Vallve. Opcit, p. 420. Not. 74)

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٥ .

(١٠٩) وردت فى نشرة محمد بن تاويت بأنه خندق أيمن ص ٨٤ .

(١١٠) الأنصارى : نشره بروفنسال ص١٢ ويوحد مكان هذا الخندق الآن أحد أودية المدينة. راجع . Joaquin vallve: Opcit. 420. Not 70

(١١١) الأنصارى : ص١٣ .

(١١٢) شاع فى بلاد المغرب والأندلس الاستعانة بهؤلاء الداربين فى حماية الأزقة من اللصوص حيث أكد على ذلك المغزى بقوله (لأن بلاد الأندلس لهادروب بإغلاق تغلق

بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغياتهم (راجع المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٩٨٨ . حـ١ ص٢١٩ ، ومن طريف ما يذكر أن عادة إغلاق الأبواب مازالت متبعة حتى الآن فى أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة درابين يعرفون باسم سيرنيوس Serenos وعلى كل من يريد الخروج أو الدخول أثناء الليل أن ينادى هذا الحارس الليلى بواسطة التصفيق (راجع أحمد مختار العبادى : الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية . مقال ضمن كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . الطبعة الثانية دار ذات السلاسل ١٩٨٦. ص٣١٥ .

(١١٣) الأنصارى : ص١٣ حيث الإشارة إلى زقاق ابن عيسى أشهر أزقة مدينة سبته والمعروف عندهم بزقاق الأكابروية يضرب المثل بينهم متسع المساحة يحتوى على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وفيه أربعة وعشرون حماماً ، حمامان مبرزان وباقى العدد بدور السادة من الشرفاء.

(١١٤) الأنصارى : ص١٥ - ١٧ .

(115) Carlos Gozalbes cravioto: La Madinao Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana , cuadernos del archivo Municipal de ceuta año, II No, 4. 1989. p,. 47.

(١١٦) شكل رقم (١٠) رقم ٩ ، لوحة (٤) .

(١١٧) الأنصارى : ص١٣ .

(١١٨) شكل رقم (١٠) رقم ٨ .

(١١٩) شكل رقم (١٠) رقم (١٠) .

(120) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 47 - 48.

(121) I Bid. P, 47 .

(١٢٢) الأنصارى : ص١٤ حيث الإشارة إلى سوق العطارين الأعظم وسماط العدول الموثقتين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك . وفى موضع أخر أشار الأنصارى إلى أهمية تلك المنطقة بمناسبة حديثه عن سقايات المدينة بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة الساقية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول بازاء باب الشوائين من أبواب الجامع) . الأنصارى ص١٧.

(١٢٣) لم يرد فى نشرة ليفى بروفنسال تاريخ صناعة هذا المنبر فى المتن وإنما أشار فى الحاشية إلى ذلك هكذا (فى الطره كان صنع هذا المنبر فى شعبان المكرم سنة ٤٠٨هـ (الأنصارى نشرة بروفنسال - ص٩) على حين ورد تاريخ صناعة هذا المنبر فى المتن فى نشرة كل من محمد بن تاويت وعبد الوهاب بن منصور على النحو التالى (ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة صنع فى شعبان المكرم سنة ثمان وأربعمائة) راجع نشرة محمد بن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٤) تضمنت نشرة كل من ابن تاويت وعبد الوهاب بن منصور الإشارة إلى تاريخ صناعة المقصورة المذكورة على النحوالتالى (والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (كان صنعها فى رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨هـ) . راجع نشرة ابن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٢٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ٢) ، شكل رقم (١٠) رقم (٣) .

(127) Carlos Gozalbes: la Medina o Nucleo urbano central en la ceuta hispanomuslmana. p. 63

وكذلك راجع أمين توفيق الطيب. احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية ٨١٨هـ/١٤١٥م مقدماته ودوافعه ونتائجه (مقال ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية ص١٣٣ .

(١٢٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص١٠٣ - ١٠٤ ، وكذلك راجع (مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار) ص١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار ص٣٠٢ .

(129) Joaquin vallve: Decripcion de ceuta Musulmana. p. 414. Not. 56.

(١٣٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشيه ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٣١) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٤ تحقيق إحسان عباس بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص٥٨ .

(١٣٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٣٣) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٣٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص٥٩ .

(١٣٥) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة جـ١ ص٣٢٠ .

Christin Ewert: Die Moschee am Bab al Mardum in toledo. Emi kopic. der Moschee vceu cordoba. Hidberg 1994. p. 352.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٢٢٤.

(١٣٦) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى من أهل سبته ويكنى أبا الفضل ، وقد كان من كبار أعلام سبته إذا كان من أهل العلم والذكاء واليقظة ، وقد تولى قضاء سبته مدة طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة . وقدم إلى قرطبة فى ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة . وقد ولد فى منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة وتوفى أواسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة (لمزيد من التفاصيل راجع ابن بشكوال كتاب الصلة القسم الثانى ص٤٥٣ - ٤٥٤ - ترجمة رقم ٩٧٤) .

(١٣٧) عياض (أبو الفضل عياض بن موسى) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير محمود منشورات دار مكتبة الحياه بيروت ١٩٦٥ ص١٩ .

(١٣٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال - ص٩ .

(139) Terrassi: les Monuments de ceuta, p. 445

(١٤٠) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص١٠٣ .

(١٤١) أحمد فكرى : مساجد الإسلام (مسجد القيروان) نشر دار المعارف . القاهره ١٩٣٩ ص١٩ .

(١٤٢) أحمد فكرى : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها جـ١ نشر دار المعارف ١٩٦٩ ص٣٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى . نشر مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية. ١٩٨٢ ص٣٥٢ .

(١٤٣) سالم : قرطبة . جـ١ . ص ٣٤٨ .

(١٤٤) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٠ - ١١ أما عن أبى القاسم العزفى فهو محمد بن أحمد بن محمد اللخمى العزفى ولد بسبته فى منتصف شوال . عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م . وتولى إمارتها فى ٢٧ رمضان عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م فى دولة الخليفه الموحدى المرتضى. وتوفى فى ١٣ ذى الحجه عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨ م . وهو الذى أكمل كتاب الدر المنظم فى مولد النبى المعظم الذى بدأ والده القاضى أحمد العزفى تأليفه (راجع . المقرى ،

أزهار الرياض . جـ٢ . ص٣٧٤ - ٣٧٧ ، كذلك راجع . اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور ص٣٠ هامش (٥٠) .

(١٤٥) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٦ .

(١٤٦) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٣ .

(١٤٧) نفس المصدر . ص٥ .

(١٤٨) نفس المصدر . ص ١٠ .

(١٤٩) نفس المصدر . ص٢١ .

(١٥٠) نفس المصدر ص ٢١-٢٢ حيث وصف الأنصارى المصلى الكبير بقوله (وأشرفها وأسناها المصلى الكبرى مصلى المدينة . ومن ما اتصف به هذا المصلى كونها (كونه) خارجة عن المدينة داخلة فى حكمها فوجه خروجها أنها خلف السور فى براح متصل بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنات ودمن ومجاشر وحبال وخنادق وشعار وسوى ذلك دور الجميع سته أميال فصارت المصلى فى حكم الصحراء على السنه فى ذلك) .

(١٥١) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٢) نفس المصدر ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى اتصل استخدام المصلى الكبير فى أوقات الفتن بقوله (ووجه دخولها هو أن البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط البحر فلا يلحق أحد فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تتعطل من إقامة الصلاة فى أيام الفتن والقتال ، وفى حالة الحصر والنزال بخلاف غيرها) . ويبدو أن الأحداث السياسية والحربية التى تعرضت لها سبته فى عصورها المتتابعة أثرها المباشر فى تشييد هذا النوع من المصليات .

(١٥٣) نفس المصدر . ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى المصلى الملكى بمدينة سبته بقوله (وفيها بأعلى حافة الغدر المصلى الملوكية المتسعة المستوية الأرض المشرفة على البحر هنالك المختصة بسكان أفراك من الأمراء والأجناد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان أبو الحسن المرينى بجيشه) .

(١٥٤) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٥) محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٨٨ .

(١٥٦) أمين توفيق الطيب : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية . ص ٥٥ .

(١٥٧) البكرى : المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب . ص ١٠٣ .

(١٥٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب . ص١٠٢ .

(١٥٩) المقرى : نفح الطيب . حـ٤ . ص١٤٥ .

(١٦٠) نفس المصدر . حـ٣ . ص ١٨٦ .

(١٦١) هو على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى من أهل سبته وبها ولد ويعرف بالشارى نسبة إلى شاره فلين معقل بجوفى مرسيه ومنها أصل سلفه وكان انتقال والده محمد منها إلى سبته سنة ٥٦٢هـ حيث سمع من العلماء والأدباء بسبته وفاس وغيرهما من بلاد المغرب (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٧ حاشية (٤٤) - وقد أشار ابن الخطيب إلى شخصية الشيخ على الشارى بما يفيد بأنه كان جماعه للكتب وذلك بقوله (انتقى منها جمله وافره فى مدرسته التى احدثها وعين لها من خيار املاكه وحيد رباعه وقفاً صالحاً سالفاً فى ذلك ما بين أهل المشرق راجع ابن الخطيب الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة ١٩٧٧ - حـ٤ ص١٨٨) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع محمد بن تاويت . تاريخ سبته ص ٨٨ ، Joaquin vallve: Descripcion ceuta Musulmana p, 409. Not. 34

(١٦٢) الأنصارى : ص٩ أما السلطان المرينى أبو الحسن فهو أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (تولى فى الفترة من (٧٣١هـ/١٣٣٠ م - إلى ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) وقد كان مجاهداً فى سبيل الله واستطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم اتجه بجيوشه نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية ، غير أن الجيوش الأسبانية انتصرت عليه فى موقعه بالقرب من مدينة طريف وذلك فى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠ م . وبعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط عليه كما ثار عليه ابنه فارس أو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة فمات حزيناً شهيداً عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة فى المغربين الأوسط والأقصى وبالأندلس . ومن آثاره الهامة بسبته فضلاً عن المدرسة الجديدة برج الماء ببحر السول من ساحل سبته الجنوبى (ولمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان راجع ابن مرزوق : المسند . ص٣٣٩) وقارن تاريخ وفاته فى كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين لأبى الوليد إسماعيل بن الأحمر ص ٢٥ حيث الإشارة إلى أنه توفى بعد التاريخ الذى حدده ابن مرزوق وذلك فى عام ٧٥٢هـ/١٣٥١ م ،

كذلك راجع المقرى : المصدر السابق . جـ٤ . ص٤٠٠-٤٠٤ ، ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص١٢٣ - ١٢٤ حاشية (٤) .

(١٦٣) الأنصارى - ص٩ .

(١٦٤) ربما قصد بها ميضأه المدرسة التى من المحتمل أنها كانت تشتمل إلى جانب تلك المطهرة على مراحيض عبر عنها الأنصارى بالبيوت الثمانية . فالميضأه فى عرف أهل المغرب اسم جامع لمكان التغوط والوضوء ويسمى أيضاً مطهرة أى مكان الطهارة وإذا كان خاصاً بالتغوط سمى بيت الماء . وكلمات المرحاض والكنيف والمستراح كلمات عربية طرأت حديثاً على ألسنة الناس (راجع اختصار الأخبار نشره : عبد الوهاب بن منصور . ص٤٠ حاشية (٤٥) .

(١٦٥) المقصود بهذا النقير الأحواض أو الصهاريج الخاصة بحفظ المياه . وقد تعنى فى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتلة من الحجر أو الرخام منقورة الوسط تكون بالميضأت والمطاهر ينصب فيها ماء الاستنجاء من عيون أو أنابيب (الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص٤١ حاشيه (٧٧) .

(١٦٦) يطلق على هذه الكلمة فى اللغة الأسبانية Azulejas أى الزليج بمعنى القراميد أو البلاطات الخزفية وتعرف فى العراق باسم القاشانى وفى مصر باسم الزليزلى (محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس بدون تاريخ ص٧٦ - ٧٨حاشية(١) . كما تسمى عند الأوربيين بالمزيكو ويقال فى بعض المدن المغربية الزلايج وصانعه زلايجى جمع زلايجيه واشتقوا منه زلج المضعف . ويقال زلج فلان دار بمعنى رصفها بالزليج (راجع اختصار الأخبار نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤١ حاشية (٤٨) .

(١٦٧) قد يكون صحتها مؤنقة حيث وردت على هذا النحو فى نشره عبد الوهاب بن منصور . راجع ص٤١ .

(١٦٨) البابونج نبات عشبى من فصيلة المركبات يستعمل فى الصباغة أو التداوى (المعجم الوسيط جـ١ . الطبعة الثالثة مجمع اللغة العربية . ص٣٧ . وقد فسر أحد مؤرخى الفن نور البابونج على أنه التوريقات النباتية التى كانت تكسو قبه الميضأة والتى كانت منقوشة نقشاً غائراً بحيث تجسمت فبدت لمن يتأملها كأنها رسوم حيه مجسدة) .

Corlos Gozalbes - Ia Medina o Nuclo urbano central en La ceuta p. 55.

(١٦٩) الأنصارى . ص١٨ .

(170) Mascarenilas: jeronimo de Historia de la ciudad de ceuta. Iisboa. 1918. p. 17.
(171) Carlos Gozalbes . op. cit, p. 56
(172) Mascarenilas: Op .cit, p.p 24 -25 .

(١٧٣) راجع هامش (٨) من البحث ص٢٩ .

(174) Carlos Gozalbes: opcit. p. 58.

(١٧٥) شكل رقم ((١١) .

(176) Carlos Gozalbes: opcit. p.p 59 - 60

(١٧٧) الأربطة مفردها رباط وتجمع على أربطة ورباطات وربط . وهى لفظة تعنى فى الأصل إعداد الخيل وربطها وملازمة ثغور العدو تأهباً للجهاد فى أية لحظة . وعلى هذا فإن الرباط بناء عسكرى دينى شيد ليكون مقراً للمجاهدين في سبيل الله . ولكن مع فتور الهمم أصبح مأوى للمنصرفين إلى ذكر الله وللمتعيشين على نفقة السلطان ولأبناء السبيل (عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص١٩٥-١٩٦) ولهذا فقد كانت تشمل مساكن لهؤلاء الزهاد ومسجد لأداء الصلوات . وكانت إلى جانب أنها مؤسسات صوفية كانت أيضاً معاهد علمية لتدريس العلوم الدينية . وكان لكل رباط شيخ يرأسه وله خادم يتولى العناية بالرباط . وعلاوة على دور الربط فى حماية الثغور والسواحل كانت تستخدم أيضاً كمراكز للإنذار وإرسال الأخبار الملحة فى حالة تعرض البلاد للخطر . ويؤكد ذلك قول المقريزى (ولما ولى إبراهيم بن محمد بعد الأغلب أفريقية فى سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى آمنة . وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبته إلى الإسكندرية فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر) (راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . نشر مكتبة الثقافة الدينية . الطبعة الثانية. ١٩٨٧ م جـ١ ص١٧٤ . وعن الاشارات التى كانت تستخدم فى إرسال الأخبار يذكر المقدسى (وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم من الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقه قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفز بالقصبة وضرب الطبل على المنارة) ، راجع المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد المقدس) أحسن

التقاسيم فى معرفة الأقاليم : طبعة ليدن ١٩٠٦ م ، دار صادر بيروت ص١٧٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الرباط : نشأته وتطوره راجع (فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول نشر الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الطبعة الثانية . نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ٩ ، حسين مجيب المصرى : أثر الفرس فى حضارة الإسلام ، مقال ضمن دراسات فى الحضارة الإسلامية . جـ١ . القاهره ١٩٨٥ ص١٩٦ .

(١٧٨) تقابل الزاوية فى المغرب الإسلامى الخانقاه فى المشرق أى أن كليهما يودى وظيفة واحدة كمبان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم للعبادة . ويؤكد تطابق وظيفة الزاوية فى المغرب مع وظيفة الخانقاة فى المشرق ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزوايا فى مصر بقوله (وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا) (راجع ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تحقيق محمد عبد المنعم العريان . ومراجعة : مصطفى القصاص. بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٢ .جـ١ ص٥٦ ، محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين. الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . ص٩٧ .

(١٧٩) اشتد تيار التصوف بمدينة سبته منذ عهد المرابطين وازداد عدد المتصوفة سواء منهم السبتيون أصلاً ومنشأ والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين . ومن بين أشهر هؤلاء المتصوفه أبو العباس أحمد العزفى الذى كان فقيهاً وعاملاً محدثاً وقاضياً(راجع المقرى . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٥ جـ٢ ص٣٧٥. وقد تولى التدريس طيلة حياته فى المسجد الجامع بسبته . ويشتهر أبو العباس أحمد العزفى بأنه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف إلى الأندلس (راجع المقرى نفس المصدر جـ١ ص٣٩ ،٢٤٣) ولمزيد من التفاصيل عن انتشار تيار التصوف وكثرة المتصوفة بمدينة سبته راجع محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص٦٠-٦٢.

(١٨٠) وردت هذه الكلمة فى نشرة عبد الوهاب بن منصور (شرجباً) وهى عبارة عن نافذة تفتح فى جدار بيت أو غرفة للتهوية والتزيين . وقد تثبت بها قضبان من حديد فى أشكال جميلة لمنع الدخول منها والخروج تسمى حيئذ شباك . وإذا كانت مجرد كوة صغيرة فهى الطاقة ، ويكتب الأدباء الشرجب وينطقون به بشين مثلثة وعند العوام بسين

(راجع الأنصارى ، نشرة محمد بن تاويت ص٣١ هامش (٥٣) وكذلك راجع ابن الرامى : الإعلان بأحكام البنيان دراسة أثرية معمارية ، تحقيق محمد عبد الستار عثمان نشر دار المعرفة الجامعية . إسكندرية ١٩٨٩ . ص ١٨٦ .

(١٨١) الكذان : نوع من الحجارة فيها رخاوة وربما كانت نخرة مثل الأحجار الرملية الموجودة بشطوط الأنهار ومجارى المياه وتسمى الكذان بالبربرية (تافزة) وقد يطلق على الصلصال المتحجر المنعقد من صعود البخار داخل الأباريق والبراريد عند غليان الماء وهو ما يسمى عند البربر أيضاً (بتافكرة) (راجع الأنصارى : نشرة محمد بن تاويت ص٣١ حاشية رقم (٥٤) . وقد عم استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس لاسيما فى بناء الجدران وتبليط الأرضيات (عبد الرحيم غالب : المرجع السابق . ص٢٣) .

(١٨٢) فريد شافعى . العمارة العربية ص ٥١٣ .

(١٨٣) الأنصارى نشرة بروفنسال ص ١١حيث الإشارة إلى هذا الرباط بقوله (وإلى جانبها (أى رابطة الصيد) رابطة أخرى على شكلها ومثالها وفى وسطها القبر المعروف بقبر حيدة (صيدة) جارية لأحد أمراء الموحدين . وعلى القبر قطعة رخام أبيض فى طول أثنى عشر شبراً وارتفاع خمسة أشبار أو ما يقرب منها وبجوانبها خمسة أدراج منجورة طريقة الصنعة .

(١٨٤) المقرى : ترتيب المدارك . جـ١ . ص١٩ .

(١٨٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١١-١٢ حيث الإشارة إلى هذه الزاوية بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس وأعدها هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار أو غيرهم . ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة المساحة متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبته وأتمها إحكاماً).

(١٨٦) البكرى : وصف أفريقية . ص١٠٣ .

(١٨٧) يطلق على القصبة الأسبانية Alcazaba أو المدينة Almudiana تصغير للفظ مدينة والاسم الثانى وإن كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير فى مختلف مدن أسبانيا الإسلامية (محمود على مكى : مدريد العربيــة . وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والنشر . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بدون تاريخ ص٧٤-٧٥ ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم فى بعض المدن كالقاهرة ، وأحياناً أطلقت على قطاع مستوى من هذا الشارع الأعظم بها وكان له صفة تجارية بارزة كأن يقال قصبة رضوان وكانت تطلق أيضاً على المدن الكبيرة وفى الأقاليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن (راجع . محمد عبد الستار عثمان . المدينة الإسلامية . عالم المعرفة . (الكويت) . عدد ١٢٨ . أغسطس ١٩٨٨ . ص١٦٧ .

(١٨٨) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ومراجعة عبد الحميد العبادى . مطبوعات كلية الآداب . جامعة فاروق الأول إسكندرية . ص٧٩ ، ٩٦-٩٧ .

(١٨٩) راجع ص ٣٥٦ هامش ٥٤ من البحث .

(١٩٠) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت ١٩٧٩ جـ٧ . ص٢٤٧ .

(191) Carlos Gozalbes: opcit. p. 50.

(192) Pavon Maldonado: arte Hispano Musulman en ceuta ytetuan p.72 .

(١٩٣) شكل رقم (٣) ب (رقم ١١) .

(١٩٤) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٢) .

(١٩٥) شكل رقم (١٢) .

(١٩٦) شكل رقم (١٣) .

(١٩٧) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى هذا البرج وبابه بقوله (ولها باب ثانى مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة).

(198) Carlos Gozalbes : opcit. p.p 49-50

(١٩٩) الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٤، ١٨ .

(٢٠٠) نفس المصدر . ص١٩ حيث الإشارة إلى عدد المطامير (أى مكان طمر القمح خاصة وخزن الغلال) المعدة لخزن الزرع والتى تبلغ أربعون ألفاً مفترقة بالديار .

(٢٠١) نفس المصدر ص١٤ حيث الإشارة إلى أنه كان بكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

(203) Torres Balbas: algunos aspectos da la casa Hispano musulmano. Alandalus. V,XV. 1950 p. 185 .

(204) Torres Balbas : ciudades Hispanomusulmanas V,I p. 31 .

(205) Torres Balbas: opcit. p. 179.

وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل ، العمارة الإسلامية بمدينة طليطلة ص١٦٤ .

(٢٠٦) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٥ .

(٢٠٧) الأنصارى نفس المصدر . ص ١٣٥ .

(٢٠٨) ربما صحتها المثات .

(٢٠٩) المسلخ لغويا يعنى المكان المخصص للراحة وتناول المشروبات وكانت تعقد فيه حفلات السمر (عبد الله البستانى . معجم البستان . جـ١ بيروت ١٩٢٧ ص ١١٢١-١١٢٢ وقد تعنى خلع الثياب والتأهب للأنتقال إلى الغرفة الثانية ثم ارتداء هذه الثياب قبل الخروج من الحمام . ولذلك فهى تقابل فى الحمامات الرومانية Apdoyierum وفى هذه االحالة كانت تزود بخزائن أو طاقات غير نافذة توضع فيها الملابس ولوازم المستحمين (عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص١٤٠) . وقارن الأنصارى اختصار الأخبار . نشر محمد عبد الوهاب منصور ص٣٤ حاشية (٦٣) حيث الإشارة إلى أن المسلخ تعنى المكان الذى يجرد فيه المستحمون من ثيابهم قبل دخول الحمام. ويسمى اليوم فى العامية االمغربية الجلسة .

(٢١٠) وردت فى نشرة عبد الوهاب بن منصور هذه الكلمة على أنها (مرتبة بدلاً من مؤلفه) ص٣٤ .

(٢١١) المراد هنا بالطيفور الجفنة أو الحوض أو البيله/ الرخامية المستديرة المرتفعة التى يفور منها الماء وينزل إلى الصهريج (راجع الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب ابن منصور ص٣٥ حاشية (٦٤) , أما الطيفور أو التيفور فيعنى فى المصطلح الفنى الطبق أو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . وقد انتقل هذا اللفظ العربى إلى اللغة الأسبانية بهذه الكلمة Ataifor . وكان هذا اللفظ يدل فى غرناطة الإسلامية على نوع من الموائد الصغيرة (سيكودى لو ثينا : وثائق عربية غرناطية : صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٦ . ص١٧٧ حاشية (١) .

(٢١٢) الأنصارى : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

(٢١٣) تنقسم حمامات المغرب والأندلس إلى نوعين ، الأول يتألف من أربع قاعات هـى بيت المسلخ والبيت البارد والوسطانى والساخن ، أما النوع الثانى فلا يشتمل على قاعة المسلخ التى كان يستعاض عنها بممر طويل مقبى يفضى إلى الغرف الثلاثة الأخرى
(Pavon Maldonado: Tratado de Arquitecturea Hispano Musulmana. Madrid 1990. p. 311.)

(٢١٤) كمال عنانى إسماعيل : الحمامات الإسلامية فى الأندلس (دراسة أثرية) بحث تحت الطبع .

(٢١٥) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى) : كتاب صورة الأرض . طبعة ليدن ١٩٣٨ . ص ٧٨-٧٩ .

(٢١٦) البكرى : وصف أفريقيا . ص ٣-١-٤-١ .

(٢١٧) الادريسى : نزهه المشتاق . جـ٢ . ص٥٢٨ .

(٢١٨) مؤلف مجهول : الاستبصار . ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢١٩) قارن نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٠ حيث الإشارة إلى هـذه الكلمة على أنها العنابيب بدلاً من الأنابيب والعنبوب فى نطق عوام المغرب لفه فى أنبوب يقصد بها القناه التى يخرج بها الماء مطلقاً من القادوس إلى الساقية . وإذا كان الماء يخرج منها مقيداً بإدارة لولب سميت بزبوراً أى ما يعادل الحنفيه أو الصنبور عند أهل المشرق (راجع نفس المصدر . ص ٤٠ هامش (٧٣) .

(٢٢٠) أى للعموم مجاناً بدون مقابل . وأهل المغرب يطلقون كلمة السبيل على كل مرفق من المرافق العامة أو لكل شئ معد للعموم . حيث يقال جنان السبيل للحديقة العمومية ، وكذلك ماء السبيل ، واشتقوا من الكلمة فعل سبل المضعف ومعناه إعطاء الشئ وهبته من غير مقابل حيث يقال سبل فلان قوبه الماء وسبل نفسه فى سبيل الله (راجع اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ هامش (٧٤) .

(٢١٢) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال . ص ١٧ - ١٨ .

(٢٢٢) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية .ص ٢٨١ .

(٢٢٣) ابن سعيد المغربى . كتاب الجغرافيا . بيروت . ١٩٧٠ ص١٣٩ نقلاً عن أمين توفيق الطيبى النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ص ٤٨ حاشية (١٨) .

(٢٢٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . ص ١٠٢ .

(٢٢٥) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) : رحله ابن جبير . دار صادر بيروت ص٨ حيث الإشارة (فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثانى يسر الله علينا فى عيون البحر إلى القصر مصمودة تيسيراً عجيباً . ونهضنا منه إلى سبته غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً إلى الأسكندرية بحول الله عزوجل فسهل الله علينا فى الركوب منه) كذلك ص ٤٨ حيث الإشارة (ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين) .

(٢٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد ابراهيم الكتانى ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر رزمامه . نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٨٥ . ص ٣٥٠ .

(٢٢٧) المقرى . جـ٣ ص ١٣١ ، كذلك راجع : أمين توفيق الطيب . المرجع السابق ص٥٠.

(٢٢٨) ابن بطوطه : المصدر السابق رحل . ص ٦٤٩-٦٥٠ .

(٢٢٩) أندرية جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى . والبشير بن سلام . تونس ١٩٧٨ . ص ١٦١ ، أمين توفيق الطيب . المرجع السابق .ص٤٩ .

(٢٣٠) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل من المرجان بسبته قويريات لطاف .

(٢٣١) الأدريسى : نزهة المشتاق . جـ٢ .ص ٥٢٩ .

(232) Torres Balbas : cuidades hispano musulmana V.I.P. 301 .

كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص ١٨٠ .

(٢٣٣) كان يقع هذه السوق فى الشارع المعروف الآن باسم شارع خوادينس

Call de: jaudenes - carlos Gozalbes; La Madima o Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana p. 40

شكل رقم (١٠) (رقم ٨) .

(٢٣٤) كانت صناعة التحف المعدنية لاسيما النحاسية من أهم الصناعات التى ازدهرت بمدينة سبته وذاعت شهرتها بحيث صار انتاجها من التحف النحاسية يصدر إلى إيطاليا وقد عبر الحسن الوزان عن هذا الازدهار فيما دونه عن سبته بقوله (وفيها عمال مهره فى المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجنان والمحاجر وغيرها . فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من الفضة . وقد رأيت بعضها فى ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من

صنع دمشق راجع : الحسن بن محمد الوزان الناسى المعروف بليو الأفريقى : وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجى ، محمد الأخضر . دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية حـ١ ص٣١٧ .

(٢٣٥) شكل رقم (١٠ (رقم ١٣) والمقصود به هو السوق المخصص لبيع الملابس المستعمله وكان يقع فى وسط المدينة بالقرب من مسجدها الجامع . ومثل هذ النوع من الأسواق المخصصة لبيع الملابس القديمة عم انتشاره فى معظم مدن الأندلس لاسيما غرناطة وأشبيلية ومالقه والغريب أن الأنصارى يؤكد أنه كان مخصص لبيع الأوانى النحاسية Carlos Gozalbes : opcit. p. 43.

(٢٣٦) الأنصارى اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٤ - ١٥ .

(٢٣٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة المدنية بالأندلس . دائرة معارف الشعب . العدد ٦٤ ، ١٩٥٩ ص١٤٤ - ١٤٥ ، كذلك راجع أحمد الطوخى . القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس . فصله من مجله كلية الآداب . جامعة الإسكندرية العدد ١٨ سنة ١٩٨١ ص ٩٢ - ٩٥ Torres Balbas ; Alcaicerias. Alandalus, v, XIVI p. 434 كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص١٩٤ .

(٢٣٨) الأنصارى : اختصار الأخبار : نشرة بروفنسال ص١٤ ، شكل رقم (٣ أ رقم (٧) ، شكل رقم (١٠) رقم (١٢) .

(239) Carlos Gozalbes: La Medina o Nucleo urbano central en la ceuta. p.p 41 - 42 .

(٢٤٠) الأنصارى . المصدر السابق . ص ١٥ .

(٢٤١) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٦٢ كذلك راجع عبد الرحيم غالب. موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٠١ . ((ويقال فى بعض المدن أيضاً التربيعة سوق صغير مربع الشكل رقم يشتمل على عديد من حوانيت الحرارين والخياطين وأمثالهم . وهو ليس كاطرزه الصناعة ولا كأسواق التجارة ولا كالازقة العمومية بل هو بينها جميعاً. ولا تزال بفاس تربيعات معروفة بهذا الاسم إلى اليوم إشهرها تربيعة العطارين راجع الأنصارى . اختصار الأخبار : نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٣٧ حاشية(٦٧) .

(٢٤٢) جمع طراز وهو مكان صنع الثياب الرقيقة كثياب السلطان . ودلالته فى المغرب أوسع فهو يشمل أماكن صنع الثياب وتوشيتها كما يشمل أماكن خرز الأحذية وتنميق المصنوعات الجلدية . وينطق به عوام المغرب دراز بقلب الطاء ذالاً ويجمعونه على درازات ويطلقونه أحياناً مجازاً وتهكماً على الحبس (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٣٧ حاشية (٦٨) .

(٢٤٣) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٥ .

(٢٤٤) ليو الأفريقى : وصف أفريقيا . جـ١ . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(245) Joaquin vallve : opcit, p.p 423. Not . 82

(٢٤٦) ابن بطوطه . المصدر السابق ص٧٢ حيث الإشارة إلى أن الفنادق فى المغرب تعرف فى المشرق باسم الخانات .

(247) Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 92 .

عبد العزيز سالم : العمارة المدنية . ص ١٤٣ ، كمال عنانى . العمارة الإسلامية فى طليطلة ص ١٩٥ ولمزيد من التفاصيل عن الفنادق نشأتها وتطورها ونظامها المعمارى ، راجع : أمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهره فى العصر المملوكى . رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهره ١٩٧٤ ص١٣٩ وما بعدها . ابن الرامى الإعلان بأحكام البنيان . تحقيق محمد عبد الستار . ص ١٩٨ ، د. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية . ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٤٨) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٦ .

(٢٤٩) نفس المصدر . ص١٦ حيث الإشارة إلى الفندق الذى بناه أبو القاسم العزفى بأنه معداً لاختزان الزرع .

(٢٥٠) نفس المصدر . ص١٦-١٧ حيث أشار الأنصارى إلى نموذج من هذه الفنادق وهو فندق غانم بقوله (ويليه فى الكبر من الفنادق المعدة لسكن الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاثة طباق وثمانين بيتاً وتسع مصريات وهو قديم أظنه من بناء المرابطين) .

(٢١٥) نفس المصدر . ص١٧ .

(٢٥٢) جمع مقصر ويقصد بها ورش صباغة الملابس وتطلق على المكان الذى تدق فيه الثياب وتحور وتبيض والكلمة فارسية الأصل . وقد كان لحرفة القصارة أهمية فى المغرب القديم ولكنها اندثرت الآن . ولم يبق ما يذكر بها إلا بعض الألفاظ المشتقة منها كالقصار . اسم أسرة شهيرة . والقصرية هو الأنية التى تقصر فيها الثياب (الأنصارى . اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٩ حاشيه (١٠٢) ، وكذلك راجع Joaquin vallve : op . cit p .435 أمين توفيق الطيبى : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته . ص ٥٢.

(٢٥٣) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٤) يعكس ذلك بوضوح وصف الأنصارى لمقاصر سبته بقوله : (ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً فلا يخاف عليها طول المدة من لص) راجع الأنصارى . اختصار الأخبار ص ٢٤ .

(٢٥٥) الأنصارى . نشر بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٦) الأنصارى . نفس المصدر . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٩ حاشية (١٠٣) .

(٢٥٧) الأنصارى . نفس المصدر ص ٣٧ حاشية (٦٩) .

(٢٥٨) اشتهرت مدينة سبته بأسلحة الرمى حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها . ومما ذكره الأنصارى عن مهنة الرمى يتضح بانها كانت مهنة شريفه ومحترمة حيث عبر عن ذلك بقوله (إذ الرمى طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيرًا إلا وله بصر بالرمى وتقدم فيه ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الأشياء التى تميزوا بها) . (الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢ - ٢٣) .

وفى الفقرة الأخيرة من النص إشارة واضحة إلى أن قوس العقارة كان أكثر الأقواس استعمالاً بسبته ، وقد كان هذا النوع من الأقواس معروفاً فى أوربا فى العصور الوسطى باسم arbalista ad duo pedos وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامى لكى يجذب القوس كان يثبته بوضع قدميه على طرفيه . واستعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامى من رمى سلاح أثقل وزناً وبالتالى أقوى مما كان سيرميه لو أنه استعمل قدماً واحدة فقط كما هو الحال فى قوس الركاب راجع ج.د. ليثام: موقع سبته الاستراتيجى ووسائل دفاعها فى أواخر الفترة الإسلامية (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية . ترجمة . أمين توفيق الطيبى. طرابلس. بدون تاريخ ص٣٥ .

(٢٥٩) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر بروفنسال ص ١٥ - ١٦ .

(٢٦٠) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٥١حاشية (١٠٥).

(٢٦١) نشر بروفنسال ص ٢٦ .

(٢٦٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٢٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل منه بسبته قويريات لطاف .

(٢٦٤) الإدريسى . جـ٢ . ص٥٤١ حيث الإشارة إلى أنه كان يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح فى اسنتها أجنحة بازرة تنشب فى الحوت ولا تخرج . وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم فى ذلك دربه وحكمه سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

(٢٦٥) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٩ .

(٢٦٦) ليون الأفريقى . وصف أفريقيا جـ١ ، ص ٣١٧ .

(٢٦٧) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٨ .

(٢٦٨) المقصود بديار الإشراف . كلمة إدارية مغربية قديمة معناها الإشراف على جباية الأموال لخزينة الدولة . متوليها يسمى المشرف وقد حل محلها فى القرون الأخيرة كلمة أمين (راجع . اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٧٩) .

(٢٦٩) المقصود بالديوان هنا هو مكان تسجيل المكوس و الأعشار وأدائها . ثم تخصصت كلمة (الديوان) بالمراكز المقامة بالحدود بين قطر وقطر لمراقبة السلع المجلوبة والموسوقة أى المستورده والمصدرة . واستخلاص الضرائب المفروضة عليها . فهى تعادل كلمة كمرك أو جمرك عند المشارقة (راجع اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٨٠) .

(٢٧٠) لكلمة القاعة خصوصية فى عرف المغاربة فهى تدل فقط على السوق التى توضع فيها أنواع الأدام لبيعها بالجملة كالزيت والسمن والعسل ويظهر انها كانت تشمل فى عرف السبتيين سوق بيع العطور (اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٢ حاشية (٨٢) .

(٢٧١) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ١٨ -١٩ .

(٢٧٢) شكل رقم ٣ (ب) رقم ٦ .

(٢٧٣) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ٢ .

(٢٧٤) من المعروف أن عقبة بن نافع كان قد ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأحكام الدين منهم صاحبه شاكر المنسوب إليه الرباط المشهور والمشهور كما أن

موسى ابن نصير أنتدب أيضاً عدداً من الفقهاء لتعليم البربر القرآن وأنزل من حفاظة جماعة بين بربر طنجة وقبائل غمارة المصمودية التى تقع سبته فى ترابها أما أبو ذرعه المشار إليه فلم يذكره من المؤرخين سوى الأنصارى (راجع اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ١٣ حاشية(٧) .

(٢٧٥) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال ص ٢ - ٣ .

(٢٧٦) نفس المصدر ص٣ وصاحب هذا القبر ولد بأشبيلية فى رمضان عام ٥٩٩هـ وأخذ عن شيوخها وقرأ بأشبيلية إلى أن استولى النصارى عليها فخرج منها واستقر بسبته يقرء ويعلم إلى أن توفى بها فى عام ٦٨٨هـ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ١٤ هامش(٨) .

(٢٧٧) من أشهر مقابر هذه المقبرة قبر الفقيه القاضى ابن الدراج الأنصارى وهو محمد بن محمد بن عمر ابن الدراج الأنصارى . فقيه من أهل سبته وأصله من تلمسان (راجع اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص١٩حاشية (٢٥) وقبر الفقيه القاضى عبد الله ابن محمد ابن عبيد الله الحجرى السبتى . ولد بقناجر فى شهر ذى الحجة سنة ٥٠٥هـ وعلم بمالقه القرآن والحديث واللغة ثم سكن سبته ثم فاس مدة، وعاد إلى سبته فاستقر بها وولى قضاء سبته يوماً واحداً . وكان مما جمع الله له بين العلم والعمل واتساع الرواية وعلو الذكر إلى أن توفى لسبعة ليله الأحد ٢١محرم عام ٥٩١ هـ (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٣ حاشية (٦) .

(٢٧٨) بها قبور الشهداء وهى مزار مشهور بموضع متسع جامع لعدد كبير (الأنصار ص٥).

(٢٧٩) من أشهر قبور تلك المقبرة قبر الفقيه محمد بن عبد الله الأموى السبتى (الأنصارى . ص٥) وقد تولى صاحب هذا القبر قضاء سبته مرتين فى عهد أسرة برغواطه والآخر فى أيام المرابطين ، وقد ولد عام ٤٣٣هـ وتوفى فى عام ٥١٧هـ (راجع اختصار الأخبار نشرة محمد عبد الوهاب بن منصور . ص ٢١ حاشية (٣٠) .

(٢٨٠) كان بها قبر الشيخ أبى عبد الله القرمونى . من أهل سبته (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . ص ٦) .

(٢٨١) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال ص ٢٥ .

علم الجراحة فى الأندلس

د. حنان عبد الفتاح مطاوع(*)

تمهيـــد :

(أ) الطب ومفهومة الحضارى :

الطب علم من العلوم القديمة التى عرفها الناس عن طريق التجربـة والخبرة ، وهو ضرورى لكافة المجتمعات لما له من اتصال بحياة الإنسان وصحتـه فـى جسـمه ونفسه ، وهو يعود عليه بالراحة والسعادة فى حالة الصحة ، ويخلصه من الألم فـى حالة المرض. وقد عرَّف ابن خلدون صناعة الطب فقال : « هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم »(١) .

(ب) أهمية الطب فى الحضارة الإسلامية(٢) :

اهتم الإسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، وفى ممارسة مهنة الطب اتجه المسلمون نحو تراث اليونانيين يشجعون على نقلة إلى العربية ليفيدوا منه ، فأشـادوا بابقراط(٣) . وجالينوس(٤) . وغيرهما من أطباء اليونـان، وأخـذوا عنهـم المبـادئ والأساليب التى تستهدف السمو بمهنة الطب(٥) .

(جـ) الجراحة فرع من فروع الطب :

كانت الجراحة عند العـرب تسـمى صناعـة اليـد(٦) . وهـى ترجمـة حرفيـة لكلمة Chirurgie اليونانية ، و لم تكن علمـاً مستقلاً بـل كـانت فـى بدايـة الأمـر

(*) مدرس بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

ترتبط بصناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر(٧) . ولعل ترفع العرب عن الجراحة فى أيامهم الأولى وتقليلهم من شأنها يرجع إلى انهم اعتبروها صناعة يدوية ، أما الطب فكان نتاج العقل ، والعقل فى اعتقادهم كان اسمى من اليد(٨).

واستمر العرب فى ترفعهم عن مهنة الجراحة فى فجر العصر الإسلامى(٩) . لا سيما وان الإسلام منع التمثيل بالجسم الإنسانى(١٠) . ومن ثم فان الطب الإسلامى لم يعن كثيراً فى أول الأمر بالجراحة على أساس فكرة المحافظة على جسم الإنسان كما خلقه الله(١١) . وقد تغلب العلماء فى العصور الإسلامية الأولى على هذه العقبة بتشريح أجسام القردة بوصفها أقرب الحيوانات فى تركيبها إلى الإنسان(١٢) ، وقد استقى العرب معلوماتهم فى التشريح عمن سبقوهم من اليونان(١٣) والفرس(١٤) . ومن مشاهدة الهياكل العظمية بالمقابر . ولكن لابد انهم مارسوا التشريح ولو بصورة سرية ومحدودة(١٥) . وعلى أية حال فانه مع تقدم الطب العربى الإسلامى تقدمت معه الجراحة ، وأقبل العرب على ترجمة أمهات الكتب اليونانية(١٦) . التى ألفها أبقراط وجالينوس وغيرهما . وفى هذه المؤلفات معلومات جراحية غاية فى الأهمية ، تمكن الأطباء المسلمون من دراساتها وتفهم ما فيها من معلومات جراحية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ازدهار علم الجراحة فى الدولة الإسلامية على يد جراحين مسلمين اعتمدوا فى البداية على ما أخذوه فى هذا المجال من العلماء اليونان، ثم كان لهم فى النهاية نظرياتهم الخاصة التى توصلوا إليها بالبحث والتجارب الشخصية . وعلى يد هؤلاء الأطباء أصبح للعرب المسلمين طب جراحى أصيل تناولوه بالشرح والنقد ومارسوه عملياً(١٧). حيث استخدموا (الكى) فى علاجٍ كثيرٍ من الأمراض ، وفضل بعضهم (الكى) بالنار على (الكى) بالمواد الكاوية ، واشترطوا أن تكون المكواة من الحديد وليست من الذهب ، وأوصوا بان يكون (الكى) فى الربيع(١٨) . كما قاموا

باستخراج الحصاة أو تفتيتها فى المسالك البولية ، وباشروا جراحات الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان. وفى خياطة الجروح استخدموا الخيوط المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط(١٩) .

وكان العرب أول من استعمل المخدر فى الجراحة حيث نجح الأطباء المسلمون الأوائل فى اكتشاف نباتات لها قوة التخدير . كما أن استخدام الإسفنجة المخدرة فن عربى أصيل . وقد دخل هذا الاكتشاف العلمى إلى أوروبا بطرق كثيرة ومختلفة ، وظل معمولاً به حتى القرن ١٨ م حيث اكتشف التخدير بواسطة الاستنشاق عام ١٨٤٢ م . وكان الطبيب العربى المسلم أبو القاسم الزهراوى يستخدم خليطاً من نباتات الشيلم والسيكران، وكانت هذه الخلطة تخدر المريض لفترة طويلة تكفى لأجراء العمليات الجراحية التى يقوم بأجرائها بنفسه(٢٠) .

أولاً: نبذة عن الطب فى الأندلس :

كان الطب الأندلسى بدائياً فى مطلع الحكم العربى الإسلامى . ذلك لان معظم الباحثين والدارسين المسلمين كان اهتمامهم فى تلك المرحلة بالعلوم الدينية واللغوية(٢١) .

وهكذا لم يكن فى بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامى وحتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢ م) علم طبى يعوّل عليه إلا ما كان يقوم به بعض الأفراد من النصارى الذين اكتفوا بالإطلاع على كتاب واحد مترجم من كتب النصارى يقال له (الأبريشم) ومعناه المجموع أو الجامع ، يأخذون منه معلومات سهلة وسطحية ، تساعدهم فى ممارسة مهنة الطب بالقدر الذى يكفى لكسب قوتهم دون الوصول إلى تفهم ما فيه من معلومات بشكل صحيح . وقد عبر ابن جلجل عن سطحية معلومات هؤلاء الأطباء بقوله « ولم تكن لهم

بصاره (أى رؤية) بصناعة الطب والفلسفة والهندسة فى أيام عبد الرحمن بن الحكم»(٢٢) .

غير انه سرعان ما تقدمت الحركة الطبية فى الأندلس فى زمن الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨هـ/٨٥٢م-٢٧٣هـ/٨٨٦م) على أثر قدوم بعض الأطباء المشارقه إلى الأندلس ، ومعهم أفضل ما توصلوا إليه من أدوات طبية ، وآخر ما صدر عن علماء المشرق من نظريات علمية. وعلى رأس هؤلاء الطبيب المشرقى الشهير « الحرانى » الذى استقر فى قرطبه ، وحمل معه إلى بلاد الأندلس معجوناً كان يبيع السقيه منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف(٢٣) .

وفى نفس الفترة الزمنية أقدم « ابن اياس » القرطبى - ولأول مرة فى تاريخ الأندلس - على التصدى لدراسة العلوم الطبيعية فكان أول من اشتهر بالطب فى الأندلس من المسلمين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٤) .

وفى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر أصبح لأهل الأندلس علم طبى راسخ الأركان بعد أن أخذ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب الخبرات الطبية عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامى(٢٥) ، وجلب أفضل المصنفات الطبية الشرقية(٢٦) ، وتشجيع ترجمة الكتب الطبية اليونانية والتى كان من أهمها كتاب ديسقوريدس فى الأعشاب . ونتيجة لكل ذلك ازدهرت الدراسات الطبية فى أسبانيا الإسلامية زمن الخليفة الناصر ، وظهرت مجموعة من الأطباء كان لهم فضل كبير على الطب ، جمعوا بين المهارة وحسن التصرف والقدرة على العلاج حتى أن الخليفة الناصر اختار منهم أطباء البلاط . ويأتى على رأس هؤلاء حسداى بن شبروط الذى كان أحرص الأطباء على التقرب من عبد الرحمن الناصر ، وكذلك عالم النبات المعروف « بالشجار » الذى كان من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير ديسقوريدس ، فعرف منه ما هو صحيح وما هو مخالف للواقع(٢٧) .

وفى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) واصلت الدراسات الطبية تقدمها حيث انه شمل الباحثين فى الطب برعايته عن طريق إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ، ويزاولها ، فإذا ارتكب خطأ يستوجب العقاب يسقط اسمه من الديوان، كما هو الحال بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون(٢٨) . كذلك جعل الحكم فى قصره خزانة للطب رتب لها اثنى عشر صبياً من الصقالبة لتجهيز الأدوية والمعجونات ، وكان يتولى الإشراف عليها أحمد الحرانى(٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى عصر الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) نجد أن طليطلة كانت أشهر مراكز الدراسات الطبية حيث شمل ملوك بنى ذنون أصحاب طليطله كل من برع من الأندلسيين فى العلوم الطبية من طليطليين أو ممن كانوا يقيمون فى طليطله. وكان من أبرزهم ابن وافد الذى اهتم بدراسة علم الأدوية المفردة ووضع فيها مصنفاً جامعاً كان نتاج إطلاعه العميق على كتب اليونان القديمة وتجاربه الشخصية خلال عشرين عاماً من البحث والدراسة(٣٠) .

ويكفى دليل على تقدم حركة الطب فى مدينة طليطله زمن الطوائف ما ذكره لكلرك مؤرخ الطب العربى من انه كان يوجد بطليطله تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء العرب والمسلمين(٣١) .

وقد تابعت الدراسات الطبية فى الأندلس تطورها بعد عصر الطوائف ولا سيما فى عصر الموحدين « أواخر القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وأوائل القرن التالى » حيث بلغ الطب فى هذا العهد قمة تطوره(٣٢) . وقد يطول بنا القول إذا أردنا تتبع هذا التطور الأمر الذى قد يبعدنا عن موضوع البحث الذى يركز بشكل أساسى على علم الجراحة فى الأندلس ، ولكن يمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى الرواد من مؤرخى العلوم الذين بذلوا جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب

الأندلسي ، ووصفوا كيف نشأ ونما وازدهر هذا العلم حتى بلغ أوجه فى عهد بنى نصر - فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد - ، ويكفى أن نشير هنا إلى كتابين شهيرين هما « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل الأندلسي وكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعه (ت ٦٦٨هـ) الذى افرد فيه الباب الثالث عشر لطبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب وأقاموا بها.

ففى ثنايا هذين الكتابين نستطيع أن نستخلص العديد من الحقائق ونوجزها فيما يلى :

١- أن الأطباء الأندلسيين كانوا من النوع الموسوعى بمعنى انهم مارسوا إلى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها(٣٣) .

٢- بلغ من تكريم الأطباء الأندلسيين انهم وصلوا إلى اعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب فكان منهم من ولى الوزارة ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغاً جعلهم يتبارون مع الخلفاء فى الإنفاق عن سعه والعيش فى أبهة ورخاء(٣٤).

٣- يمكننا من خلال الدراسة التحليلية لتاريخ الطب الأندلسى أن نستخلص حقيقة هامة وهى أن مهنة الطب كان يتوارثها أحياناً كثيرة الأبناء عن الأباء(٣٥) .

ونكتفى بهذا القدر من الإشارة إلى ابرز سمات الطب الأندلسى حتى يتسع المجال لإلقاء نظرة عامة على علم الجراحة فى الأندلس فى ضوء ما جاء فى مخطوط الزهراوى وما عثر عليه فى متاحف أسبانيا من آلات جراحية .

ثانياً: الطب الجراحى فى الأندلس :

إذا كانت الجراحة لم تتقدم عند العرب كما سبقت الإشارة لارتباطها بفن التشريح ، ولاعتبار الجراحة من المهن اليدوية التى لا تليق بمقام الأطباء . فان

المسلمين فى شرق وغرب العالم الإسلامى مارسوا مهنة الجراحة فى إطار دعوة الإسلام إلى الأخذ بالعلم بوجه عام ، حيث أطلق الإسلام العلم من عقاله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة ، وبين السحر ، وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكى وغيرها(٣٦) .

ونتيجة لذلك عنى المسلمون بمؤلفاتهم الطبية التى أفرد بعضهم فيها فصولاً عن علم الجراحة ، ولعل من أشهرهم فى بلاد الأندلس :

١- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى :(٣٢٥هـ-٤٠٤هـ / ٩٣٦م-١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى(٣٧) ، وكنيته بالزهراوى تدل على انه عاش وتعلم ومارس مهنة الطب ، وتوفى بمدينة الزهراء . وقد كان طبيباً خاصاً للحكم المستنصر ، وكان يعرّف عند اللاتينيين باسم أبولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبى القاسم وAlsaharavius تحريفاً من الزهراوى(٣٨) .

ويعد الزهراوى أشهر من كتب فى علم الجراحة عند العرب ، وأكبر من نبغ فيها ، وللزهراوى مصنفات طبية عديدة من أبرزها وأكثرها شهرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو موسوعة طبية كاملة تضم جميع فروع الطب المعروفة فى زمانه(٣٩) . إلا إن ما رفع قدرة وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « المقالة الثلاثون » التى خصصها للجراحة(٤٠) وهى أكبر وأغنى مصدر علمى فى الجراحة ، كما تعتبر مرجعاً حتى الآن لطلبة الطب ومعيناً للأطباء فى مواجهة مشاكلهم الجراحية(٤١). وتنقسم هذه المقالة التى عثرنا لحسن الحظ على نسخة خطية منها(٤٢) إلى ثلاثة أبواب :

* **الباب الأول** : يتعلق بالكى وينقسم إلى ٥٦ فصلاً .

* **الباب الثانى** : يتناول الشق والبط والفصد ومختلف العمليات الجراحية وينقسم إلى ١٠٠ فصل .

* **الباب الثالث** : تحدث فيه عن جبر الكسور والفك الحادثين فى العظام .

وتبرز قيمة هذه المقالة وأهميتها فى أن الزهراوى زودها برسوم توضيحية للعديد من الآلات الجراحية مثل آلات الكى ، والمباضع ، والمقصات ، والمجسات ، وأدوات التوليد ، وخافض اللسان، والصنانير ، والملاقط ، والموسعات منها ما هو مصنوع من النحاس أو الزجاج أو الرصاص .

ولأهمية هذه المقالة سوف نعرض مقتطفات ملخصه من أقوال الزهراوى التى توضح ما وصلت إليه معرفته فى علم الجراحة . ففى الباب الأول الذى خصصه للكى ناقش فيه أساليب الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم موضحاً ذلك بالرسوم التفصيلية للمكاوى التى كان يستعملها ، والتى من بينها المكواة السكينية والهلالية والمسمارية وذات السفودين وذات السفافيد الثلاثة .

وفى ثنايا عرض الزهراوى للمكاوى الجراحية أوضح أنواع الأمراض التى يصلح فيها العلاج بالكى ومنها :

١- برودة المعدة(٤٣) وعلاجها ويتم بكيها كية واحدة فوق المعدة بمكواة دائرية أو يكوى ثلاث كيات بمكواة مسمارية(٤٤) .

٢- فى أمراض الكبد(٤٥) ويكوى المريض ثلاث كيات فوق الكبد ويكون ذلك بمكواة سكينية(٤٦) .

٣- فى أمراض الطحال(٤٧) يكـوى ثـلاث أو أربعة كيات على طـول الطحـال ويستخدم فى ذلك مكواة خاصة ذات سفودين أو ثلاث سفافيد(٤٨) .

٤- فى علاج النقـرس وأوجـاع المفـاصل(٤٩) ويتـم الكـى بعـد الاسـتفراغ حـول مفصل الرجلين وتكون المكواة زيتونية متوسطة(٥٠) .

٥- فى علاج الأورام السرطانية نصح الزهراوى بكى السرطان(٥١) إذا كان مبتـدأ واستعمل فى ذلك مكواة دائريـة جـاعلاً الـورم السـرطانى فـى داخـل حلقـة المكواة بحيث يكون الكى حول الورم . وهو فى ذلك يختلـف عـن الأسـلوب الذى اتبعه بعض الأقدمين فى علاج الورم السرطانى بكيه كيه بليغة فى وسط الورم ، ويوضح سبب عدوله عن استخدام هذا الأسلوب بأن كى الـورم فـى الوسط يؤدى إلى تقرحه .

٦- فى علاج الـنزف الحـادث عـن قطـع الشريان يقـول الزهـراوى « واعلـم أن الشريان إذا نزف منه الدم فانه لا يستطاع وقفه ولا سيما إذا كـان الشـريان عظيماً إلا بأحد أربعة أوجه :

(أ) أما بالكى .

(ب) وأما ببتره إذا لم يكن قد أبتر فانه إذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

(جـ) وأما أن يربط بالخيوط ربطاً وثيقاً .

(د) وأما أن توضع عليه بعض الأدويـة التـى مـن شـانها قطـع الـدم والشـد بالرفائد شداً محكماً. وان عرض لأحد ذلك و لم يحضره طبيـب ولا دواء فليبادر ويضع الإصبع السبابة على فم الجرح نفسـه وبشـده جيـداً حتـى ينحصر الدم(٥٢) .

وفى الباب الثانى من مقالة الزهراوى المخصص لعلاج الشق والبط والفصد والخراريج وغيرها . يبدأ بتوجيه بعض النصائح التى تقوم عليها تقاليد ممارسة هذا النوع من الجراحة والتى ينبغى للجراح مراعاتها(٥٣) . وأهم ما تناوله بالشرح والتحليل فى فصول هذا الباب ما يلى :

١- وصف الأورام الصغيرة ويسميها العقد وتظهر فى الشفتين ، وقد بين أسلوب علاجها عن طريق قلب الشفه ويشق على كل عقدة ثم يملئ الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ويتمضمض المريض بالخل(٥٤) .

٢- تعرض للقشور العالقة بأسطح الأسنان بألوانها المختلفة الصفراء والسوداء والخضراء(٥٥) . ووضح مدى خطورة تلك القشور على الأسنان وما قد تسببه من تقيح . وأكد على ضرورة جردها جيداً ، وربما يحتاج المريض إلى أكثر من جلسة لتنظيفها تماماً ، وبين أن الضرس يحتاج فى جرده إلى مجارد كبيرة ومتنوعة وأتى بأربعة عشره مجرد تصلح لهذا الغرض(٥٦) .

٣- فيما يتعلق ببط الأورام وشقها يقول(إن أنواعها كثيرة وهى تختلف فى بطها من وجهين أحدهما نوع الورم والثانى مكان الورم لأن الورم الحادث فى المقعد والورم الحادث فى المفصل لكل منهما حكم فى العمل) (٥٧) . ثم يشير إلى أنه من الأورام مالا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج التقيح فيها وكماله . ومنها ما ينبغى أن يبط وهى نيه لم تنضج على التمام ، ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعد لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعد فيصير ناصوراً(٥٨) .

٤- وفى علاج أورام الحنجرة يقول أن الأطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الحنجرة وأمروا بترك الجرح مفتوحاً حتى تنقضى سوره المرض ، وتكون سورته ثلاثة أيام ونحوها وحينئذاً أمروا بخياطة الجرح حتى يبرأ(٥٩) .

٥- فى الفصل السادس والأربعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من صور الآلات المستخدمة فى الشق والبط(٦٠) . وفى هذا الباب تتجسد مكانه الزهراوى كأعظم من أرخ للطب الجراحى التطبيقى(٦١).

٦- يعتبر الزهراوى من أفضل من وصف علاج السرطان ، ففى الفصل الثالث والخمسين ينصح الأطباء باستئصال الورم السرطانى متى كان فى موضع يمكن استئصاله ، وضرب المثل لذلك بسرطان الثدى أو الفخذ ، كما حذر من استئصال الورم السرطانى متى كان عظيماً ويشير إلى تجربته الشخصية فى ذلك بقوله (فإنى ما استطعت أن أبرئ أحداً منه ، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكناً) وبعد ذلك يشرح إذا دعت الضرورة القصوى لاستئصال الورم العظيم بقوله :

« ثم تلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يتبقى شيئاً من أصوله. فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكوى العروق حتى ينقطع الدم»(٦٢) .

٧- وفى ختان الصبيان يشير الزهراوى إلى طريقة جديدة من ابتكاره يسميها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) وقد عدَّد مزايا هذه الطريقة وتناولها بالشرح(٦٣) .

٨- يعتبر الزهراوى من أفضل من كتب فى كيفية استخراج الحصاة حيث فرق بين حصاه الكلية والمثانة ونصح بالشق فقط على حصاه المثانة أو قناة مجرى البول(٦٤) . وقد سمى جراحه حصاه المثانة بالشق على (العجان) المسمى فى الطب الحديث Perineal Urethero Tomy(٦٥) وقد حذر من أن يكون القطع كبيراً حتى لا يحدث سلس البول ، وأشار إلى انه فى حالة إذا ما كانت

الحصوه كبيرة فإنه يجب تكسيرها بـالكلاليب وإخراجها قطعاً ، ويعد هذا أول وصف فى الجراحة لعملية تفتيت الحصوه المعروفة الآن فى الطب الحديث باسم Litholapay(٦٦) .

٩- فى الفصل السابع والستين أمدنا الزهراوى بمعلومات هامة عن علاج الفتق الذى فى الأربية(٦٧) وهو ما يسمى الآن باسم الفتق « الأربى المباشر» Direct Inguinal Hernia(٦٨) . وفى هذا النوع من الفتق لا يستأصل الزهراوى كيس الفتق بل يكتفى بدفعه إلى الداخل بواسطة المرود ثم يخيط القطعة الضعيفة التى برز منها كيس الفتق من خلال جدار البطن ، وهذه أول محاولة فى تاريخ الجراحة لعمل الرتق الجراحى للفتق الأربىHernial Repair(٦٩) .

١٠- فى الفصل السابع والسبعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من الصور التى تستخدم فى إخراج الجنين(٧٠) وبين نوعيه المواد المستخدمة فى صناعتها . حيث نصح بأن تكون من الأبنوس أو من خشب البقس(٧١)

١١- فى الفصل الثمانين يصف الزهراوى كيفية علاج النواصير التى تحدث فى الأسفل ، وقد أجاد فى بيان الفرق بين الناصور النافذ وغير النافذ إلى المستقيم(٧٢) . ويقر المتخصصون بأن وصف الزهراوى لعمليه الشق على الناصور غير النافذ يتفق مع ما يمارسونها فى هذه العملية حتى الآن(٧٣) . وقد أمدنا الزهراوى فى هذا الفصل بصور لبعض الآلات المستخدمة فى قطع الناصور مثل المسبار المثقوب الطرف كـإبره الأسكاف أو المبضع الشوكى(٧٤).

١٢- فى الفصل الثالث والثمانين أمدنا الزهراوى بصور لبعض الآلات التى تستعمل فى الحقن ، ونصح بأن تكون مصنوعه من فضه أو صينى أو نحاس مفروغ أو مضروب ، وفرق بين حقن الكبار وحقن الصغار(٧٥) .

بقوله « وقد تصنع من هذه الآلات صغاراً وكباراً على حسب المستعملين لها فيكون التى تستعمل فى علاج الصبيان الصغار صغار والذين مقعدهم ضيقه أو متوجعة يكون محاقنهم لطاف جداً »(٧٦) .

١٣- فى الفصل الرابع والثمانين يتحدث الزهراوى عن الجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف أو السكين أو بطعنه رمح أو سهم أو نتيجة لصكه حجر ، وقد وضع الزهراوى لهذا الفصل عنواناً مختصراً هو علاج الجراحات(٧٧) . وتناول فيه بالتفصيل كيفيه علاج جروح الرأس والصدر وما بين الكتفين . وفى علاج الرأس مثلاً فرّق بين الجروح البسيطة بالرأس التى تعالج بوضع قطنه مغموسة في دهن الورد على مكان الجرح . أما إذا كان الجرح كبيراً من قطع سيف أو نحوه ولم يجتمع شفتاه بالرفائد بأجمعها بالخياطة(٧٨) .

١٤- يتناول الزهراوى فى الفصل السادس والثمانين علاج الزكام والناصور(٧٩)، وأهم ما فى هذا الفصل صور الآلات التى كان يستعملها فى إزالة العظام المريضة مثل المناشير بأحجامها المختلفة ما بين كبيره وصغيره ، وكذلك المجارد بأشكالها المتباينة من مجارد مستقيمة ومجوفة ومعطوفة الطرف(٨٠) .

١٥- فى الفصلين التسعون والواحد والتسعون زودنا الزهراوى بصور واضحة عن كيفيه قطع الدوالى وعلاجها . حيث عرف فى الفصل التسعين الدوالى على أنها « عروق ملتوية غلاظ ، مملوءة فضولاً سوداوية تحدث فى أكثر أعضاء الجسم ، وأكثر حدوثها فى الساقين ولا سيما سوق الشيوخ والاكارين والحمالين »(٨١) . ثم يصف بعد ذلك عملية سل العروق التى تبدأ بحلق شعر المريض إذا كان فيه شعر ، ثم توضع فى حمام ساخن حتى يسخن العضو ويشق الجلد قبالة العرق بالطول ويشد الجلد بالصنابير ويسلخ العرق من كل جهة حتى يظهر للحس ، ثم يدخل تحته مروداً حتى إذا أرتفع وخرج من

الجلد علق بصناره عمياء ملساء(٨٢) . ويختم هذا الوصف المطول لعملية سل العروق بقوله « فإذا سللته كله تضع على مواضع الجراحات صوفاً مغموساً فى شراب ودهن ورد أو زيت »(٨٣) .

أما الباب الثالث والأخير من مقالة الزهراوى فقد أفرده لجبر الكسور والفك الحادثين فى العظام ويبدأ هذا الباب بمقدمه يشير فيها إلى أن فن جبر الكسور كان من الفنون المعروفة فى بلده ، وأنه أعتمد فى ممارسته لهذا الفن على إطلاعه الواسع فى كتب الأوائل وحرص على فهمها ، ويشير إلى أن ما ذكره فى هذا الباب هو نتاج خبرته وتجربته الخاصة .

وينقسم هذا الباب إلى خمس وثلاثين فصلاً . تناول فى جملتها وصفاً تفصلياً لكل أنواع الكسور وأعراضها وطرق علاجها وأساليب لف الكسور حسب حجم الكسر صغيراً أو كبيراً ، وطريقة وضع العضو المكسور داخل اللفائف وصور لتلك اللفائف(٨٤) .

ونظراً لأن فصول هذا الباب كلها تتناول موضوع واحد وهو الكسور التى تصيب مختلف أعضاء الجسم مثل كسور الضلوع والظهر والذراع والفك والساقين وعظام القدم (الرجل) والأصابع(٨٥) . لذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأنه من خلال إطلاعنا على تلك الفصول نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان بأنها لا تختلف عن فصول البابين السابقين من حيث وضوح التفكير وسلامة ودقة التعبير مما يعطينا فكره عن مدى إحاطة الزهراوى بهذا الفرع من فروع الطب ، ومدى ما وصلت إليه الكتابة العلمية فى بلاد الأندلس والتى كانت بمثابة الأسس القوية التى قامت عليها أصول الطب الحديث فى كثير من الأفكار والأصول التى قدمها الزهراوى للطب الجراحى ما زالت متبعة ومعترف بها حتى الآن ، ويكفى دليلاً

على ذلك أن كثيرًا من الآلات الجراحية التى استخدامها الزهراوى وزودنا بمجموعة رائعة منها لحسن الحظ ما زال منها ما يستعمل حتى الآن رغم اختلاف الوسائل منذ تلك القرون الطويلة .

وآخر ما نسجله من ملاحظات على مقالة الزهراوى أن كل ما كتبه فيها أتسم بالأمانة العلمية المطلقة فنراه ينسب فى كثير من المواضع كل معلومة إلى صاحبها .

٢ - جراحون آخرون من الأندلس :

بخلاف الزهراوى نبغ فى علم الجراحة فى الأندلس عدد من الجراحين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(أ) ابن ملوكه النصرانى :

كان فى أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وقد أورد كل من ابن جلجل ، وابن أبى أصيبعه ما يفيد بأنه كان يصنع بيده (أى جراحًا) وكان يفصد العروق ، ويبدو أنه كان يعالج الناس فى ذاره حيث كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لجلوس الناس(٨٦) .

(ب) خالد بن يزيد :

كان معاصرًا لقسطاس بن جريح المصرى الذى كان فى دولة الإخشيد (٣٢١هـ - ٣٣٤هـ) (٩٣٣م - ٩٤٥م) . وقد أورد ابن جلجل فى ترجمته ما يفيد بأنه كان جراحًا (صانعًا بيده) . إلى جانب أنه أمتاز بخبرته فى الأدوية الشجارية(٨٧) .

(جـ) يحيى بن إسحاق :

كان معاصرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعنه يقول ابن جلجل (كان طبيبًا نبيلاً عالمًا حاذقًا بيده وكان فى صدر دولة الناصر وأستوزره وولى الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زمانًا وكان له من أمير المؤمنين الناصر كبير محل ينزل منزله الثقة)(٨٨) .

(د) أبو موسى بن هارون الأشبونى :

كان معاصرًا لكل من الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم وكان خادمًا بيده (أى جراحًا)(٨٩) .

ثالثًا : فن صناعة أدوات الجراحة الأندلسية :

لا شك أن صناعة أدوات الجراحة فى الأندلس كانت من الصناعات القديمة المعروفة بها قبل العصر الإسلامى . بدليل وجود نماذج لها من العصرين الرومانى والقوطى فى متحف مدريد الوطنى . وقد واصلت صناعة أدوات الجراحة نشاطها فى الأندلس فى العصر الإسلامى حيث وصلنا منها أحد عشر آلة أو نموذج مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر . وتكشف لنا تلك النماذج مدى التنوع فى أساليب تشكيلها الأمر الذى يوضح تباين استخداماتها حيث تراوحت أشكالها ما بين آلات فى شكل ملاعق أو شكل صنابير أو مباضع أو ابر أو مثاقب ويمكن تقسيم آلات الجراحة الأندلسية التى وصلت إلينا بحسب مكان العثور عليها إلى مجموعتين .

١ - مجموعة متحف قرطبة الأثرى :

يمثل هذه المجموعة تسع آلات تمتاز بتنوع أشكالها بحيث يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط أو طرز فنية فى صناعتها وهى :

(أ) الطراز الأول : (آلات فى شكل ملاعق) لوحة (٢) أ ، ب ، جـ ، لوحة ٣ - أ :

يمتاز هذا الطراز من حيث الشكل ببدنه المكون من قضيب أسطوانى المقطع مدبب من أسفل على هيئة سن القلم . وينتهى من أعلى بحلقه دائرية ذات فراغ مقعر يشبه تجاويف الملاعق . وينصف بدن القضيب أو ساق الآلة مقبض يختلف فى شكله من آلة إلى أخرى فأحيانا نجده فى شكل مستطيل مقطوع الزوايا محزوز

فى أقسام مضلعة مدقوقة وأحيانًا أخرى نجده عبارة عن خطوط دائرية محـزوزة موزعة فى تراكب رأسى . كما يختلف طول المقبض باختلاف طول السـاق أو بدن الآلة فكلما زاد طول القضيب زاد طول المقبـض وتتفـق جميـع آلات هـذا الطراز فى خلوها من آيه حليات زخرفيه حيث بـدا سـطحها الخـارجى أملس مصقول باستثناء الجزء العلوى الواقع أسفل الرأس الملعقية حيـث زوده الصـانع بخطوط محزوزه أفقية موزعه فى تراكب مما أضفى شيئًا من الجمال النسبى على الآلة .

وهكـذا تتوافـق تشـكيلات آلات هـذا الطـراز فـى الصياغـة والتنسيق مـع وظيفتها العلمية فى كحت الأورام والخراريج وفـى جراحـه بعـض أمـراض النسـاء والتوليد(٩٠) .

(ب) الطراز الثانى : (آلات فى شكل قضبان صناريه) (لوحة ٣ ب):

يمثل هذا الطراز آلة واحدة فقط . ويمتاز البـدن فـى هـذا الطراز باسـتطالته ويتشكل من لوح عريض أصم ينتهى من أسفل بسن مدبب ومـن أعلـى تبدو فيـه آثار كسر يتجه ناحية اليسار الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الآلة كانت مـزوده برأس منكسرة يمينًا أو يسارًا فى شكل خطاف أو صناره . ويتخلـل البـدن مقبـض مستطيل المقطع محزوز البدن يشبه مقابض آلات الطراز الأول وأن اختلف عنها فى إنه أكثر استطالة . ويخلو البدن من آيه زخارف .

أما عن استخدام هذه الآلة فمن المرجح بأنها كـانت تستخدم فـى جراحـه الفـم والأسـنان لا سيما قطع اللحـم الزائـد فـى اللثة . وفـى سـحب الأوعيـة والأعصاب والأوتار التى تصل العضل بالعظم أو فى ثقب القصبـة الهوائيـة لتثبيـت الغضروف الحلقى(٩١) .

(جـ) الطراز الثالث : قضبان مثقابيه (لوحه ٣ - جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة ورغم الاتفاق فى تشكيل هذه الآلة مع الآلة السابقة إلا أن بدنها وكذلك مقبضها أقل طولاً . كما أن طرفيها مدببان تدبيبًا خفيفًا . وأغلب الظن أن هذه الآلة كانت تستخدم كمثقب أو ميرد لإزالة العظام المريضة(٩٢) .

(د) الطراز الرابع : آلات على شكل مبضع أو مشرط (لوحة ٤ أ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة تختلف شكلاً ونظامًا عن الآلات السابقة حيث يتشكل بدن الآلة من صفيحه عريضة ذات مقطع مستطيل أحد طرفيه منحنى فى شكل ربع دائرى . أما الطرف المقابل فعبارة عن مقبض عُنى بتشكيله فى صورة جديدة قوامها بدن أسطوانى ملفوف تجاوز فى أتساعه ساق الآلة بحيث يعكس المبالغة فى تغليظ مقابض آلات هذا الطراز مع العناية بتقسيم بدن المقبض إلى ثلاث حشوات مستطيلة بواسطة خطوط أفقية محفورة على مستويين مما ساعد على بروز تلك الحشوات بشكل واضح . وأغلب الظن أن هذا النوع من آلات الجراحة كان يستخدم كمبضع أو مشرط لشق الأورام أو شق الجلد فوق الشرايين(٩٣) .

(هـ) الطراز الخامس : آلات على شكل عتله (لوحة ٤ ب) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مستطيلة المقطع تنتهى من أعلى برأس مستديرة مثقوبة الوسط حافتها الخارجية تفتقر إلى التشذيب ويستوقف النظر فى هذا الطراز من الآلات ما يلى :

١ - أن ساق الآلة يخلو من المقابض المركزية المستطيلة المقطع التى أقترن ظهورها بمثل هذه الهيئة فى معظم الآلات السابقة حيث استعاض عنها الصانع هنا بحلقه دائرية مثقوبة الوسط فى أحد طرفى ساق الآلة .

٢ - شدة المبالغة فى استطالة ساق الآلة بحيث يصل طوله إلى ذارعين وعرضه أربع أصابع ويستدل من هيئة هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن عتلـه تستخدم فى استعدال وفرد العظام المكسورة(٩٤) .

(و) الطراز السادس : آلات مسمارية الشكل (لوحة ٤ جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مصنوعة من سلك صلـب يصعب طيه أو ثنيه مما يتيح المتانة والثبات عند استخدامه ينتهى من أسفل بسن مستدق شديد التدبب ومن أعلى بمقبض عبارة عن رأس مستديرة مصمتة مخروطيـة المقطع . ويستدل من شكل هذه الآلـة على أنهـا كـانت عبـارة عـن آلـة لثقـب العظم(٩٥) .

٢ - مجموعة متحف مدريد الوطنى (لوحة ٥ - ٦) :

عثر على هذه المجموعة من الآلات الجراحية فى أماكن متفرقة مـن أسبانيا . وللأسف أن معظمها قد وصل إلينا فى حالة سيئة من الحفظ باستثناء آلتـين يعـدان من بين أهم نماذج هذه المجموعة. وهما عبارة عن آلات مسمارية الشكل تستخدم كمجسات أو مسابر للكشف عن النواصير كما تصلح لتفتيش الأورام والجراحات.

وجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه واضح فى الشكل بين هاتين الآلتين إلا أن هناك اختلاف فى التفاصيل يتمثل فى أن مقبض الآلـة الأولى لا يتوسـط ساقها ويمتاز بتكوينه المقعر حيث يتألف من عشر حشوات مستطيلة ملسـاء يفصـل بينهـا خطوط محفورة حفرًا عميقًا .

أما الآلة الثانية فالمقبض يتوسـط السـاق تقريبًا كمـا أنـه أقـل استطالة مـن السابق إذ يتألف من ثلاث حشوات فقط الأولى والثالثة فى شكل معين أما الثانيـة المركزية فتأخذ شكل مثمن الأضلاع . ويدور بالحشوات الثلاثة من أعلى وأسـفل خطين أفقيين .

رابعًا : أساليب صناعة وتشكيل آلات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها :

لم تختلف أساليب صناعة وتشكيل أدوات الجراحة عبر العصور المختلفة وإن اختلفت قدرتها على الأداء نتيجة لبعض التطورات التى تتفق مع سنه التطور التى سارت عليها الحضارات المختلفة .

وفى ضوء ما وصلنا من آلات الجراحة الأندلسية يتضح أنها قد صنعت إما من البرونز أو النحاس ونظرًا للارتباط الوثيق بين نوع المادة وأسلوب صناعتها فيمكن حصر أساليب صناعة أدوات الجراحة الأندلسية فى أسلوبين رئيسيين هما :

(أ) أسلوب الصب بطريقة الشمع أو الرمل المفقود الذى يعد أنسب الطرق فى تهيئة معدن البرونز(٩٦) .

(ب) أسلوب الدق أو الطرق ويعد هذا الأسلوب من أنسب الطرق التى تصلح لمادة النحاس(٩٧) .

أما عن أساليب تشكيل أدوات الجراحة الأندلسية ففى ضوء ما وصلنا منها يتضح أنه على الرغم من تنوع استخدامات تلك الأدوات إلا أنها فى مجملها تفتقر إلى التنوع فى أشكالها حيث اعتمدت فى تشكيلها على عنصرين رئيسيين هما الساق المطروقة أو المصبوبه والمقبض المحفور فى بدن الساق . ويتسم العنصر الأول وهو الساق فى العادة بشكله المستطيل أو شبه الدائرى أو السفودى المسمارى الشكل.

أما المقبض فقد تراوحت أشكاله ما بين حشوات مربعة أو مستطيلة أفقية موزعة فى تراكب رأسى(٩٨) أو حشوه واحدة مستطيلة تميزت باعتمادها على أسلوب واحد فى تشكيلها يقوم على تقسيمها إلى خطوط زجزاجية على شكل حرف V(٩٩) .

خامسًا : أساليب وعناصر زخرفة آلات الجراحة الأندلسية :

من أهم ما نسجله من ملاحظات على آلات الجراحة الأندلسية أنها تفتقر إلى الناحية الزخرفية بحيث يمثل ذلك اتجاه فنى سارت فيه زخارف أدوات الجراحة الأندلسية .

والواقع أن لهذا الاتجاه ما يبرره لأن هذه الأدوات تستخدم بكثره فى العمليات الجراحية وعلى هذا فليس من المنطقى استخدام أية زخارف فى تزيين مثل هذه الأدوات لأنها سوف تتعرض للطمس والتلوث .

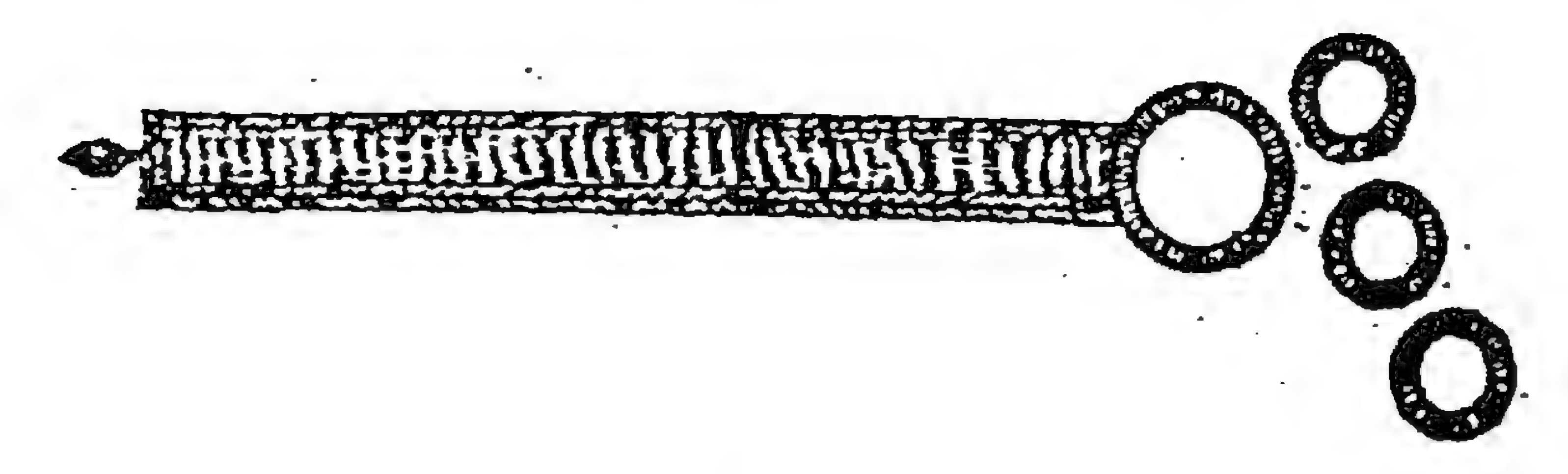
وهكذا يمكن القول بأن الصانع استبعد زينه أدوات الجراحة قسرًا لا طواعية .بمعنى أن أشكال الزخرفة فى تلك الأدوات تتحكم فيها مقتضيات الوظيفة لا الصنعة الفنية بحيث اقتصرت فى زخارفها على خطوط محزوزه ذات طابع هندسى تتألف فى مجموعها من أشرطة زخرفيه يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

(أ) **النوع الأول** : أشرطة تتكون من خطوط صغيرة مائلة ومتراكبة فى تدرج تقع أسفل رؤوس الآلات الملعقية(١٠٠) .

(ب) **النوع الثانى** : أشرطة مكونة من خطوط متداخلة ومترابطة بحيث يتولد من ترابطها شبكة من المعينات(١٠١) .

(جـ) **النوع الثالث** : ظهرت فيه الخطوط أكثر وضوحًا وأكبر حجمًا وتنوعت حركاتها فأصبحت زجزاجية متموجة تربطها من أسفل ألسنة أبدانها مشدودة وملساء على التناوب(١٠٢) على نحو يذكر بأشكال الصلبان المعقوفة(١٠٣) .

وقد تم تنفيذ كل هذه الزخارف بأنواعها المختلفة بأسلوب الحز على سطح المعدن بواسطة أداه نهايتها مدببة تعرف بالأزميل أو المثقب .

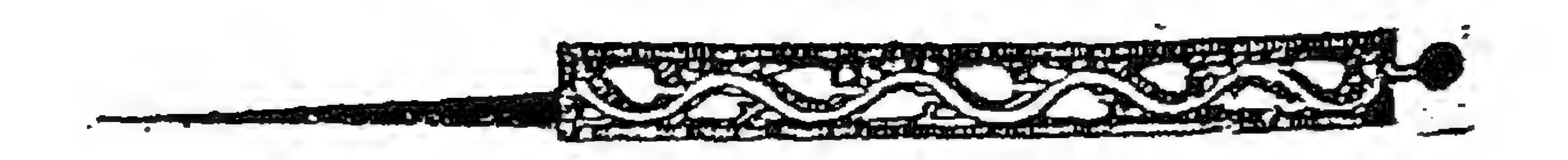


(أ)

(شكل – ١)

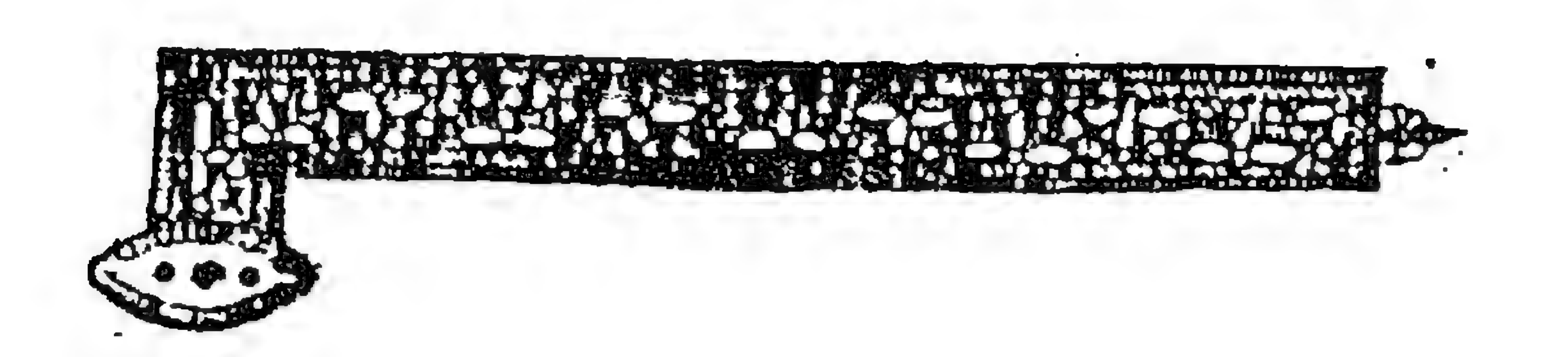
مكواة دائرية تستخدم فى كى الرطوبة التى قد تصيب المعدة

(عن الزهراوى)

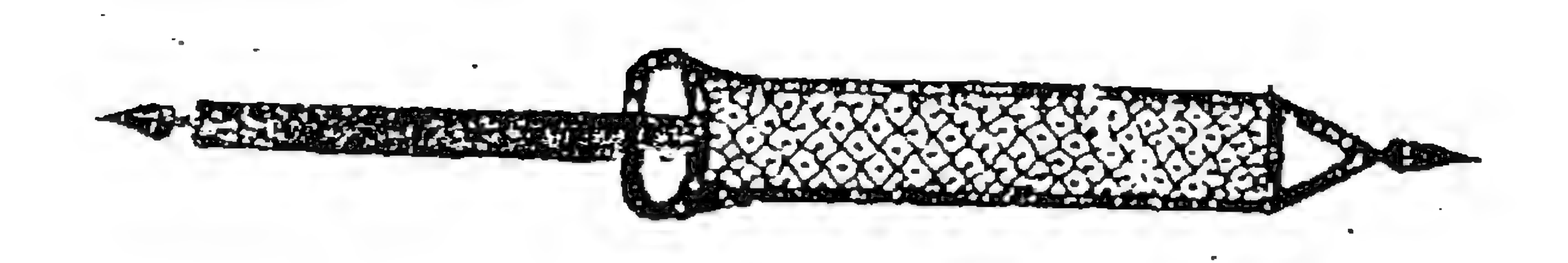


(شكل – أ – ب)

مكواة مسمارية (عن الزهراوى)



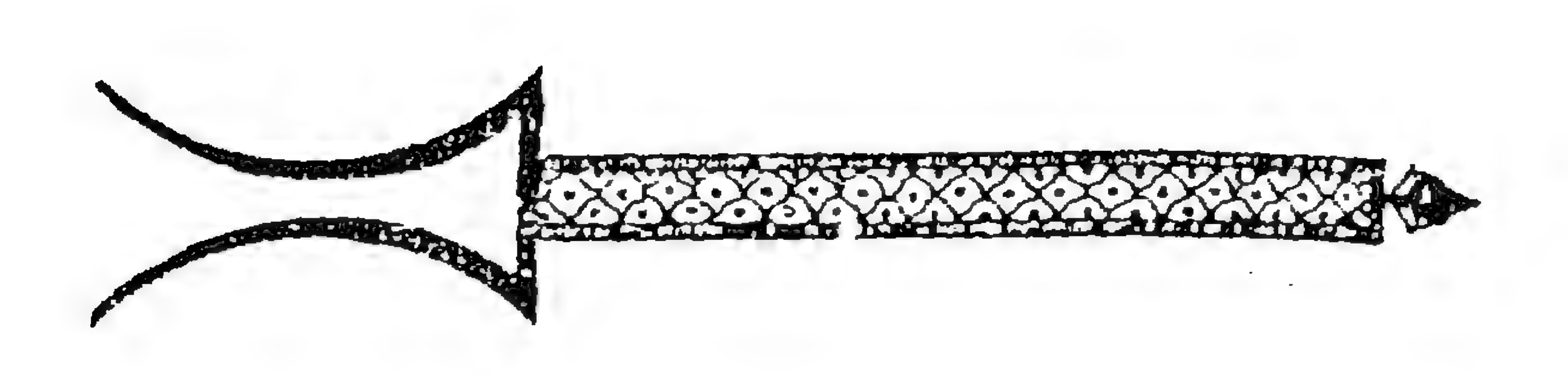
(شكل - ٢)



(شكل - ٣)

أشكال من المكاوى الخاصة بالكبد

(عن الزهراوى)



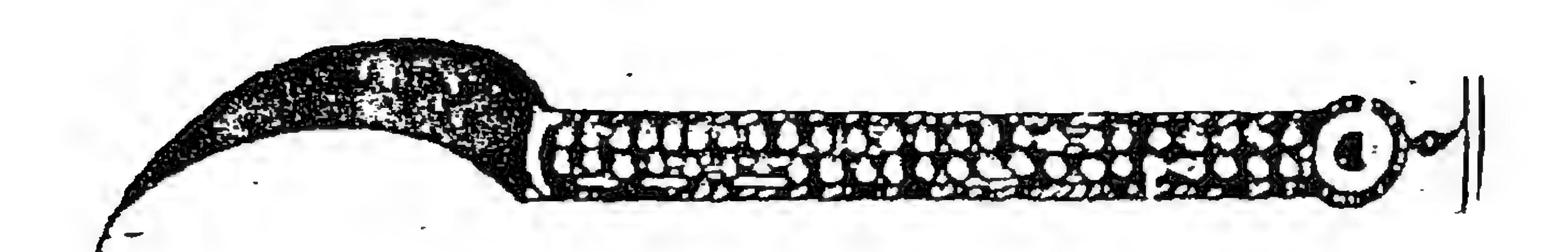
(شكل - ٤)



(شكل - ٥)

مكواة ذات سفودين وأخرى ذات ثلاث سفافيد خاصة بكى الطحال

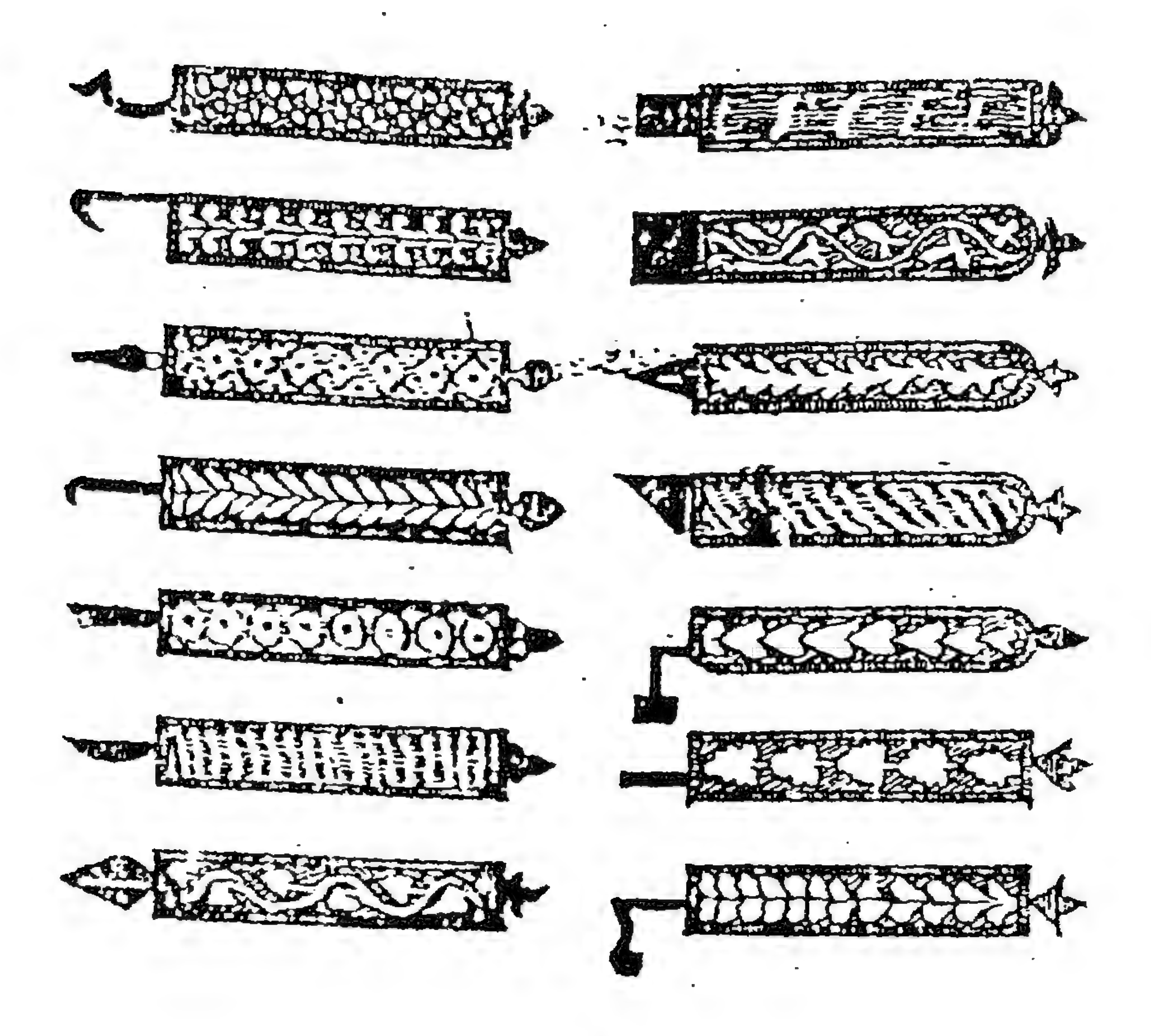
(عن الزهراوى)



(شكل - ٦)

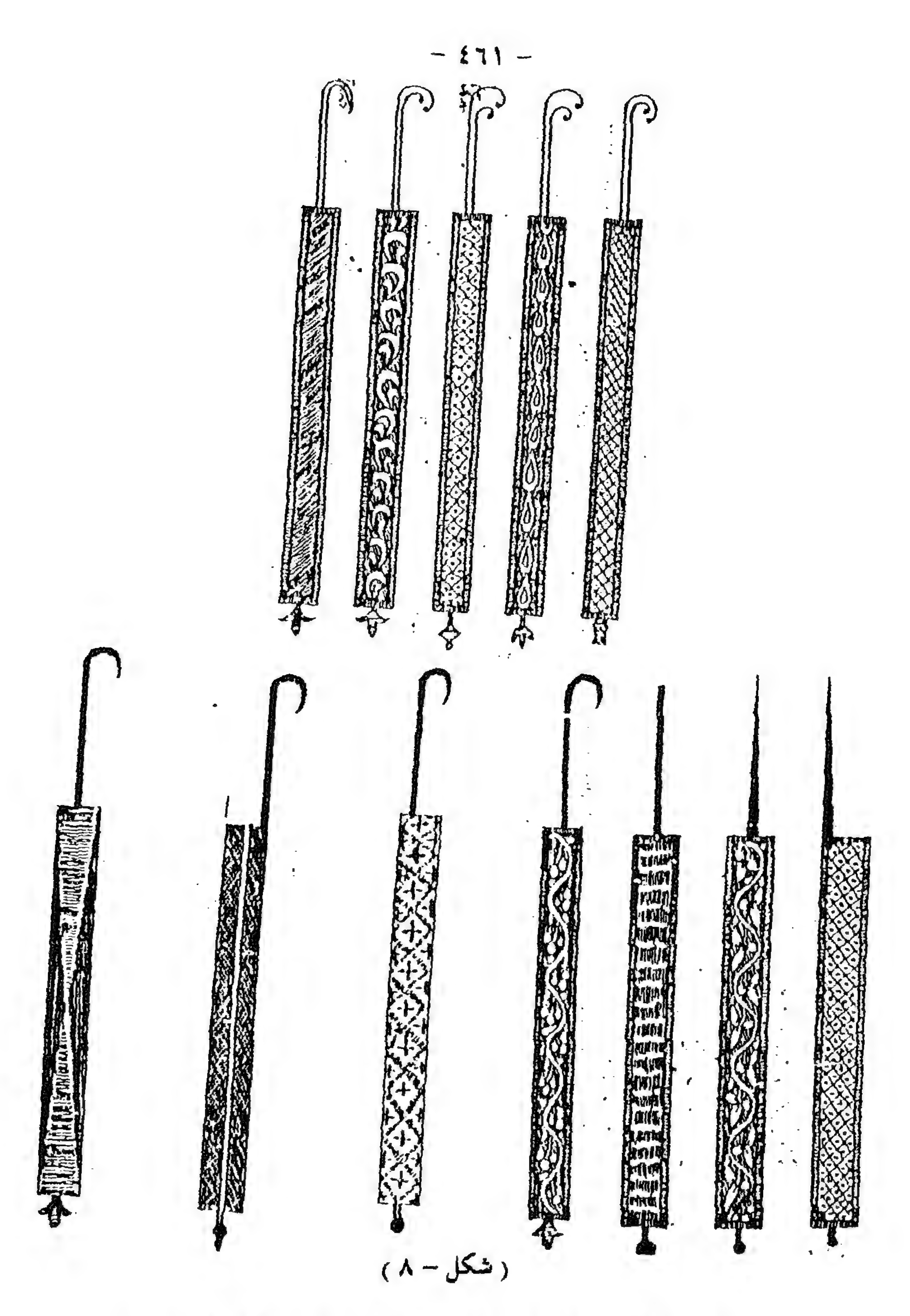
مكواة زيتونيه لكى النقرس وأوجاع المفاصل

(عن الزهراوى)



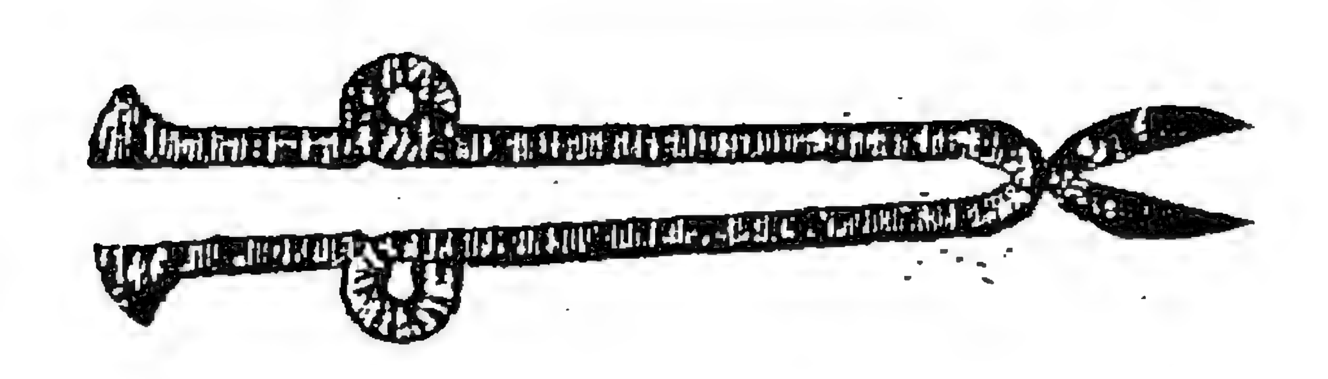
(شكل - ٧)

مجارد للأسنان والضروس (عن الزهراوى)

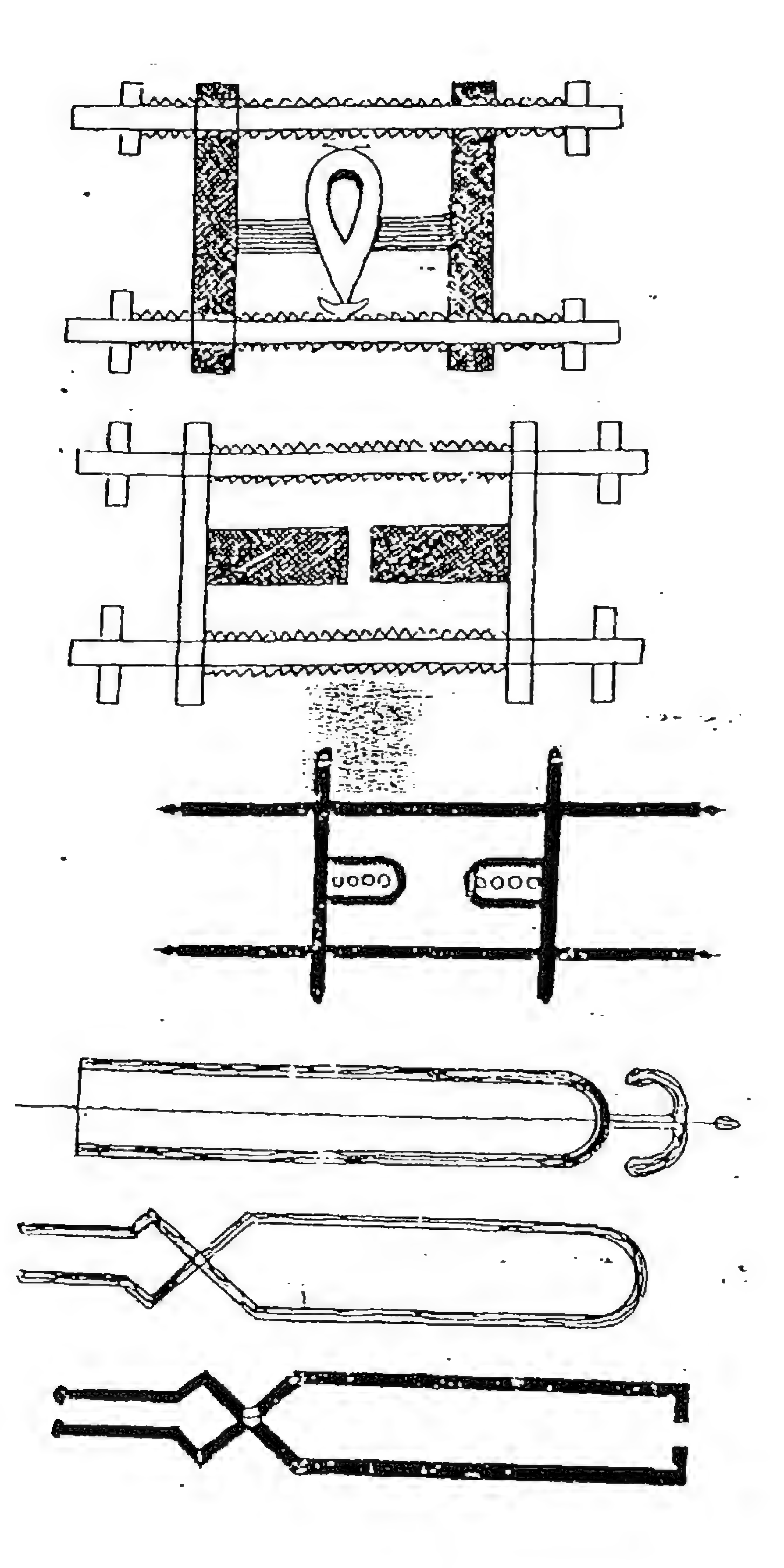


(شكل – ٨)

مجموعة من آلات الجراحة الصنارية الشكل التى تستخدم فى الشق والبط

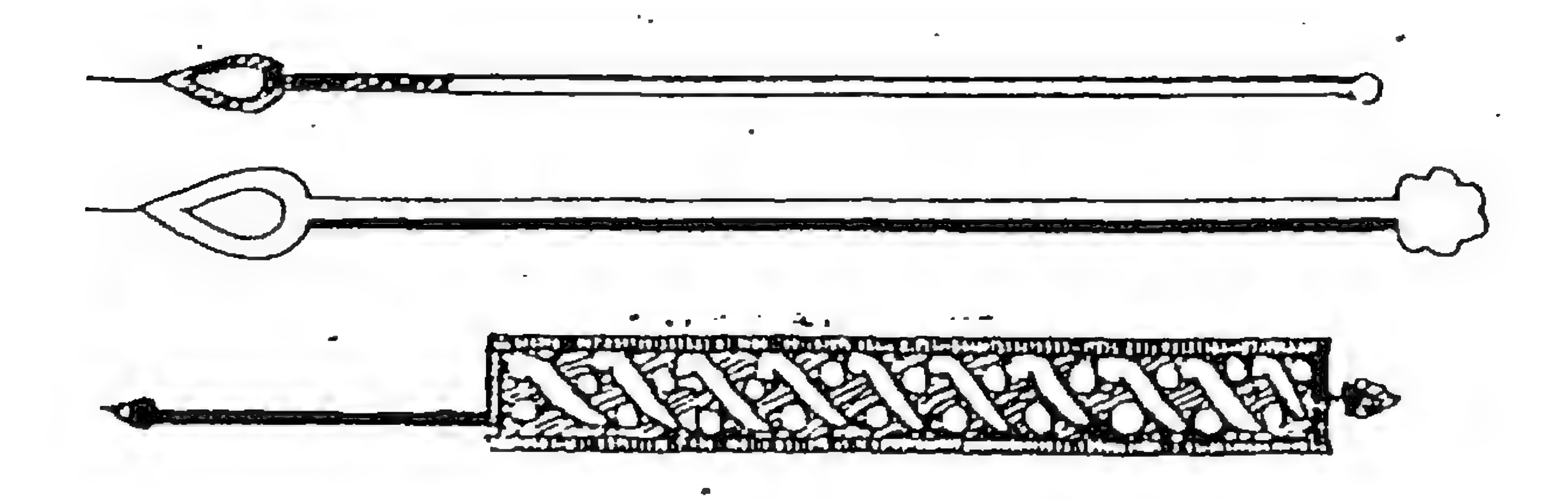


(شكل – ٩) مقص خاص بختان الذكور (عن الزهراوى)



(شكل - ١٠)

(شكل - ١٠) صور لآلات التوليد وإخراج الجنين (عن الزهراوى)

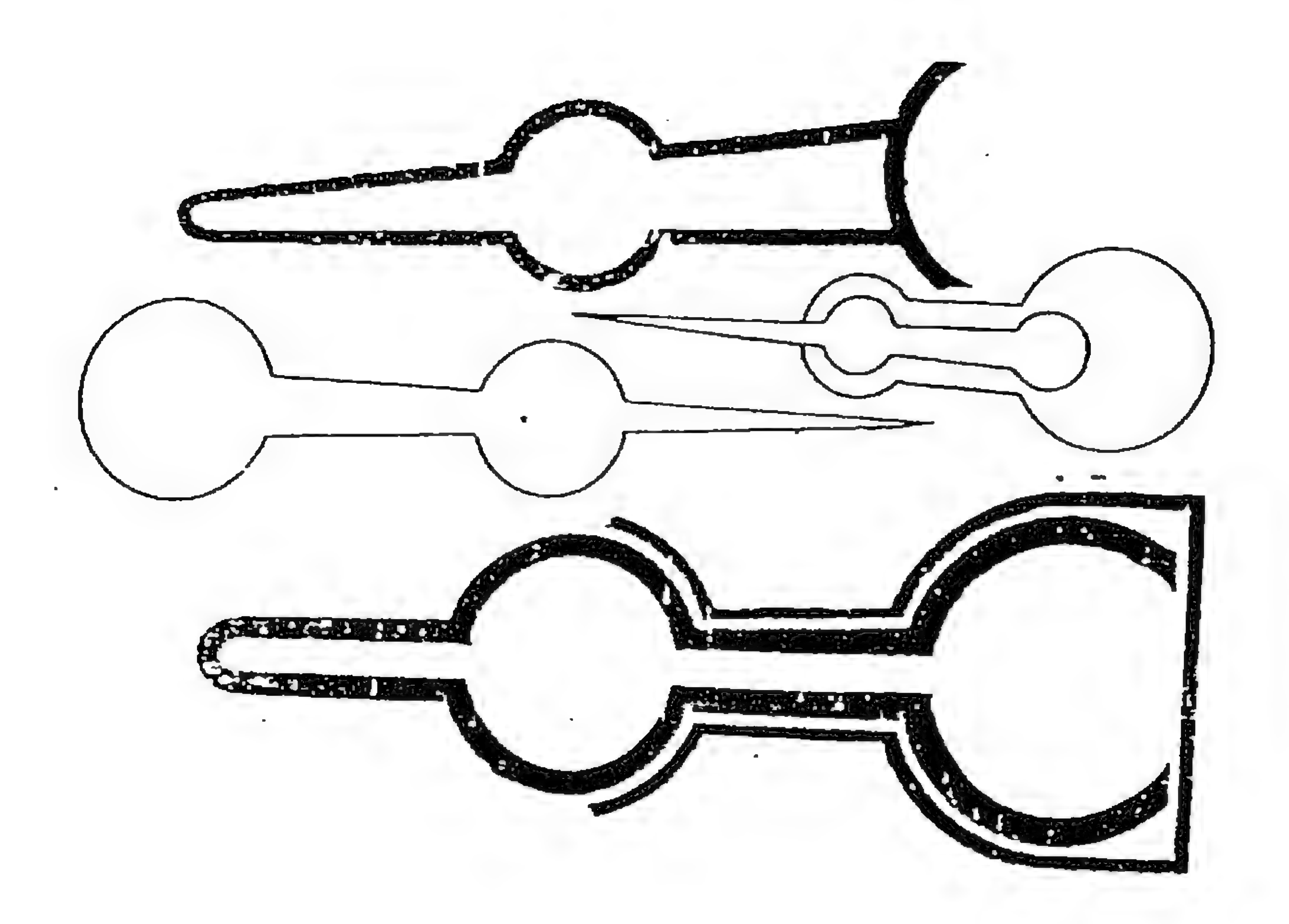




(شكل ١١)

صور للإبر والمباضع التى تستخدم فى علاج النواصير

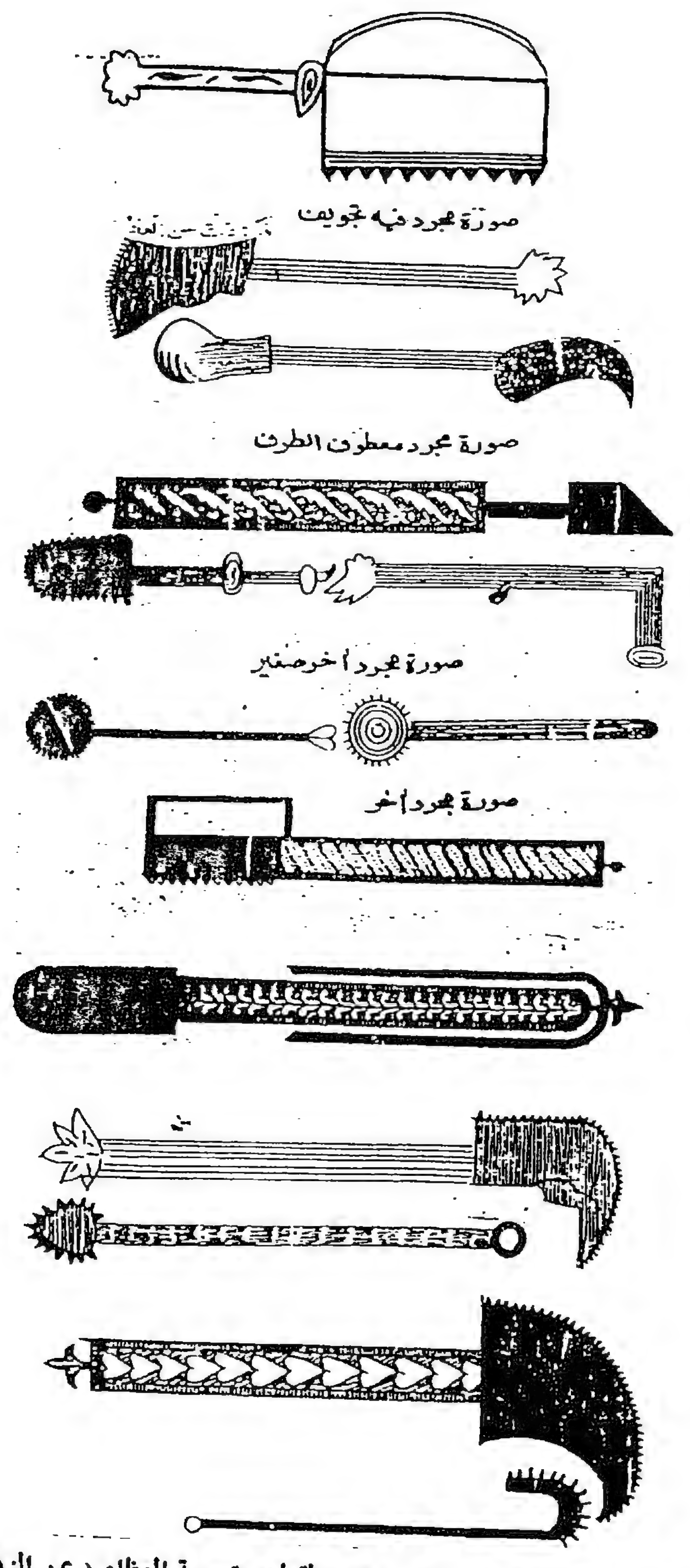
(عن الزهراوى)



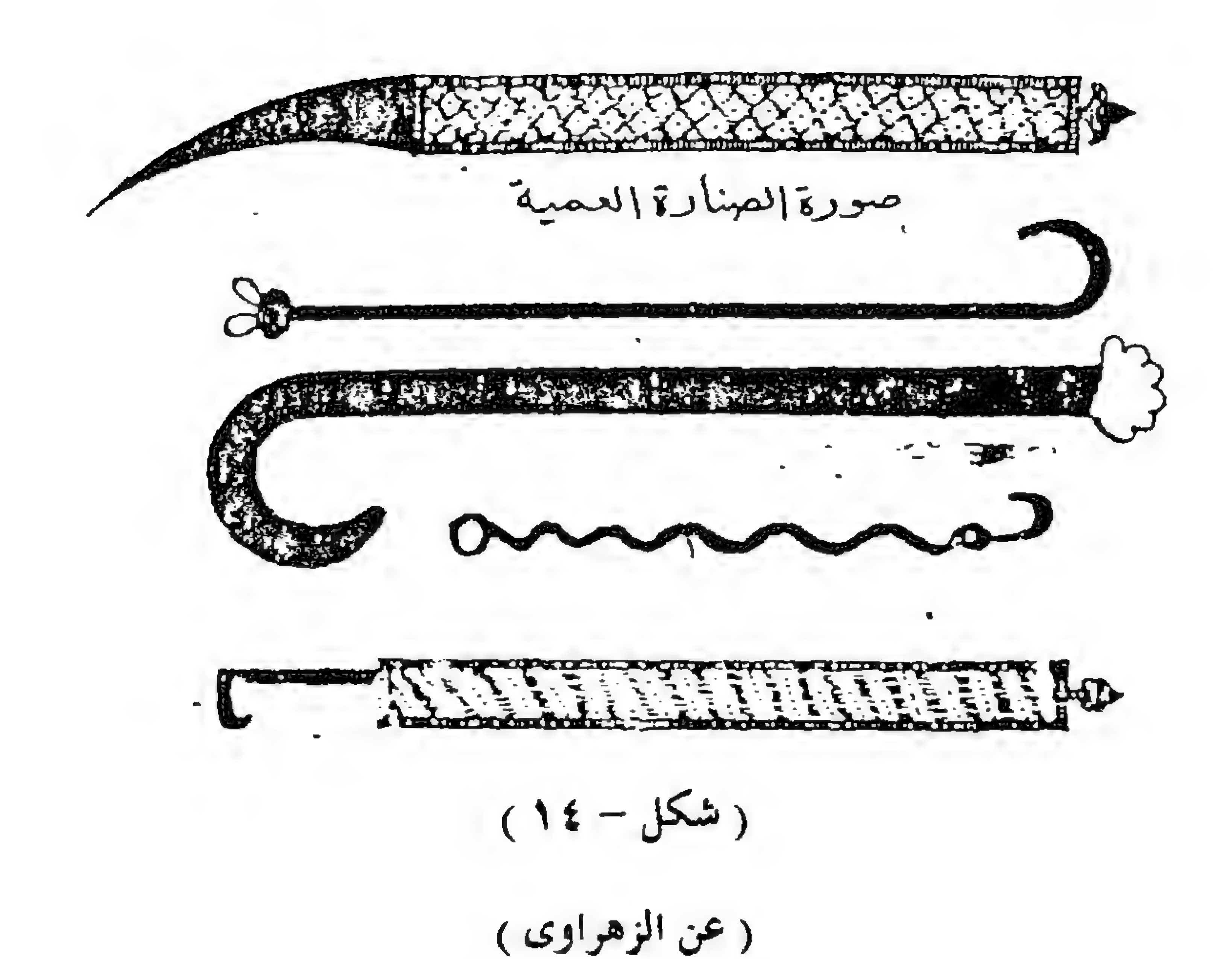
(شكل - ١٢)

صور مختلفة التى يستعملها الكبار والصغار

(عن الزهراوى)

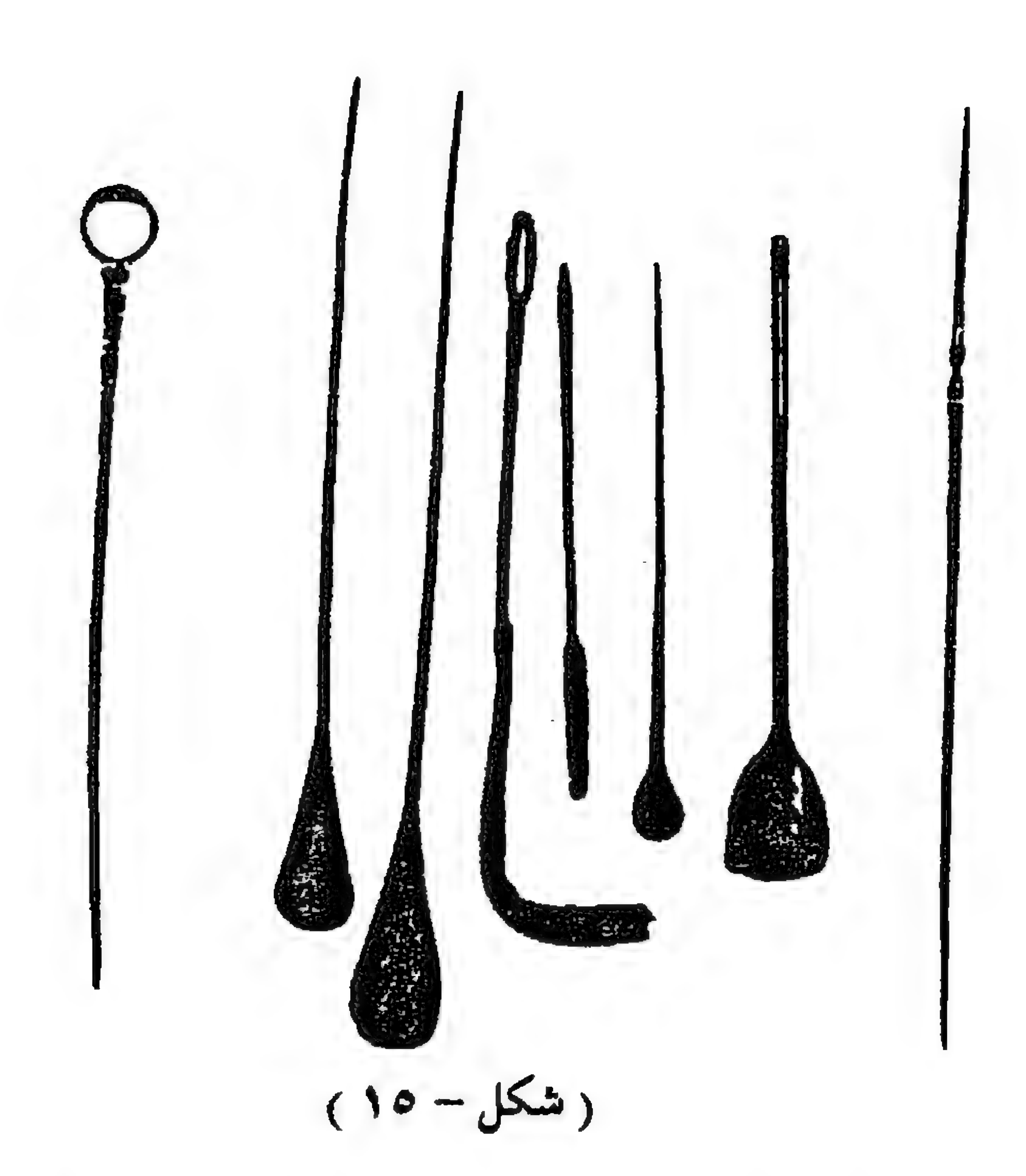


(شكل - ١٣) صور مناشير ومجارد لقطع وتسوية العظام (عن الزهراوى)



(شكل - ١٤)

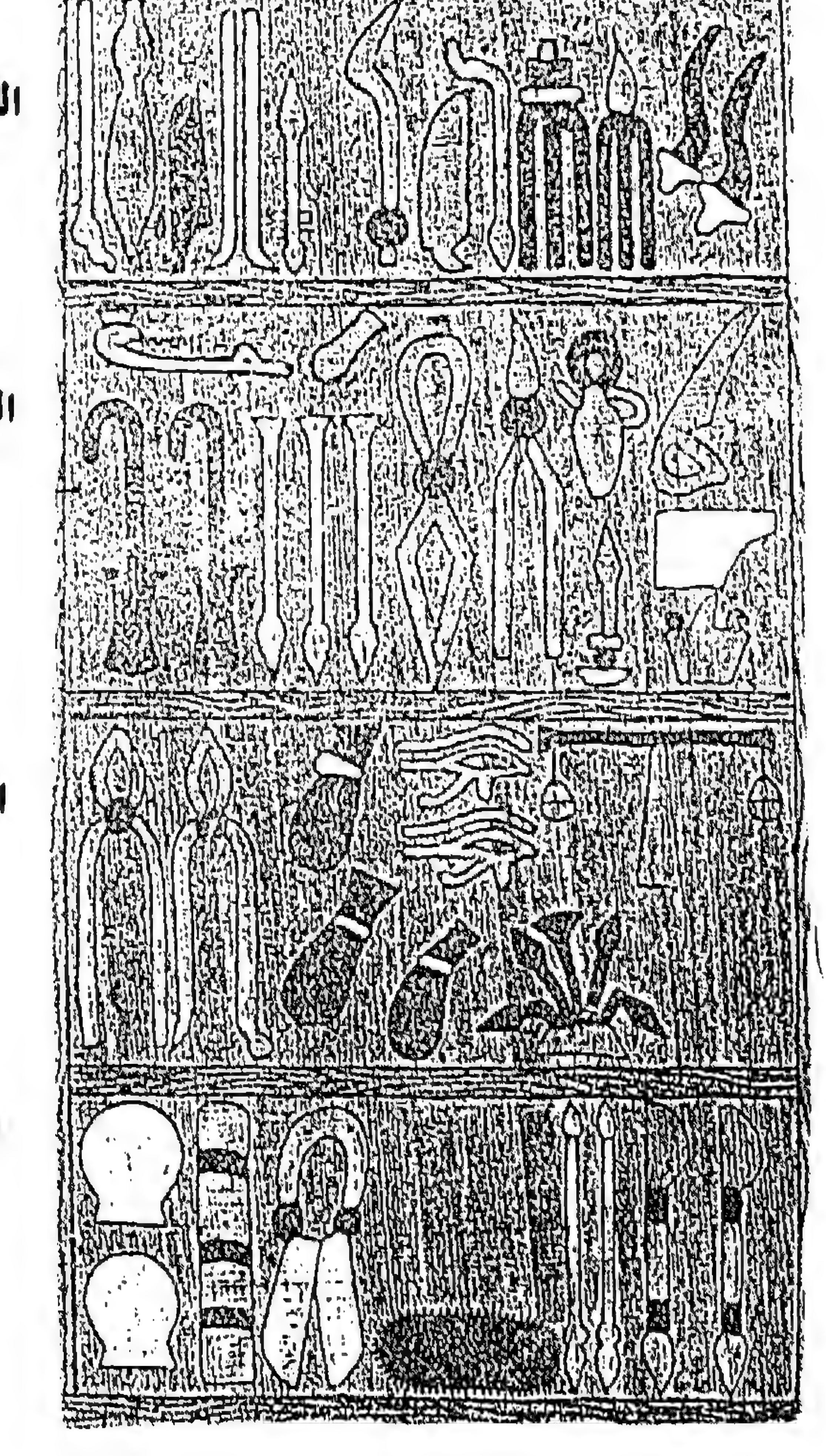
(عن الزهراوى)



(شكل – ١٥)

مجموعة من الملاعق المكحتية من العصرين اليونانى والرومانى
محفوظة بمتحف كلية الآثار بالقاهرة (عن د. عنايات محمد)

(لوحة - ١) أدوات جراحة بمعبد كوم آمبو Carnelius, S. Medizin der Pharaonen



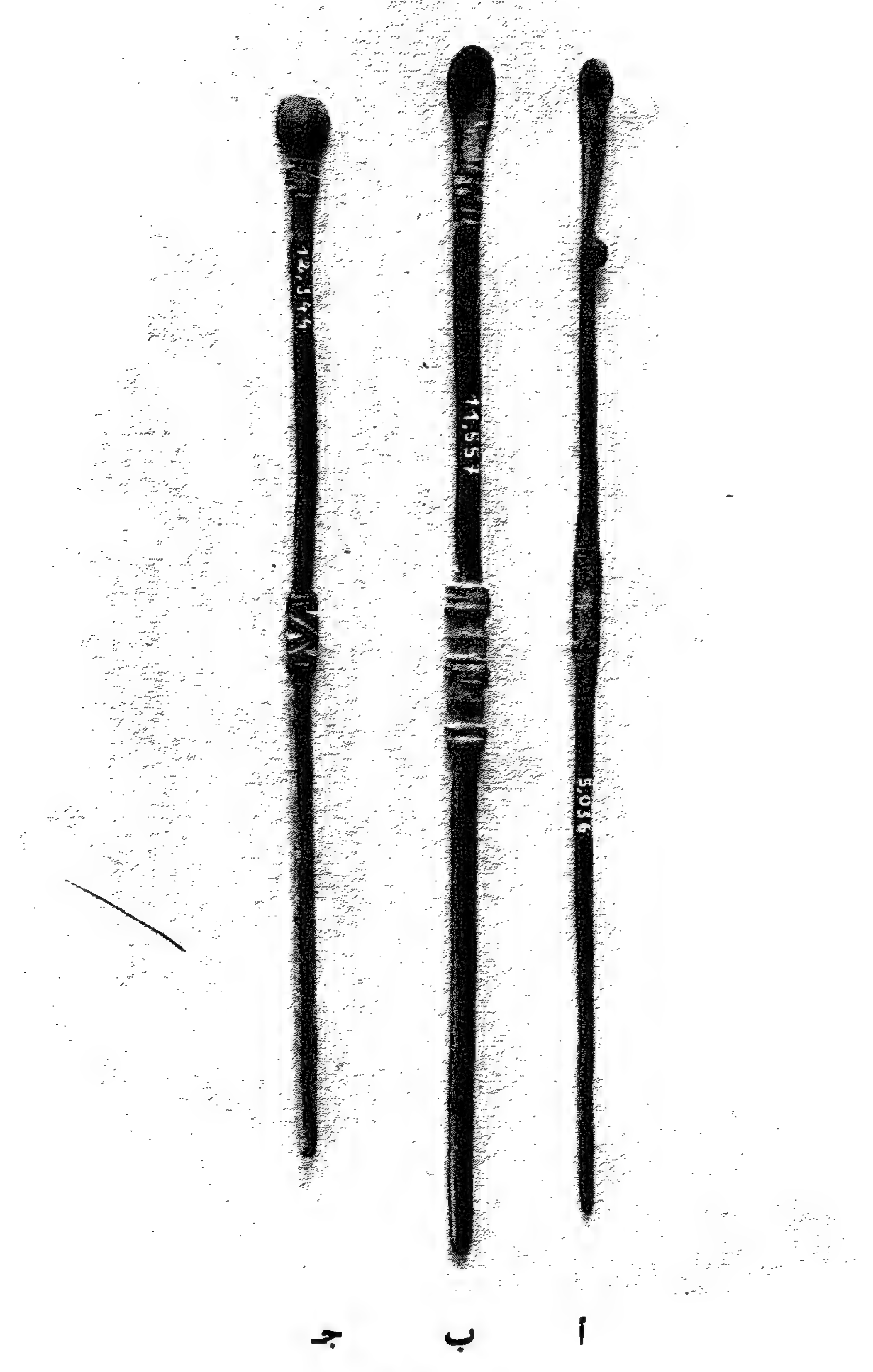
القسم الأول يضم : ١ - قسطرة مثانة . ٢ - تميمة . ٣ - مشرط .
٤ ، ٥ أبر طبية ٦ - ملعقة مكحتية ٧ ، ٩ - مثاقب نارية
٨ - منشار لنشر العظام ١٢ ، ١٣- قرون حيوانية .

القسم الثانى : ١ ، ٣ - ثلاث صنانير ٤ ، ٦ - ثلاث ملاعق مكحتيه
٧ - حافظة كتانية ٨ ، ٩ - ماسكات فوط (حفت)
١٠ - شعلة ١١- أناء
١٢ - منجره ١٣ ، ١٤ - أناء وسكين .

القسم الثالث : ١ ، ٢ - كلابتان ٣ ، ٤ - حافظتان
٥ ، ٦ - تميمتان ٧ - ميزان ٨ - علامة

القسم الرابع : ١ ، ٢ - أنائين ٣ - لفافة ٦ ، ٧ - ملاعق
٤ - حفت ٥ - أسفنجية ٨ ، ٩ - قنطرتان

(شرح د. عنايات محمد)

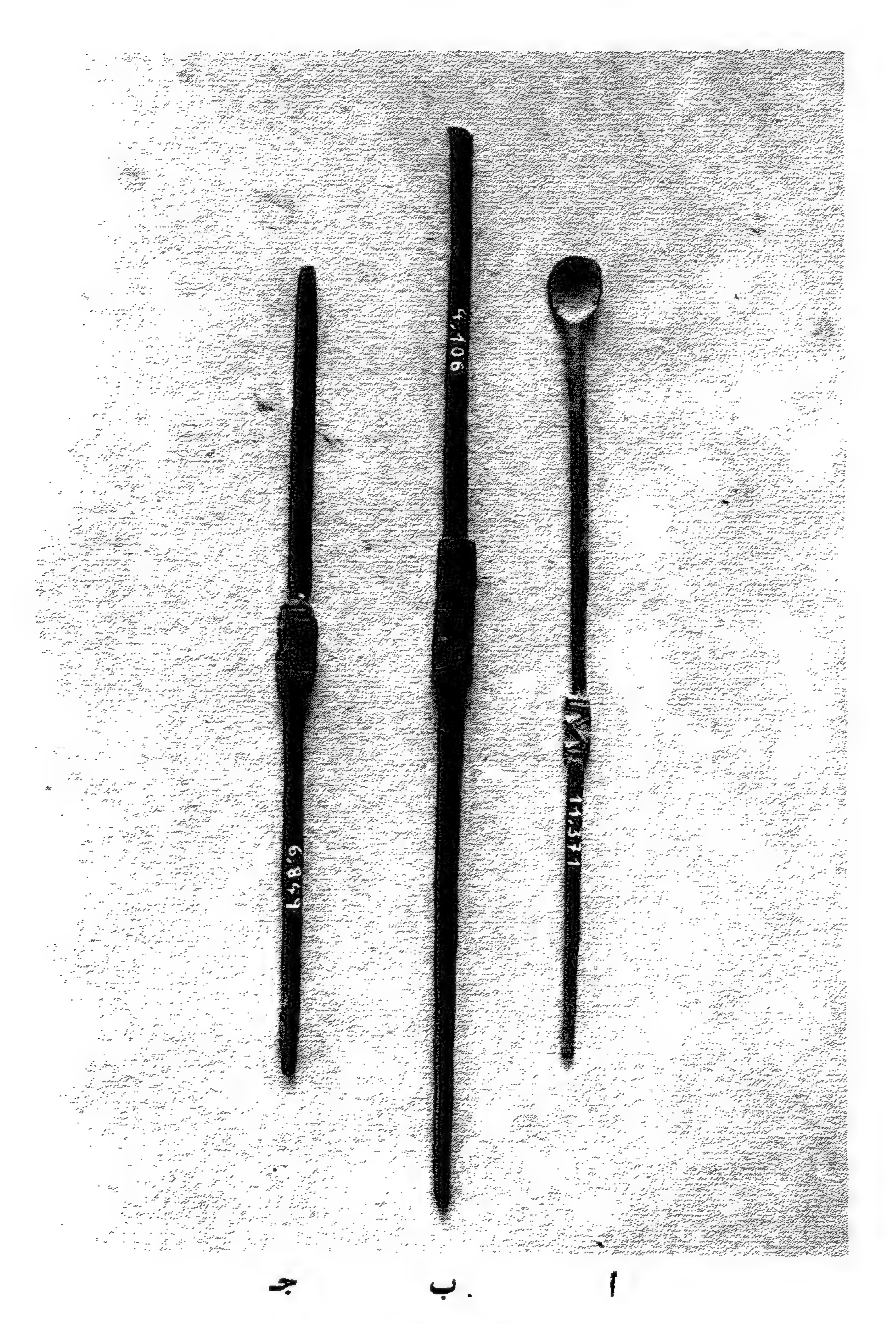


جـ　　　ب　　　أ

(لوحة – ٢)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)

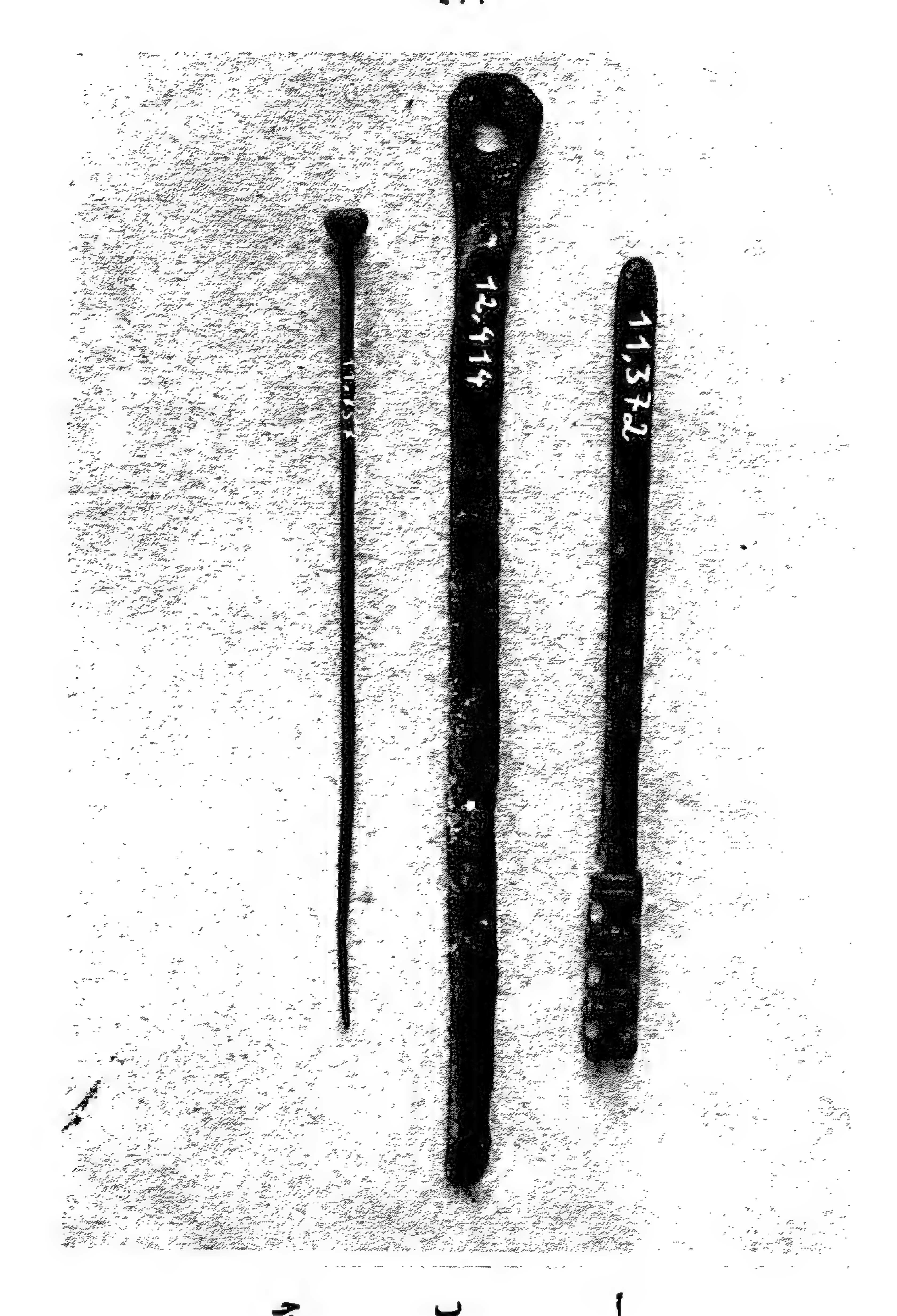


جـ ب أ

(لوحة – ٣)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)

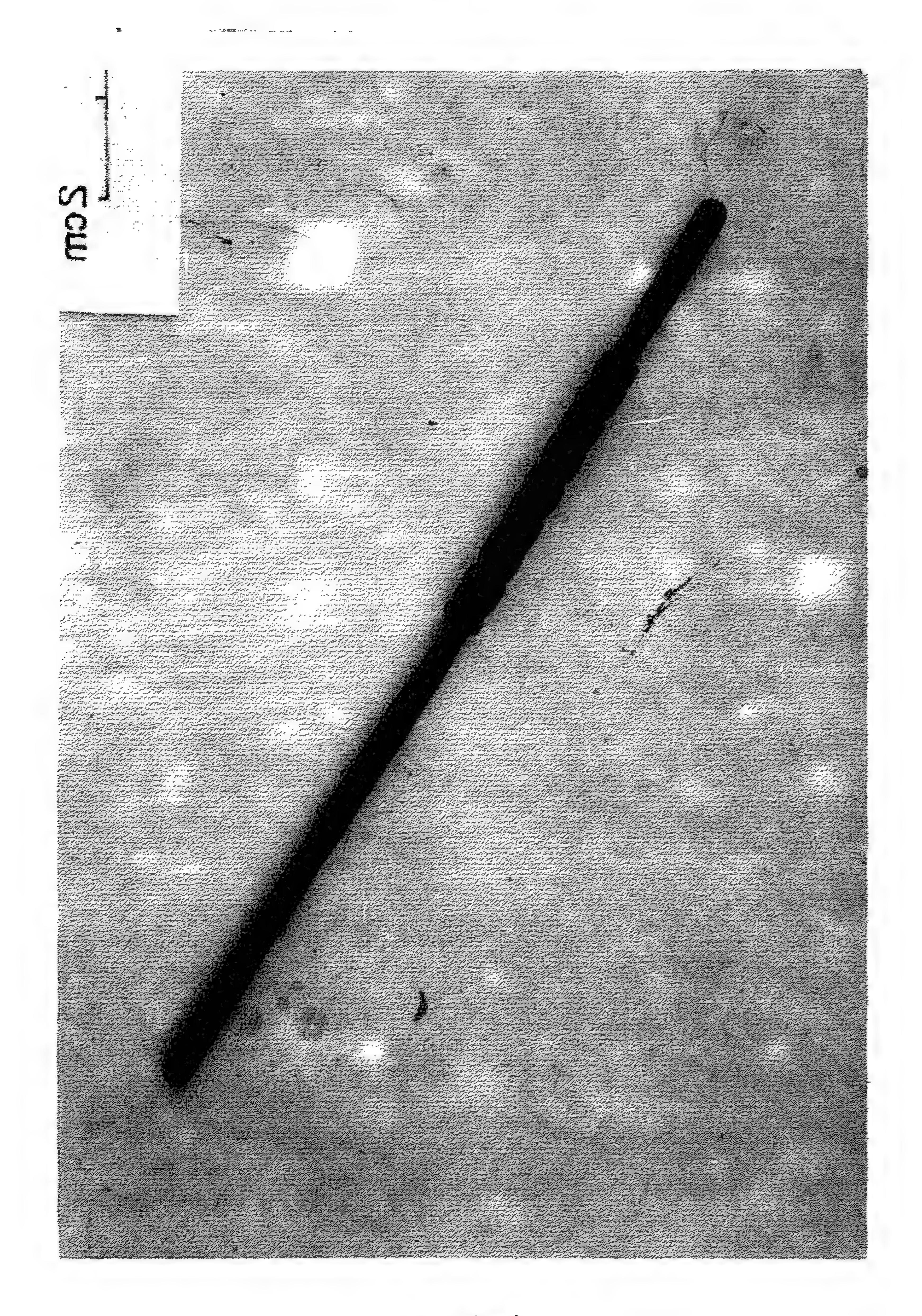


أ   ب   جـ

(لوحة – ٤)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

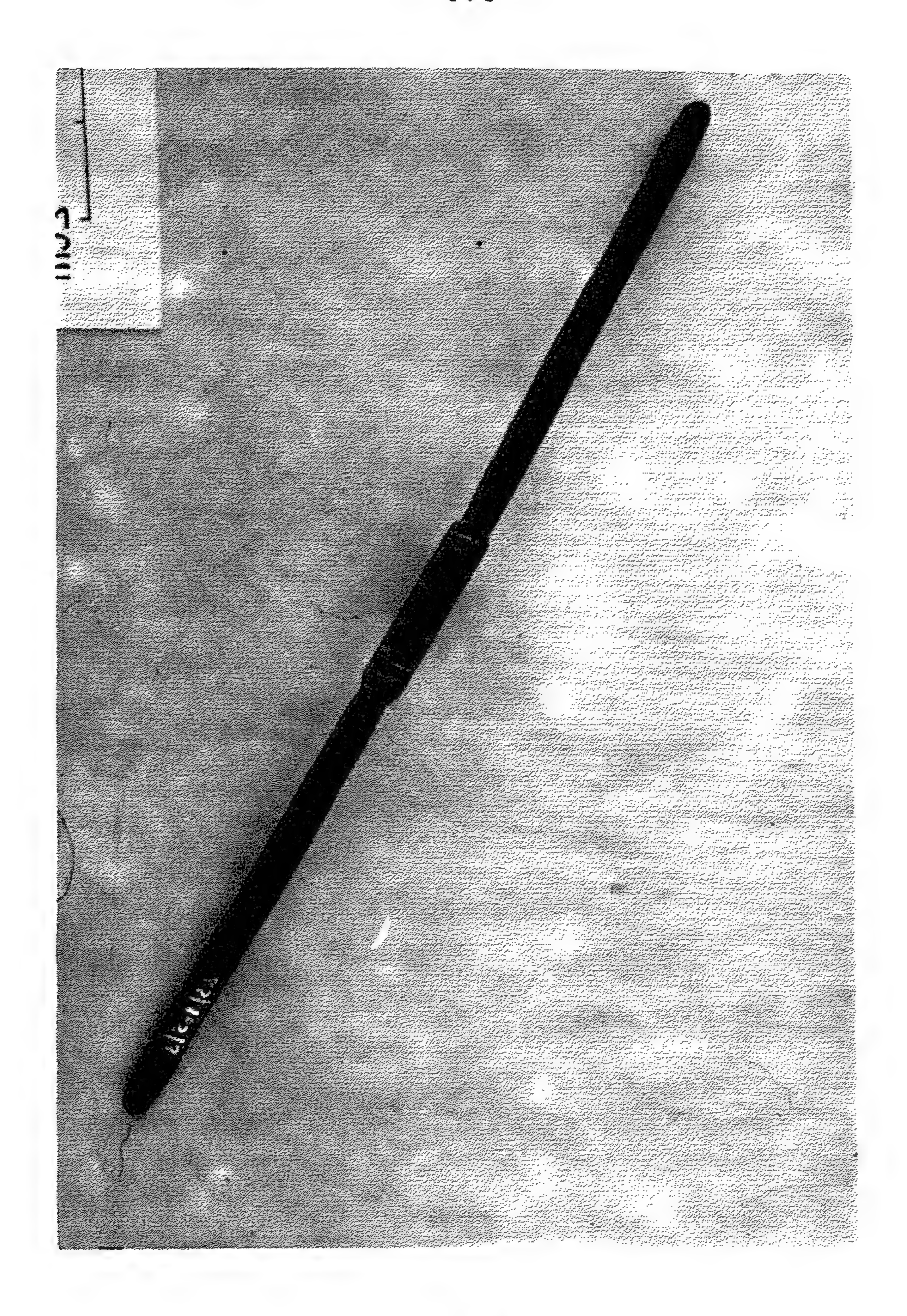
(نشر الباحثة)



(لوحة — ٥)

آلة جراحية محفوظة فى متحف مدريد الوطنى

(نشر الباحثة)



(لوحة – ٦)

آلة جراحية فى متحف مدريد الوطنى

. (نشر الباحثة)

الهوامـش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة - الطبعـة الرابعة - دار الهـلال - بـيروت. ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م - ص٤١٥ .

راجع : المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربيـة - الطبعـة الثالثـة - ١٩٨٥ - الجزء الثانى - ص٥٦٩ . ومن يقوم بحرفة الطب أو الطبابـة يعـرف باسـم الطبيـب جمـع أطبـه وأطباء - راجع - نفس المعجم - ص٥٦٩ .

(٢) كان العرب يبحثون عن العلاج لأمراضهـم التـى تصيبهـم بمـا يتوافـر لهـم فـى بيئتهـم مـن أعشاب ونباتات أو بطرق أخرى كالكى بالنار أو الحجامة ، وحينما جاء الرسول شـجع على التداوى والبحث عن العلاج .

راجع: ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تـاريخ - ج٣ - ص٦٣ ، وكذلك راجع عبد العزيز بن إبراهيم العمرى - الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة - ١٩٨٥ - ص ٢٤٢ .

(٣) أبقراط من مشاهير الطبقة الحكمية الرومية اليونانية ومسكنه (قو) وهى مدينـة حمـص مـن أرض الشامات ، وهو الذى تكلم فى الطب وألف فيه الأسفار والكتب ، وهـو صـاحب كتاب الفصـول ، وكتـاب تقـدم المعرفـة وكتـاب أفيزيميـا ، وكتـاب الأمـراض الحـادة ، وكتاب الجبر والخلع ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الاخلاط ، وغيرها كتب كثيرة، ولعله قد توفى فى عام ٣٥٧ ق. م. راجع

ابن جلجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القـاهرة - ١٩٥٥ - ص ١٦ ترجمة رقم ٦ .

(٤) من أهل مدينة برغمش ببلاد آسـيا شـرقى القسـطنطينية ، وهـو سـادس القيـاصره الذيـن ملكوا روما ، وبرع فى الطب وجميع العلوم الرياضية ، وحدد من علم أبقراط وشرح من

كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه ، وهو مفتاح الطب وله فيه ستة عشر(١٦) ديواناً منها كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأدوية المركبة وثالث فى العلل والأعراض ، وألف فى علم التشريح سبع عشرة مقاله - (المزيد من التفاصيل راجع ابن جلجل - نفس المصدر - ص٤١-٤٤) .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام. معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م - ص١٢٨ .

(٦) ورد فى تراجم طبقات الأطباء ما يفيد بأن من كان يمارس مهنة الجراحة فى الطب يسمى صانعاً بيده أو حاذقا بيده أو خادماً بيده راجع - ابن جلجل. طبقات الأطباء والحكماء - ص٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ص٩٧ ، ترجمة رقم ٣٩ ، ص٩٧ - ٩٨ ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص١٠٠ ، ترجمة رقم ٤٣ .

وكذلك راجع: ابن أبى أصيبعه (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. تحقيق د. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥ . ص٤٨٦ ، ص٤٨٨ ، ص٤٩٢. أما الطبيب فهو الذى يقوم بمهنة الطب. راجع ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلانى). فتح البارى بشرح صحيح البخارى. ٢٨جزءاً فى ١٤ مجلداً. مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ج٢١ - ص٢٤٨ .

(٧) الحجامة: الحجم هو المص ، يقال للحاجم (أحجام) لامتصاصه فم المحجم ، والمحجم والمحجمة بالكسر. ما يحجم به ، وهى الآلة التى يجمع فيها دم المحجوم عند المص ، والمحجم أيضاً مشرط الحجام وحرفته الحجامه .راجع الزبيدى (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ- ج٨ - ص٢٣٧ .

والحجامه كانت شائعه عند العرب وهى من ضروب العلاج والتداوى وتكون بإخراج الدم من الجسم بكميات معينة ، وفى مواضع معينه ، وأوقات محدده ، وليس أدل على أهميه الحجامة وتداولها فى بداية العصر الإسلامى من أن البخارى وضع فى صحيحه

أبواباً تتعلق بالحجامة وهى « باب الحجامة من الداء » و« باب الحجامة على الرأس » و« باب الحجامة من الشقيقة والصداع » .

راجع : ابن حجر - فتح البارى - ج٢١ - من ص٢٦٧ إلى ص٢٧٠ ، وكذلك عبد العزيز العمرى- الحرف والصناعات - ص ٢٥٢ .

(٨) لم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة للطب مقصوراً على العرب فقط ، بل وجد هذا الوضع أيضاً عند اليونان وقد جاء فى قسم أبقراط لممارسة مهنة الطب نص على العبارة التالية « وآلا استعمل المبضع ولو على يقين فى علاج المرضى بالحصيات وإنما أعالجهم بمقتضى ما يراه ذو الخبرة بمثل هذا العلاج » .

راجع : الجراحة عند العرب - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب - ج١ - أشترك فى تأليفه مجموعه من العلماء - من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - ص٩٧ .

ومن الأمثلة الواضحة أيضاً على عدم العناية بمهنه الجراح فى الطب حتى عهد قريب فى أوربا أن مدرسة مونبيليه الطبيبة الشهيرة فى فرنسا ألغت خلال القرن السابع عشر دراساتها الجراحية وأصدرت أمراً يحرم على تلاميذها دراسة الجراحة ومزاولتها.

راجع - نفس المرجع - ص ٢٤٦ .

(٩) لعل من دواعى الابتعاد عن الجراحة فى بداية العصر الإسلامى بالإضافة إلى كونها من الصناعات اليدوية أنها مهنة طبية شاقة يحتاج صاحبها لكثير من الدقة والمهارة لضمان أحسن النتائج ويفسر الزهراوى ذلك بقوله « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم إلى قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات » راجع.

(أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - المقالة الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف -ص٣ .)

ولعل هذا السبب يرتبط بما كان شائعاً قديماً عند اليونان حيث ذكر الزهراوى نقلاً عن أبقراط بأن « الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولاسيما فى صناعة اليد »

راجع - نفس المصدر - ص٢.

(١٠) عبد المنعم ماجد-تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى-القاهرة-١٩٧٣-ص٢٤٤.

(١١) على عكس القاعدة الشرعية التى تحرم تشريح جسم الإنسان نجد ابن رشد يجعل التشريح وسيلة من وسائل الإيمان با لله حيث عبر عن ذلك بقوله : « من اشتغل بعلم التشريح أزداد إيماناً با لله » راجع . ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص٥٣٢.

كما أن الزهراوى جعل من التشريح أساس علم الجراحة حيث أكد على ذلك بقوله : « وينبغى لصاحبها (أى مهنة الجراحة) أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهيأتها ومتدرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها » .

راجع الزهراوى - التصريف لمن عجز عن التأليف - المقالة الثلاثون - ص٢.

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام . ص١٣٠ ، وهذه الطريقة فى التعرف على الجسم البشرى عرفها المصريون القدماء حيث كانت الحيوانات المذبوحة تمثل مصدراً لمعرفة أجزاء الجسم البشرى والدليل ذلك على أنهم عبروا عن بعض أجزاء من الجسم البشرى بما يقابله فى الحيوان مثل الأسنان التى كان يعبر عنها بناب الفيل ، والأذن التى يعبر عنها بأذن ثور - راجع .

Ghalioungui, P.; Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlos of Royal mumies,London, 1980, P. 58 .

ويرجع اتجاه الطب الفرعونى إلى الذبائح من الحيوانات الثديه إلى تحريمهم لفكرة التشريح الآدمى وذلك لأن عقيدة البعث والخلود عندهم تستلزم ضرورة وجود الجسد وقت الوفاة فى حالة سليمة ولعل هذا ما عاق تقدم الطب الفرعونى الذى أحيط بسياج من الدين فقيد انطلاقته - راجع

Peck H . W ., Mummies of Ancient Egypt, Mummies disease and ancient cultures, New York, 1980, P. 12 .

(١٣) يرجع الفضل فى تطبيق علم التشريح على الآدميين لأول مرة فى تاريخ البشرية إلى مدينة الإسكندرية ومدرستها المعروفة (بدار الحكمة) والتى تبوت مركز الصدارة فى العلوم الطبيعية فى العصرين اليونانى والرومانى أى على مدى خمسة قرون (منذ

بداية القرن ٣ ق. م. وحتى نهاية القرن ٢م) وكانت دروس التشريح تتم عملياً فـى قاعات أعدها الملوك البطالمة خصيصاً لهذا الغرض وفيها مارس الأطباء وعلى رأسـهم « هيروفيلوس» فنون التشريح على جثث الموتى والأحياء من المجرمين المحكـوم عليهـم بالإعدام – راجع :

Aluguste couat Alexandria poetry under the first theree (324-222 B.C.) London, P. 77.

(14)Hurry Y. B; lmhotep the vizier and physicion of king zoser and of terwards the Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926, P.77.

(١٥) يدل على ذلك شرحهم الدقيق والصحيح فى التشريح ومخالفتهم لكثير من آراء السابقين من أطباء اليونان ، فقد ناقش ابن النفيس فى كتـاب (شرح تشـريح القـانون) تشـريح العظام والقلب والرئة ، ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدمويـة) وكثـير مـن مكونات الجسم مما يدل على ممارسته للتشريح ، وموفـق الديـن البغـدادى فـــى كتـاب (الإفادة والاعتبار) أول من أشار إلى مواطن الخطأ فى وصـف حـالينوس وقـد ذكـر أن الفك مكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة .

راجع : هنرى أمين عوض – الجراحة فى العصر الحديث الإسلامى . مجلة دراسات أثريـة إسلامية نشر هيئة الآثار المصرية – المجلد الثالث – القاهرة – ١٩٨٨ –ص٢٧٢ .

(١٦) من أشهر ناقلى كتب الطب اليونانى من العرب يوحنا بن ماسويه – راجع ابـن جلجـل – طبقات الأطباء – ص٦٥ترجمة رقم ٢٥، وحنين ابن اسحاق – نفس المصـدر – ص ٦٨ترجمة رقم ٢٤، قسطا بن لوقا البعلبكى – نفس المصدر ، ص ٧٦، ترجمة رقم ٢٧.

(١٧) هنرى عوض – المرجع السابق ص ٢٧٦،٢٧٥حيث الإشارة إلى مشاهير الأطباء الذيـن مارسوا الجراحة فى العصور الإسلامية المختلفة.

(١٨) أبو القاسم الزهراوى – التأليف لمن عجز عن التصريـف – ص٦،٥، ويجـدر بـالذكر أن القدماء المصريين عرفوا الكى وحذا حذوهم اليونان والرومـان وأن كـان استخدم الكـى عند القدماء المصريين قد أقتصر فقط على علاج بعض الأورام السرطانية ويؤكد ذلك مـا جاء فى برديتى آدوين سميث وايبرس الخاصة بالجراحة عن الفراعنة – راجع :

Breasted, Y. H, The edwin Smith surgical papyrus, 2Vols, Chicago 1930 , cases nos 7, 9, 10, 12, 30

Ebbell, B; The papyrus Ebers, copenhagen, 1937 وكذلك

وكذلك راجع وفاء احمد السيد بدار : الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة . دراسة تاريخية وحضارية . مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣-ص٨٤ .

(١٩) استخدام الخيط فى تضميد الجروح كان معروفاً منذ أقدم العصور حيث أستعمله المصريون القدماء ولكن على نطاق ضيق حيث كانوا يفضلون فى الغالب أسلوب آخر لتضميد الجروح يعتمد على ضم حافتى الجرح ووضع قطعة من اللحم الطازج عليها لوقف النزيف -

Petrie F; Tools and Weapons, London, 1917, P. 58 .

أما فى العصرين اليونانى والرومانى فقد أختلف الأمر تماماً حيث شاع استخدام الخيط فى تضميد الجروح ، والدليل على ذلك ما عثر عليه من أبر طبية محفوظة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار تحتفظ بآثار من تلك الخيوط التى يصعب التعرف على نوعها .

راجع : عنايات محمد أحمد - الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين -١٩٩٤ص٤٢٨.

ومن جانبى أرجح أن الخيط الذى كان يستخدم فى تضميد الجروح عند قدماء المصريين وكذلك اليونان والرومان كان من مادة الكتان نظراً لشيوع استخدام هذه المادة فى صناعة الحافظات المخصصة لحفظ الفتائل الكتانية التى كانت تستخدم للحشو بعد أن تشبع بالعقاقير ، بالإضافة إلى استخدامها فى صناعة الفوط الكتانية المعقمة التى كانت توضع على الجلد حول المنطقة التى سيجرى فيها العملية الجراحية ، ويستدل على ذلك وجود بعض أشكال هذه الأدوات على لوحة طبية بالجدار الغربى من معبد كوم أمبو فى أدفو - (لوحة رقم -١-القسم الثالث).

(٢٠) محمد مصطفى السمرى - التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - السنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢ - ص١٠٤.

(٢١) عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت بدون تاريخ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن جلجل - طبقات الأطباء - ٩٢.

(٢٣) نفس المصدر - ص٩٤، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص٤٨٦-ص٤٨٧.

(٢٤) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠-جزآن - الجزء الثانى -ص ٢١٢، عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة- ص٢٥٢.

(٢٥) كان من أشهر من رحل إلى المشرق لتلقى العلوم الطبية :

أ - أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحرانى حيث رحلا إلى المشرق فى دولة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقاما هناك عشرة أعوام ، ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئ كتب جالينوس عرضاً ، وخدما ابن وصيف فى علل العين ، وانصرفا إلى الأندلس فى دولة المستنصر با لله ، وذلك فى عام إحدى وخمسين وثلثمائه وألحقهما فى خدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء وأستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان فى ذلك الوقت من الأطباء . راجع

- ابن أبى أصيبعه - عيون الأنباء - ص٤٨٧.

(ب) أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى الذى سافر من الأندلس إلى الديار المصرية وأشتهر فى أيام الآمر بأحكام ا لله .

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص٤٩٩.

(حـ) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وهو من بلده دانيه من شرق الأندلس ، وكان من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب ، وقد رحل من الأندلس إلى مصر وأقام بها عدة سنوات ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس وكان رحيله إلى مصر فى حدود عام ٥١٠هـ/١١١٦م.

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص ٥٠١ -ص٥٠٢.

(٢٦) ابن جلجل – طبقات الأطباء ص٩٧ – ص٩٨حيث الإشارة إلى أنه فى عهد عبد الرحمن الناصر تتابعت الخبرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الأطباء المشهورين .

(٢٧) ابن أبى أصيبعة – المصدر السابق – ص٤٩٣ – ص٤٩٤حيث الإشارة إلى تفاصيل ما نقله عن ابن جلجل بشأن وصول الراهب البيزنطى نقولا إلى قرطبة بناء على طلب الخليفة عبد الرحمن الناصر ليساهم فى نقل مخطوطة ديسقوريدس الطبية إلى العربية والتى كان قد أهداها قسطنطين السابع أرمانيوس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م.

(٢٨) ابن أبى أصيبعة – عيون الأنباء – ص٤٩٢. وكذلك عبد العزيز سالم – قرطبة حاضرة الخلافة –جـ٢–ص٢١٤.

(٢٩) نفس المصدر –ص٤٩٢.

(٣٠) نفس المصدر –ص٤٩٦.

(٣١) نظرة العلماء والمؤرخين غير العرب للطب العربى – مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب –ج١–ص٢٤٩.

(٣٢) من مشاهير أطباء عصر الموحدين :

(أ) أبو جعفر بن هارون الترجالى : وقد خدم لأبى يعقوب والد المنصور .

راجع ابن أبى أصيبعة – المصدر السابق –ص٥٣٠.

(ب) أبو الوليد بن رشد : وقد ترك كتباً عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب جعلته من أشهر مفكرى العصور الوسطى ، ومن مؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير كتاب الكليات ، وتلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وكتاب الحميات .

راجع ابن أبى أصيبعة – نفس المصدر –ص٥٣٠–٥٣٣.

(جـ) أبو الحجاج يوسف بن موراطير ، وقد خدم بصناعة الطب المنصور أبا يوسف يعقوب ، ولما توفى المنصور خدم لولده الناصر ، ومن بعد الناصر خدم لولده أبى يعقوب يوسف المستنصر بن الناصر وكان حظياً عند المنصور .

راجع - ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص٥٣٣-٥٣٤.

(٣٣) راجع ابن حلجل - طبقات الأطباء - ص٩٤، ص١٠٤، ١١٠، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء ٤٧٩، ص٤٨١، ص٤٨٩، ص٤٩١، ٤٩٥، ص٤٩٧، ٤٩٩، ص٥٣٥ -حيث الإشارة إلى نماذج من هؤلاء الأطباء الذين مارسوا إلى جانب الطب أيضاً علوم أخرى .

(٣٤) راجع ابن حلجل - المصدر السابق -ص١٠٠، ص١٠٤، ص١١٢، وكذلك ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق -من ص٤٨٧، إلى ص٤٨٩، ص٤٩٢، ص٤٩٥، ص٤٩٦، ص٥٣٤، حيث الإشارة إلى بعض من الأطباء الذين تولوا مناصب في الدولة .

(٣٥) من بين هذه الأسر الطبية أسرة الحرانى ومن أشهر أبنائها أحمد وعمر ويونس بن أحمد راجع ابن حلجل - المصدر السابق ص١١٢، وابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ص٤٨٦-ص٤٨٧.

وأيضاً أسرة أسحق الطبيب ، وأسرة الكتانى ، وأسرة حسداى بن أسحق ، وأسرة ابن زهر ومن أشهر أبنائها أبو مروان ، وأبو العلا ، وأبو مروان بن أبو العلاء ، والحفيد أبو بكر ، وأبو محمد بن الحفيد .

راجع ابن أبى أصيبعة . المصدر السابق ص٤٨٨، ص٤٩١، ص٤٩٨، ص٤٩٩، ص٥١٧، - ٥٣٠.

(٣٦) تقاليد وآداب المهنة الطبية عند العرب . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب .جـ١. ص٢٣٦-ص٢٣٧.

(٣٧)ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ص٥٠١ حيث الإشارة إلى أنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج .

(٣٨) سالم - قرطبة حاضرة الخلافة . جـ٢،ص٢١٤، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية .ص٢٤٨.

(٣٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، وطبع باللاتينية بعنوان .

Liber Azaragui de cirurgia

كما نشر بالعربيـة واللاتينيـة فـى Oxford عـام ١٧٧٨م، ولـه ترجمـة فرنسـية علـى يـد Leclerc بعنوان . La chirurgi de, Abulcasis, Paris 1861

عبد المنعم ماجد . المرجع السابق ص٢٤٨، حاشية رقم ٣.

كما ترجم هذا الكتاب إلى العبرية ونال شهرة واسعة فى البـلاد المسيحية حيث كـانت شهرته فى الجراحة عظيمة حتى بين المحدثين ، وهكذا أنتشـر هـذا الكتـاب وجـذب إليـه الاهتمـام فـى الجراحـة أكثـر ممـا اجتذبتـه جراحـة الثلاثـة العـرب المشـهورين الـرازى . والمجوسى. وابن سينا.

مشاهير العرب فى الصيدلة . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطـب والصيدلـة عنـد العرب ، جـ٢. ص٤٠٨.

(٤٠) عبر الزهراوى عن مدى استيائه لما كانت عليـه الجراحـة حتـى زمانـه الامـر الـذى دفعـه لتقديم تلك المقالة الجراحية موضحاً منهجـه والجديـد الـذى سـوف تقدمـه المقالـة حيـث يقول: « العمل باليد مخسة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتـى كـاد أن يـدرس علمـه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيره فى كتب الأوائل قد صفحته الأيدى وواقعة الخطأ والتدنس حتى استغلت معانية وبعدت فائدته فرأيت أن أحيه واؤلف فيه هذه المقالة علـى طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور حديدة للكى وسائر الآلات للعمل بـاليد إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما نحتاج إليه »

الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . المقالة الثلاثون . ص٢.

(٤١) هنرى عوض . الجراحة فى العصر الإسلامى . ص٢٧٨.

(٤٢) المقالة المذكورة عبارة عن نسخة خطية نسخها أحد تلاميذ الزهراوى وقد كانت بحوزة الأستاذ الدكتور محمد رفيق خليل أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب جامعـة الإسـكندرية وقد تفضل سيادته بإعارتى لهـذه النسـخة التـى اسـتفدت منهـا اسـتفادة كبـيرة ، وبهـذه المناسبة أتوجه لسيادته بخالص الشكر وعظيم التقدير على أنه سمح لى بالإطلاع على تلـك النسخة فضلاً عما قدمه لى من آراء وتفسيرات لاستخدامات بعض أدوات الجراحـة التـى تضمنها البحث .

(٤٣) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٩-ص٢٠.

(٤٤) شكل ١.

(٤٥) نفس المصدر ص٢٠-٢١.

(٤٦) شكل ٢،٣.

(٤٧) نفس المصدر . ص٢٢.

(٤٨) شكل ٤،٥.

(٤٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٢٩.

(٥٠) شكل ٦.

(٥١) الزهراوى - نفس المصدر ص٣٣.

(٥٢) نفس المصدر . ص٣٥ص٣٦.

(٥٣) لخص الزهراوى تلك النصائح بقوله « ... ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة . واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمه المعرفة والإنذار إلى ما يؤول إليه السلامة ، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم » .

الزهراوى . نفس المصدر . ص٣٦-٣٧.

(٥٤) نفس المصدر . ص٦٢.

(٥٥) نفس المصدر . ص٦٢-٦٣.

(٥٦) شكل ٧.

(٥٧) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٤-٧٥.

(٥٨) هو رأى صحيح لا يزال الآن . راجع الموجز فى تاريخ الطب ، ص١١٣.

(٥٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٩.

(٦٠) نفس المصدر . ص٨٢.

(٦١) شكل ٨.

(٦٢) الزهراوى . المصدر السابق . ص٩٠-٩١.

(٦٣) شكل ٩.

الزهراوى - نفس المصدر ص٩٦ حيث الإشارة إلى أن « الأوائل لم تذكر الاختتان فى شئ من كتبها لأنه لم يكن يستعمل فى شرائعهم وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة » .

وواضح من نص الزهراوى أن عملية الختان لم تكن معروفة عند القدماء غير أن الواقع غير ذلك ، فالدراسات الحديثة أثبتت أن المصريين القدماء قد مارسوا عملية ختان الذكور حيث وجدت تلك العملية مصوره على العديد من الرسوم الجداريه المصرية القديمة (الفرعونية) . راجع

Mahmoud Karim, Circunncision & mutilations Male & Female, London, 1995 .

(٦٤) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٠٠-١٠١ .

(٦٥) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٢٣.

(٦٦) نفس المرجع . ص١٢٣.

(٦٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص١١١ .

(٦٨) الموجز فى تاريخ الطب ص١٢٨.

(٦٩) نفس المرجع . ص١٢٩.

(٧٠) الزهراوى . التأليف لمن عجز عن التصريف . ص١٢١-١٢٤.

(٧١) شكل ١٠.

(٧٢) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٣٨.

(٧٣) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٣٢ .

(٧٤) شكل ١١.

(٧٥) الزهراوى . المصدر السابق . ص١٣٤.

(٧٦) شكل ١٢.

(٧٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٧٨) نفس المصدر . ص١٣٥-١٣٨.

(٧٩) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٤٤-١٥٥.

(٨٠) شكل ١٣.

(٨١) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٥٩.

(٨٢) شكل ١٤.

(٨٣) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٦٠.

وينطبق هذا الوصف تماماً مع ما يقوم بـه الأطبـاء فـى العصـر الحـالى حيـث تسـمى هـذه العملية Stripping of the veins وبهذا يكون الزهراوى أول جـراح أستخدم طريقـة سل العروق لعلاج دوالى الساق وذلك منذ حوالى ألف عـام تقريبـاً . ولم تستخدم هـذه الطريقة فى وقتنا الحاضر إلا منذ حوالى ثلاثين عاماً فقط بعد إدخال بعض التعديل عليها.

راجع . الموجز فى تاريخ الطب .ص١٤٢.

(٨٤) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٨٤.

(٨٥) الزهراوى - التصريف . ص١٨٤-٢٣٨.

(٨٦) ابن جلجل . طبقات الأطباء ص٩٧ ، ابن أبى أصيبعه . عيون الأنباء .ص٤٨٦.

(٨٧) ابن جلجل . نفس المصدر . ص٩٦ترجمة رقم ٣٨ ، ابن أبى أصيبعـة . نفـس المصـدر . ص٤٨٥-٤٨٦.

(٨٨) ابن جلجل . طبقات الأطباء ص ١٠٠، وابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء . ص٣٨٨.

(٨٩) ابن جلجل . نفس المصدر . ص١١٢، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص٤٤٨.

(٩٠) فى مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد رفيق أستاذ الجراحة بكلية الطب جامعة الإسكندرية أكد لى بأن هذه الآلات كـانت تستخدم فـى كحـت الأورام الخاصـة بالنسـاء . وتتفـق

أشكال تلك الأدوات مع مجموعة من الأدوات المحفوظة حالياً في متحف كلية الآثار بالقاهرة (شكل -١٥) والمصورة على جدران معبد كوم أمبو (لوحه رقم ١-القسم الأول رقم ٤، القسم الثاني من ٤-٦، والقسم الرابع من ٦-٧ والتي كانت تستخدم في مجال أمراض النساء في العصرين اليوناني والروماني وبخاصة في إزالة الأجزاء غير الصحية من جدار الرحم ويؤكد ذلك أن هيروفيلوس في العصر البطلمي قام بتشريح الرحم عند المرآة على سيدات مسنات -راجع

Fraser P. M, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, P. 250.

وكذلك عنايات محمد : الأدوات الطبية في مصر في العصرين اليوناني والروماني ، ص٤١٦، ص٤٢٣، ص٤٢٩،

وفي ضوء ذلك يمكن القول بأن تلك الأدوات الملعقيه تمثل استمراراً لما كانت عليه نظائرها في العصرين اليوناني والروماني من حيث الشكل والاستخدام .

(٩١) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه

ويصف الزهراوي عملية قطع اللحم الزائد في اللثة فيقول « كثيراً ما ينبت على اللثة لحم زائد فينبغي أن تعلقه بصناره أو تمسكه بمنقاش وتقطعه عند أصله » .

الزهراوي . التصريف . ص٦٢.

وقد ظهرت تلك الصنانير على اللوحة المصورة بمعبد كوم أمبو (لوحه -١ القسم الثاني) (١-٣) مما يؤكد أن استخدام تلك الآلات كان استمراراً لما كانت عليه في العصرين اليوناني والروماني .

(٩٢) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٣) أ.د. محمد رفيق. مقابله شخصيه .

(٩٤) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٥) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٦) تتم هذه الطريقة على مراحل متعددة تبدأ بعمل الشكل المطلوب من الشمع ثم تحفر عليه جميع التفاصيل المطلوبة ويسمى ذلك « النموذج » ثم يغطى هذا النمــوذج بطبقـات مـن عجينه الفخار حتى يطبع عليها التفاصيل المنحوتة معكوسة ويسمى ذلك القالب ويراعـى دائماً وجود دعائم لتماسك النموذج مع القالب فضلاً عـن وجـود فتحتـين أحدهمـا فـى الجزء العلوى من القالب لصب المعدن المنصهر والأخرى فى أسفله للتخلـص مـن الشـمع الذائب والغازات أثناء عملية الصب .

لطفى خليل : تعدين النحاس . مجلة المتحف . العدد الثـانى . ١٩٨٧ ص٦٢، مرجريت ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا . ترجمة مجدى فريد . القاهرة . بدون تاريخ ص.٧٣.

(٩٧) يبدأ هذا الأسلوب بقطع الرقائق حسب الشكل المطلوب ثم طرقها على آلة مصنوعة من الحديد طرفها من الصلب تعرف بآلة السندال . ويطرق على المعدن بأداة تشبه الجـاكوش أو الأحنه التى لاتزال مستعمله حتى اليوم والهدف من عملية الطرق تجميـع ذرات المعـدن حتى يكتسب مزيداً من الصلابة وإعطاؤه الشكل المراد تنفيذه وبعد تشـكيل التحفـه فـى الصورة المطلوبة تنعم وتصقل بسكين أو بواسطة دواليب حتى تصير ملساء (حنـان عبـد الفتاح مطاوع . التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيـام الدولـة الأمويـة حتـى سـقوط مملكة بنى الأحمر . رسالة دكتـوراه . كليـة الآداب جامعـة الإسـكندرية . ١٩٩٦ص ٣١٩) .

(٩٨) لوحه ٢-ب ، لوحه ٣ب ، لوحه ٤-أ ، لوحه ٦،٥.

(٩٩) لوحه ٢-حـ ، لوحه ٣أ.

(١٠٠) لوحه ٢أ ، ب، ح

(١٠١) لوحه ٦. وجدير بالذكر أن أشكال المعينات المتداخلة رأسياً أو أفقيـاً قـد اسـتخدمت على نطاق واسع فى العديد من المنتجات الفنيـة الأندلسـية لاسيما فـى زخـارف الحجـر والرخام حيث تمثلت على نحو رائع فى زخـارف الدعامـات الرخاميـة فـى زيـادة الحكـم المستنصر بجامع قرطبه وفى العضادات الرخامية بالمجلس الغربى بقصر الزهراء وفى شرفات مسجد الزهراء .

George Marcais : Manuel d'art musulman C, I.Paris. 1926.P . 285.

Pavon Maldonado: Memoria de la excavacion de la Mazquita de Medina Alzahra. Madrid. 1966. P . 87 .

(١٠٢) لوحه ٢جـ ، (لوحه ٣ أ) .

(١٠٣) كان الصليب المعقوف من رموز البوذية فى الديانة الهندية وهو عبارة عن خط رأسى قائم يمتد منكسراً فى أعلاه إلى جهة تعكس انكساره عند القاعدة ويتقاطع هذا الخط القائم مع خط أفقى منكسر بدوره يميناً ويساراً فى اتجاه الانكسار السابق . وقد تمثلت الصلبان المعقوفة بكثرة فى الفنون القديمة لاسيما الفن الإغريقى واليونانى والساسانى والبيزنطى .

Pavon Maldonado: El arte Hispona musulman en su de coracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid. 1975 . Labla. I.

فريد شافى : العمارة العربية فى عصر الولاة . نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة . ١٩٧٠. ص٢١٧.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية :

١- **ابن أبي أصيبعة** (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي) عيون الأنباء في طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - بيروت - ١٩٦٥ .

٢- **ابن القيم** (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزي) زاد المعارف في هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ .

٣- **ابن جلجل** (أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي) - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ .

٤- **ابن حجر** (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ٢٨جزءاً في ١٤مجلداً - مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٥- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد) - المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٦- **أبي القاسم** خلف بن عباس الزهراوي - المقاله الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف .

٧ - **الزبيدي** : (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

١ - **السيد عبد العزيز سالم** : قرطبة حاضره الخلافة - جزأن - نشر مؤسسه شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠م .

٢ - **سعيد عبد الفتاح عاشور** :حضارة الإسلام - معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .

٣ - **عبد العزيز بن إبراهيم العمرى** : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة ١٩٨٥ .

٤ - **عبد المجيد نعنعى** : الإسلام فى طليطله - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .

٥ - **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٧٣م .

٦ - **عنايات محمد أحمد** : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين ١٩٩٤م .

٧ - **فريد شافعى** : العمارة العربية فى عصر الولاة - نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة - ١٩٧٠م .

٨ - **لطفى خليل** : تعدين النحاس - مجلة المتحف - العدد الثانى - ١٩٨٧م .

٩ - **محمد مصطفى السمرى** : التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - للسنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢م .

١٠ - **مرجريت ترويل** : الفن الزخرفى فى أفريقيا - ترجمة مجدى فريد - القاهرة - بدون تاريخ .

١١ - **هنرى أمين عوض** : الجراحة فى العصر الإسلامى - مجلة دراسات أثرية إسلامية - نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة ١٩٨٨ .

- كتاب الموجز فى تاريخ الطب - جـ١ اشتراك فى تأليفه مجموعة من العلماء من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1. Aluguste Couat : Alexandria poetry under the first theree (324- 222 B. C) London, 1990.
2. Breasted Y. H : The edwin Smith surgical papyrus, 2 Vols, Chicago, 1930.
3. Ebbell, B: The papyrus Ebers, Copenhagen, 1937.
4. Fraser P. M. : Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.
5. George Marcais : Manuel d' art musulman, Paris, 1926.
6. Ghalioungui : P. Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlas of Royal mumies, London, 1980.
7. Hurry, Y, B : Imhotep the vizier and physicion of king Zoser and of terwards Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926.
8. Mahmoud Karim : Circunncision y mutilations male y female, London, 1995.
9. Pavon Maldonado : El arte hispano musulman en su decoracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid, 1975.
10. Pavon Maldonado : Memoria de la excavacion de la Mezquita de Medina Alzahra, Madrid, 1966.
11. Peck, H. W : Mummies of ancient Egypt, mumies disease and ancient, cultures, New York, 1980.
12. Petrie, F : Tools and weapons, London, 1917.

رابعاً : الرسائل العلمية :

١ - حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بنى الأحمر - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م .

٢ - وفاء السيد بدار - الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة - دراسة تاريخية وحضارية - مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣م.

ابن أبي طيّ : مؤرخا وأديبا

أ. د. محمد زيود(*)

عاش المؤرخ ابن أبى طىّ فى عصر له مكانة خاصة فى النواحى السياسية والعسكرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية أنه عصر الحروب الصليبية الذى شهد العديد من التطورات وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط . ومن المعروف أن والد المؤرخ ابن أبى طىّ عاصر الشهيد نور الدين محمود بن زنكى (٥٤١ - ٥٦٩هـ /١١٤٦ - ١١٧٣م) . ثم السلطان المظفر صلاح الدين بن أيوب (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٨ - ١١٩٣م) . وبانتقال صلاح الدين إلى جوار ربه فى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م كان عمر مؤرخنا ابن أربعة عشر عاماً ، لاتفاق معظم المصادر أنه ولد سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م .

وقد اعقبت وفاة صلاح الدين فترة قلقة فى تاريخ مصر والشام وما حولهما، إذ تنافس أهل بيته على اقتسام دولته ، فظهر فى دمشق ابنه الأفضل نور الدين على (٥٨٩ - ٥٩٢هـ / ١١٩٣ - ١١٩٦م) وفى القاهرة العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠م) ، وفى حلب الظاهر غازى (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦م) ، واستمرت حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه من بعده إلى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، حيث كان الظاهر واليا على حلب قبل وفاة أبيه ، وانفرد بحلب إلى أن توفى فى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م حيث نصب ابنه العزيز غياث الدين محمد ملكاً على حلب فى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م واستمر حكمه إلى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م . وكانت المنية قد اتت على مؤرخنا قبل أربع سنوات من انتهاء حكم العزيز محمد ، وهذا يعنى أن « ابن أبى طى » عاصر كلا من صلاح

(*) [illegible] كلية الآداب – جامعة دمشق

الدين ، وابنه « الظاهر غياث الدين غازى » وحفيده العزيز محمد . واستمر يوسف بعد العزيز يحكم حلب إلى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، حيث قتل مع أخيه الظاهر غازى . فى جمادى الأول من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، على يد هولاكو ، عندما اجتاح حلب وأباحها لجيشه . وبقى ولده الصغير المسمى العزيز فى أيدى المغول .

وفى حين استمر الحكم الأيوبى فى حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه إلى ٦٥٨هـ/١٢٦٠ ، فإن العادل سيف الدين أخا صلاح الدين تمكن فى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م من أخذ دمشق من الأفضل، وعزل الملك المنصور الذى خلف أباه العزيز بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م وبذلك استأثر العادل بالسلطنة بعد صلاح الدين .

والواقع أن الشام ومصر كانتا فى تلك الحقبة تخضعان لسلطة واحدة فى أغلب الأحيان ، أو لأفراد من أسرة واحدة ، ولأول مرة تشهد الشام ومصر وشمال العراق ، منذ تفكك الدولة العباسية وحدة سياسية بقيادة نور الدين محمود ابن زنكى الذى عمل بكل طاقته لتوحيد الشام وشمال العراق ومصر وهى الوحدة التى جنى ثمارها صلاح الدين ومكنته من انزال الهزائم بالصليبيين .

وفى ظل هذه الوحدة السياسية ، وخضوع المنطقة لسلطة واحدة عاد العلماء ينتقلون بين هذه الأقطار ، وبخاصة بين الشام ومصر فى سهولة ، مما جعل من الصعب أن نربط عالماً من العلماء بقطر واحد دون سواه ، وكان هذا مما ساعد على قيام وحدة فكرية متقاربة ، وثقافة أدبية وعلمية متناظرة ، وخاصة بين مصر والشام .

ومع ظهور المدارس فى الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس للميلاد ، إلا أن المسجد ظل يشكل المركز الدراسى الأساسى للعلم ، ففى مصر قام جامع عمرو ابن العاص (الجامع العتيق) ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الأقمر ،

والعطارين بالإسكندرية بدور كبير ، وأما فى الشام فكان الجامع الأموى (جامع دمشق) وجامع حلب ، والمسجد الأقصى .

وظلت حلقات العلم تعقد بالجامع العتيق فى مصر ، وتتطرق إلى مختلف فروع الثقافة ، وذلك فى العصرين الفاطمى والأيوبى(١) ، وكان الأزهر الذى شيد فى مطلع الدولة الفاطمية فى مصر ، فعلى الرغم من أن التعليم فيه اصطبغ بالصبغة المذهبية الشيعية الإسماعيلية وألقيت فيه رسائل هذا المذهب وعلى رأسها كتاب « الاقتصار » ، ودعائم الإسلام وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار ، وغيرها من الكتب والرسائل التى ألفها القاضى النعمان وابنائه من بعده وغيرهم من أئمة المذهب الشيعى فيه الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى الإسماعيلى التى وضعها الوزير « ابن كلس » هذا فى حين وجدت العلوم الفلسفية والحكمية ، مجالاها فى دار الحكمة التى أسست فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٧٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م). وبظهور صلاح الدين على المسرح ، قام بإجراءات كثيرة استهدفت وقف الدعوة الإسماعيلية فأقدم فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م على إسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمى من الخطبة ، وأعلنها باسم الخليفة العباسى ، وعين على القضاء « صدر الدين عبد الملك بن درباس » ، الشافعى المذهب ، وأبطل الخطبة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، قاصداً إهمال الأزهر باعتباره رمزاً للمذهب الفاطمى ، كذلك قام صلاح الدين بأنشاء عدة مدارس أخذت تنافس مراكز الدعوة الفاطمية وكان أن أقبل المدرسون والطلاب على هذه المدارس أكثر من إقبالهم على بقايا المؤسسات الفاطمية .

على أن الدراسة فى الأزهر لم تتوقف تماماً ، اثر انقطاع الخطبة فيه وإهماله من قبل السلاطين لمدة تزيد عن مائة عام(٢) ، وكان ذلك فى صدر دولة سلاطين المماليك - فى عهد السلطان الظاهر بيبرس - عندما عادت الحياة إلى الأزهر وأذن

القاضى الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ودرست فيه القراءات والتفسير ، والمنطق والحساب والهيئة والطب ، واللغة والعروض والقوافى والتاريخ . وهكذا لم تقتصر الدراسة فى الأزهر على علم الفقه أو علم الكلام والنحو والأدب بل كانت تدرس به كذلك فروع المعرفة الأخرى . هذا فضلاً عن جوامع أخرى فى مصر ساهمت فى التدريس والنهضة الثقافية ، أمثال الجامع الطولونى ، وجامع الحاكم ، والأقمر ، والأفخر، والعطارين ، وغيرها من الجوامع التى بنيت لتكون دور عبادة ومعاهد علم وينابيع ثقافة ومعرفة .

أما المساجد فى بلاد الشام فعلى رأسها جامع دمشق الذى بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وتم بناؤه فى سنة (٩٦هـ / ٧١٤م) وهو من أشهر مساجد بلاد الإسلام حسناً واتقاناً وغرابة صنعه . وفيه مقصورات عديدة بعضها للحنفية يجتمعون فيها للتدريس كما أنه به أماكن وزوايا خصصت لطلبة العلم .

وتردد على هذا الجامع فى عصر الحروب الصليبية طائفة من العلماء الذين لا تزال آثارهم لامعة فى تاريخ الحركة الفكرية . وبقيت آثارهم إلى ايامنا ومن علمائه الأفذاذ فى ذلك العصر :

- علم الدين السخاوى ، شيخ القراء والنحاة ، والفقهاء(٦٤٣هـ)(٣) .
- الحافظ ابن عساكر ، شيخ دار الحديث بدمشق(٥٧١هـ) .
- أحمد بن فرج الأشبيلى (٦٩٩هـ) .
- ضياء الدين الدولعى (٥٩٨هـ) .
- عبد الله بن سعد القطرى .

- عماد الدين بن الحرستانى (٥٩٧هـ) .

- محمود بن عبد الله أبو المثنى المراغى (٦٨١هـ) .

- أبو القاسم الدمشقى المشهور بابن الماسح (ت ٥٩٢هـ/١١٦٦) من أعيان الفقه الشافعى والقراءات(٤) .

- عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور المقدسى (ت ٦٠٠هـ /١٢٠٣) وكان يقرئ القرآن بالجامع الأموى ليلة الخميس والجمعة(٥) .

وغيرهم كثيرون .

أما جامع حلب فكان فى تلك الحقبة من أهم المراكز العلمية فى بلاد لشام، حيث كانت حلب ذات دور هام فى العصر الصليبى فى الشام ، وكان جامعها من أحسن الجوامع وأعمرها ثقافة .

واستمرت حلب من أعظم مراكز العلم فى تلك الحقبة ، باستثناء فترات قصيرة محدودة ، بسبب التهديد الذى تعرضت له فى عصر الحروب الصليبية . على أن حلب لم تلبث أن استعادت بعد ذلك مركزها العلمى ، وغدت أم البلاد الشامية ، وغصت بالعلماء ، وأشار ابن خلكان إلى ذلك عندما زارها فى سنة ٦٢٦هـ(٦) / ١٢٢٨م ، وبذلك عاد جامعها مركز إشعاع للعلم والعلماء .

و لم تتوقف مسيرة هذه الحركة العلمية فى حلب إلا عندما انطفأت شعلتها على يد التتار سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م . فأحرقوا جوامعها ودمروا معاهدها ، وقضوا على مدارسها ، وخربوا دور السلطنة ، وقصور الأمراء وأفسدوا كل شىء فيها . وظلت حلب تعانى من تلك الضربة زهاء ثلث قرن ، ثم بدأت العمارة والحياة تعود إليها فى سنة ٦٩٠هـ(٧) /١٢٩١م .

يتضح مما تقدم أن حلب في عهد مؤرخنا - ابن أبي طيّ - الذى عاش فيما بين (٥٧٥-٦٣٠هـ / ١١٧٩-١٢٣٢م) مرت في مرحلة انفتاح علمى ، واستعادت مركزها الذى انتكس في بداية الحروب الصليبية . واستمرت بعد ذلك محافظة على نشاطها العلمى حتى قدوم التتار واستباحتهم لمدن الشام كغيرها من المدن الأخرى التى استباحوها في البلاد الإسلامية . وفي تلك المرحلة كان ابن أبي طيّ قد مضت على وفاته بضعة عقود ، وربما ضاعت بعض كتاباته في هذا الغزو التترى ، الذى أحرق الأخضر واليابس . وبعبارة أخرى فإن فترة حياة المؤرخ «ابن أبي طيّ» التى استمرت زهاء خمسة وخمسين عاماً ، تمثل أحد العصور الذهبية لحلب ، في المجال الأدبى والثقافى ، والسياسى أيضاً . لقد استعادت في تلك الفترة قواها وشكلت قاعدة هامة للدفاع عن الأمة الإسلامية وتراثها الحضارى والسياسى .

٣ - ابن أبي طى في المصادر العربية :

هو منتجب الدين « أبو زكريا »(٨) ، وقيل « أبو الفضل » يحيى بن حامد أو حميده(٨) بن ظافر بن على بن الحسين بن على بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن سعيد بن أبي الخير الطائى(٩) الغسانى الحلبى النجار(١٠) المؤرخ والأديب، الحلبى المولد والمنشأ ، ولد حسب ما ذكرته معظم الروايات في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ومات سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م(١١) ، وقيل غير ذلك ، حيث لا تعرف سنة وفاته بدقة .

أما والده فتذكر بعض المصادر أنه ولد في العقد الأول من القرن السادس الهجرى ما بين (٥٠١هـ - ٥٠٩هـ) ، وكان من وجهاء حلب ، ورئيس حرفة النجارين فيها . وكانت هذه المهنة ولا تزال من المهن المشهورة في حلب ، وتعود

أهميتها إلى أن حلب ، من الأماكن الهامة فى إستنبات الأشجار الضرورية لمهنة النجارة . ومما يدل على كثرة الأشجار وتنوعها ما ذكره كل من ابن العديم مؤرخ حلب المشهور(١٢) ، والشاعر الصنوبرى الحلبى وغيرهما ، وقد حظى والد ابن أبى طىّ فى حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها . غير أن هذا الأمر عرضه للخلاف الشديد مع حكام حلب فى عهد نور الدين (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦م-١١٧٣م) ومن جاء بعده . ونتيجة لما تعرض له والد ابن أبى طىّ من اضطهاد ، فإنه اضطر إلى الفرار من حلب أكثر من مرة نتيجة للتحول الذى حصل فى تلك الحقبة من التحول إلى المذهب السنى ، وما رافق ذلك من مضايقات لبعض الناس والأسر التى كانت تعتنق المذاهب الشيعية ، وكانوا أكثرية فى حلب . وأخذت بعض أسر ذات الصلة بالأمور الإدارية تتحول إلى السنة كأسرة ابن أبى جرادة(١٣) ، و« ابن العديم » وغيرها . ومن هذه الإجراءات منع الشيعة من استخدام الزاوية الشرقية فى جامع حلب ، وحظر عليهم الآذان (بحى على خير العمل) ، وغير ذلك من مضايقات ، أدت إلى رضوح الشيعة على مضض أو إلى الهروب . ومن الذين هربوا أو أخرجوا - من حلب أكثر من مرة - والد المؤرخ يحيى بن حميد المرة الأولى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، والمرة الثانية لم تحددها المصادر . ومكث والد مؤرخنا فى حران(١٤) ، بعض الوقت بحدود سنة ٥٢٥هـ/١١٥٧م . وفيها ألف كتاباً فى التاريخ . وكان أولاده يموتون صغاراً . ولم يسلم له أحد من أبنائه . وبعد مضى وقت من اليأس رزق بعد طول انتظار - وبعد أن تقدم به العمر - بولده يحيى - مؤرخنا هذا - فى حدود سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م كما أشرنا . وقدر لهذا المولود أن يعيش ، ويكبر ويتعلم على أبيه، ويأخذ عنه مذهبه الفكرى ، وتوجهه الأدبى ، وعمله المهنى . فتعلم على يده مهنة النجارة وورثها عنه ، وكذلك مذهبه الشيعى .

أما والدته حميدة(١٥) أو فضائل ، فإنها ماتت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وهى السنة التى ولد فيها مؤرخنا . ولهذا كثيراً ما كان يقال عنه يحيى بن حامد أو حميدة ، نسبة إلى أمه وهى عادة عربية معهودة ومتبعة .

كذلك تعلم مؤرخنا من علماء حلب ، ونهل عنهم أصناف العلوم كالبلاغة واللغة والأدب والتصوف وغيرها من العلوم . وأما أساتذته فهم كثيرون ويأتى على رأسهم والده ، ومجموعة من المحدثين منهم : إدريس بن حسن ابن على الأدريسى (ت ٦١٠هـ) وقد عرف به ياقوت فى معجمه .

كذلك درس مؤرخنا الفقه الشيعى أيضاً وتعمق به على يد ابن جعفر بن على بن شهر أشوب المازرائى . وعرف عن هذا الفقيه البراعة والفقه الإسلامى على المذهب الشيعى الإمامى وعرف عنه بأنه كان عالم الشيعة فى القرن السادس الهجرى ، وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه « مناقب آل أبى طالب » وله مشاركة فعالة فى علم الأصول والقراءات وقدم مؤلفات كثيرة فى هذه العلوم الدينية(١٦) ، وقد قدم ابن شهر أشوب إلى حلب ومكث فيها وتزوج أخت ابن أبى طىّ ، ودرس هذا عليه شيئاً مما كان يعلمه . ومات ابن شهر أشوب فى حلب.

كذلك اعتمد ابن أبى طىّ فى إعداد نفسه فكرياً وعلمياً على مجموعة كبيرة من الأعلام فى الفكر والأدب وممن عرفتهم الشام وحلب خاصة نذكر من هؤلاء:

- ابن أبى زريق : صاحب كتاب أو تاريخ آمد وما فارقين .

- وابن أبى جراده (جد ابن العديم) :

- وحمدان بن عبد الرحيم الأثاربى (٥٤٢هـ/١١٤٧م) : مؤرخ حلبى ، وكان أماميا له مصنفات عدة أهمها المفوف . والمصباح(١٧) .

- والعظيمى : (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م) وتاريخه عن حلب وهو تاريخ شامل .
- وابن القلانسى الدمشقى (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) : وقرأ عنه كتابه المشهور ذيل تاريخ دمشق .
- والعماد الأصبهانى : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) فى كتابه البرق الشامى ، وتايخ السلاجقة والفتح القسى فى الفتح القدسى .
- وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) نشأ بدمشق وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع فيها ألفا وثلاثمائة شيخ وتاريخه عن مدينة دمشق خرج فى ثمانين مجلدة .
- وابن دحيه :
- وأسامة بن مرشد بن منقذ الأمير مؤيد الدولة (ت ٥٨٤هـ/١١١٨م) وكتابه الاعتبار .
- وابن شداد ، بهاء الدين بن رافع (٦٣٢/١٢٣٣هـ) .
- ابن الأعز (ت ٦١٠هـ / ١٣١٣م) الأشرف بن الأعز وقيل أبو العز . درس ما عرفه من علم التأريخ لطلابه(١٨) .
- والصنهاجى فى تاريخ القيروان .
- ومؤلفاً مجهولاً فى تاريخ مصر .

وكل هؤلاء أعلام فى عصرهم قدموا الكثير، وتركوا لنا الدلائل على عظمتهم.

وكثيراً ما كانت تشغله الوثائق التى اعتمد مؤرخنا عليها وعلى كتب هؤلاء المؤرخين ، كما كان ينجذب إلى رسائل وروايات متعددة ، منها رسائل القاضى الفاضل وأخباره ، فضلاً عن مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة بعضها شفهى والآخر مخطوط .

وخلاصة القول فإن ابن أبى طىّ اعتمد فى كتاباته التاريخية أسلوب معاصريه كابن الأثير وغيره . كما اعتمد على المصادر الشفهية ، وهى إحدى المصادر الرئيسية للكتابة التاريخية فى ذلك العصر . ثم اعتمد على مصنفات المتقدمين فى التاريخ ، ومنها استقى مواد كتاباته . أما الأحداث المعاصرة . فقد اعتمد على مشاهداته لها عن كثب ؛ معتمداً على خبراته الشخصية ، كما استند على الوثائق الرسمية التى أعدها كل من العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

وعلى العموم فمؤرخنا هو من أدباء حلب ، وخريج مدرستها الأدبية والفكرية والمذهبية ، والتى نشطت منذ ما قبل منتصف القرن الرابع الهجرى واستمرت طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين تعطى ثمارها وتخرج علماء فى كل فروع العلوم والمعرفة ، كما أشرنا أثناء الحديث عن عصر المؤرخ .

وكما عاش والد المؤرخ محنة الاضطهاد والإهمال والنفى نتيجة لعقديته المذهبية ، كذلك تعرض الابن للضنك والإهمال ، وربما للنسيان المتعمد من الكثيرين ، فلم يعهد له بأى منصب إدارى أو رسمى ، لا فى التدريس ولا فى القضاء ، أو غير ذلك من الأعمال الحكومية ، على الرغم من أن حلب فى عهده كانت بحاجة لمثل هذه الخدمات وغيرها ، نتيجة لما كانت تمر به فى تلك الأثناء من ظروف حرجة .

وفى هذه الأجواء غير الطبيعية نشأ المؤرخ ابن أبى طىّ . ولا شك فى أن ذلك أثر تأثيراً كبيراً فى مجريات حياته ، إذ أجبرته هذه الظروف المؤقته أن يعيش فترة طويلة من حياته متكسباً بما تدره عليه مهنته وعمله بالنجارة التى اشتغل بها وورثها عن أبيه كما أشرنا . واستمر كذلك إلى أن انتقل إلى عمل أقل جهداً ، وافضل قيمة ، وهى مهنة تعليم الصغار والصبية ، فمارس هذه المهنة فى المكاتب حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، واختص بتعليم أبناء أحد الوزراء سنة

٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وبعد ذلك انتقل إلى مهنة الوراقة وتصنيف الكتب ، مترفعاً عن التعليم وأنف منه ولزم داره ، وطلب مشايخ الأدب فقرأ عليهم ، وتعلم منهم ونظم الشعر ، فمدح الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وارتفعت منزلته عنده، حتى ولاه نقابة الفتيان فى حضرته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وغدا نقيب الحضرة السلطانية فى الفتوة .

وكان أن تابع ابن أبى طىّ عمله الجديد فى التأليف والتصنيف ، فصنف كتباً فى التاريخ وتفسير القرآن الكريم والآداب والفقه والأصول ، وهكذا انتقل إلى عمل مفضل ، ظل يمارسه بقية حياته ، واتخذ من ذلك مصدراً لرزقه وعيشه ، إذ فتح له هذا العمل الأبواب الفكرية والمعرفية على مصراعيها عاملاً بمهنة الوراقة ، ونسخ الكتب . ويبدو أن هذا العمل حقق له كسباً كبيراً ، جعل ياقوت الحموى الأديب المعروف المعاصر له يحسده ويغمز عليه فقال عنه أنه : « كان يدعى العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية ، وجعلَ التأليف حانوته ، ومنه قوته ومكسبه ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس ، يأخذ الكتاب الذى اتعب جامعه خاطره فيه فينسخه كما هو ، إلا أنه يقدم فيه ويؤخر ، ويزيد وينقص ويختار له اسماً غريباً ، ويكتبه كتابة فائقيه لمن يشبه عليه ، ورزق من ذلك حظاً » . وربما أراد ياقوت أن يتهم ابن أبى طىّ ، فذكر أن عدداً من الكتب التى تعزى إليه ليست سوى مستنسخات تصرف بها ابن أبى طى على هواه . ومعلوم أن ابن أبى طى معاصر لياقوت ولا شك فى أن كلا منهما كان يحمل فى نفسه شيئاً للآخر. وقد يكون كلام ياقوت الحموى عن ابن أبى طىّ نوعاً من الغمز ، والطعن بأديب معاصر له ، يختلف معه فى المذاهب والمشارب والاتجاهات ، وجمعتهما حلب الشهباء التى كثيراً ما عرفت أمثال هذه المنافسات والمشاحنات بين العلماء منذ ايام سيف الدولة الحمدانى .

ومهما يكن الأمر ، فهذه المنافسات بين العلماء كثيرة الحدوث . غير أن موقف ياقوت من ابن أبى طىّ لا ينكر وسيظل كل من يريد التعرف على ابن أبى طىّ يعترف بموقف ياقوت منه وما قدمه من معلومات عنه . ومع ذلك فإن ياقوت ترجم له بوصفه من الأدباء المرموقين وذكره بين الأحياء الذين عاصروه فى حلب. وجاءت ترجمته من المصادر المهمة والمفيدة للكثيرين ممن أرخ لابن أبى طىّ وترجم سيرته بعد ياقوت : وقد تكون هذه المعلومات على الرغم مما جاء بها من طعن وغمز من افضل ما كتب عنه ، وساهمت فى التعريف به ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن ترجمة ابن أبى طى التى جاءت فى الجزء السابع من المخطوط ، لم تظهر فى النص المطبوع من معجم الأدباء ، ولعل ذلك فات على المحقق ، فزاد ذلك من سوء حظ هذا المؤرخ الذى عده بعض الباحثين من طبقة(١٩) ، المؤرخين الأول فى الإسلام . وهكذا خانه الحظ فلم يبق من إنتاجه التاريخى والأدبى والعلمى أى أثر ظاهر الآن وليس أمامنا عن هذا المؤرخ سوى مقتبسات مبعثرة فى كتب المؤرخين الذين أتوا بعده أو أخذوا عنه ، مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يذكره عندما نقل رواياته ولا ندرى أكان ذلك متعمداً أم غير متعمد . وفى جميع الأحوال فقد زاد ذلك فى إغفاله ، حتى استمر فى طى النسيان .

والواقع إن مؤلفات ابن أبى طى كثيرة ، يعصب حصرها ، وتحديدها . وما قدمه ياقوت عنها ربما كان بعض مسودات لم تكتمل ، وأثبتها فى معجمه قبل أن يستكمل إعدادها كما قدمها له ابن أبى طى فيما أظن . ولهذا جاءت غير متفقة مع الكتب التى عرفها المؤرخون ونقلوا عنها ، والتى أتت على ذكرها المصادر التى أطلعنا عليها والتى تضم حوالى بضعة وثلاثين مؤلفاً ، منها مؤلفات عديدة فى علم القراءات والفقه ، والأدب ، والنحو ، والبلاغة ، والنبات ، والتراجم ، وجاء معظمها فى التاريخ . ويمكن أن نذكر من مؤلفاته وكتبه كما أوردتها بعض

المصادر والمراجع ، وإن جاءت مختلفة فى أسمائها وعددها . وبعد المقارنة تمكنا من إحصاء المؤلفات الآتية :

١ - معان الذهب فى تاريخ حلب ، وجاءت فى بعض المراجع . معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء ، وذوى الرتب ، وكان فى عدة مجلدات .

٢ - كتاب شرح لامية العرب أو المنتخب فى شرح لامية العرب .

٣ - كتاب سلك النظام فى تاريخ الشام .

٤ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ، ومنه مقتطفات عديدة لدى أبى شامة (الروضتين) .

٥ - حوادث الزمان على حروف المعجم ، وأهم ما فيه أنه ألف على أساس أبجدى ، فهو موسوعة لمعارف التاريخ وكان فى خمس مجلدات .

٦ - أطباء الشعراء الشيعة .

٧ - طبقات العلماء ، وربما يكون هو الكتاب الذى ورد عند الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى « طبقات أو تاريخ الإمامية » .

٨ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب بين سنتى (٥٨٩- ٦١٣هـ/١١٩٣-١٢١٦م) . بينما يرد عند الأستاذ شاكر ما بين (٥٨١-٦١٣هـ / ١١٨٥-١٢١٦م) وهو فى تاريخ حلب نقل عنه ابن شداد فى الإعلاق الخطيرة (قسم حلب) صفحات هامة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع (ضرائب) حلب فى مطلع القرن السابع الهجرى ٦٠٩هـ أخذها عن مستوفى حلب(٢٠) .

٩ - مختار تاريخ العرب، وهى التى وردت عند بعض الباحثين مختار تاريخ المغرب.

١٠ - مناقب الأئمة الأثنى عشر .

١١ - تاريخ مصر . ولعله اهتم فيه بالتاريخ الفاطمى واقتبس من ابن ميسر والمسبحى وغيرهم كالمقريزى .

١٢ - مختار تاريخ المغرب . وقد يكون له كتابات .

١٣ - تاريخ الشيعة ، ورد عند بعض الباحثين أسماء رواة الشيعة ومصنفيها ، وجاء عندمحسن الأمين كتاب الحاوى ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم .

١٤ - تهذيب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (لابن عبد البر) جاءت عند الطباخ للقرطبى .

١٥ - كتاب الأول والعذب والزلال .

١٦ - بيان العالم .

١٧ - ذيل معادن الذهب فى تاريخ حلب أى أنه ذيل كتابه هذا فى التاريخ(٢١)، وتتمة له .

١٨ - سيرة ملوك حلب .

١٩ - البستان فى محاسن العلمان .

٢٠ - اشتقاق أسماء البلدان .

٢١ - مجموعة كتب حول الجاهلية والرسول ﷺ وأجداده فى ثلاث مجلدات يعطيها صاحب كشف الظنون عنوان السيرة(٢٢) .

٢٢ - له ديوان فى المدائح(٢٣) .

٢٣ - كتاب التنبيه على محاسن التشبيه .

٢٤ - وشرح نهج البلاغة فى ست مجلدات يقال أنه درسه على ابن الأغـر(٢٤) ، وعلى ابن شهر أشوب المازندرانى عالم الشيعة فى القـرن السـادس وخطيبهـم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه مناقب آل البيت(٢٥) .

٢٥ - ولمح القرآن فى تفسير القرآن .

٢٦ - البيان فى اسباب نزول القرآن .

٢٧ - غريب القرآن مختصر .

٢٨ - كتاب المجالس الأربعين فيه فضائل الأئمة الطاهرين .

٢٩ - خلاصة الخلاص فى آداب الخواص .

٣٠ - شفاه المعليل فى ذم الصاحب والخليل .

٣١ - كتب الحاوى ذكـر فيـه رجـال الشيعة وعلمـاءهم وفقهـاءهم وشعراءهم أئمتهم المصنفين فى مذهبهم .

٣٢ - تراجم رجال الأدب والشعراء وهو مخطوط موجود فى القاهرة تيمورية رقم ١٤١٨ تاريخ وهوفى عداد كتبه المفقوده أيضاً ، ولم نجده تحت هذا الرقم.

ولا يمكننا أن نؤكد أن هذه المؤلفات جميعاً من نتاجه ، أو أن هذه هى كـل مؤلفاته ، فقد تأتى الأبحاث بأمور جديدة ، وقد تكشف السنون القادمة بعضاً مـن تراث هذا المؤرخ . أو ربما يكشـف البـاحثون عـن أسمـاء بعـض كتبـه لم تـرد فـى المصادر التى تم الإطلاع عليها . ولا ندعى أن مـا أتينـا عليـه ، وذكرنـاه ، فـاصل وقطعى. وإنما نعترف بأننا لم نتمكن من الوقوف على جميـع المصـادر التـى أخـذت عنه ، ولم نتعرف على كل النقولات منه ، وكل مـا نرجـوه هـو أن ندفـع بـالهمم ونحثها للبحث لاكتشاف الجديد والمفيد عن هذا المؤرخ .

وأما الذين أخذوا عن ابن أبى طىّ من المؤرخين فكثيرون ، وغالباً ما أغفل بعضهم التنويه عنه . ولم يوضحوا مقتبساتهم عنه . وإن فعلوا ذلك فقد أغفلوه من قائمة المصادر الأساسية . ومن هؤلاء أبو شامة فى كتابه « الروضتين » فعلى الرغم من كثرة مقتبساته عنه ، لم يذكره فى قائمة مصادره التى اشار إليها فى بداية كتابه ، مع أنه ذكر مصادر أقل من مصادره إفادة ، وبعض المؤرخين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى الأخذ عنه أو الاعتماد عليه . وكثيراً ما كانت تأتى الإشارات بكتابات لاحقه . وعلى الرغم من ذلك فقد أوردت المصادر مجموعة من المؤرخين اعتمدوا على مؤلفاته وكتبه ، جاء بعضها على لسان أصحابها ، وبعضها فى مصادر أخرى .

ويمكن أن نذكر من المؤرخين الذين افادوا منها كلا منه :

١ - ابن العديم : كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) فى كتبه الكثيرة وخاصة فى تاريخه « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » الذى صنفه لحلب على الحوادث ، وجاء بثلاثة مجلدات ثم « بغية الطلب » . والذى خطه لحلب ورجالاتها وترجم لمن نشأ أو مر أو ذكر فى تاريخها وجاء فى أكثر من عشرة مجلدات ، وكلا الكتابين حققا ونشرا فى دمشق . ولابد من الإشارة إلى كثرة ما نقل عن ابن ابى طى ، مثل القول : ذكر أو قال أو ورد عند ابن أبى طى ... إلخ .

٢ - وكانت مؤلفاته فى المصادر المهمة التى اعتمد عليها الإمام العلامة ، شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨هـ/١٢٤٧م) فى تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام أو دول الإسلام وغيرها من مؤلفات استقت معلومات كثيرة من أخبار ابن أبى طىّ .

٣ - أما المؤرخ الكبير أبو شامة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية « فاقتباساته كثيرة وواضحة ، وتعطينا فكرة بينة عن تراث هذا المؤرخ الواسع إطلاعه ، كما تقدم لنا الدليل الأكيد على إهمال المؤرخين له ونكران فضله ، ولم يضعوه فى المكان اللائق به ، والمناسب لجهده ومكانته .

٤ - وأخذ عنه ابن شداد (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) فى مؤلفاته . ومنها كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ولا سيما ما اقتبسه منه عن مؤلفه عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، وأخذ عنه ابن شداد التاريخ المتعلق بحلب فى مطلع القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م . وابن أبى طى أخذها بدوره عن مستوفى حلب ، وهى صفحات مهمة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع ضرائب حلب ، وهى قائمة مهمة تفيد كل باحث فى التاريخ الاقتصادى أو الاجتماعى ، هذا إضافة لما اقتبسه ابن شداد عنه فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

٥ - كذلك استفاد منه ابن عبد الظاهر فى كتاباته (ت ٦٩٢هـ) .

٦ - وابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) ومؤلفه « أخبار مصر » وهو من المؤلفات المهمة عن مصر الفاطمية بخاصة ، ويعد ما كتبه ابن ابى طى عن الفاطميين من المصادر المهمة كونه قريب الصلة بهم ، وكانت كتب ابن ميسر مصدر أساسياً لكل من النويرى والمقريزى وابن حجر العسقلانى ، وهؤلاء من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، واعتمدوا على ابن أبى طى بشكل مباشر أو غير مباشر .

٧ - أما المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) فيعد أفضل من كتب عن الدولة الفاطمية ، وخاصة فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فقد أورد المقريزى فى كتاباته

روايات عديدة أخذها عن ابن أبى طى وكثيراً ما اشار إلى بعضها ، وأهمل الإشارة إليها فى بعض مقتبساته الأخرى فى كتبه الكثيرة كالسلوك ، والمواعظ والمقفى ، والاتعاظ .. إلخ .

٨ - ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد مقتبسات ابن قاضى شهبه (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) فى كتابة الأعلام . عن ابن أبى طىّ ، فقد ذكر أنه أخذ عنه الكثير عندما أرخ لأعلام الشيعة . كما وردت مقتبساته فى كتاباته عن « طبقات الشافعية » والكواكب الدرية فى السيرة النورية .

٩ - ويظهر أن كتب ابن أبى طى استمرت إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أو بعض منها حين استخدمها ابن الفرات (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) واستفاد منها ناقلاً معلومات كثيرة عنها .

لكن من المؤسف أنه لم يبق لهذا المؤرخ الآن فيما هو معروف من المخطوطات إلا كتاب فى التراجم الأدبية والشعرية يحتاج نسبته إليه إلى أمور كثيرة ، وتحقيق مضن ، وقد أورد الأستاذ المرحوم شاكر مصطفى أن هذه التراجم مخطوطة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٤١٨ تاريخ . وقد حاولت كثيراً الحصول علهيا ، فلم أتمكن من ذلك ، ولا شك أن هذا المخطوط مفقود كغيره من كتب مؤرخنا العديدة .

٤ - أسلوب كتاباته :

يعبر معظم ما كتبه ابن ابى طى وذكره عن وجهات نظر أصلية ، وفيها مكان واسع للمجادلات الدينية والأثرية ، ورفض للعجائب ، بأسلوب سلس ومقبول ، ابتعد فيه عن أسلوب العماد الأصفهانى الذى طغت عليه فنون اللغة من سجع وطباق وغير ذلك من فنون الكتابة التىيكثر فيها الوصف ويمل الناظر

فيها ويصاب بالذهول والتعب قبل التأكد من معرفة الأحداث والوقائع التاريخية(٢٦) .

ولابن أبي طيّ موقف خاص من الأيوبيين ، يستند على أن ابن صلاح الدين، الظاهر غازى لم يكن متعصباً للسنة كثيراً ، ولم يكن هو الذى أخرج والد مؤرخنا ابن أبي طيّ من حلب ؛ فقد أخرج فى عهد نور الدين محمود كما أسلفنا، وكما يتضح من مقارنة الأخبار(٢٧) ، والروايات المتعلقة بهذا الموضوع . ولهذا نراه فى كتاباته عن صلاح الدين وغيره من الأيوبيين يأتى بأخبار مفصلة ودقيقة ، ويتحرى فيها الابتعاد عن المشاعر والعواطف التى كانت تلون الكتابات التاريخية ، وتؤثر فيها وتجعل النزعة المذهبية مسيطرة عند بعض المؤرخين . وضمن توجهه هذا نراه يؤرخ لصلاح الدين ويكتب سيرته ، ويقربه الابن الظاهر غازى فيمدحه بقصائد شعرية ، وغدا نقيب الفتيان فى حلب ، وربما ساهم ابن أبي طيّ وغيره فى تضخيم الخلاف بين صلاح الدين وسيده نور الدين .

ويجب أن ندرك أنه لا يمكننا أن نحكم على هذا المؤلف إلا من خلال ما اقتبس عنه مما أشارت إليه المصادر صراحة ، مع العلم بان هذه المقتبسات العديدة قد يكون مقتبسوها قد حوروا فيها ، أو غيروا أسلوبها ، أو بدلوا من عباراتها ، وصبغوها بأساليبهم الخاصة . وربما تصرفوا بهذه النقولات . ولم يكتبوها حرفياً حتى غدت هذه المقتبسات لا تمثله بقدر ما تمثل الذى صاغها . غيرأنه إذا جاز لنا أن نحكم على هذا المؤرخ من خلال ما وصلنا عنه من هذه النقولات والمقتبسات ، وما سمحت به الظروف المتعلقة بها ، فإنه يمكننا أن نقول : أن كتابه « معادن الذهب فى تاريخ حلب » قد يكون كتاباً عاماً فى التاريخ ، إلا أنه اهتم فيه بتاريخ حلب أساسًا ، وما كتبه عنها يمكن اعتباره مصدراً مهماً ومباشراً ، لا سيما فى حياته . وعندما نقول أن معظم كتاباته قد فقدت أوجهلت فإن علينا أن نذكر أنه

كثيراً ما اعتمد على المصادر الشفهية . فروى عن والده ، كما كان يعتمد على الوثائق ومنها رسائل القاضى الفاضل . ومعظم كتبه لا تخرج عن هذا السياق. ويمكننا الاطمئنان إلى أن كتاباته عن صلاح الدين وابنه الظاهر غازى فى كتابه « عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر » قد كتب أحداثها معاينة ومعاصرة .

أما أسلوب ابن أبى طىّ فلا يخرج كثيرًا عن أسلوب معاصريه ، ويقترب من أسلوب المؤرخ الكبير ابن الأثير وهو معاصره ، وتوفيا فى سنة واحدة . فكتاباته تتسم بالإيجاز ، والسرد البسيط ، الذى يبتعد فيه عن الأسلوب الأدبى لعصره ، فهو يحاول تجنب الزخرفة والصنعة ، والتكلف والألفاظ البديعة والمنمقة ، وغير ذلك من أساليب الصنعة ، ويحاول أن يختار الألفاظ المقبولة السهلة الوقع على السامع والتى تحافظ على الخبر وتظهره .

كذلك يلاحظ عليه أنه كان أحياناً يسرد دقائق الأمور ، ويغوص فى التفاصيل إيضاحاً أو جواباً . وهذا ما يجعلنا نقول : إنه كان يقدم الأحداث الجزئية للاقتراب من الحقائق . وهذا الأمر يدل على سعة إطلاعه وبعد نظره ورؤيته التاريخية الواضحة فى رواياته .

والآن وبعد ما تقدم فإننا نضع بين أيدى القراء بعض الإشكالات المثارة حول هذا الموضوع ، آمل أن تتضافر الجهود للوصول إلى مقترحات محددة ومفيدة حيالها . ونضع لمن يعمل على هذا الطريق الحلول والتصورات المناسبة والرؤية الواضحة المفيدة . علنا نساعد كل من يبحث فى هذا التراث المفقود ليجد ضالته المنشودة الصعبة المنال .

الهوامش

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٥ ، ياقوت : معجم الأدباء جـ١ ص ٢٣٢ ، ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ص ١٠٦.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٥٥ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٥٦ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٧ ، الذهبى : العبر جـ٥ ص ١٧٨ ، طبقات الشافعية جـ٤ ص ٢٦١ للسبكى ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ص٣١٦ - ٣٢٢ ، ابن العماد : شذرات جـ٥ ص ٢٢٢ .

(٤) القفطى : أبناء الرواة جـ٢ ص ٢٤١ / ٢٤٢ ، الذهبى : سير اعلام النبلاء ، جـ٢ ص٤٦٧ ، السبكى : طبقات جـ٥ ص ١٥٤ ، المقريزى : السلوك ص٨١ ، طبقات الشافعية: جـ٧ ص ١٤ ، السيوطى : بغية الوعاء جـ٢ ص ١٥٥ ، النعيمى : الدارس جـ١ ص ٢٠٣ .

(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٢ ، العماد : شذرات جـ٤ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٤١ .

(٧) أبو المحاسن : النجوم جـ٧ ص ٢٩٩ .

(٨) ورد أبو الفضل : انظر عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين جـ١٣/١٤ ، ص١٩٥ « بيروت دار إحياء التراث العربى » ، شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، البغدادى : هدية العرافين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : المجلد الثانى ص ٥٢٤ (طهران ط٣ ١٣٨٧هـ / ١٩٤٧م) .

(٩) قيل ابن حميده : وهى أمه ، انظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قيل أن اسم أمه فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور : كماء جاء عند كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 .

(١٠) الطائى : نسبة إلى اسمه ابن أبى طى وليس كونه من قبيلة طى .

(١١) يذكر عمر رضا كحاله : أنه بخارى ص ١٤٥ ، المرجع السابق . لكن ليس بخارى أنما نجارى لأنه ورث مهنة التجاره عن والده .

(١٢) لا تعرف سنة وفاته ولعلها ما بين ٦٢٥ أو ٦٢٧- ٦٣٠هـ ، شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(١٣) ابن العديم : بغية الطلب ورقة ١٦٣، ١٧٣ ، والغزى : نهر الذهب جـ١ ص ١٢٥ ، زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص ١٤٤ ، بيروت ١٩٩٢ .

(١٤) انظر ذلك فى ترجمة ابن العديم فى معجم الأدباء لياقوت الحموى : حيث يورد أن أحد أجداد ابن أبى جراده كان شيعياً .

(١٥) شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١ ص ٢٨٦ ، « تحقيق حسن الأمين ، بيروت ١٩٨٣ » .

(١٦) ورد اسمها كما أشرنا فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور انظر كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 . وشاكر مصطفى : المرجع السابق، جـ٢ ص٢٥٢.

(١٧) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان جـ٦ ص ٢٦٣ / ٢٦٤ ط بيروت ١٩٧١م .

(١٨) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٧٩ (مادة أثارب) ومعجم الأدباء ص ١٤٢ . ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، جـ ، ص ٢٩٢٦ ، ٢٩٢٧، دمشق ١٩٧٩م .

(١٩) ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٨٧٥ ، ١٨٨٤ .

(٢٠) شاكر مصطفى : المرجع السابق والصفحة .

(٢١) انظر : ابن شداد : الأعلاق قسم حلب ص ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢٢) انظر : كل من شاكر مصطفى جـ٢ ص ٢٥٣ - ومحسن الأمين جـ١ ص ٢٧٦ .

(٢٣) شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون جـ١ ص ٥٨٢ .

(٢٤) محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١٠ ص ٢٨٦ .

(٢٥) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين جـ١٣ ، ١٤ ، ص ١٩٥ .

(٢٦) مصطفى جواد : مجلة الكتاب ص ٤٧٧ ، مصر دار المعارف للطباعة والنشر العدد ٦ لعام ١٩٤٨ .

(٢٦) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٤ ، ٥ .

(٢٧) انظر فيما سبق من هذا البحث ، كلود كاهن : المرجع السابق والصفحات .

المصادر والمراجع

- **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .

- **أحمد أحمد بدوى** : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ١٩٧٢ .

- **البغدادى** : هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين جـ٢ استانبول سنة١٩٥٥ و جـ٣ طهرن ١٩٤٧م (١٣٨٧هـ) .

- **ابن حجر العسقلانى** : لسان الميزان جـ٦ ، ط٢ بيروت ١٩٧١ .

- **حاجى خليفة** : كشف الظنون (الاستانه ١٩٤١م) .

- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨م .

- **خليل بن ايبك الصفدى** : نكت الهميان فى نكت العميان (مصر ١٩١١م) .

- **ابن خلكان** : وفيات الأعيان جـ٢ ، بيروت ١٩٨٨ .

- **ابن خلدون** : العبر وديوان المبتدأ والخبر .

- **الذهبى** : تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٨٨م) .

- **الزركلى** : الإعلام جـ٨ « بيروت دار العلم للملايين » .

- **السبكى** : طبقات الشافعية جـ٤ (ط ١٣٢٤هـ) .

- **السيوطى** : طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٨م) - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط مصر ١٣٢١هـ) .

- **سرور جمال الدين** : الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٩٥) .

- **ابن الشحنة** : تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) .

- **أبو شامه** : الروضتين فى أخبار الدولتين (طبع مصر ١٢٨٠هـ) .

- **شاكر مصطفى** : التاريخ العربى والمؤرخين جـ٢ الكويت .

- **ابن شداد** : الإعلاق الخطيرة - قسم حلب (دمشق ١٩٩١م) .

- **عمر رضا كحاله** : معجم المؤلفين جـ١٣ ، جـ١٤ دار أحياء التراث العربى «ونسخة دمشق ١٩٦١م » .

- **ابن العديم** : زبده الحلب فى تاريخ حلب (دمشق ١٩٥٤م) بغية الطلب فى أخبار حلب جـ٤ و جـ٦ ، دمشق ١٩٧٩ .

- **محمد راغب الطباخ** : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٤ « حلب دار القلم العربى » طبعة ١ ، ١٩٢٣ وطبعة ٢ ، ١٩٨٩ .

- **محسن الأمين** : أعيان الشيعة جـ١٠ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **مصطفى جواد** : « بمجلة الكتاب » مصر العدد ٦ لسنة ١٩٤٨م .

- **الغزى** : نهر الذهب فى تاريخ حلب « المطبعة المارونية » .

- **الشيخ اقابزرك الطهرانى** : الذريعة إلى تصانيف الشيعة جـ١ وجـ٣ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **المقريزى** : الخطط جـ١ ، ١٣٢٥هـ - وكتاب السلوك جـ١ وجـ٣ طبع القاهرة ١٩٣٩م .

- **ابن قاضى شهبه** : الكواكب الدرية فى السيرة النورية - والإعلام .

- **القفطى** : تاريخ الحكماء « طبعة ليبسك ١٩٠٣م وطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .

- **كرد على** : خطط الشام جـ٢ ، جـ٤ (دمشق ١٩٣٨م) ,طبعة ١٩٢٥م .

- **ابن كثير** : البداية والنهاية جـ١٢ ، مصر السعادة .

- **ياقوت الحموى** : معجم البلدان (١٣٢٣هـ) معجم الأدباء (١٩٣٦م) .

موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل في ضوء وثائق الخارجية المصرية

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي(*)

تعددت مصادر تاريخ العرب منذ فجر التاريخ حتى الآن من نقوش وآثار وكتابات وكانت الوثائق بطبيعة الحال مصدر من مصادر تاريخ العرب ومعرفة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحينما دونت الوثائق لم يكن يدر بخلد كاتبيها أنها ستكون مرجعا تاريخيا ، بل كانت تدون لحفظ الحقوق ولتنظيم العلاقات سواء على مستوى الدول (كمعاهدات واتفاقيات) أو على مستوى الأفراد (كوثائق البيوع والوثائق الشرعية وغيرها) ووثائق وزارة الخارجية المصرية(*) تعد من أهم مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر نظر لأنها أقدم زمنيا من غيرها فى الدول العربية الأخرى.

ولأهمية هذه الوثائق التاريخية قسمت هذه الدراسة قسمين :

(أ) قسم نظرى .　　　　(ب) قسم تطبيقى .

أولاً : القسم النظرى :

(أ) كيفية تصنيف هذه الوثائق فى دار الوثائق القومية :

تعد وثائق الخارجية المصرية من الوثائق البكر التى تم السماح للباحثين بالاطلاع عليها منذ فترة ليست بالبعيدة ، وتحفظ معظم هذه الوثائق بدار الوثائق القومية(*) بالقاهرة وهناك مجموعة أخرى محفوظة بقصر عابدين ، وتتناول وثائق الخارجية المصرية كافة المسائل التى تتعلق بالشئون السياسية (داخلية وخارجية)، والاقتصادية ، والاجتماعية ولم ترصد هذه الوثائق كل ما يتعلق بمصر فحسب بل أنها ترصد ما يتعلق بالدول العربية والدول الأجنبية - أحياناً .

(*) جامعة الأزهر .

ويوجد فى دار الوثائق - فيما يخص وثائق الخارجية - ما يقرب من خمسة فهارس هى :

١ - الأرشيف السرى القديم « جزءان » .

٢ - الأرشيف السرى الجديد « جزءان » .

٣ - أرشيف الإدارة الاقتصادية .

٤ - أرشيف الإدارة الأوربية .

٥ - الأرشيف العادى .

وقد تم الانتهاء من فهرسة الأرشيفين الأول والثانى ، ويجرى العمل فى الأرشيفات الثلاثة الباقية .

أما الأرشيف السرى القديم فيحتوى على ما يقرب من (٩٢٣) محفظة ، بكل محفظة عدد من الملفات المختلفة التى قد يصل بعضها إلى ثلاثين (٣٠) ملف وبحصر ملفات هذا الأرشيف ، نجد أنه يهتم بالأمور القنصلية والاجتماعية والصحية والاقتصادية ، وجاءت غالبية الوثائق بهذا الأرشيف مكتوبة باللغة الفرنسية باستثناء بعض الوثائق التى كتبت باللغة العربية .

أما الأرشيف السرى الجديد ، ففيه ما يقرب من ألف وستمائة وسبع عشرة محفظة (١٦١٧) تصل الملفات فى بعضها إلى (١٧) ملف .

وتتناول معظم الوثائق الخاصة بهذا الأرشيف الأمور السياسية ، بالإضافة إلى الأمور التجارية . ويتناول هذا الأرشيف الفترة من العشرينات حتى بداية الستينات من هذا القرن .

وجدير بالذكر ، أن الأرشيف السرى الجديد به مادة غزيرة جدًا لفترة الخمسينات ، حيث الأحداث السياسية الهامة التى أعقبت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ م . واللغة السائدة فى كتابة هذا الأرشيف هى اللغة العربية ، اللهم بعض

الوثائق الخاصة بفترة العشرينات والثلاثينات والتى كتب بعضها باللغة الفرنسية ، ويعود السبب فى كتابة بعض هذه الوثائق باللغة الفرنسية إلى أنها فرضت كلغة أساسية للعمل الدبلوماسي .

وبالإضافة إلى الأرشيفات الخمسة - المذكورة آنفا - هناك بعض الأرشيفات الخاصة بدول معينة ، فهناك على سبيل المثال ثلاث محافظ خاصة بالمراسلات الواردة من السفارة المصرية بجدة والرد عليها ، وهى تغطى الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٥٩ م وكلها تقارير سياسية ، اللهم بعض الملفات التى تتناول بعض الأمور الاقتصادية وأمور الحج . هذا بإيجاز عرض لكيفية تصنيف هذه الوثائق وكيفية فهرستها ، وهنا يبرز سؤال وهو : هل من الممكن تزييف تلك الوثائق ؟

الإجابة فى رأيى لا ، حيث تعد هذه الوثائق من الوثائق الرسمية ولا يعتد بها إلا إذا كانت ممهورة بخاتم الوزارة أو خاتم السفارة ، مع توقيع الراسل عليها ، فضلا عن أن هذه الوثائق ترسل عادة بالحقيبة الدبلوماسية حسب درجة الأهمية أو السرية .

وهناك أمر آخر وهو أنه حينما كان يتم الرد على الوثائق الصادرة والواردة من وإلى الوزارة كان يرمز إليها برقمها وملخصها فإذا ما دست برقية على السفارة أو على الوزارة كان من اليسير اكتشافها ، خاصة وأن هناك بعض الرموز الاصطلاحية المتفق عليها بين الوزارة والبعثات الدبلوماسية فى الخارج ، وإذا زيفت وثيقة خاصة بالسفارة أو الوزارة كان يمكن اكتشافها من ألفاظها أو من الخاتم الذى تختم به .

وهناك بعض الأمثلة على ذلك حيث دست بعض المستندات على السفارة المصرية فى بيروت ووصلت المستندات المزيفة إلى السفارة السعودية فى بيروت على أنها صورة طبق الأصل لتقارير صادرة من السفارة المصرية ولكن تم الكشف عن هذه الوثائق من خلال الصياغة التى صيغت بها ، حيث أستعمل المزورون

ألفاظا ، وتعابير سورية ، أو لبنانية ، مما لا يستخدم فى الصياغة المصرية(*) ومن هنا كان الجواب على سؤال عما إذا كان من الممكن تزييف الوثائق المصرية أم لا ؟ ، بالنفى .

(ب) كيفية الاطلاع على هذه الوثائق :

هناك العديد من الإجراءات التى على الباحث أن يتبعها حتى يتسنى له الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية ، وتكون هذه الإجراءات على النحو التالى:

١ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى مدير عام دار الوثائق القومية ، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية .

٢ - يملأ الباحث الاستمارات اللازمة لاستخراج التصريح .

٣ - ضرورة الحصول على موافقة الأمن بدار الوثائق وتستغرق هذه الموافقة ما بين ١٥ - ٤٥ يوما .

٤ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى السيد السفير مدير إدارة المعلومات بوزارة الخارجية المصرية، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية.

٥ - تستغرق هذه الموافقة عدة أشهر تتراوح ما بين شهر إلى ستة أشهر حسب أهمية الموضوع .

٦ - بعد موافقة الأمن بدار الوثائق يتم استخراج تصريح بالاطلاع على الوثائق يدون فيه رقم التصريح ورقم الموافقة ، وجميع البيانات الشخصية للباحث ، وموضوع البحث .

٧ - لا يحق للباحث الاطلاع على الوثائق إلا بعد الحصول على موافقة إدارة المعلومات بوزارة الخارجية .

٨ - غير مسموح بتصوير هذه الوثائق لأنها تعد من الوثائق السيادية ولا يتم التصوير منها إلا إذا وافقت الجهات المعنية بوزارة الخارجية .

٩ - هناك مدة اعتبارية للتصريح الذى يحصل عليه الباحث وهى خمسة أعوام وأحيانا يتم التجاوز عنها لحين الانتهاء من البحث .

١٠ - تسرى هذه الإجراءات على المصريين والعرب والأجانب بدون استثناء .

(جـ) أهمية وثائق الخارجية المصرية :

قبل استعراض أهمية هذه الوثائق ينبغى أن نحدد أهميتها وخصائصها . والواقع إن هذه الوثائق عبارة عن تقارير يومية ترسل من الهيئات الدبلوماسية المصرية (سفارات - مفوضيات - قنصليات) فى الخارج إلى الوزارة والعكس ، وهى تتناول الأحداث الجارية - زمن كتابة الوثيقة - ويستعرض فيها السفير أو الوزارة الآراء المختلفة فى موضوع ما ، وأحيانا يرفق بالمراسلات التى يبعث بها السفراء بعض التقارير التى يكتبها المستشارون والملاحق بناء على تكليف من السفير أو القنصل أو الوزير المفوض . وتكون هذه التقارير ، فى معظم الأحيان مستخلصات للقاءات تمت بين المستشار أو الملحق مع بعض المسئولين فى بلد ما ، بالإضافة إلى مستخلصات لأهم ما تناقلته الصحافة ووكالات الأنباء فى ذلك البلد. وهذه الوثائق ليست خاصة بالمراسلات بين الوزارة والهيئات الدبلوماسية فحسب ، بل تضم أيضا محاضر الجامعة العربية والمراسلات التى تبودلت بين الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات العربية والأجنبية ، بالإضافة إلى نصوص بعض المعاهدات والاتفاقيات (تجارية - اقتصادية - زراعية - سياسية ... الخ) وربما يوجد فيها بعض المذكرات لكبار الشخصيات كمذكرات الملك فاروق ملك مصر ، وكانت تنشر فى بعض الصحف الأجنبية .

أما أهميةهذه الوثائق فلا يمكن الحكم عليها إلا بقراءة بعض النماذج ومنها:

١ - وثائق تبرز التضامن العربى :

فمن الوثائق الهامة التى تبرز التضامن العربى والوحدة العربية تلك المراسلات التى تبودلت قبيل عقد اللجنة التحضيرية لتكوين الجامعة العربية ، والتى انعقدت

فيما بين يوليو / تموز - أغسطس / آب ١٩٤٤ م بين مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر والزعماء العرب ، من أجل تكوين الجامعة العربية وبرز خلال تلك المراسلات حرص العرب على ضرورة إيجاد ممثل لفلسطين في هذه الاجتماعات ، ومدى تضافر الجهود العربية للحفاظ على عروبة فلسطين ، وتتجلى هذه المراسلات وهذه الروح من خلال الرسالة التى بعث بها الملك عبد الله بن الحسين إلى رئيس الوزراء النحاس باشا بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٦٣ هـ الموافق ١٤ أغسطس / آب ١٩٤٤ م مبينا له أهمية تمثيل الفلسطينيين في هذه اللجنة، وموضحا خطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على ما وراءها من بلاد عربية أيضا ، وفى مقدمتها الأردن . وفى نهاية الرسالة اقترح الملك عبد الله بعض الأسماء الفلسطينية لتمثل الجانب الفلسطيني في اللجنة التحضيرية(*) وهناك أيضا الرسالة التى تلقاها النحاس باشا من السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان معربا عن موافقته على الاشتراك في اللجنة التحضيرية ، وكذلك عن أمله في أن يكون هناك ممثلون لفلسطين في تلك الاجتماعات . وفى نهاية الرسالة أعرب له عن أن غياب فلسطين عن الاجتماعات لن يزيد ممثلى شقيقاتها إلا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها (**).

٢ - وثائق تبرز سياسة مصر تجاه بعض القضايا العربية :

من الأمور الهامة التى تناولتها الوثائق المصرية على المستوى السياسى المصرى واتجاهات وزارة الخارجية تجاه القضايا العربية ، ذلك الاجتماع الذى عقد تحت اسم « المؤتمر الدبلوماسى العربى » بتاريخ ٤ فبراير / شباط ١٩٥٠ م ، وهو خاص بوزارة الخارجية المصرية ، حيث حضره وزير الخارجية والسفراء المصريون فى الدول العربية وفى نهاية المؤتمر تم إصدار عدة قرارات سرية للغاية ، ومن أهم - وأخطر - تلك القرارات ما كان يتصل بموقف مصر وسياستها تجاه موضوع

(*) انظر الملحق رقم (١) .

(**) انظر الملحق رقم (٢)

اتحاد سوريا والعراق (مشروع الهلال الخصيب) حيث صدر عن المؤتمر عدة قرارات فى هذا الشأن منها :

١ - يكون الموقف الرسمى للحكومة المصرية هو الحياد المطلق بين جميع التيارات الموجودة داخل سوريا .

٢ - معارضة الاتحاد بين البلدين بطريق مفتعل .

٣ - تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا .. إلخ(*) .

أى أن القرارات طالبت بأن تكون سياسة مصر فى هذا الموضوع ذات شقين ، شق ظاهرى وهو الحياد المطلق بين جميع التيارات السياسية السورية سواء التى تدعو للوحدة مع العراق أو التى تدعو للوحدة مع مصر ، وشق آخر سرى وهو عرقلة هذا المشروع ومعارضته بصور مفتعله مع تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا حتى يتم فشل المشروع .

٣ - وثائق تبرز تعاون مصر مع جامعة الدول العربية :

وهناك وثائق تظهر مدى التعاون بين مصر وجامعة الدول العربية فيما يختص بالشئون الدولية والعربية ومن ذلك ، تلك المذكرة التى بعثت بها الإدارة السياسية بجامعة الدول العربية إلى وزارة الخارجية المصرية تحيطها علما بطلب إمامة عمان الداخلية الانضمام إلى الجامعة ١٩٥٤ م ، وتطلب من وزارة الخارجية المصرية تزويدها بما تستطيع من بيانات أو دراسات أو وثائق خاصة بشئون إمامة عمان ووضعها السياسى(**)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية . محفظة ١٤٠١ ملف ٤ / ١٩٨ / ١ سرى جدًا " المؤتمر الدبلوماسى العربى ٤ فبراير ١٩٥٠ م "

(**) انظر الملحق (٣) .

٤ – وثائق تبرز التأييد الشعبى للقضايا العربية :

ومن الوثائق التى تبرز التضامن العربى على المستوى الشعبى ما جاء إبان أزمة السويس من برقيات تندد بالاستعمار والمستعمرين ، وتؤيد الموقف المصرى . ومن هذه الوثائق البرقية التى أرسلها أحد خطباء المساجد فى سوريا إلى الرئيس جمال عبد الناصر مؤيدا له ولسياسته،وينقل إليه عاطفته وعاطفة الشباب السورى تجاه مصر ورئيسها وقضيتها.

٥ – وثائق تصحح بعض الأخبار المغلوطة :

وكما توجد وثائق هامة تبرز لنا التعاون العربى والسياسة العربية وبعض المواقف الشعبية ، فهناك وثائق أخرى على درجة كبيرة من الأهمية ومهمتها تصحيح بعض الأخبار المغلوطة ، ومنها – على سبيل المثال – ما ذكرته إحدى الدوريات الأجنبية Middle East Journal فى عددها شتاء عام ١٩٥٧ م العدد (١١) رقم (١) بتاريخ ٢٢ ديسمبر / كانون أول ص ٧٦ ، بأن وزير خارجية ألمانيا الغربية صرح بأنه «يستعجل حكومته لوقف دفع التعويضات لإسرائيل ودفعها لمصر بدلا منها » فالباحث فى موقف حكومة ألمانيا الغربية من أزمة السويس عام ١٩٥٦ م حينما يعتمد على هذه الدورية سوف يورد هذا الخبر على أنه حقيقة مسلم بها ، ولكن بالرجوع إلى وثائق الخارجية المصرية ، نجد أن الخارجية المصرية قد تعجبت حينئذ من هذا الخبر لأنه يخالف الواقع ويتنافى مع ما كان يذكره وزير خارجية ألمانيا الغربية من أن بلاده سوف تستمر فى دفع التعويضات لإسرائيل بدون النظر إلى النزاع العربى / الإسرائيلى ، فأرسلت الخارجية بدورها إلى المستشار الصحفى بالسفارة المصرية فى واشنطن – حيث تصدر المجلة – تستعلم منه عن صحة هذا الخبر ، فأرسل الأخير بدوره إلى رئيس تحرير المجلة الذى أفاد « بأن خطأ مطبعيا قد وقع فى كتابة الخبر ، وأن التصريح المشار إليه صدر عن وزير خارجية ألمانيا الشرقية وليس الغربية كما ورد خطأ فى المجلة »(*)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية – محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٨ وثيقتان بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢١ م ، ١٩٥٧/٦/١١ م من وكيل الخارجية إلى المستشار الصحفى لسفارة مصر بواشنطن والرد عليها برقم ١١٥ .

وكان الأمر يستلزم نشر تكذيب أو تصحيح للخبر فى العدد التالى أو فى الأعداد التالية فى نفس المكان كما تنص الأعراف ، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث وظل الأمر كما هو بصورته المغلوطة ولكن الوثائق على هذا النحو قد صححت خطأ لم تصححه المجلة التى أوردت الخبر المكذوب .

٦ - وثائق تبرز مساعدات مصر لبعض الدول على المستوى الفردى :

تكتظ وثائق الخارجية المصرية بالعديد من الوثائق التى توضح المساعدات المصرية لبعض الأقطار العربية الشقيقة ، وعلى سبيل المثال تلك البرقية التى وردت إلى الإدارة العربية بوزارة الخارجية من السفارة المصرية بالرباط بشأن الوضع السياسى فى المغرب وكيفية مساعدة مصر والدول العربية لهذا البلد الشقيق . وأهم ما ذكره التقرير فى هذا الشأن هو ضرورة طرد الكادر الفنى الفرنسى الذى تستعين به الحكومة المغربية وإحلال العرب من الفنيين محله وضرورة مناصرة مصر للعناصر المغربية للاتجاه نحو الدول العربية (**) .

هذا عرض موجز لأهمية هذه الوثائق سواء فى مجال التعاون العربى أو فى مجال تصحيح بعض المفاهيم والمواقف السياسية .

- أضواء على القسم النظرى :

جدير بنا قبل البدء فى الجزء التطبيقى أن نلقى الضوء على القسم النظرى من خلال الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذه الوثائق ، والاقتراحات التى يمكن بها تلافى تلك الصعوبات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين فى هذه الوثائق منع التصوير منعا باتا إلا بالحصول على موافقة الخارجية المصرية ، وهذا لا يحدث إلا فى القليل النادر جدا ، وبجهود خاصة ، مما يجعل بعض الباحثين يحصلون على الوثائق بطرق غير مشروعة . وهنا يجب فتح باب التصوير من هذه الوثائق ، كما هو متبع

(**) انظر الملحق رقم (٤).

فى كبرى دور الوثائق ، وهذا من شأنه أن يعود بالنفع على تطوير دار الوثائق، كما يكون مصدر دخل للدولة ، نظرا لأهمية هذه الوثائق ، التى اتجهت إليها أنظار الباحثين من كل مكان .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين أيضا ،كثرة تكرار صور الوثائق فى الملف الواحد . ويجب هنا تنقية هذه الملفات من الوثائق المتكررة ، حتى لا تكون مطمعًا لبعض الباحثين من ضعاف النفوس بنزعها من الملفات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود بعض الوثائق الممزقة ، نتيجة لسوء التخزين والاستخدام ، مما يستدعى ضرورة نقل هذه الوثائق على مصغرات فيلمية أى / « ميكروفيلم » لسهولة حفظه والاطلاع عليه والتصوير منه دون أضرار .

- ومن الصعوبات -أيضا- عدم التطابق بين ملفات المحفظة الواحدة فى الموضوع.

- فى أغلب الأحيان - وعلى سبيل المثال المحفظة رقم ١٣٢٨ بها عدد ثلاث ملفات وهى :

١ - ملف رقم ١٣٩/١٤٢/٤١ج٢ « عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن أكتوبر ١٩٥٦ » .

٢ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/١ « المجلس الدولى للأرز - اجتماعات اللجان ».

٣ - ملف رقم ١٣٩/١٤٣/٩ « اللجنة الخاصة ببحث مشاكل تصريف ومداركة السلع الغذائية والزراعية » .

فنلاحظ أن ملفات المحفظة لا يربطها موضوع واحد كما أن الفترة الزمنية متباعدة فالملف الأول فى عام ١٩٥٦ م ، والثانى عام ٥٢ - ١٩٥٣ م ، والثالث ٤٩ - ١٩٥٠ م ، فيجب حصر الملفات الخاصة بموضوع واحد ووضعها فى محفظة أو محفظتين حسب عدد الملفات وتأخذ أرقاما مسلسلة حتى يسهل الاطلاع عليها .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود عناوين لبعض الملفات فى المحافظ ، وبالرجوع إلى محفظة ما ، نجد أن هذا الملف مسحوب وبالسؤال عنه لا تجد إجابة ؟ وعلى سبيل المثال ملف رقم ٣٧ / ٤٠ / ١٣ (أحداث فلسطين السياسية) مسحوب من المحفظة رقم (١٥١٦) .

ومن الأمور التى توضح عدم الدقة فى التصنيف ما لاحظه الباحث فى الملف رقم ١٤ / ١٤ / ١ فى المحفظة رقم ١٢٤٧ حيث أخذ الملف اسم ((الحالة على الحدود النجدية / العراقية)) وبالرجوع إلى الملف وجد أن الورقة الأولى فقط هى التى تتناول هذا الموضوع وباقي الملف لا يمت للموضوع بصلة . وهذا الأمر يستدعى تأليف لجنة متخصصة لقراءة هذه الوثائق وتصنيفها حسب الموضوعات وحسب درجة الأهمية .

وبعد ، فهذه بعض الصعوبات التى قد تواجه الباحثين فى وثائق الخارجية المصرية ، ولكنها لا تمثل شيئا فى سبيل الحصول على المعلومة المفيدة والجديدة ، وتجعلنا نقف على وجهة النظر المصرية والعربية من خلال وثائق عربية صميمة وليست من خلال الوثائق الأجنبية وحدها .

* * *

ثانيًا : القسم التطبيقى :

هذا القسم أفردته للحديث عن « موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ». وهذه القضية تعد من القضايا السياسية ذات الصبغة الاقتصادية ، فالاقتصاد والسياسة عاملان متداخلان ممتزجان من الصعب الفصل بينهما . وترجع فكرة التعويضات إلى عام ١٩٤٣ م وكان صاحبها أحد اليهود الصهاينة فى الولايات المتحدة وهو جورج لاندوير George Landauer ، ثم تولى الصهيونى زجفريد موسى Siegfried Moses أمر عرضها أمام الرأى العام العالمى منذ عام ١٩٤٤(١) .

وقد بدأت المفاوضات المباشرة بين ألمانيا وإسرائيل بشأن هذه التعويضات اعتبارا من مارس (آذار) ١٩٥٢ م ، حيث وافق الكنيست الإسرائيلي على الدخول في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا بشأن التعويضات بأغلبية ٦١ - ٥٠ صوتا . وقد استمرت المفاوضات ما يقرب من سبعة أشهر تم خلالها الاتفاق على حجم التعويضات وكيفية سدادها ، وانتهت بعقد اتفاقية لوكسمبورج Luxembourg في ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ م(٢) .

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل البرلمان الألماني بمجلسيه البوندستاج(*) Bundestag في ١٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ م ووافق عليها بأغلبية ٢٣٨ ضد ٣٤ وامتناع ٨٦ صوتا ، والبندسرات(**) Bundesrat في ٢٠ مارس ١٩٥٣ م الذى وافق عليها بالإجماع ، وعقب ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية د. هس Heuss وأصبحت قانونا نافذا منذ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ م على أن يبدأ تنفيذها من أول إبريل (نيسان) ١٩٥٣ م(٣) .

وتم استيفاء اتفاق بر وكسيل بحلول عام ١٩٦٥ م ولكن كانت هناك بعض التعويضات الفردية تقوم ألمانيا بدفعها للأفراد اليهود الذين تعرضوا أو ذووهم للاضطهاد ، وسوف تستمر هذه التعويضات حتى عام ٢٠٣٠(٤) .

وكان السبب فى عقد ألمانيا لهذه الاتفاقية كما يقول « الهر فون برنتانو Von Brantono وزير خارجية ألمانيا » (أن هذه التعويضات أعطيت لإسرائيل نتيجة لضغوط معينة - حدثت فى الماضى - على ألمانيا) (٥) هذا عن اتفاقية التعويضات ، أما عن موقف مصر من هذه الاتفاقية فيدور فى محورين :

(*) البوندستاج : أحد مجلسى الهيئة التشريعية فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) وأهمها وهو يمثل الشعب وينتخب انتخابا مباشرا . وينتخب المستشار .

(**) البوندسرات : المجلس التشريعى الثانى فى جمهورية ألمانيا الاتحادية وهو أقل أهمية من البوندستاج لأن السلطة تتركز فى البوندستاج وهو يتكون من أعضاء يمثلون حكومات الولايات الألمانية .

(أ) موقف مصر فى الإطار العربى .

(ب) موقف مصر منفردة .

المحور الأول : موقف مصر من اتفاقية التعويضات فى الإطار العربى :

أخذت جامعة الدول العربية على عاتقها منذ إنشائها - وحتى الآن - الدعوة للقضية الفلسطينية ، والعمل على نصرة عرب فلسطين ، وحث الحكومات العربية على انتهاج هذه السياسة (٦). وعقب بدأ المفاوضات الألمانية / الإسرائيلية - بشأن التعويضات ، جاء أول تحرك عربى فى مارس (آذار) ١٩٥٢ م وكان هذا التحرك من جانب سوريا ، التى اقترحت أن تتحرك الدول العربية لمنع وصول هذه التعويضات إلى إسرائيل ، وفى مقابلة بين الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) والأمين العام لوزارة الخارجية السورية ، اقترح الأخير أن تسعى الدول العربية لدى الدول الكبرى الثلاث (أمريكا - فرنسا - بريطانيا) لكى يعملوا على تحويل مبلغ التعويضات المقرر إعطاؤه لإسرائيل من ألمانيا لصالح لاجئ فلسطين الذين شردتهم الحكومة الإسرائيلية وعددهم ما يقرب من مليون عربى(٧).

وبناء على الاقتراح السورى ، أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية عن طريق القنصل المصرى بفرانكفورت ، وخلال استفسار القنصل المصرى عن مصير هذه المذكرة من الهر (فون اتسدورف) Von Etzdorf مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية ، يقول القنصل المصرى (إننى فهمت من حديث اتسدورف أن حكومة ألمانيا الغربية لا تربطها أية صله رسمية أو غير رسمية بجامعة الدول العربية ، ولهذا يهم حكومة ألمانيا الغربية أن تعرف هل يمكن اعتبار المذكرة المقدمة من الجامعة هى مذكرة الحكومة المصرية فقلت أن مذكرة الجامعة مقدمة فقط عن طريق الحكومة المصرية (٨) . وفى نهاية التقرير ينصح القنصل المصرى بضرورة تقديم مذكرة احتجاج مصرية إلى الحكومة الألمانية ، وأن تحذو باقى الدول العربية حذو مصر ، على أن يصر العرب فى احتجاجاتهم على ضرورة تعويض اللاجئين العرب خاصة وأن المعاهدة لم توقع بعد(٩) .

وبعد توقيع معاهدة لوكسمبورج ، وحينما لم تأت مذكرة الجامعة العربية بنتيجة مرجوة ، سعت سوريا بطريقة منفردة لدى الحكومة الألمانية ، حيث أرسلت د . مأمون الحموى المستشار بوزارة الخارجية السورية لمقابلة المسئولين فى الحكومة الألمانية لبحث موضوع التعويضات ، وعقب لقائه بهم تقابل الحموى مع القنصل المصرى فتباحثا فى أمر التعويضات ، ثم استقر رأيهما على عدة أمور كمقترحات تعرض على مجلس الجامعة العربية للنظر فيها ومنها :

١ - اتخاذ قرار جماعى بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا فى حالة إذا ما أقر البرلمان الألمانى مشروع الاتفاق .

٢ - إجراء مباحثات بين الدول العربية وبين حكومة ألمانيا على أساس عدم الموافقة على تعويض إسرائيل بتاتا ، وإلا فيكون تعويضها لأفراد اليهود فقط الذين أضيروا .

٣ - الاحتجاج لدى الحكومة الأمريكية بسبب ضغطها على ألمانيا لدفع التعويضات لإسرائيل .... الخ (١٠).

وفى اقتراح آخر من القنصل العام المصرى - مع قرب تبادل التمثيل الدبلوماسى بين العرب وألمانيا - اقترح أن تطلب الحكومات العربية من ألمانيا التريث فى إرسال ممثليها إلى البلاد العربية إلى أن يتضح موقفها من مسألة التعويضات ، وذلك حتى تشعر الحكومة الألمانية بأن البلاد العربية جميعها جادة فى موقفها مع ألمانيا من اتفاقية التعويضات لإسرائيل (١١).

وعلى الرغم من احتجاجات العرب على توقيع اتفاقية التعويضات أعلن المستشار الألمانى آديناور Adenauer أنه وقع على الاتفاقية « وبذلك فإنه حافظ على كلمته » (١٢). أى أن هذه الاحتجاجات لم تؤثر فى قرارات المستشار الألمانى ، وإن كانت قد أحدثت بعض التأثيرات لدى بعض المسئولين حيث أعلن وزير الخارجية الألمانية - آنذاك - (فون اكاردت Von Ekardet) أن هذه الاتفاقية لن تضر بالعرب بأى شكل من الأشكال (١٣). كما أثرت الدعاية العربية

فى بعض الأوساط الألمانية حيث قدم ما يقرب من ثلاثين عضو فى البوندستاج Boundstag يمثلون أربعة أحزاب رسالة إلى الحكومة تحذرها وتطالب بعدم التصديق على معاهدة لوكسمبورج وضرورة مراعاة رد الفعل العربى(١٤) .

ومع منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ م سافر إلى بون وفد يمثل أعضاء جامعة الدول العربية لمباحثة الحكومة الألمانية فى اتفاقية التعويضات . وقد أجرى الوفد مقابلات مع المسئولين الألمان ، ولم تؤت هذه الاتصالات ثمارها بل أن الوفد لم يفلح فى إقناع المسئولين فى ألمانيا بوجهة النظر العربية(١٥) .

وبعد فشل الوفد وعودته من ألمانيا ، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى نوفمبر (تشرين ثان)١٩٥٢ م واتخذت عدة قرارات كان منها:

١ - تقديم مذكرة احتجاج إلى حكومة ألمانيا الغربية تتضمن أنه فى حالة التصديق على معاهدة التعويضات الألمانية مع إسرائيل فستجد دول الجامعة العربية نفسها مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات التى ولا شك ستؤثر على العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا الغربية والدول العربية .

٢ - قبول الدخول فى محادثات مع حكومة جمهورية الاتحاد الألمانى بشأن معاهدة التعويضات بينها وبين إسرائيل ، على أن تجرى هذه المحادثات فى القاهرة بين وفد يمثل ألمانيا ووفد يمثل حكومات دول الجامعة العربية ، ويؤلف من عضو أو أكثر من كل هذه الدول(١٦) .

وبالفعل أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية ، أوضحت فيها التهديد الذى تمثله اتفاقية التعويضات للدول العربية ، وأن هذه الدول لا يمكنها أن تغض النظر عن المساعدة الضخمة التى تقدمها ألمانيا لدولة هى فى حالة حرب معها . وبينت المذكرة أنه نظرا لعدم استجابة الحكومة الألمانية للاحتجاجات العربية - فردية وجماعية - وعزمها على التصديق على المعاهدة ، فإنها مضطرة للدفاع عن مصالحها ، وأنها قد تضطر إلى قطع العلاقات الاقتصادية مع

الجمهورية الاتحادية فورا « ولما كانت الدول العربية تأمل فى ألا تضطر إلى اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فهى تنتظر أن تقوم الجمهورية الاتحادية فورا بعمل يتفق مع ما عرضته من بدء محادثات مع الدول العربية بالطرق الدبلوماسية »(١٧) .

ونتيجة للمذكرة العربية ، حذر السياسى الألمانى « فرانز جوزيف شتراوس Franz Josef Strauss » أحد زعماء الحزب الاشتراكي المسيحى فى بيان له فى ٥ يناير (كانون ثان) ١٩٥٣ م ، أن توقيع الاتفاق مع إسرائيل ربما يكلف ألمانيا خسارة فى السوق العربى تصل إلى مليار ومائه وتسعون مليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة(١٨) .

واستمرت جهود مصر بالتعاون مع جامعة الدول العربية فى التضييق على هذه الاتفاقية ، حيث طلبت مصر من الجامعة إدراج قضية التعويضات فى جدول الجامعة ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣ م وذلك نتيجة لخرق ألمانيا وإسرائيل بنود هذه المعاهدة بالسماح لإسرائيل بشراء منتجات من إنجلترا وخصم قيمتها من حساب التعويضات المستحق لها قبل ألمانيا الغربية ، إذا أن إسرائيل بهذا العمل تستطيع الحصول على كل ما تحتاجه من سلع أساسية حربية كانت أو غيرها من كافة أنحاء العالم على حساب اتفاقية التعويضات(١٩).

وفى لقاء جمع السفير المصرى والقائم بأعمال المفوضية السورية ووزير العراق المفوض ببون اقترحوا خلال اللقاء ضرورة مراقبة تنفيذ نصوص الاتفاقية بدقة كما جاءت ، والحيلولة دون مساعى إسرائيل لتزيد من حصتها باسترعاء انتباه الحكومة الألمانية إلى أن هذا الموقف يعتبر موقفا عدائيا ضد العرب(٢٠) .

ونتيجة لرصد الدول العربية لنوعية البضائع التى تحصل عليها إسرائيل من أموال التعويضات ، أصدرت الجامعة العربية فى جلستها الثامنة من دور الانعقاد العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م عدة قرارات كان منها « أن تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الألمانية وإفهامها أن هناك مواد وخامات وآلات تصدر إلى إسرائيل من شأنها أن تساعد على تنمية اقتصاديات إسرائيل

وزيادة قدرتها على الإنتاج الحربى ولا يسع الدول العربية السكوت على مثل هذه الأمور »(٢١) .

وحينما أعلنت إسرائيل عزمها على عقد قرض من ألمانيا الغربية بناء على اتفاقية التعويضات ، وقرض آخر من البيوتات المالية الألمانية ، تدارست اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية هذا الأمر فى ١٩٥٤/٩/١٠ م وقررت ما يلى «تبذل الحكومات العربية المساعى اللازمة للتثبت من الأخبار التى وردت من البعثات العربية فى ألمانيا والمتعلقة بسعى إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومات الألمانية وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية ، واتخاذ الوسائل اللازمة لإحباط ذلك المسعى » (٢٢).

وبناءا على ذلك استدعى وكيل وزارة الخارجية بالإدارة الاقتصادية ، القائم بأعمال السفارة الألمانية بالقاهرة وأبلغه ما سيترتب على ذلك النبأ - إن صح - من استياء شديد فى مصر وفى الدول العربية مما يعرض العلاقات بينهم وبين ألمانيا للخطر ، فأنكر القائم بالأعمال معرفته بهذا الخبر حتى يستعلم عنه من حكومته وفى ٩ / أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤ م تقابل مرة أخرى مع مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة وأخبره نفى حكومته نفيا باتا لهذا الخبر ، وأنه لا علم لها بالمفاوضات الدائرة بين بعض البيوتات التجارية الألمانية وإسرائيل (٢٣).

واستمرارا لجهود الجامعة العربية لوقف أى قروض جديدة من ألمانيا لإسرائيل قررت فى اجتماعات اللجنة السياسية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٥٥م (بمواصلة السعى الدبلوماسى لدى ألمانيا الغربية لإحباط محاولة إسرائيل الحصول على قروض منها) (٢٤) .

وتوالت اجتماعات العرب الرسمية وغير الرسمية ، ومن بينها ذلك الاجتماع الذى عقده رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول العربية فى بون بتاريخ ١٩٥٦/٦/٢٢ م ناقشوا خلاله موافقة المجلس النيابى الألمانى البوندستاج Bundestag فى جلسته بتاريخ ٦ / يونية (حزيران) ١٩٥٦ م على مشروع

قانون لزيادة المبالغ المخصصة لتعويض جميع من اضطهدوا فى ألمانيا خلال الحكم النازى . وفى نهاية اللقاء أصدر المجتمعون قرارا بضرورة الاتصال بحكوماتهم لشرح الموقف ذاكرين (أن ما يخشى الآن ليس صدور القانون الجديد لزيادة مبالغ التعويضات فحسب ، بل يخشى أيضا ألا تكون هذه الزيادة هى الأخيرة ، وأنه يجب اتخاذ إجراء جماعى سريع للإضرار بمصالح ألمانيا الاقتصادية فى البلاد العربية ، حتى تشعر ألمانيا بسخط الدول العربية على موقفها إزاء اليهود عسى أن يتحرك الرأى العام الألمانى ويندد بسياسة حكومته (٢٥). وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر أرسلت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٦ م أخبرتها فيها بأن ألمانيا - رغم وقوع العدوان على مصر واشتراك إسرائيل فيه - لا زالت مستمرة فى دفع التعويضات مما يقوى الجانب المعتدى ، واقترحت أن تقوم وزارات خارجية الدول العربية باستدعاء ممثلى الحكومة الفيدرالية وإبلاغهم (قلق الحكومات العربية من سياسة ألمانيا الغربية فى هذا الشأن) (٢٦) . وقد أرسلت الحكومات العربية مذكرات بهذا المعنى إلى الحكومة الألمانية ولكنها لم تجد نفعا(٢٧) . وفى الاجتماع الذى عقده المبعوثون الدبلوماسيون العرب فى بون فى ٨ مايو (آيار) ١٩٥٧ م تدارسوا أمر إرسال برقية احتجاج موحدة للحكومة الألمانية حول استمرارها فى دفع التعويضات لإسرائيل ، فرأى المجتمعون أن هذه المذكرة قد تحرج موقف البعثات العربية فى ألمانيا إذ أن الحكومة الألمانية قد تمتنع عن قبولها من الناحية الشكلية ، وقد رأى المجتمعون « أنه من المتعذر حمل ألمانيا على الرجوع عن قرارها بدفع التعويضات بعد مضى فترة طويلة وبعد أن تم دفع معظم هذه التعويضات»(٢٨) .

وهكذا اقتنع الدبلوماسيون العرب فى ألمانيا باستحالة تغيير هذه الاتفاقية وأدركوا أنه يجب على العرب أن يتخذوا خطوات أخرى بديلة للعمل الدبلوماسى وهو العمل الموحد من كافة الدول العربية باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ألمانيا ،

مع الإشارة إلى أن أى تهديد كلامى يضعف موقف العرب من مشكلة التعويضات ومن أى مشكلة مستقبلية بين العرب والحكومة الألمانية (٢٩) .

- **المقاطعة العربية :**

كانت المقاطعة العربية خاصة بإسرائيل ، وكان الهدف منها عمل حصار اقتصادى على إسرائيل حتى تضعف ويسهل بعد ذلك القضاء عليها ، وعقب التوقيع على اتفاقية التعويضات أعلنت دول الجامعة العربية مرارا وتكرارا أنها سوف تقاطع ألمانيا اقتصاديا إذا تم التصويت على المعاهدة . وعقب التصويت عليها اتخذت اللجنة السياسية عدة قرارات بعدم استيراد بضائع ألمانية بصورة غير مباشرة حتى لا يكون ذلك وسيلة لتهريب بضائع لحساب إسرائيل ، وإجبار المستوردين من ألمانيا على الحصول على شهادات من السلطات الحكومية المختصة والغرف التجارية أو اتحاد الصناعات بألمانيا تثبت أن البضائع المصدرة للبلدان العربية هى لحساب المصانع ولا تشكل جزءاً من التعويضات الألمانية لإسرائيل ، على أن تعتمد هذه الشهادة من إحدى القنصليات أو المفوضيات العربية بألمانيا . ولتنفيذ هذه التوصيات ، أوصت اللجنة بتعين موظف أو أكثر يتبع المكتب الرئيسى للمقاطعة ويكون مقره ألمانيا (٣٠) .

وأضاف المجلس الاقتصادي للجامعة بندا ينص على مطالبة مكاتب المقاطعة بتحرى وجمع المعلومات والوثائق الخاصة بتصريف بضائع التعويضات الألمانية المسلمة لإسرائيل فى بلد آخر(٣١) ، حتى لا تتسرب تلك البضائع إلى الدول العربية عن طريق بلد ثالث .

وبناء على ذلك أخذت مكاتب المقاطعة العربية تتحرى عن الشركات التى يشتبه فى تعاملها مع إسرائيل وتصدر بضائع إلى الدول العربية (*) .

(*) انظر على سبيل المثال : محفظة رقم ٧٨٩ ملف ١٢٣/١٤٠/ج١٣ (مكتب مكافحة التهريب لإسرائيل) . تقرير عن الاجتماع الرابع الذى عقدته لجنة الاتصالات العربية فى بون بتاريخ ١٩٦٠/٧/٨ م بتاريخ ١٩٦٠/٨/٢٢ م برقم ب/م/٤ .

وقد يتسائل البعض ، ما مدى تأثير هذه المقاطعة على إسرائيل ؟

مما لا يدع مجالا للشك أن المقاطعة العربية لإسرائيل قد أثرت بصورة كبيرة على مصالح إسرائيل الاقتصادية ، وأنها - كانت - تمثل خطرا حقيقيا على إسرائيل . ومما يؤيد ذلك ، أن إسرائيل سعت فى تلك الفترة إلى إنشاء إدارة خاصة فى وزارة الخارجية الإسرائيلية تسمى «إدارة التخطيط السياسى الاقتصادى» وتكون مهمتها إعداد الخطط اللازمة لمقاومة المقاطعة الاقتصادية التى يفرضها العرب ضد إسرائيل (٣٢) .

وهنا تبرز أهمية العامل الاقتصادي فى تحقيق الأغراض السياسية إذا ما توحدت الكلمة والجهود وخلصت النيات .

هذا عن موقف مصر من قضية التعويضات فى الإطار الجماعى العربى .

المحور الثانى : موقف مصر من قضية التعويضات منفردة :

كانت العلاقات المصرية الألمانية تسير سيرا طيباً عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكانت مصر أول دولة عربية تعلن إنهاء الحرب مع ألمانيا ، ثم تبعتها باقى الدول العربية (٣٣) . وعلى الجانب الاقتصادي دخلت مصر مع ألمانيا فى عدة اتفاقيات تجارية كان أولها ذلك الاتفاق الذى أبرم فى ٢١ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ م . (*) ولكن عقب إعلان اتفاقية التعويضات تحركت مصر لأن مركزها فى العالم العربى هو مركز الزعامة الأدبية الذى يتطلب منها عناية كبرى بجميع الحوادث التى تقع فى تلك البلاد مع الإلمام بجميع التيارات السياسية القائمة فيها ودراسة الاتجاهات التى تنتهجها تلك التيارات والمرامى التى تستهدفها . ومن هذا المنطلق جاء موقف مصر المتتبع لقضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ، فقبل إبرام الاتفاقية سعت مصر لعمل دعاية مضادة لها إلا أن قنصل مصر العام فى

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاتفاق انظر : وثائق الخارجية المصرية محفظة ١٣٢٩ ملف ١٣٠ / ٧٤ / ٢ (العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا) .

فرانكفورت نصح حكومته بالقيام أولا « بجس نبض » الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية خطوة علنية ، كما نصح « بجس نبض » الجهات الألمانية بصفة سرية لمحاولة وقف أى اتفاق مع اليهود (٣٤) . وبالفعل قام السفير المصرى بواشنطن بمساعيه لدى المسئولين فى الولايات المتحدة ، بناء على طلب الحكومة المصرية ، فتقابل مع وكيل الوزارة المساعد لشئون الشرق الأوسط، فأوضح له الأخير أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين الطرفين فى شأن يخصهما (٣٥) . وعقب عقد الاتفاقية أعدت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة لخصت فيها موقف مصر من الاتفاقية ، وكيف أن ألمانيا بهذه الاتفاقية قد انتهجت سبيلا مناقضا لسياسة الصداقة التقليدية نحو المسلمين والعرب ، وأن إسرائيل لم تكن دولة حينما وقع عدوان على اليهود من النازى - إن صح - فليس لها الحق فى أن تحصل على التعويضات نيابة عنهم ، وقد أبلغت إدارة الصحافة بهذه المذكرة لإبلاغها لبعض الصحفيين الألمان لتنشر فى ألمانيا(٣٦) .

وفى أحد التقارير الواردة للوزارة من السفارة المصرية ببون تعرض السفير للأسباب التى دعت ألمانيا لعقد تلك الاتفاقية وحصرها فى عاملين :

١ - حاجة ألمانيا الشديدة - فى ذلك الوقت - لمساعدة أمريكا السياسية والاقتصادية وتوسلها لذلك عن طريق إرضاء الصهيونية الأمريكية.

٢ - وجود نوع من التعاطف - عند بعض من يتولون الحكم فى ألمانيا - تجاه اليهود .

وتوقع السفير - فى نهاية التقرير - أن لا تصمد الاتفاقية أمام تفاعل الزمن، وأوضح أنه خلال لقاءاته مع المسئولين الألمان كان يؤكد لهم بأن الحكومة المصرية وسفارتها بصفة خاصة لن تغفل عن مراقبة كل ما تلجأ إليه إسرائيل من الأحابيل فى تنفيذ الاتفاقية(٣٧) .

وبالفعل بدأت الحكومة والمخابرات المصرية فى تتبع سير تطبيق الاتفاقية ، ومن ذلك ما قامت به إدارة المخابرات من تحر عن استلام إسرائيل لأربعة سفن من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات ، وأن هذا يخالف نصوص الاتفاقية لأن السفن تعتبر من المعدات الإستراتيجية ، وهذا لا يتفق مع ما سبق أن أعلنته الدول الكبرى من ضرورة مراعاة الحياد التام بين البلاد العربية وإسرائيل (٣٨) .

ومحاولة منها لمنع تسرب بضائع التعويضات إلى مصر والدول العربية، سعت مصر من خلال سفيرها فى بون لدى الحكومة الألمانية تطلب منها ضرورة وضع علامة مميزة على المصنوعات التى ترسل إلى إسرائيل كجزء من التعويضات ، واقترحت أن يكتب عليها Made In Germany For Israel حتى يمكن تمييزها عن باقى البضائع والمصنوعات الألمانية العادية(٣٩).

وفى تحريات أخرى قامت بها السفارة المصرية فى بون عن طريق السيد عبد اللطيف فهمى العيسى المستشار فى السفارة خلال لقائه بالدكتور « فوجت » Dr. Voigt رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية حول الشائعات التى كانت تثار حول حصول إسرائيل على أسلحة من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات نفى الأخير تلك الشائعات وأوضح أن اتفاقية التعويضات بها نص صريح يحرم على ألمانيا تزويد إسرائيل بأى نوع من أنواع السلاح بموجب هذه الاتفاقية(٤٠) .

وفى لقائه بوزير الاقتصاد الألمانى إرهاد Erhard أبلغه القنصل العام المصرى رسميا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ أن مصر - والدول العربية - سوف تقطع علاقاتها الاقتصادية بألمانيا فى حالة التصديق على الاتفاقية ، فإجابة الوزير بأن تصريحه يخالف تصريحات اللواء محمد نجيب خلال لقائه مع السفير الألمانى فى القاهرة ، فأجابه القنصل بأنه تلقى تعليمات جديدة من وكيل الخارجية بالتليفون فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) تؤيد ما قاله وهى أن اللواء نجيب كان شخصيا ضد

الاتفاقية ، وأن حديثه مع السفير الألمانى كان لمجرد الترحيب به لمناسبة وصوله إلى القاهرة(٤١) .

وبمناسبة طرح موضوع مقاطعة ألمانيا اقتصاديا اختلفت الآراء فى مصر حول هذا الموضوع ، حيث طالبت بعض الأصوات الدبلوماسية بضرورة مقاطعة ألمانيا اقتصاديا ، لما سببته اتفاقية التعويضات من أضرار معنوية وسياسية لمصر وللعرب جميعا وطالبت بعض تلك الأصوات - المؤيدة للمقاطعة - بضرورة دراسة موضوع المقاطعة من جميع نواحيها ونتائجها قبل الخوض فيها(٤٢) . كما علقت وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية) على موضوع المقاطعة بأنه يجب دراسة العلاقات الاقتصادية بين العرب وألمانيا جيدا بمعرفة إخصائيين على ضوء حاجة الاقتصاد العربى(٤٣) .

وعلى الجانب الآخر نجد من يحذر وبشدة اتخاذ أى قرار بمقاطعة ألمانيا اقتصاديا . ومن ذلك تلك البرقيات التى وردت إلى الوزارة من السفارة المصرية بنيويورك توضح أن جميع الدول العربية إذا قاطعت ألمانيا لن تفقد هذه الدول شيئا، إذ أنه يكاد ألا يكون هناك تعامل بينها وبين ألمانيا ، هذا بخلاف مصر التى لها معاملات مع ألمانيا أكثر من أى دولة عربية أخرى ، وفى النهاية نبهت تلك البرقيات إلى « أن ألمانيا الغربية تتمتع الآن برخاء اقتصادي ، فقد يكون من المناسب أن نطلب إليها منحنا بعض الامتيازات الاقتصادية نظير ما تقوم بدفعه من تعويضات لإسرائيل » (٤٤) .

وبناء على هذا الرأى لم تأخذ مصر بالرأى القائل بالمقاطعة ، والدليل على ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا لم تتأثر بعد اتفاقية التعويضات (*) .

وحينما أثارت سوريا مسألة تحويل بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين سعت مصر لدى ألمانيا وبعض الحكومات الغربية عسى أن تحصل على

(*) انظر جدول الصادرات والواردات بين ألمانيا والدول العربية . Feldman : op . cit . p.p. 195, 197

موافقتها على ذلك ففى لاهاى سعى السفير المصرى لدى نظيره الألمانى حتى يثير هذه المسألة لدى حكومته . وحينما أرسل السفير الألمانى إلى حكومته فى هذا الأمر أجابت عليه الخارجية الألمانية « بأن الجهات المسئولة فى ألمانيا الغربية ترى أنه ليس من اختصاص السفارة الألمانية بلاهاى البحث مع ممثل الحكومة المصرية فى هذا الموضوع بل هو من اختصاص ممثل مصر لدى حكومة ألمانيا الغربية»(٤٥). وقد قامت مصر بمساعى مماثلة لدى تركيا وفرنسا إلا أنها باءت بالفشل(*) ، أما على الجانب الأمريكى ، والتى رأت الإدارة العربية ضرورة مفاتحته فى أمر تعويض اللاجئين العرب بسبب نفوذ الولايات المتحدة على إسرائيل، وما تفيض عليها به من مساعدات مالية متنوعة ، فقام السفير المصرى فى واشنطن بمقابلة وكيل الوزارة المساعد المختص بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ، وأوضح له وجهة نظر مصر - والدول العربية - فى هذه المسألة ، فكان رده أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين طرفين فى شأن يخصهما ، فذكره السفير المصرى بأن أمريكا سوف تساعد ألمانيا فى دفع هذه المبالغ وتخصيصها لتعويض اللاجئين العرب ، فرد عليه الوكيل المساعد بأن أمريكا سوف تدفع هذه التعويضات عينا - حاصلات ومصنوعات - على آجال طويلة(٤٦) .

وبذلك فشل المسعى المصرى فى إقناع الحكومة الألمانية وبعض الحكومات الغربية فى تحويل جزء من مبالغ التعويضات لحساب اللاجئين العرب ، - وجاءت تلك المساعى - على الرغم من إدراك الحكومة المصرية جيدا باستحالة تحقيق

(*) انظر ذلك المسعى فى : المصدر نفسه نفس المحفظة والملف ، برقية من وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية)إلى سفير مصر بباريس سرى بتاريخ ١٠ / يونيو ١٩٥٢ م ، رد السفير المصرى بأنقرة على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ٣ / يونيو ١٩٥٢ م برقم ١٤٨ ، ورد السفير المصرى بباريس (محمد وحيه رستم) على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٧ / ٦ / ١٩ برقم ٤١ .

الغرض منها من النواحى القانونية ، إذ أن ذلك قد يعرض ألمانيا للمطالبة مرة ثانية بالتعويضات إلا إذا وافقت إسرائيل على دفع التعويض المستحق لها إلى جهة أخرى(٤٧) .

وحينما تسربت بعض الأنباء عن تصريف بضائع التعويضات فى بعض البلدان العربية عن طريق بلد ثالث كان على الحكومة المصرية أن تعمل على التحرى عن كيفية تصريف تلك البضائع ، فأرسلت الخارجية المصرية إلى نظيرتها الألمانية تستعلم منها عن محاولة إسرائيل تصدير بضائع ألمانيا إلى تركيا ، فردت الحكومة الألمانية عن طريق السفير المصرى فى بون بضرورة أن تكون هذه الوقائع مستندة إلى أدلة ثابتة على وقوع المخالفة ليتيسر للحكومة الألمانية أن تتخذ الإجراءات المناسبة بتوقيع الغرامة المنصوص عليها فى المادة الخامسة على إسرائيل ، ولحفظ البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية فى مستواها المعروف دون خلق منافس لها وهو أمر يهم الاقتصاد الألمانى(٤٨) .

وقد ظل موضوع تصريف البضائع فى الدول العربية عن طريق بلد ثالث يشغل بال الحكومة المصرية ، حيث نما إلى علمها أن إسرائيل قد صدرت إلى تركيا سيارات من أموال التعويضات ، وسوف تقوم تركيا بدورها بإعادة تصديرها إلى مصر ، فأرسلت الخارجية المصرية بذلك إلى سفيرها فى أنقرة الذى كلف القنصل العام المصرى فى إستنبول بإجراء التحريات اللازمة فى هذا الشأن ، فجاء تقريره ينفى هذا الخبر ، وأن السيارات التى تستوردها تركيا من إسرائيل هى من السيارات التى يتم تجميعها فى إسرائيل وليست من السيارات الألمانية ، وأن تركيا تستوردها للاستخدام المحلى ، وفى نهاية التقرير أكد القنصل العام «أن إعادة تصدير السيارات الألمانية إلى مصر فكرة بعيدة الاحتمال»(٤٩) .

ويمكن القول ، أن الحكومة المصرية قد ارتاحت لتأكيدات المسئولين فى ألمانيا الغربية بأن تصريف البضائع الألمانية المصدرة إلى إسرائيل إلى بلد ثالث أمر غير وارد نظرا لمخالفته لاتفاقية التعويضات ولأضراره الجسيمة على الاقتصاد الألمانى وهو أمر لا تقبله ألمانيا .

وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م أعلن وزير خارجية ألمانيا الهر (فون برنتانو – Von Brentano) – أثناء نظر العدوان الثلاثى على مصر أمام هيئة الأمم المتحدة – أن ألمانيا سوف تستمر فى دفع التعويضات إلى إسرائيل حتى لو أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع العقوبات على إسرائيل(٥٠) . وفى ردها على مذكرة الخارجية المصرية ، أعلنت الخارجية الألمانية أنها لا توافق على وجهة نظر السفارة المصرية التى أوضحتها فى مذكراتها بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٦ م بأن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل قد يكون له تأثير فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الألمانية وإسرائيل(٥١) .

ومع إصرار الحكومة الألمانية على دفع التعويضات إلى إسرائيل أوعزت الخارجية المصرية إلى جامعة الدول العربية بأن تطلب من الدول الأعضاء الإيعاز إلى ممثليها فى ألمانيا بتقديم مذكرة احتجاج إلى الحكومة المذكورة لاستمرارها فى دفع التعويضات إلى إسرائيل رغم عدوانها على مصر(٥٢) . ولكن الخارجية الألمانية ردت على مذكرة الدول العربية بعدم قبولها وجهة النظر العربية(٥٣) .

وعلى الرغم من موقف ألمانيا غير الودى تجاه مصر أبان أزمة السويس ، فإن الخارجية المصرية استبعدت نهائيا قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وعللت ذلك بأن دول أخرى اتخذت نفس الموقف و لم تقطع مصر علاقاتها معها ، وأن ألمانيا كان يحركها عامل آخر وهو أنها إحدى الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى وارتباط سياستها بعجلة السياسية الغربية، ووازنت الخارجية المصرية بين الفوائد والأضرار التى ستجنى من وراء قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وأن إسرائيل سوف تكون المستفيد الأول من وراء ذلك(٥٤) .

أما فيما يتعلق بموضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل، فقد أعلنت ألمانيا مرارا وتكرارا خلال الخمسينات أنها لن تقيم أى علاقات دبلوماسية مع إسرائيل خشية إغضاب الرأى العام العربى الذى مازال متأثرا باتفاقية التعويضات(٥٥) . وقد أكد الدكتور « فوجت VOIGT » رئيس قسم الشرق فى الخارجية الألمانية لمستشار السفارة المصرية ببون أن القنصلية العامة البريطانية فى حيفا هى التى تتولى نيابة عن ألمانيا الشئون القنصلية الخاصة بها(٥٦) .

وعلى الرغم من تأكيدات المسئولين فى الخارجية الألمانية بعدم تبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل ، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، حيث أكد كبار الفقهاء الألمان فى القانون الدولى أن اتفاقية التعويضات التى وقعت مع إسرائيل ترتب عليها اعتراف واقعى بإسرائيل De Facto (٥٧). وأكدوا على أن الخطوة التالية لهذا الاعتراف هى إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين(٥٨) .

وحينما عرضت مسألة اعتراف ألمانيا بإسرائيل على بساط البحث فى أروقة السياسة العربية ، أثيرت معها مرة أخرى مسألة قطع العلاقات مع ألمانيا ، فكان رأى بعض السياسيين المصريين أن قطع العلاقات مع ألمانيا فيه ضرر كبير على المصالح المصرية ، إذ أنه سيحرم مصر من مصدر كبير لاحتياجاتها ، وسوقا مهمة لمنتجاتها ، فالمصلحة - كما يقول الوزير المفوض المصرى بالسفارة المصرية بواشنطن - تقتضى « أن تغلب الاعتبارات العملية عند بحث موضوع اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، لأن أى عمل نتخذه ضد ألمانيا سيكون ضرره علينا أكبر من ضرره على ألمانيا »(٥٩) .

أضواء على القسم التطبيقى :

بعد دراسة موقف مصر من قضية التعويضات على المستويين الجماعى العربى والفردى ، نجد أن مصر قد تعاونت تعاونا طيبا مع باقى الدول العربية من أجل إبطال مفعول هذه الاتفاقية ، أو الحصول على بعضها للاجئين العرب ،

وعلى الرغم من الجهود المشتركة فى تلك القضية إلا أنها لم تؤت ثمارها ، حيث أدرك السياسيون فى ألمانيا أن العرب يقولون ولا يفعلون وهذا ما أكدته بعض المصادر ، فالمستشار الألمانى أديناور Adenauer أدرك أن تهديد العرب بمقاطعة ألمانيا كان عقيما (٦٠) ، ومن ناحية أخرى فإن د . ويسترش Dr : Westrich - الذى كان قد أرسله أديناور إلى القاهرة قبيل التصديق على المعاهدة لمقابلة الزعماء العرب - نصح حكومته عقب عودته من القاهرة بالتصديق على المعاهدة فورا لأنه شعر خلال لقاءاته بالزعماء العرب فى القاهرة أنهم لن يفعلوا شيئا أكثر من تقليل علاقاتهم مع بون (٦١) . وهذا يعنى أن ألمانيا لم تعر معارضة العرب للاتفاقية التفاتا ، وسارت فى تطبيق الاتفاقية بحذافيرها ، بل كانت تعطى لإسرائيل قروضا إضافية طالما أن العرب لن يفعلوا شيئا !

أما موقف مصر منفردة فقد عملت على إتباع سياستين ، إحداهما علنية والأخرى سرية ، فالعلنية جاءت لتعلن رفضها للاتفاق وتهديد من حين لأخر بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا ، بينما جاءت قراراتها غير المعلنة بالعمل على الحصول من ألمانيا على أكبر قدر من الفوائد ، حيث أدركت أن قطع العلاقات - سياسية واقتصادية - مع ألمانيا سوف يضر بمصر ولا ينفعها ويؤثر على التوازن الذى تريد أن تحافظ عليه فى سياستها الخارجية ، أى أن مصر من خلال الموقف الفردى كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، مع القيام فى الوقت نفسه بمجهودات أخرى لمتابعة الممنوعات التى تصدر من ألمانيا لإسرائيل كأسلحة وغيرها ، والقيام بمسعى للحصول على بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين .

وهنا يبرز سؤال وهو ما السبب فى عدم تحقيق الأهداف العربية تجاه قضية التعويضات ؟

من خلال الدراسة وضح مدى تأثير المقاطعة العربية على إسرائيل من الناحية الاقتصادية ، مما جعل الأخيرة تقوم بإنشاء إدارة خاصة لمواجهة هذه المقاطعة ،

ويرجع السبب فى ذلـك أن الـدول العربيـة جميعهـا الأعضـاء وغـير الأعضـاء فـى الجامعة العربية تكاتفت من أجل إنجاح المقاطعة لأن المصلحة العربية اقتضـت ذلـك ولخطورة ذلك العدو على الجميع على حد سواء وإذا كـانت المقاطعـة العربيـة قـد كان لها تأثير على إسرائيل بسبب اتحاد موقف الـدول العربيـة ، فـإن موقـف هـذه الدول إزاء ألمانيا لم يحقق نفس النجاح لأن كل دولـة مـن الـدول العربيـة لم تتخـذ موقفا موحدا ، بل كانت كل دولة مـن الـدول العربيـة تنظـر إلى الموضـوع نظـرة فردية ، ماذا ستكسب وماذا ستخسر من الضغط على ألمانيا وقطع العلاقات معها؟

ويقينى أن الاقتصاد هو المحرك الأول للسياسـة ، ونحـن كعـرب نسـتطيع أن نحقق الكثير من الأهداف عن طريق الضغط الاقتصادى مع دائـرة توسـيع التعـاون الاقتصادى بحيث تشمل كتلة الدول الإسلامية التى يهددها الخطـر - إن عـاجلاً أو آجلاً - فالعالم العربى والإسلامى من الأهمية الاقتصاديـة بمكـان حيـث يسـتطيع التأثير على مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية .



عمان في ٢٥ شعبان ١٣٦٣

الموافق ١٤ اغسطس ١٩٤٤

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة الجليلة المصرية .

يا صاحب الرفعة ،

لقد عاد عبد المنعم بك الرفاعي بما شرح الصدر واثلج الفؤاد كما هو المأمول والمعروف عن رفعتكم . وسيتشرف رئيس الوزارة الأردنية لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة ان شاء الله في الوقت المحدد . واتماما للفائدة رأيت أن أبث رفعتكم افكاري من خصوص فلسطين وتمثيلها في المؤتمر وانه أمر ضروري غاية في الخطورة لأنني اعتقد جازما أن اغفال فلسطين هو اسقاط حق لها يجب ان لا يغفل ، ولذلك كنتم رفعتكم تصرون على هذا التمثيل وتفعلون المعجزات لطلب التفهم كان منهم في المؤتمر العربي بلندن . أما الآن فلي أن اقول بأنه لما وقع الاعتداء الأخير من الصهيونيين على المندوب السامي المودع تبين بجلاء خطر اليهود على فلسطين وتوثبهم الى ما وراء فلسطين ، واننا بنسبة جوارنا القريب فأن الدعوى الصهيونيه تهددنا هنا قبل اى قطر آخر وعليه فأمر حفظ كيان فلسطين وسلامتها هو أمر حيوى لشرق الأردن ، واننا أشرنا على حكومتنا بأمر اصدرناه في ان تتخذ ما يجب لتأمين هذا الغرض الشريف وان تذاكر الجهات البريطانية وتعلمها بأن فلسطين هي الخط الأول للدفاع عن شرق الأردن وما وراءها من الأقطار العربيه واننا سنتخذ الحيطة اللازمة لسلامة فلسطين بعد أن بلغ من الصهيونيين الأمر الى التجاوز على الحكومة ومراكزها وعلى مندوبها السامي وانه مع هذا فأن الأمة العربية لا تغلق الباب متى عرضت عليها التسوية الكافلـــه لفلسطين العربيه سلامتها وسيادتها . فوالحالة هذه ترون رفعتكم أن أمر تمثيل فلسطين في المؤتمر هو بالنسبة الينا في الدرجة الأولى وأن الاراء في شرقي الأردن وفلسطين واحدة في هذه المعضلة القومية ، لذلك استدعيت سعادة القنصل العام لمصر بالقدس لينقل الى رفعتكم كتابي هذا بالواسطة السريعة الأمينة ولتنوير المسألة اقدم لرفعتكم قائمة بأسماء الذوات الذين ارجو ان تتفضلوا بأرسال كتب الدعوى الى حضراتهم ليحضروا المؤتمر موضحا فيها اسم الحزب الذى ينتمي اليه كل من حضراتهم .

ملحق رقم	١

RÉPUBLIQUE LIBANAISE

N°

الجمهورية اللبنانية

عدد

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر

تلقيت دعوتكم الكريمة للاشتراك في اللجنة التحضيرية التي ستنعقد بمصر في اواخر يوليو – اغسطس سنة ١٩٤٤ تمهيدا لمؤتمر الوحدة العربية الذي كان لكم فضل الدعوة اليه .

ويسرني ان اجيب رفعتكم بان الحكومة اللبنانية قررت تلبية هذه الدعوة على ان يمثلها في اللجنة رئيس وزرائها ووزير خارجيتها .

وانني انتهز هذه الفرصة لاعرب لرفعتكم عن وافر تقديري للجهود التي تبذلونها في هذا السبيل وعن ثقتي الكاملة بالنجاح بفضل حكمتكم واخلاصكم

ولقد اسفت اشد الاسف لبقاء الزعيمين الفلسطينيين السيدين جمال الحسيني وامين التميمي في الاعتقال برغم الجهود الكريمة التي بذلتموها لاعادة الحرية اليهما حتى يتمكنا من تمثيل فلسطين العزيزة في هذه الاجتماعات خير تمثيل .

وانني لشديد الرجاء ان جهودكم التي لن تنقطع في هذا السبيل ستؤول الى النجاح قريبا باذن الله . على ان غياب فلسطين لن يزيد ممثلي شقيقاتها الا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها .

وتفضلوا رفعتكم بقبول جزيل الاحترام ./.

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٤٤

رئيس مجلس وزراء لبنان

رياض الصلح

ملحق رقم	٢

الامانة العامة
—
الادارة السياسية
١-٢٠/٢/٢٢ د

القاهرة في ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤

١٦

٥٥٥٠

مذكـــــرة

تهدي الامانة العامة لجامعة الدول العربية أطيب تحياتها الى وزارة خارجية جمهورية مصـــــــــــر وتتشرف بابلاغها ان مجلس الجامعة وافـــق بجلسة ١١ ديسمبر ١٩٥٤ على التوصية الآتية للجنة السياسية في اجتماعها مـــن ٢٦ نوفمبر الى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وهي :

* طلب عمان الداخلية الانضمام الى الجامعـة :

" احيطت اللجنة علماً برسالة امام عمان الداخلية ، واوصت بانتظار نتيجة ماتقوم به الامانة العامة مستعينة بالدول الاعضاء من دراسات لامامة عمان . "

وذلك رجاء التفضل بتزويد الامانة العامة بما قد يكون لديها او تقف عليه مـن بيانات او دراسات او وثائق تعرف بشئون امامة عمان ، او تبين وضعها السياسي .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب للوزارة الجليلة عن فائق احترامها . ، ،

الى وزارة خارجية جمهورية مصـــر

القاهرة

وزارة الخارجية ...
١٢/٢١ ٦/١٤٠



عمان في ......

وانني اعتقد أن هذا هو الحل الرائق لنا جميعا وان سعادة القنصل العام سيقدم اليكم رجاء خاصا بعد عريضتي هذه كي تتفضلوا بالقيام بتنفيذ ملتمسنا في ارسال كتب الدعوة .

وتفضلوا مقامكم الرفيع بقبول فائق المودة والاحتـــــــرام .



اللجنة التمثيلية الفلسطينية العربية المقترح ايفادها لمؤتمر الوحدة العربية

عوني بك عبد الهادي	عن	حزب الاستقلال
الدكتور حسين بك الخالدي	:	: الإصلاح
عبد اللطيف بك صلاح	:	: الكتلة الوطنية
راغب بك النشاشيبي	:	: الدفاع
موسى بك العلمي	:	مستقل
يعقوب بك الغصين	:	حزب الشباب
توفيق افندي الحسيني	:	الحزب العربي (نيابة عن جمال بك)
رفيق بك ~~[illegible]~~ التميمي	.	نيابة عن الحزب العربي (الأصلي)
الفرد بك روك فؤاد افندي سابا	:	الأقليات

الوزارة الخارجية

٦/١٢١/١٤٠

سرى

السيد حامد محمــــود
مدير مكتب السيد وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية

اتشرف بأن ابعث لسيادتكم رفق هذا صورة من كتاب سفارتنا بالرباط رقم ٢٩٨ سرى بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٢١ بشأن مشاكل المغرب ومدى المســاعدات التى يمكن ان تقدمها مصر والدول العربية الاخرى ٠

والحكومة الحالية فى المغرب اغلب اعضائها من حزب الاستقلال ، وهــى ترى تصفية مشاكلها المعلقة مع فرنسا أو سبانيا وذلك بالمفاوضة المستمرة البعيــدة عن سياسة العنف ٠

وقد قامت مفاوضات بين المغرب وفرنسا بشأن قروض يحتاجها المغــرب تبلغ حوالى مائة مليار من الفرنكات لمدة ثلاثة اعوام ٠ وتضغط فرنسا على المغرب لكى تفوز بامضاء معاهدة الاستيطان التى تكسب ما استولى عليه الفرنسيون من اراضى زراعية ـ صبغة قانونية ٠

وقد حصل المغرب فى اوائل عام ١٩٥٧ من فرنسا على قرض حوالـــى ١٥ مليار من الفرنكات وعلى التزامات باربعة مليارات ٠ هذا بخلاف المعونــــة الامريكية وهى ٢٠ مليون دولار قرض و ٥٠ الف طن هبة ٠

والمغرب يسير على سياسة غربية مع مبادلة الشعوب العربية الود تقديـرا لمساعدتهم اليه فى دفاعه عن قضيته ، وهذا هو رأى الحكومة الحالية الآ ان ـ الشعب والمعارضة يقفان ملتوفى الايدى من الناحية الاخرى ٠

وقد ظهرت حركة بين بعض المتذمرين من هذه السياسة وهى (كوسـركة التكتل الشعبى) الا انها اخذت بالشدة ٠

ولما كان الكادر الفنى فى المغرب جله من الفرنسيين فان مصر والبــلاد العربية يمكنها ان تعاون فى طرد هذا الكادر الفرنسى واحلال العرب من الفنيين محله ٠ ولكن يظهر ان المغرب يعتمد على الفرنسيين مؤقتا حتى يتعلم ابنائــه بمعاونة العرب ٠ فع بأس من اسداء المعاونة لهم بكل وسيلة ممكنة ٠

اما اذا اريد الاتجاه بالبلاد الى السياسة العربية التى ينشدها الشعب المغربى فلا بد من القيام بعمل ايجابى وذلك بمناصرة جميع العناصر المؤيــدة لهذا الاتجاه ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

وكيل الوزارة المساعد

ملحق رقم ٤

الهـــوامش

(١) د .وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٥٦ م (دار النهضة العربية - ١٩٩١ م) ص . ص ٢١ - ٢٢

(2) Feldman, Lily Gardner : The Special Relationship Between West Germany And Israel (George Allen & Unwin 1st ed 1984) P. 89.

(٣) وثـائق الخارجيـة المصريـة : محفظـة ٣٩٩ - ملـف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ (حجـز التعويضات التى تطلبها إسرائيل مـن ألمانيـا لحسـاب لاجئ فلسـطين) مـن القنصـل العـام المصرى بفرانكفورت (حسـن سليمان) إلى وكيـل وزارة الخارجيـة بتـاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٢ بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م عاجل جداً .

(٤) أحمد السيد النجار : بناء دولة -دور المساعدات الخارجيـة لإسـرائيل (٤٨ - ١٩٩٦) (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القـاهرة - ١٩٩٨ م ، ص.ص ٤٩ - ٥١ .

(٥) انظر لقاء برنتانو وعبد الخالق حسونه أمين عام الجامعة العربية فى مايو ١٩٦١ م فى :

British Embassy, Cairo to Dept. May 20, 1961. (Burdett, Anita-ed.) The Arab League " British Documentary Sources 1943 - 1963 " Archive ed . 1995, Vol. 10, P . 446 .

(٦) انظر فى ذلك : وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٦ ملـف ١٤٠ / ١٤٠ / ٧ (الـدورة السادسة لجامعة الدول العربيـة - مـارس ١٩٤٧ م - قـرار سـرى مرفـق برسـالة الأمانـة العامة لجامعة الدول العربية إلى وزير خارجية المملكة المصرية ، بتاريخ ١٧ جمـادى الأولى ١٣٦٦ هـ ٩ إبريل ١٩٤٧ م .

(٧) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ / حجـز التعويضـات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين « رسالة من الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) إلى وكيل وزارة الخارجية » ، سرى بتاريخ ٢ / ٣ / ١٩٥٢ م .

(٨) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢« حجـز التعويضـات التى تطلبها إسـرائيل مـن ألمانيـا لحسـاب لاجئ فلسـطين » مذكـرة مـن القنصـل العـام بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجيـة سـرى جـدا بتـاريخ ٥ / ٩ / ١٩٥٢ م برقـم ٦ سرى .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) انظر هذه المقترحات كاملة فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة ٣٤٥ الملف السابق ، من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تقرير عن محادثات مندوب خاص الحكومة السورية مع الحكومة الألمانية بشأن تعويضات ألمانيا الغربية لإسرائيل واليهود ومقترحات فىهذا الشأن» سرى وعاجل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٢م.

(١١) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢ م .

(12) Feldman : op. cit., p 79.

(13) Deutschkron, Inge : Bonn and Jerusalem "the strong coalition" (Chilton Book Company, Philadelphia, N.y ., London, 1st ed . 1970) P. 79

(14) Ibid : P . 81 & Feldman : op . cit . P . 79

(١٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ . تقرير من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « وصول وفد الجامعة العربية » سرى بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ م .

(١٦) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، مذكرة من وكيل وزارة الخارجية إلى حضرة القائم بالأعمال المصرى بالسفارة الملكية بطهران سرى جدا بتاريخ نوفمبر ١٩٥٢ م .

(١٧) المصدر نفسه ، نفس الملف . مذكرة من مدير إدارة الصحافة إلى إدارة المحفوظات بوزارة الخارجية - مرفق بها مذكرة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية - مرسلة إلى حكومة الجمهورية الاتحادية الألمانية . بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(18) Deutschkron : Op. Cit. p.p. 80 - 81 .

(١٩) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من وزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - عاجل مع مخصوص - بتاريخ ٣١ / أغسطس ١٩٥٣ م .

(٢٠) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » تقرير من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٥٤ م برقم ٨ سرى .

(٢١) المصدر نفسه – نفس الملف .مذكرة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين) إلى وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دورة انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م.

(٢٢) المصدر نفسه – نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لـ ج.د.ع. إلى وزارة خارجية جمهورية مصر سرى وعاجل بتاريخ ١٦ / ٩ / ١٩٥٤ م.

(٢٣) المصدر نفسه – محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة من إدارة الشئون الاقتصادية بوزارة الخارجية – إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٧ / ١٠ / ١٩٥٤ م .

(٢٤) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٤ سرى قرارات اللجنة السياسية ولجنة الشئون السياسية بتاريخ ١٤ / أكتوبر ١٩٥٥ م (سرى جدا وغير قابل للنشر) .

(٢٥) المصدر نفسه – محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » ، مرفق بمذكرة الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى مكتب الرئيس للشئون السياسية ومدير إدارة شئون فلسطين بوزارة الحربية برقم ١٣٣٥، ٥٨٥ سرى .

(٢٦) المصدر نفسه – نفس المحفظة والملف ، مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية – بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ م .

(٢٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة بشأن اجتماع المبعوثين الدبلوماسيين العرب فى بون ، مرفقة بكتاب المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل إلى وكيل وزارة الخارجية برقم ٥٧/٣٤٧ سرى بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٧ م .

(٢٨) المصدر السابق نفس المحفظة والملف والتقرير .

(٢٩) المصدر نفسه : محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠ / ١٤٠ – ٣١ « الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية » قرارات ممثلى الدول العربية فى بون – ملحق الجلسة الثانية بتاريخ ١٤/ مايو ١٩٥٧ م .

(٣٠) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية « إدارة فلسطين » إلى وزارة خارجية مصر العربية ، بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دور انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل .

(٣١) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٥ سرى (هيئات ومنظمات دولية وإقليمية - الجامعة العربية - قرارات المجلس الاقتصادى) مذكرة بقرارات المجلس الاقتصادى التى اتخذها فى دور انعقاده العادى الثانى - ديسمبر ١٩٥٤ م برقم (م/ق/د/٢) سرى .

(٣٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة ملف ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ ج١١ ، مذكرة من وكيل الخارجية (إدارة الشئون الاقتصادية) إلى المشرف العام على المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ، بتاريخ ٨ مارس ١٩٦٠ برقم ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ م.

(33) Deutschkron : op. cit . P . 75 .

(٣٤) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة بشأن التعويضات التى تطالب بها إسرائيل ألمانيا الغربية أعدتهما الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٢ / ٩ / ١٩٥٢ م .

(٣٥) نفس المصدر والمحفظة والتقرير .

(٣٦) المصدر نفسه : نفس المحفظة والتقرير .

(٣٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا) مذكرة من السفير المصرى فى بون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١١ / يناير ١٩٥٤ برقم ٥ سرى .

(٣٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ مذكرة من مدير مكتب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة « صاغ أمين شاكر » . إلى وزير الخارجية سرى جدا بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٥٤ م برقم ٦ / ٧ - ٤٠٢٧

(٣٩) المصدر نفسه ، نفس المحفظة ، ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا وحجزها لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من وكيل الخارجية (قسم الأبحاث) إلى سفير مصر ببون - بتاريخ ١٩٥٤ م .

(٤٠) المصدر نفسه ، محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ١٧ ج٧ « النشاط الصهيونى» مذكرة من السفير المصرى ببون (أحمد جلال الدين عبد الرازق) إلى وكيل وزارة الخارجية (إدارة غرب أوروبا - إدارة الشئون العربية) بتاريخ ٢٢ / يناير ١٩٥٨ م برقم ١٣ سرى جداً .

(٤١) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٣ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ م برقم٢٠ .

(٤٢) انظر فى ذلك : محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا» مذكرة من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٩٥٤/١/١١ م برقم ٥ سرى ، محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٤ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من الملحق الصحفى بفرانكفورت « كمال الدين حلال » إلى وكيل الخارجية - بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٣ سرى .

(٤٣) المصدر نفسه : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ مذكرة من وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية - إدارة الاتفاقات التجارية) إلى وكيل وزارة الخارجية للشئون الاقتصادية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٥٦ م برقم ١/١١٢/١٣٢ .

(٤٤) المصدر نفسه محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، برقيتان رمزيتان رقم ٩ ، ١٠ من السفارة المصرية بنيويورك صادرتان فى ٢ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(٤٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ برقيات من الوزير المفوض المصرى بلاهاى إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٤٦ سرى ، وتاريخ ٢٧ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٥٠ سرى ، وبتاريخ ١٩٥٢/٥/١٦ م سرى ، برقم ٧٥ سرى ، برقية من وكيل وزارة الخارجية إلى وزير مصر المفوض بلاهاى سرى بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٢ م .

(٤٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة أعدتها الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٠ / ٥ / ١٩٥٢ م ومذكرة من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) سرى بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٢ م برقم ٦٩ سرى .

(٤٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ مذكرة من مستشار الدولة « وحيد رأفت » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « التعويضات التى تنوى ألمانيا دفعها لإسرائيل بتاريخ ١٧ / ١١ / ١٩٥٢ م » .

(٤٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ مذكرة من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تصدير بضائع ألمانية مخصصة لإسرائيل إلى بلد ثالث » سرى بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٥٤ م برقم ٨٩ سرى .

(٤٩) نفس المصدر والمحفظة والملف : من وكيل الخارجية إلى سفير مصر بأنقرة سرى وعاجل بتاريخ ٩ / ٣ / ١٩٥٤ م ، ومن السفير المصرى بأنقرة (أحمد حقى) إلى وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٤ م برقم ٤٤ سرى .

(٥٠) نفس المصدر : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » من السفير المصرى ببون « أحمد جلال الدين عبد الرازق » إلى وكيل وزارة الخارجية « بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٥/٣م برقم ٥٥ سرى.

(٥١) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من وزارة الخارجية الألمانية إلى السفارة المصرية ببون بتاريخ ٢١ / ديسمبر / ١٩٥٦ م برقم ٢٠٦ / ٢٤٤ / ١٣ .

(٥٢) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية - بتاريخ ١٩٥٧/٢/٧م.

(٥٣) نفس المصدر والمحفظة والملف والتقرير .

(٥٤) نفس المصدر والمحفظة : ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة أعدتها إدارة غرب أوروبا بوزارة الخارجية برقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ م ردا على مذكرة الطلبة العرب فى ألمانيا الشرقية بتاريخ ٢٨ / يناير / ١٩٥٨ م .

(٥٥) نفس المصدر ومحفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة من وكيل الخارجية للشئون السياسية إلى مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية .

(٥٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من السفارة المصرية ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧ / يوليو ١٩٥٧ م برقم ١٢٨ سرى جداً .

(٥٧) نفس المصدر ومحفظة ١٥١٢ ملف ٣٠ / ٤٥ / ١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » مذكرة أعدها مدير إدارة غرب أوروبا « محمد شفيع » بشأن « مقابلته لدكتور موتزل السكرتير الأول لسفارة ألمانيا الغربية بالقاهرة » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٦/٢٣ م .

(٥٨) نفس المصدر : محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة أعدتها الإدارة السياسية بوزارة الخارجية بشأن « اعتزام حكومة ألمانيا الفيدرالية إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل » بتاريخ أكتوبر ١٩٥٧ م . وجدير بالذكر أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل قد عقدت فى عام ١٩٦٥ م .

Feldman : cip, cit, P. 48, Note .

(٥٩) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مرفق بتقرير السفير المصرى بواشنطن «أحمد حسين » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «احتمال اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل » سرى بتاريخ ٣٠ / سبتمبر / ١٩٥٧ م برقم ٢١٤ .

(60) Feldman : op. cit . P . 196 .

(61) Deutschkron : op. cit . P . 87 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق الخارجية المصرية :

- محفظة٣٤٥ملف٠ ٢٨/٤٨/١٤ جـ٢/جـ٣ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين »

- محفظة ٣٧٢ ملف٠ ٢٨/٤٨/١٤ جـ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»

- محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٨ ، جـ٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا »

- محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٤ ، جـ٥ ، جـ٧ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين».

- محفظة ٦٨٤ ملف ١٧/٤٨/١٤٠ جـ٧ «النشاط الصهيوني ».

- محفظة ٧٤٦ ملف ٧/١٤٠/١٤٠ .

- محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ١ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » .

- محفظة ٨٢٢ ملف ٣١/١٤٠/١٤٠ «الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية».

- محفظة ١٢٨٥ ملف ٥/١/٣ سرى .

- محفظة ١٢٨٥ ملف ١٢/١٢٣/١٤٠ جـ١١ .

- محفظة ١٤٧٩ ملف ١٠/٤٠/٣٧ جـ٤ ، جـ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل ».

- محفظة ١٥١٢ ملف ١٨/٤٥/٣٠ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » .

وثائق أجنبية منشورة :

- The Arab League « British documentary sources 1943-63 » Archive ed. 1995 . vol. 10.

ثانيا : المراجع :

مراجع عربية :

- أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسرائيل ٤٨-١٩٩٦م « مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م »
- د . وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٦٥ م « دار النهضة العربية ١٩٩١ م »
- د . يونان لبيب رزق : الخارجية المصرية ١٨٢٦ - ١٩٣٧ م « الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م »

مراجع أجنبية :

- Deutschkron, inge: Bonn and Jerusalem "the strong coalition" "Chilton book company Philadelphia N . Y, London 1st ed . 1970" .
- Feldman, Lily Gardner : the special relationship between west Germany and Israel " George Allen unwin 1st ed . 1948"

ثالثا : دوريات :

عربية :

- جريدة أريف الأرمينية « الملحق الشهرى العربى العدد الخامس مايو ١٩٩٨ م» مقال عن « ملامح تطور وزارة الخارجية المصرية » إعداد د . صفاء شاكر .
- جريدة القراءة للجميع - تصدرها الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية - السنة الثالثة العدد الثالث - الأحد ٢١ / ٦ / ١٩٩٨ م

أجنبية :

- Middle East Journal Outonn, 22 dec. 1957 vol. 11 no 1

عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد مرسى عبد الله(*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا فهى شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجارى. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها فى عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية فى مياه المحيط الهندى .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهى مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهى وليدة اتحاد فدرالى لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون فى ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها فى عام ١٦١٩مدينة أوربية فى قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسى للشركة ويقيم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات فى كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكيبتون والبنغال . ومنها مؤسسة فى بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون فى حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين فى جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية فى

(*) مدير مركز الوثائق والدراسات أبو ظبى

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال ووحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتها . ثم بنى مجمع عسكرى أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شيراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز. وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التىسرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلى عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إل البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطاني والهولندى التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة.

كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ . وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدى الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .

- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها فى عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

• أما فى عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التى أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذى حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة ألبوسعيد . ولكن ظهر فى نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمى الذى استقل بإقليم الشميلية والظاهرة فى عمان وأنشأ إمارة القواسم .

• كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية فى الخليج . إمارة آل صباح فى الكويت وإمارة آل خليفة فى شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثانى فى القرن التاسع عشر أما فى ساحل عمان الشمالى فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التى قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيرانى وتكونت لهم إمارة هنالك فى ميناء لنجة . كما قام أيضاً فى ساحل الإمارات حلف بنى ياس الذى اتخذ من مدينة أبو ظبى عاصمة له .

• هذه هى الأحداث الهامة فى منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً فى الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربى . ماذا تضيف لنا وثائق جمبرون أى وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم فى المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضواء جديدة عن عرب الخليج فى الوثائق الهولندية والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفرة وليوا فى عمان من قبائل بدوية إلى أحلاف سياسية وإمارات وكيف استقلت عن جسد دولة آلبوسعيد فى منتصف القرن الثامن عشر ؟ لا تسعفنا المخطوطات العمانية فى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متناثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظروف التاريخية التى نشأ فيها حلف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هى سيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كما نتج عن هجرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد من البحث عن أضواء ومصادر جديدة للإجابة على هذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسى البحث عن المصادر الجديدة فى تاريخ الخليج بعمل مشروعين كبيرين منذ عشرين عاماً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لا هاى . على أمل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هذه الوثائق للمركز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السنوات الطويلة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هذه الوثائق الهولندية وهى مكتوبة فى فترة متقدمة حتى ليصعب على أبناء هولندا إلا المتخصص منهم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليج فى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هذه الدراسة باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأيى أن

هذا من أكبر الإنجازات التى حققها المركز فى عمله خلال هذه السنوات . وقد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عرب الخليج . وسوف نرى مثالاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومة الهند البريطانية التى ورثت عملها من المصادر الجديدة الهامة فى تاريخ الخليج الحديث إذ هى تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ . وقد عاشت الوكالة فترتها الأولى فى جمبرون وهى بندر عباس بين عام ١٦٢٢ وعام ١٧٦٣ . فهى بذلك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضوء على هذه الفترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلف بنى ياس . وهذه الوثائق محفوظة فى أرشيف الوكالات فى مكتبة حكومة الهند فى لندن . كما أن الجزء الأكبر منها محفوظ فى ارشيف بومباى فى الهند فى مجموعة G/29 تحت عنوان فارس وخليج فارس وتسمى وثائق الوكالات . لم تحفظ أوراق هذه الوكالة فى جمبرون بل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثم بعد ذلك أرسلت إلى بومباى مقر الشركة الرئيسى فى غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسى لمبنى هذه الوكالة فى بندر عباس عام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عام ١٧٦٣ إلى بوشهر خيراً للتاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التى انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج فى شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد فى الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عباس التى انقذت من قذائف الأسطول الفرنسى عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رسائل مبكرة من فارس ورقمها G/29/1 وتشغل الفترة من ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميات جمبرون وتشمل الأجزاء من

الثانى إلى الرابع عشر وتشغل الفترة من ١٧٠٨ وحتى عام ١٧٦٣ . وهنالك مجموعة رسائل وملحقات من بندر عباس وتشمل الجزء ١٥ إلى السابع عشر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ وحتى عام ١٧٦٣(١) .

وقراءة يوميات جمبرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلك الفترة أمر فى غاية الصعوبة بسبب تهالك الأوراق من جراء الرطوبة فى الخليج وفى ميناء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغة عصر شكسبير . وتحتاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منذ سنوات بإرسال ستة من الباحثين عام ١٩٩٥ لمدة شهرين لحصر المتيسر الموجود فى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكروفيلم كل فيلم حوالى ألفى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرستها . وأعيد طباعة هذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهل قراءتها واستخرجت من هذه المجموعة الموضوعات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانية عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيامنا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقد تزعمت هذه العائلة من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جمبرون (بندر عباس) وهى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبائل المتحالفة مع هذه العائلة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسم . وذاع اسم القواسم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة آلبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بوادى سمايل وفى نفعا بوادى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه فى عـام ١٦٢٣ نجح القـائد البرتغـالى جاسباروليته Gasparo Leite فى دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمى الذى كان يتمتع بشـهرة واسعة وقـد تم هـذا الهجـوم تنفيـذاً لأوامـر القـائد العـام فريـرى دى اندرارى(٢). و لم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على السـاحل العربى للخليـج بعـد سقوط دولتهم فى جزيرة هرمـز والجسـم عـام ١٦٢٢ بـالأمر الهـين . إذ اندلعت حركة مقاومة شرسة لهم فى إقليم الشميلية وفى روس الجبال وفـى جلفـار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماؤها وانتخبوا لهم إماماً هو نـاصر بـن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالى .

وقد جاء فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية فى بنـدر عبـاس رصـد طيب لحركة التحرير التى قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بـن مرشـد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حـاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذيـن كـانوا هنـاك ، كمـا غزا العرب الحصن وقتـل أربعـون جنديـاً برتغاليـاً وفـر الباقى هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ فى نهاية حكم الإمـام ناصر اليعربى أثناء ضربه الحصـار علـى البرتغـاليين فـى حصـون مسـقط ، وقـد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكـان أحـد قـادة الحصار سيف بن على بن صالح القاسمى . وقد جاء فـى الاتفاقيـة الموقعـة فـى ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيليـنز دى نورونهـا Gileames De Noronha ما يلى :

« لقد اجتمع فى شاطىء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى »(٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .

وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العاديين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على الطراز الفارسى . والإمام متوسط القامة داكن البشرة »(٥) .

وينطبق هذا الوصف فى بساطة الملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين الرئيس ورعيته فى المجلس مع وصف الرحالة البريطانى Thesiger الذى عبر الربع الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان فى مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض فى حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيبته ونظر الجميع نحوه ومتابعة الشيخ فى وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثانى فى حصار قلعة هرمز . ففى فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية فى طريقها من بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة . وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين برتغال . ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم فى جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء البحارة الهولنديين لقادة الجيش العمانى :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط الآخرين إلى القائد العمانى ، ومررنا بصف من الجنود عددهم ألف جندى مسلح يحيون ببندقياتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأننا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أنا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأننا مدينون لهم بالشكر . ثم سألنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة. ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهنالك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا»(٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة »(٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافرى فى عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد فى مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلى فى العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولى بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمى فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصنى بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافرى الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولى بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهدد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولى عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيونا فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمـة . وكـانت عنـد أصحاب رحمـة مدافـع
فضربوا الخشـب التى بـالبحر وانكسر خلـف بـن مبـارك
وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده »(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بـن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة الفوضى التى دبت على الساحل الإيرانى لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشـى مندوبنـا للتفـاوض حـول حصولنـا على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشـركة والقضـاء على محاولـة الإنجليز وقـد حمـل مندوبنـا معه خـاتم الشـركة والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافـع مـن قلعـة هرمـز ترحب بمقدمنا. وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز منافس آخر وهو الرجل الـثرى الشيخ رحمـة بـن مطر الـذى يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز لا يفضلـون كثـيراً مطـالب الشيخ رحمة . ولقـد علمـت أن الشيخ رحمـة حـاكم جلفـار الغنـى يحـاول جـاهداً لامتـلاك الجزيرة. وهو قادر على العطاء لأن هـذا الرجـل معـروف أنـه من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب »(١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جمبرون نبأ وفاة الشيخ راشد فـى باسيدو وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبى ومصادرة مـا لديها من حلى وأموال . وقد أغضـب ذلـك الخبر القبـائل العربيـة علـى السـاحل

الفارسى والشيخ رحمة بن مطر . وكانت زوجة الشيخ راشد إمرأة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بن مطر وغيره من شيوخ العرب . وقد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عرب جلفار لنجدتها وقد نجح تهريبها إلى جلفار(١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التى أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٧ على أثر هزيمته أمام منافسه الإمام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى زعيماً جمع القبائل فى شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسى . وقد شغلت هذه الحملة الفترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عام ١٧٤٧ . فى بداية عام ١٧٣٧ وصلت الحملة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثانى . وقاوم الشيخ رحمة ابن مطر القاسمى القوات الفارسية ولكنه وقع أسيراً فى يدهم . ونقل إلى بندر عباس. وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهاية عام ١٧٣٨(١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثانى الذى جلب على البلاد مصائب الغزو الفارسى . واختار العلماء وزعماء القبائل إماماً جديداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فى عام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العرب فى أسطوله فى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقد تطلب إخماد هذه الثورة العربية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمة بن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحذرون الإنجليز فيها من المشاركة بمراكبهم فى إخماد ثورتهم حسب طلب السلطات الفارسية . وهدد هؤلاء

الشيوخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه فى عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه فى غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى فى ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر(١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقةروس الجبال(١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار .وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه. ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال ايام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزيق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقيب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزيلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسبا . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام احمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار »(١٤) .

وتركزت همة الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى فى إيران . وتنازعوا على الحكم وفى ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ فى إقليم فارس منذ عام ١٧٥١ شخصيتان هما كريم خان زند فى شيراز وناصر خان فى إقليم لار . وكان الوضع فى بندر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا على شاه على بندر عباس وهو عربى من ميناء كنج . واصبح فى حوزته أكبر قوة بحرية فى الخليج . كما استقلت القبائل العربية على الساحل الإيرانى بشؤونها . ومن هذه القبائل بنى معين فى جزيرة الجسم وآل على فى شارك وجزيرة قيس . والقواسم فى لنجة ردوان وبستانه وشيغوه . وبنى حماد فى تخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لى فكان نفوذها فى شبكوه وشيغوه وعرمكى وشيروه والشيخ . وكان المرازيق فى موغوه وبستانه وجزيرة فارور . وسيطرت قبيلة النصور فى طاهرى وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم فى عسيلوه ونابناند . وكان آلبوفلاسة من بنى ياس فى جزيرة هنجام . وفى ميناء بوشهر سيطرت قبيلة المطاريش العمانية . وفى شمالها تغلب شيخ من الزعاب على بندر رج . وقد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندى كنيبهاوزن بعد ما استقر به المقام فى جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتالها فيما بينها وقال أن هذه القبائل العربية لو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيرانى كاملة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفى أثناء هذا الصراع على السلطة فى الجزر ومنطقة بندر عباس ألقى الشيخ رحمة بن مطر بثقله فى تأييد ملا على شاه ضد عدوه ناصر خان فى لار . وتزوج فى عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بنى معين فى جزيرة الجسم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خان حاكم لار . وكان عبد الشيخ ضابط بحرى سابق وأحد قادة التمرد العربى فى القوة البحرية الفارسية عام ١٧٤٠ أيام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنيبهاوزن من جزيرة خارج معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال جمبرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجىء على الشيخ»(١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة الجسم. وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة(١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمبر ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كنيبهاوزن يصف مدينة الصير :

« الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهم الآن لا يعتنون بنفوذه . وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهم لإخضاعهم ولكن دون جدوى و لم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمة ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولة ولديه ٤٠٠ رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجد فيه السفن الكبيرة مرساها . وبالميناء ٦٠ سفينة أغلبها كبيرة ومجهزة للسفر إلى مخا . ويوجد فى الصير تجارة رائجة وكذلك التعامل فى اللؤلؤ وأنواع التجارة المطلوبة لدى البدو فى الصحراء »(١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهد الشيخ صقر بن راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فى عام ١٧٩٧ . وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima(١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فى الوثائق البريطانية فى عام ١٧٩٧. وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديث لارتباطها بالقواسم بعد اعتناقهم مذهب أهل السلف الوهابى وترصدهم للسفن البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينة بعد ذلك لهجمات الحملات البريطانية وخاصة الحملة الضخمة عام ١٨١٩ التى حطمت قلعتها وأسوارها ومبانيها وأشعلت فيها النيران.

الهوامش

(1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .

(2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.

(3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.

(4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.

(5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.

(6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.

(7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.

(8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة الظاهرية – دمشق ، ص .

(10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.

(11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.

(12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737 & Vol. 23, p. 2 1738.

(13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين ١٢٧٥ (١٨٥٨) تحقيق محمد مرسى وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

(15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.

(16) IOR, EGD 18-1, 1760.

(17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.

(18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين
في الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين في تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة في الحرب العالمية الأولى . وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه . ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع . أما قبل ذلك ، فلم يضع ساستهم في حسبانهم أن هؤلاء الزعماء في استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية في حسم أي صراع قد ينشب بين القوى الدولية ، ويعد هذا في الواقع خطأً استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية في حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق . وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية أنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها ، وفي إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التي قد تنشب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق ، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوربية ، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق ، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر .

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز ، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول في الحرب بجانبهم ، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها في الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يمتنع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشراف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عددا من أشراف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز(١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولـة العثمانيـة لكى تعين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسـلام لما يمثلـه هـذا الشريف مـن خلال مكانته الدينية من خطر على الخليفة العثمانى إذا نجحت بريطانيا فـى تجنيـده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجيـة الألمانيـة كـانت تبعـث بمثـل هـذه المقترحات إلى خبرائها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenhaim رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جـدوى الأخـذ باقـتراح تعيـين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسلام . وفى ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم فى تقريـر مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضـب الأتـراك كثـيراً ، وبحجـة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة فى ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة فى العالم الإسلامى مـن خـلال حملـة دعائيـة موسـعة ، معتـبراً أن هـذا وحـده كفيـل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية فى المشرق العربى(٢) .

وفى تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعين الشريف حسين فـى ذلـك المنصب يدعونا للشك فى إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصـة ثمينـة لكسـب الشـريف لصفهـم فـى هـذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقـف فرصـة ذهبيـة علـى الأتـراك والألمـان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الراميـة للتقـرب مـن الشـريف حسـين . ومما يدعونا للشك فى إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بنـاء علـى رفضـه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث فى مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هـذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفـة العثمـانى فـى العالم الإسلامى . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجيـة الألمانيـة تسمرمان Zimmermann بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية »(٣) . وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هذا القرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فى تلك الظروف الدقيقة الوجهة التى كان يريدها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشراف من الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندها من بين المسئولين الألمان العارفين بشئون الدولة العثمانية والمشرق العربى. وكان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليمان فون ساندرس رئيس البعثة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى على رأس هؤلاء المسئولين الذين عارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقت الذى يجرى فيه إعداد الحملة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فى الشام عددا من القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخالص لكى يتم توزيعها باسم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين(٤) .

وكان ياجوف Ygow وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعماء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنها جميعاً كانت تحمل شكل الصليب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقتراح فى برقية عاجلة حول ذلك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتيه يؤكد أن هؤلاء الزعماء لن يبالوا بما هو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً(٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعماء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهايم الداعى لحصر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حدود اهتمامها بالرأى العام الإسلامى . وفى نفس الوقت أخذت باقتراح ليمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألمانى فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس فى مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى(٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه"(٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين الرأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مجزية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليتمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقابى ، الذى كان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسى فى تلك القنصلية ويبلغ الخارجية الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تولى أوبنهايم أيضاً ترشيحهم من بين رجاله(٨) . ولاقت خطة أوبنهايم عناية بعض كبار موظفى الخارجية الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسام المسئولين فى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسهم على نحو بيّن فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقد برز هذا الانقسام عندما حذر فنجنهايم ، من خلال خبرته الواسعة بشئون الشرق ، حكومته من الإقدام على تحمل أعباء حملة الدعاية للخليفة العثماني فى العالم الإسلامى، راجياً ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخر قد يثير نشاطه بينهم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فرص إفشال هذه الحملة ، ومن ثم إحداث نتائج عكسية(٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقاً ثانياً داخل هذه الوزارة انبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأها القناصل الألمان فى القدس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهايم بأن يتدخل لدى السلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية(١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بين فنجنهايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صور الضعف الذى اكتنف السياسة الألمانية تجاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتباك وتردد الحكومة الألمانية فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعل ما كان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلولة وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فنجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مضض بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ بمشروع مفصل، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط الرأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإنفاق منها على هذه الحملة ، التى كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير خولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يداه فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه(١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبستر Proebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . ففى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كل الأراضى العثمانية . وقد تولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا فى استنبول بفحوى تلك المخاوف ، حيث أبلغه فى ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان فى الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعماء المحليين للعرب ، كما أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية فى جدة(١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتراك ، وطلب منها الحد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل فى الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف فى الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى ، وأن يقتصر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما فى وسعهم لكى يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد فى يد(١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار فى تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م فى إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل نجل الشريف حسين . وقد ساعده فى هذا معرفته الشخصية بالشريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم فى استنبول فى أواخر عهد السلطان عبد الحميد . كما لعب أحمد شفيق باشا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمى الثانى ، دوراً بارزاً فى الإعداد للقاء الأول الذى جمع أوبنهايم بالأمير فيصل(١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنه الأمير فيصل إلى استنبول فى أوائل إبريل ١٩١٥ م لكى يزيل من نفوس المسئولين الأتراك أى شكوك من ناحيته ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية من جانب الشريف ، أراد بها أن يغطى من ناحية علاقته القوية بالإنجليز وإقدامه على التآمر معهم ضد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عن الاتفاق مع خصمه اللدود الشريف على حيدر ، الذى كان يتطلع لمنصب الشريف فى مكة ، ويؤيده فى هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفى تقديرنا أن الشريف حسين بعث بابنه إلى استنبول لكى يتحسس أيضاً ما عسى أن يقدمه الأتراك والألمان من

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائى مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك فى أن يخدع الجميع فى إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليئ بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلطيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز(١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المسئولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى(١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لبنود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمده بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس(١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التى كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التى أمدوه بها فى أعقاب ذلك الاتفاق فى الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول فى الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز فى العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعد أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك فى جدة من التدخل فى اختصاصات والده(٢٠).

وفى لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته المُلحة للمؤن والغلال التى تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز فى حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً فى تلك المسألة(٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . فى حين أن الاتفاق الثانى كان مليئاً بكل الإغراءات التى يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يجول فى صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقة بمملكة واسعة فى الأراضى الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه فى اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفض يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلاته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . فى حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التى نشبت فى الحجاز والشام ، والتى

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتراك والألمان وليس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنما يعود بالدرجة الأولى لأخطاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلك السياسة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البداية . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصل نصير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذه الشريف حسين عندما أعلن الثورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنجنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة فى الأرشيف الألمانى عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرجل تلقى آذاناً صاغية فى وزارة الخارجية الألمانية ، وهى الوزارة التى كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربى والدولة العثمانية فى هذه الفترة . وينتمى أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى المستشار الألمانى .

(١٠) Ebenda, A 34468, S. 106.

برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم فى برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية فى الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .

(١١) A.A. R 21126. A 35110, S. 151.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

(١٢) A.A. R 21129, A 7805, S. 63.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلو وزير خارجية ألمانيا .

(١٣) A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.

مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .

(١٤) Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.

برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٥) A.A. R 21133, A 14495, S. 6.

برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٦) A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.

تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهى وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصى ومرفقة بتقرير أوبنهايم .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .

(١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

رقم الإيداع ١٩٩٩/٦٥٤٩

الزهراء كمبيو سنتر

طباعة – نشـــر – إعلان

القاهرة – ت : ٢٩٦٠٦٦٧